

دار نآراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبیب

العنوان: دار نآراس للطباعة والنشر - شارع گولان - أربیل - كُردستان العراق

الكتاب الأسود
لصدام حسین

الكتاب الأسود

لصدام حسين

بإشراف كريس كوتشيرا

ترجمه من الفرنسية:

خسرو بوتاني

اسم الكتاب: الكتاب الأسود لصدام حسين
تأليف: بإشراف كريس كوتشيرا Kutschera Chris
ترجمه من الفرنسية: خسرو بوتاني
من منشورات ناراس رقم: ٥٤٣
الإخراج الفني: آراس أكرم
الغلاف: حميد أزمودة
التنقيح: أوميد البناء
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود
الطبعة الأولى - ٢٠٠٧
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة في اربيل: ٢٠٠٧/٢٩٦

كتاب تم تأليفه بالإشتراك مع:

باتريك بودوان Patrick BAUDOIN

فرانسواز برييه Françoise BRIE

كريس كوتشيرا Chris KUTSCHERA

إيما نيكولسون أوف وينتبورن Emma NICHOLSON OF WINTERBORNE

أندريه بويار Andre POUPART

جينس - أوه راهيه Jens-Uwe RAHE

جوناتان راندال Jonathan RANDAL

أنطوان صفير Antoine SFEIR

بيتر سلوغليت Peter SLUGLETT

أوليس سمولانسكي Oles SMOLANSKY

سينجه كارين ستويكا STOYKE Sinje Caren

269	الجزء الخامس: الشبكات القريبة من العراق
271	١- الولايات المتحدة والعراق، علاقات غامضة. جوناثان راندل
294	٢- فرنسا- العراق علاقات الحب والهيام. كريس كوتشيرا
318	٣- الإتحاد السوفييتي/ روسيا- العراق، علاقات معقدة. أوليس و بيتي سمولانسكي
350	٤- لماذا إختار العرب صدام حسين وهل إختاروه؟ أنطوان صفير
356	٥- أسرار تقرير دويلفر. كريس كوتشيرا

365	الجزء السادس: أي عدالة لصدام حسين؟
367	١- هل تسمح الوثائق السرية للنظام العراقي في إدانة صدام حسين؟. كريس كوتشيرا
373	٢- حقول وساحات صدام حسين للموت. سينجي كارين ستويكا
392	٣- لماذا ينبغي محاكمة صدام حسين من قبل العراقيين. أندريه بوبار

فهرست

7	كلمة المترجم
9	تمهيد...الإستماع إلى عويل وصراخ الضحايا
33	الجزء الأول: نظام ضدّ شعبه
35	تعذيب، إبادة، جرائم ضدّ الإنسانية، جرائم حرب. باتريك بودوان
53	صورة للدكتاتور. بيتر سلوغليت
82	حزب البعث: الوحدة العربية، القومية - الإشتراكية والدكتاتور. بيتر سلوغليت
116	مشنوقو ساحة التحرير في بغداد. كريس كوتشيرا
125	سجن أبوغريب. شهادات
133	الجزء الثاني: إضطهاد الشيعة في العراق
135	التهديم والإبادة في أهوار جنوب العراق. إمّا نيكولسون
157	الجزء الثالث: الإبادة العرقية للكورد
159	١- دولة ضدّ الكورد. كريس كوتشيرا
161	أ- تعريب كركوك
166	ب- إختفاء ثمانية آلاف بارزاني
173	ت- الإبادة العرقية (الجينوسايد)... البحث عن المقابر الجماعية للكورد
178	ث- الإبادة العرقية (الجينوسايد)
187	ح- تهديم كنائس كوردستان
193	خ- قصف حلبجة
200	٢- إستخدام السلاح الكيماوي ضدّ الكورد. فرانسواز برييه
216	٣- ترحيل الكورد الفيليين. جينس أوه راهيه
235	الجزء الرابع: حروب صدام حسين
237	١- حرب العراق وإيران (١٩٨٠-١٩٨٨): الحرب الأولى لصدام حسين. كريس كوتشيرا
254	٢- شهادات ضحايا الأسلحة الكيماوية من الإيرانيين. كريس كوتشيرا
258	٣- الستمائة المختفون من الكويت. كريس كوتشيرا

كلمة المترجم

الإبادة الجماعية تعني الشر المطلق وأقصى أشكال التدمير في حق الإنسان الأعزل.

وقد إستخدمها البعث ضد الشعب الكوردي في كوردستان العراق خلال عقود وبأشكالها المتعددة مما ولدت صدمات عميقة وجروحاً لاتندمل في كيانه.

فهل يمكن المصالحة مع من مارس الإبادة العرقية في وجهه؟!...

أنّ مستقبل العراق في قارب تتقاذفه امواج بحر هائج... !

فتبنيّ الدستور الفيدرالي وممارسة الديمقراطية بأعلى صورها ستكون حبلًا لنجاة العراق ولكن، في المقابل، أن كل من يسعى إلى إنكار الميراث الثقيل من المآسي والآلام للشعب الكوردي وعدم معالجته سيساهم في إغراق هذه الدولة وفنائها إلى الأبد.

أما فيما يخص المادة المترجمة أودُّ إعلام القارئ العزيز بأن هذا الكتاب تم طبعه ونشره باللغة الفرنسية في شهر آب/ أيلول من عام ٢٠٠٥، وقد تجنبت ترجمة الفصول التي نشرت باللغة العربية في الصحافة والإعلام وللمثال أذكر (صدام حسين، أيُّ شمولية؟) للأستاذ حازم صاغية رئيس تحرير جريدة الحياة اللندنية أو (الدكتاتور وصورته) الدراسة التي قدمها الأستاذ زهير الجزائري، رئيس تحرير جريدة المدى العراقية. هذه الدراسات في إعتقادي كتبت منذ البداية باللغة العربية ومن ثم ترجمت الى الفرنسية ولذا أطلب من القارئ الكريم المعذرة على هذا الإبتسار من النسخة الفرنسية.

خلال كل هذه السنين ساندت فرنسا صديقها صدامً وتاجرت معه أجهزتها الحربية وأقفلت عينيها فلم تعد تبصر الشعب المذبوح. وإيكم بعضاً من محطات طريق المأسى والأهات.

حلبجة، ١٦ آذار ١٩٨٨ صباحاً

اسم هذه المدينة الكوردية العراقية الواقعة بين أقدام الجبال الثلجية على الحدود مع إيران لايعني شيئاً لأحد. بتّوا خبرها ونُقلت صورها على شاشات التلفزيون في كل زاوية من الأرض: بدت القصبّة هادئة والسكّان على عتبة منازلهم، تمسك إمراة بذراعي طفلتها ولكن عيونهن مفتوحة وخاوية. كأنّها مدينة للأشباح، خمسة آلاف جثّة كوردية عراقية تصرخ في وجهنا بصمت وقد ماتوا دون أن نرحم ونعطف على حالهم . أمطرت طائرات من الجيش العراقي مدينة حلبجة وأطرافها بقاذفات من الغاز الفتّاك (الساارين)، هذا الغاز الذي إختره النازيون عام ١٩٤١ .

الجزرة المريعة والسريّة لحلبجة التي أمر بها صدام حسين ونفّذها علي الكيماوي لم تحرك في حينه أحداً ضده. ومن ذا الذي كان عليه أن يتأثر؟

كان لصدام حسين، الدكتاتور العلماني الذي يعيش وسط محيط من الإسلاميين رصيذاً وسمعةً طيبة لدى الأمريكان ولدى حلفائه السوفيات ناهيك لدى شريكته التجارية، فرنسا، حيث ساندته فيها سياسيون إنطلاقاً من شوفينمه Chevenment وإنتهاءً بشيراك (Chirac) فمن كان يتجرأ الحديث عن الترحيل الجماعي، عن أحياء أبتّرت أطرافهم، عن نساء بيعت في بيوت الدعارة ومواخير دول وإمارات الخليج؟

بقيت مع ذلك بعض الجمعيات الإنسانية الجريئة على الساحة لتشهد: إتهموها بسوء النية لتخريب العلاقات الفرنسية العراقية. لأن الموتى في حلبجة لم يكونوا أمواتاً ذات أهميّة. كان السكوت خطيئة سياسية كبرى إقترفها الغرب: لأنّه إختار العراق ضدّ المذهبية الدينية المتزمتة لإيران وسمح له بصناعة أسلحة كيماوية لم ينوي فضحها في حينه. في عام ١٩٨٩ أقيم في باريس مؤتمر عن الأسلحة الكيماوية تم فيه إستقبال طارق عزيز ممثلاً عن صدام حسين ورفضوا في ذلك اليوم الإستماع إلى عوائل الضحايا. تمنّى الغرب أن يتذابح الشعبان العراقي والإيراني بأقصى حد لوقف المد الأيديولوجي الأمبريالي للملاي إيران.

تهديد

الإستماع إلى عويل وصراخ الضحايا

بيرنار كوشنير

BERNARD KOUCHNER

كان صدام حسين سلاحاً للتدمير الشامل إلتهم شعبه خلال ٣٥ عاماً..وإلى آخر لحظة من بقاء نظامه قاد عملية (تعريب) المناطق الكوردية في حملة الأنفال التي أودى فيها بحياة خمسمائة ألف إنسان معظمهم من النساء والأطفال ودمر خلالها ٤٥٠٠ قرية كوردية. المقابر الجماعية لاتحصى ونتحسّر لعدم إمتلاك العراقيين عدداً كافياً من المختبرات القادرة على تحليل إختبارات الحامض النووي (ADN) للتعرف على الضحايا. لايزال هنالك في عام ٢٠٠٥ أربع ملايين لاجيء وهم يرومون العودة إلى ماتبقى من مأواهم.ووفقاً للتقديرات فإنّ هنالك أكثر من مليون ونصف معوّق نتيجة لحروب صدام المتوالية أو نتيجةً للتفجيرات.

طريق راوندوز

بدايتنا كانت في تشرين الثاني من عام ١٩٧٤ على طريق راوندوز المعروف ب(طريق هاملتون) المفصل المغذّي للإستعمار الإنكليزي. وقمنا مع الدكتور جاك بير Jacques Beres وماكس بيكاميه (Max Recamier) بأول بعثة مستقلة لأطباء بلا حدود لدى الكورد ورافقنا في وقته كريس كوتشيرا. إكتشفنا خلالها شعباً بلا حدود لم نفترق عنه لحد اليوم. في طريق العودة ونحن نتوجّه صوب إيران قامت هليوكوبترات صدام بمهاجمتنا وسط جمع غفير من الكورد وهم يفرون من الجحيم.لا زلت أرى أسلحة رشاشة تطلق النار وصواريخاً تنفجر قاذفة الأسفلت نحو السماء وعشرات من الجثث وهي ملقاة في الخنادق. كانت الأجهزة والصواريخ مصنوعة في فرنسا وصدام حسين نائباً لرئيس العراق وقتذاك: بلدنا كان يبيعه الموت.

عملت مع عدد كبير من الأطباء الفرنسيين ولمرّات عديدة بين الشعب الكوردي وكذلك بين الشيعة الذين يشكّون بدورهم الغالبية المضطّهدة في العراق.

حرب الخليج الأولى ١٩٩١ .

أنَّ أمريكا وحليفاتها، من ضمنها فرنسا، باشرت هجومها دفاعاً عن نفط الكويت وليس دفاعاً عن المضطهدين. كُنَّا نأمل رؤية إنهاء الدكتاتور العراقي.

وقد نادى مجموعة التحالف المؤقتة ضد صدام حسين الشعب الكوردي والشيعية للتمرد والقيام بالانتفاضة ولكنها لم تساند هجماتهم البطولية على الإدارة ودوائر الشرطة التي كان يقودها سُنيون في خدمة الدكتاتور.

كان العنف المستخدم ضد العراقيين في بغداد رهيباً: قُتِلَ أكثر من مائتي ألف إنسان وبدأ التشرد الكوردي ونزوحه نحو الحدود المغلقة لتركيا وإيران.

في تصبات السليمانية ١٩٩٢

من جديد، على طريق حلبجة. مع دانييل ميران (Danielle Mitterand) جننا لنساند الكورد العائدين والمقيمين على أراضيهم المستقلة بفضل التدخل المتأخر للجيش الفرنسي والأمريكي والبريطاني.

في سيارتنا- التي إستبدلناها في آخر لحظة- كُنَّا نتحدث عن تظاهرة المرصّات في فرنسا، قاطعتنا سيّارة باص صغيرة يابانية الصنع وتحمل علامة الخدمات العامة بلونها الأبيض والأزرق. وبعد مرور ثانيتين انفجرت وتمزقت بسيارة مفخخة متوقفة على طرف الطريق.

خرقنا التعليمات الأمنية وتوقفنا ، ركضت نحو السيّارة التي كان من المفترض علينا ركوبها فرأيتها تحترق مع البيشمركة الكورد الستة. إستحال علينا الإقتراب لفتح الأبواب قبل إطفاء لهيب النار تحت قنينة إطفاء الحرائق.

كُنَّا نسمع صرخات جرحى الباص الياباني الصغير ونرى أشلاءهم الممزقة وفي النهاية تمكنا من تنظيم أنفسنا لإسعاف أكثر من عشرين جريحاً وقتيلاً. من النادر حقاً أن ترى دكتاتوراً يأمر بإغتيال عقيلة رئيس دولة غربية.

فمن الذي إحتج؟

الصوت المخنوق

منذ ثلاثين عاماً ونحن نجهد أنفسنا لإسماع العالم أهات الشعب العراقي وصرخات الملايين من موتاه، رجال ونساء وأطفال، مرحّلين ومعذبين أو معدومين من قبل نظام صدام حسين تحت أنظار هذا العالم اللامبالي. هذا الصوت المخنوق لكل أولئك الجرحى الذين إلتقيت بهم منذ عام ١٩٧٤ ورأيت نظراتهم المتهمة عند قيامي بالزيارات المتعددة بين الجماهير الكوردية والشيعية... صوت ضحايا التجارة العالمية والسياسة الواقعية الذين لم يروا غير وصول طائرات الميراج التي تقصفهم ، طائرات آتية من دولة حقوق الإنسان، فرنسا.

تعتبر دراسة الجرائم المرتكبة من قبل الهمجية الشمولية لصدام حسين مشروعاً للسلم السياسي. والصفحات السوداء لهذا الكتاب تحمل في طياتها أملاً للمستقبل.

من حقنا الإحتفاظ بذكرى الإعتقالات العشوائية التي كانت تجري صباح كل يوم من قبل قوات بوليس صدام. التعذيب الأكثر رهبةً وإهانةً، الإعتداءات الجنسية المنظمة وتنفيذ الإعدامات المبنية على أساس التمييز العنصري والسجون المليئة بالأبرياء... نعم، من واجبنا الإحتفاظ بالذكرى والأثر... نعم، دون ذلك سوف لن نفهم ماهية دكتاتورية صدام حسين ولا السبب المفتعل أو الحقيقي للتدخل الأمريكي المبني وللأسف على إفتراضات ايديولوجية أكثر ممّا هو للدفاع عن حقوق الإنسان. وأيضاً نحتفظ بالذكرى لنستوعب ضربات صدام وإستخدامه للغاز ضد المدنيين الإيرانيين وإختفاء مئات الكويتيين بلا أثر بعد الإحتلال العراقي للكويت عام ١٩٩١ .

نحتفظ بالذكرى لنحكم على السياسة التي قادها البعث الذي لم تعد تجد فيه غير الاقلية السننية التي أصبحت في النهاية طرفاً مهيمناً في الدولة الدكتاتورية.

ينبغي علينا أيضاً الإحتفاظ في ذاكرتنا بالطريقة التي تم فيها تجفيف أهوار الجنوب لإخلاء المنطقة من المتمردين الشيعة وكذلك الكيفية التي تم فيها إتهام الشيعة بالتبعية الإيرانية وطردهم من أراضيهم منذ بدايات ١٩٨٠ وكيف مات العديد منهم في إنتفاضة ١٩٩١ .

علينا أن نتذكّر أيضاً (مشنوقي بغداد) من اليهود الذين عرض البعث جثثهم عام ١٩٦٩ على الجمهور .

الحرب الأمريكية

في كانون الأول من عام ٢٠٠٢ كانت أمريكا تستعد لحربها مع العراق فأحببت معرفة ما يفكر به أصدقائي الكورد والشيعية العراقيين. عدت إلى المنطقة التي حررها الكورد بعد حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١. في مدينة السليمانية الديمقراطية الآن رأيت معارضة للمجلس البلدي المنتخَب حديثاً تسير في الشارع وتظاهر لأسباب محلية ولكنها في ذات الوقت تؤيد حرب التحرير المنتظرة. أربع آلاف فتاة في الجامعة لم أرى واحدة منها تغطّي رأسها...سبعة عشر صحيفة ومجلة دورية تعبر عن جميع الإتجاهات السياسية...أعود نحو حلبجة التي وارت آلاف النساء والأطفال تحت التراب في ثانية واحدة بعد ضربات قنابل صدام الكيماوية: ألتقي بإمرأة تغطّي رأسها وتصب بغضبها الصامت والعنيف عنف اليأس وتساألني: ماذا أفعل هنا؟.

لماذا العودة إلى هذه الأرض المذبوحة...أنا الوزير القديم الذي لم أقدر خلال زيارتي السابقة إنقاذ وإسعاف هؤلاء المواطنين من مصيرهم التراجيدي (المساوي)؟

كيف يمكنني الذهاب هكذا إلى لقاء الضحايا...أنا الفرنسي الذي احتفظت حكومته بعلاقات صداقة وود مع نظام صدام؟

وأي امل يمكنني تقديمه إليهم...أنا الطبيب الإنساني بينما ترك الأطباء الفرنسيون (French Doctors) هذا المكان ومنذ زمن طويل؟

بماذا نجيب على الحقيقة المرة عن أُنانية الغرب؟

كيف أقنع هذه السيِّدة الشابّة ذات اليمين الرفيعتين والتي تلف جسدها المحترق بغطاء وتأن في كل لحظة من العذاب؟ إمرأة فقدت كل عائلتها تحت أنقاض قنابل نظام سانده فرنسا.

في شباط من عام ٢٠٠٣، أي قبل شهر ونصف الشهر من بداية الحرب الثانية في العراق كنّا مع أنطوان فاي (Antoine Veil) قد نشرنا باسم منتدى فوبان مقالاً يحمل عنوان (لا للحرب ولا لصدام) في الوقت الذي إتفق فيه النوَّاب والمثقفون والصحافة بالإجماع على إدانة جورج بوش ورفض صدام حسين بصورة أو بأخرى. لم نؤيد الإدعاءات التي تقول بأن العراق يمتلك أسلحة للدمار الشامل ولكننا طالبنا بالتشديد في رقابة الأمم المتحدة ولم نوافق إلا على مسألة خرق حقوق الإنسان كتبرير لتدخل

حين تُعرض الأحداث بدقّة وعلى مئات الصفحات ويتم الحديث عن حجم الجرائم المرتكبة في كوردستان والقيام بغرق أراضي الجنوب بالمياه، والهجوم على إيران والكويت والتذكير بعدد ضحايا الشيعة والكورد والإيرانيين وعرب الأهوار واليهود والكويتيين أو المعارضين العاديين فإنّ الكتاب الأسود لصدام حسين يُسمع العالم أخيراً شكوى الضحايا.

كان ينبغي التحدّث عن كل جريمة، واحدة بعد الأخرى، وفضح فظاظتها كي لا ننسى. كان صدام واحداً من أخطر الطغاة في تاريخ العالم فكان ملحاً وضرورياً تنحيته وإنهاءه بأسرع وقت ممكن.

هل سمعنا بكل هذه الحقائق البسيطة قبل وخلال وبعد الحرب؟

أشك في ذلك ومع ذلك يكفيننا الإستماع إلى العراقيين. دون أدنى شك أنّهم لا يحبّون الأميركيان الذين تعاملوا معهم بكرهية لإعادة بناء هذه الأمة ولكنهم يكرهون صدام حسين أيضاً.

بصراحة، كنّا نتمنى أن يقوم مجلس أمن الأمم المتحدة والمجتمع الدولي كما جرى لكوسوفو بالضغط وبالغربة المفترضة. لم يكن مستحسناً أن تتسرّع الولايات المتحدة الأمريكية في إتخاذ قرار أحادي الجانب لأنّها سامحت وساندت صدام حسين كذلك ولوقت طويل. ولكن هل كان ثمة حل جيد آخر؟

الإحتفالات بالذكرى الستين لتحرير معسكر الأوشفيتز ذكّرنا: بأنّ فسح المجال للضحايا بالتحدّث عمّا جرى والإعتراف بالأمهم هو شكل من أشكال مقاومة المُضطهدين وعدم الإعتراف بنصرهم. ثمة من يسعى دائماً إلى طمس الجرائم. أعماق الوديان المدمّرة بالغاز وظلمات سراديب التعذيب لم تكن غريبة عن طبع أصابع صدام حسين وكل مذبحه ينساها المجتمع الدولي يُعتبَر إنتصاراً له كما أنّ كل قتل غير مدان رسخ حكمه وسمح لنا، تجاراً بالأحرى أكثر ممّا كنّا مجانين، بتحسين قدراته الحربية.

وإذا سمحنا اليوم بمسح الجرائم ووضعناها في تاريخ مشوه فكأننا نتقبل إنتصار الجلادين ونقوم بتنفيذ حكم الإعدام بالضحايا مرّة ثانية.

الجيش: كُنّا نستند على عبر ودروس مهمّات السلام السابقة، نرفض على الإطلاق فكرة الإحتلال والغزو ونناشد بضرورة إصلاح الجيش وليس بتفكيكه وفي النهاية ذكرنا بعض الجرائم التي إرتكبتها نظام بغداد.

كُنّا قد طالبنا الأمم المتحدة أيضاً بعقد مؤتمر عالمي يضع فيه تحت الأضواء مذابح صدام بدل أن يجعل منه بطلاً جديداً ضدّ أمريكا " لا زلنا لا نسمع صوت الشعب العراقي " كُنّا قد كتبنا في نهاية المقال كلاماً يفصح حدود الرأي الأحادي المفروض علينا: التدخّل الأحادي الأمريكي أو ترسيخ دكتاتورية البعث.

ففي واشنطن وأمام إدارة البنّاغون وبول فولفوفيتز: في نيويورك وفي أكاديمية السلام برفقة سيرجيو دي ميلو كُنّا نلحّ على البديهيات... لا تتصرفوا وكأنكم دولة محتلّة، أخلقوا الثقة ولا تخلقوا الشك، أشركوا العراقيين في قراراتكم، فهم في بلدكم واحمومهم فسوف يساندونكم...

كُنّا نعيد عليهم ما تعلّمناه في مهمّات السلام السابقة للأمم المتّحدة ومهمّات المنظّمات غير الحكومية أثناء الحرب. كُنّا نحاول إقناع مخاطبينا بأنّ كل الدول لا تتشابه بل بالعكس فإنّ ثقافة الشيعة تتناقض مع الثقافة السنيّة والمواجهة الكوردية-الكوردية تشهد على وجود أمة عراقية متردّدة، قوية وعدوانية ولكنها موثوقة.

كُنّا نردّد عليهم بأنّ النصر العسكري يتحقّق بسرعة ولكن سوف لا يقارن ذلك بالصعوبات الهائلة التي تواجهونها لبناء السلام.

نحن نؤكّد بأنّ الديمقراطية لا تُفرض وإنما تُقترَح وتُختار وبأنّ اليوم الأوّل سيكون حاسماً لبناء الثقة ولكن لم يسمعنا أحدهم فيسنا.

لم يتم إنعقاد هذا المؤتمر العالمي وللأسف ومضت الحرب . كلمة الشعب العراقي لازالت غائبة بغرابة رغم حصول الإنتخابات.

شهدت فرنسا وألمانيا عام ٢٠٠٣ مدافعون حقيقيّون عن الحرّية ولكن عند الإحتجاج على التصرفات الأمريكية قاموا بمزج أصواتهم بأصوات أسوأ المضطهدين دون أن يعوا بذلك. كانوا يتهمونا بخيانة مبدأ التدخّل لصالح مبدأ العدوان . حلّ التشكيك محل التعاطف.

ألا تجد في هذا الخط الأيديولوجي عصيراً نابعاً من الفكر الرجعي؟

تناسوا جرائم صدام وإنفصلوا أنياً عن قضية الدفاع عن حقوق الإنسان وأخذوا يعلنون الحقد فغاب عن بالهم آمالنا المشتركة لحماية الأقليات.

ولم يضيعوا وقتهم للإستماع إلى العراقيين الذين تمنّوا التخلّص من صدام حسين منذ زمن بعيد. وللضحايا وحدهم الحق في هذا المجال.

كُنّا نحاول التذكير بأنّ البعض منّا كان قد إحتكّ بقنابل ومقابر صدام حسين الجماعية منذ عام ١٩٧٤ . وبأنّنا نعبر عن لسان الكورد والشيعة والعراقيين الديموقراطيين بضمنهم السنّة الذين إستمعنا إلى شكواهم وغضبهم ونداءاتهم حينما إلتقينا بهم على الأرض قبل الحرب. أراد هؤلاء الخلاص.

أن يجسّد الأمريكان الفكرة التي تقول بأنّهم من أبغض المفكرين العقائديين ومن أسوأ الناس الذين يصنعون السلام سوف يعقّد علينا المسألة...

كان صدام هو الأغزر إنتاجاً من بين القتلة في القرن الواحد والعشرين بعد ستالين وهتلر. هذا الواقع هو الذي يسمح سياسياً بتمييز الضد - أمريكانية الحقّة.

الأمريكان هم أحياناً من معارضينا ولكنهم ليسوا أبداً أعدائنا. عدونا هو صدام والإرهاب والفاشية الدينية البادية كخطر رئيسي. ولا نمزج هذا الأمر بالفكر التنويري للقرآن ونحن مع من ينادي بإسلام عصري ونسانده للتخلّص من مضطهديه.

نحن لا نعلن بأننا كُنّا نستطيع تجنّب الحرب ولكننا قلنا بأنّ التشنّج الفرنسي لم تمنعها بل سهّلت وقوعها. فالحركة الدبلوماسية الأولى لفرنسا بإلزام المرور على مجلس الأمن كانت خطوة جيّدة ومن ثمّ إنزلق بلدنا نحو فيتو قاصر غير منتج.

وهل هناك وسيلة أسوأ من هذه للإحتيال على من كان يتوقّع منّا أكثر من هذا التصرف؟

سيبقى هذا النكران للذات وصمة عار لا تمحى لديموقراطياتنا. وهذا الأمر دفع بالأسراع في مسألة التخلّص من صدام.

مسألة قلب النظام في بغداد أصبحت ضرورة ملحة للشعب العراقي.

أسلحة الدمار الشامل؟

لأكثر من ستين مرة كان صدام حسين هو الأول في تاريخ الإنسانية الذي يجربها على شعبه.

الإعتداءات على حقوق الإنسان؟

آلاف القرى تم محوها من على الأرض من قبل علي الكيمياوي عام ١٩٨٨ ومئات الآلاف من الكورد تم تهجيرهم أثناء حملة الأنفال.

علاقات صدام بالقاعدة؟

كان بوسع الكورد التحقق من هذا الواقع يومياً من خلال رؤيته لنظام يحاول تثبيت سيطرته على شبكات بن لادن وملاحظته للأرتال المتسرّبة من جند الإسلام والقادمة من كابول أثناء مواجهاتهم في الجبال.

سيادة دولة داخل حدودها؟

كلهم يعلمون وبالتأكيد بأن هذه الدولة تعتمد على شلّة من المستهترين والفاستدين ويعلمون كيف تم بناء قواعدها...

لهذا أصبح النجاح في السلام ملحاً وضرورياً اليوم بعد إجراء الإنتخابات الحاسمة. ستشكّل حكومة عراقية شرعية قريباً. ولست الوحيد الذي يفكر فالدول الأكثر معارضة للحرب الأمريكية البريطانية قد غيرت موقفها تجاه الولايات المتحدة. لقد تم إزاحة الأقلية السنية وإنهاء جرائم حزب البعث: وهذا يعني بأن تقدماً قد حصل حتى ولو أنّ الحرب الأمريكية لا زالت بعيدة عن النصر النهائي...حتى ولو إستمرت الهجمات الإنتحارية.

المجتمع الدولي

لنحتفظ في ذاكرتنا بأن هذا الصراع في العراق قد إنطلق لسبب جيد ولكن بحجج واهية. لتبرير الدخول في الحرب إكتفى من نسميهم بالمحافظين الجدد بعرض مسألة إمتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل وعلاقاته المُفترضة مع القاعدة بطريقة غبية. لم

تفكر أمريكا بذكر الإعتداء والخرق الشامل لحقوق الإنسان الذي إرتكبه نظام صدام حسين. ومؤخراً أي عند نهاية الحرب كان توني بليير هو الوحيد الذي إستخدم هذه الحجّة.

جرت الأحداث وكأّن قادة واشنطن لم يقيموا إعتباراً إلا لبعض عملائهم من المُغتربين. وحينما إعتبروا صدام عدواً لهم فلأنّ دولته شكّلت جزءاً من " الدول المارقة التي تسير في خط الشر" لا غير وليس لأنّه إستلم السلطة بعد إنقلاب دموي أو بسبب إغتياله لشعبه.

وفي المعسكر المقابل- وخاصةً في فرنسا - لم يتم رفع شعار حقوق الإنسان ببروز أكثر. كانوا يتصنّعون الإحتجاج على اللاشريعة الدولية في الوقت الذي يتحفّظون فيه بالدفاع علناً عن نظام يصفوه بأطراف شفاهم دكتاتورياً ولايعترفون بأنّ كل ضربة موجّهة للأمريكان ستنتبّ الدكتاتور في موقعه.

"بعض القنابل تُعتبر خلاصاً" هذا ما كتبه بعض الكتّاب الألمان وهم يفكرّون بإنتصار الحلفاء على النازية وبيع بعض الصحفيين الكوسوفار الذين إنتظروا قبل ذلك بسنتين وتمنّوا ضربات حلف شمال الأطلسي. كل من خالف النظام في الكتلة الشرقية وكل من ذاق التعذيب في الدول الدكتاتورية أيد- رغم التحفّظات- الأمريكان. وكنا من ضمن القلائل الذين حاولوا إقناع الأمريكان بأنّ الحكم يعود للضحايا وحدهم للعراقيين أنفسهم.

في منتدى فويان كنا نعتقد بأنّ الحرب يمكن تفاديها ونعتقد في نفس الوقت بإمكانية التخلّص من صدام حسين من خلال الإعتداع على ضغط تحالف ديموقراطي موحد كما كان الحال في كوسوفو ولكنهم لم يصغوا إلينا.

إنحراف عن الخط الفكري: تم تحويل مجلس الأمن إلى حلبة للملاكمة حيث أهمل فيه التفكير الدبلوماسي والسياسي بعكس ما جرى في كوسوفو.

التدخل

في الواقع ليس هناك غير مبرر واحد مقنع لتأييد تدخل الحلفاء: إحساس العراقيين وإرادتهم الواضحة بالتخلّص من الدكتاتور. لقد إستمرت الحرب منذ ثلاثين عاماً

بالنسبة لهم وإنتظروا من الهجوم الأمريكي الخلاص والسلام.

لمن تعود مسؤولية مأساة الآخرين؟

بأي طريقة يمكن تجنب المس بالأقليات؟

هل يحق لنا التدخل لمنع إرتكاب المذابح؟

كانت كل هذه التساؤلات غائبة عن النقاش الدائر بين فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.

لقد حصل تقدّم منذ الستينيات. ففي ذلك العهد كانت الدول الكتاتورية بمثابة زوايا وشقق مغلقة للقتل. يستبيح حكّامها كل المحرّمات...يعتدون على حقوق مواطنيهم ، يفعلون معهم ما يشاؤون.

هل كان ينبغي ترك المضطّهدين يموتون؟

"نعم" يرد الوحوش المجردون من العاطفة والقانونيون الدوليون.

"لا" يصرخ المناضلون ولكن القانون كان يخنق المتمرد الباحث عن الحق.

خلال إنعقاد جلسات جمعية الأمم عام ١٩٩٩ طرح السيّد كوفي عنان سؤالاً جوهرياً: "هل يشكّل التدخل الإنساني خرقاً غير مقبولاً بالسيادة الوطنية وكيف نتصرّف أمام حالة شهدناها في رواندا وفي سربرينيك؟ مالذي يجب علينا عمله أمام إعتداءات صريحة وواسعة ومنظمة على حقوق الإنسان، إعتداءات تتناقض مع كل المبادئ البشرية؟ المحرّم تم إختراقه.

خلق الأطباء الفرنسيون (French Doctors) إنسانية على الطريقة الفرنسية تطوّرت بسرعة: أصبحت وسيلة للإنذار عن مذابح جماعية وقد سمّاها كوفي عنان ب"التدخل الإنساني".

فمنذ عشرين عاماً صوّت مجلس الأمن ومنظمة الأمم المتحدة على أكثر من مائتي قرار محتواها يماثل محتوى القرار (١٨٨) ولنتذكّر بأنّ هذا القرار الصادر عام ١٩٩١ خلق مبدأ حق التدخل للدفاع عن الكورد ضدّ صدام حسين وسمح لهم بالعيش في إستقلال داخل دولة ذات سيادة. وتم كتابة النص في جنيف عند صدرالدين آغا خان من قبل خمسة أشخاص: صدرالدين آغا خان نفسه وبيريز دي كويلار وستافان دي ميستورا وجان موريس ريبيرت وأنا.

أثق بالأمم المتحدة وبعولة الديمقراطية المسيطرة وبحقوق الإنسان التي يدوس عليها دبلوماسيوننا أحياناً. هناك وعي وإحساس بالمسؤولية الكونية يتعمّق يوماً بعد يوم.

وأنا على يقين بأنّ في إمكانية أوروبا فرض المزيد منه.

صوت رنين الجرس والشعارات المرفوعة في فرنسا أثناء الإنتخابات كانت خاوية: كم كان جميلاً أن نتحدّث أثناءها عن موضوع إختراع فرنسا لمبدأ التدخل أي مبدأ حماية الضحايا، حماية الأقليات المضطّدة ؛ ولكن مع كل الأسف ترك قادتها ولوقت طويل إقتراحاً على قدر و وزن فرنسا، عليها أن تنتهز الفرصة وتضعه أمام شبّان فقدوا الحماسة. أفكّر بأصدقائي الذين إستشهدوا في بغداد وهم يحملون هذه الشعلة في قلوبهم: سيرجيو فييرا دي ميلو ، نادية يونس، جان سليم كنعان وفيونا واطسون وآخرون تم إغتيالهم في إنفجار إنتحاري لمكتب الأمم المتحدة في أغسطس من عام ٢٠٠٣ .

من الآن فصاعداً سيكون هناك رعب مُصاغ بدقّة وكمال في طريقة تنفيذ المذابح الجماعية العمياء ضدّ المدنيين الشيعة وسوف تكون هناك تفجيرات إنتحارية مستهدفة لتجمّعات الأطفال وغالباً في الأسواق المكتظة بالنساء. القتل الموهوسون بالإسلام المتطرّف يتمنطقون حزاماً من القنابل، يفخّخون السيارات ويفجّرون أنفسهم وهم يقودون عربات مليئة بالبنزين أو الغاز.

يتجاوز عدد القتلى أحياناً أكثر من مئة في اليوم دون أن نحسب عدد الجرحى الذين يملأون المستشفيات.

كم من الوقت يمكن أن تدوم هذه المجازر؟ تمتليء الصفحات الأولى لصحف العالم بالصور البشعة لهذا التصعيد. الحرب الأهلية التي كانت تدور بين السنّة الأقلية والشيعة الأكثرية في قمة السلطة منذ وصول صدام حسين إليها قد نزلت إلى الشارع والقتلة يستخدمون التكتيك الأسوأ للإيذاء.

كيف الخروج من هذا التصعيد في العنف الجهنمي؟ العراقيون المحرّرون من الظالم والسعيديون بغالبيتهم لما حدث هل يتأسّفون في الأيام القادمة على زمن "الإعدامات والتعذيب والقتل المتعمد"؟

يتحرّك خبراء واشنطن ويحلّون بصمت: إنخفض مستوى التطوُّع العسكري في كل

هل يتصور الأمريكيان وحلفاءهم البريطانيون الأكثر مهارةً وحظاً في البصرة طريقاً للعودة؟ وما هي سيناريوهات الخروج من الأزمة في البنتاغون؟

ثلاثة منها تثير الإنتباه. أولها تهدف إلى عودة سريعة بفضل وجود حكومة عراقية مؤقتة، مهما كانت ضعيفة. والثانية تستند على قرارها بالبقاء لسنوات طويلة في العراق مع تكثيف ملموس في العدة والعدد. وفي الإفتراض الثالث يبدأ الجنود بترك العراق حال تشكيل حكومة فيدرالية قوية وبناء شرطة وجيش فعّالين في العام القادم بعد إجراء إنتخابات جديدة.

تبدأ محاكمة صدام حسين في القريب العاجل وعلى جلاّد الشعب الإجابة على بعض جرائمه المعروضة في هذا الكتاب.

هل ستصفق الشعوب العراقية للدكتاتور المخلوع أم أنّها تقتنع بأنّه قد تمّ فتح عصر جديد يعود إليهم ليقوموا بتربيته؟

في يوم الأحد ١٧ تموز ٢٠٠٥ أعلن الرئيس الجريء للمحكمة العراقية الخاصة رائد جوشي عن إنتهاء التحريّات الخاصة بقضية مذبحه الشيعة في الدجيل خلال عام ١٩٨٢. وبالسرعة التي نراها تستوجب التحقيقات والمحاكمات في جرائم صدام المذكورة في هذا الكتاب سنياً عديدة فهل ستغذيّ هذه المحاكمات التمرد السنّي بشكل أكبر؟

سنبقى من مؤيدي التحذير والتنبيه لوقوع الحروب ولسنا، عدا الإستثناءات، مؤازرين للحروب الإستباقية. الأمريكيان الذين تجرّعوا علقم ١١ أيلول شنّوا على صدام حسين حرباً متأخّرة بتبريرات غير منطقية. لم يستطيعوا إقناع البقية من العالم. تصرف الفرنسيون، الحلفاء القدامى لصدام حسين، بصورة رديئة.

تمّ إيداع الدبلوماسية وحتىّ ألف باء سياسة حقوق الإنسان في القبر لفترة طويلة. فلأنّه لم يكن هناك حل سليم للتخلّص من الظالم صدام فقد وقع الخيار بإستخدام أسوأ السبل لذلك. فالرئيس بوش، للإطاحة بالغازر، فتح باب العنف على مصراعيه ولزمن طويل. وقع المدافعون عن حقوق الإنسان في مصيدة وهم يذرفون دموعاً مرّة وفضلوا التنديد بالأحادية الأمريكية متناسين غالباً جرائم صدام.

يقولون لنا بأنّ عسكري أمريكي من البنتاغون يزور كل صباح الرئيس بوش ويده تقرير عن عدد القتلى والجرحى في العراق لآخر أربع وعشرين ساعة. ويقولون لنا أيضاً بأنّ الرئيس لا يعلّق على الأرقام وإنما يدقّق فقط ، بأنّ إغلبهم موتى عراقيّون وأنّ الجنود الأمريكيان معرضون للقتل بشكل أقل يوماً بعد يوم.

لم يعرف الجيش الأمريكي كيف يدخل في قلب المواطنين. كل مخالفة تغطّي الأخرى. فترة الحياة والموت لكل بعثة سلام تُعدّ بالسنين....

٢٥٠٠٠ قتيل عراقي منذ ٢٠٠٣ ومعظمهم مدنيون وشرطة. يقتلون من أجل القتل فقط. وفي أعقاب هذه السنوات من النار والموت علينا التفكير ببناء السلام. وهل بقي مايكفي من الحيادية التي يعبر عنها هذا الكتاب للحكم بأنّ عالم بلا صدام هو الأفضل لنا؟

أنا أعتقد بذلك...كلّنا سوف نواجه عصر الإرهاب سواءً مع أو بدون العراق. فهذا الأمر لا يمكن تحاشيه. ولمصلحتنا جميعاً الإنتصار في هذه الحرب.

الصفحات السوداء التي تأتيكم عبر الإحصاءات أو من خلال الشهادات الحية للمظلومين تعبر عن صرخات المعذبين الذين لم نقدر أو لم نحسب سماعها. صفحات تعيد لهذا الشعب كرامته. وكذلك فهي حقائق علينا مواجهتها وجهاً لوجه: آثار إخفاقاتنا.

مقدمة

كريس كوتشيرا

CHRIS KUTSCHERA

القفز على جرائم صدام حسين كما يفعله البعض يعني رفض إستيعاب ما حدث وعدم الإهتمام بكيف ولماذا وصلنا إلى الوضع الحالي في العراق.

ربما لم تكن الحرب الأمريكية الحل الأفضل لوضع حد نهائي لدكتاتورية صدام حسين. ولكن كما يشير هذا الكتاب فبعد خمس وثلاثين عاماً من دكتاتورية تميّزت بالعنف النادر والتي حطمت المجتمع المدني العراقي وحصدت آلاف الضحايا لم يبق الخيار لحل أفضل.

نظام القمع الذي بناه صدام حسين لم يفسح المجال لزعرته من الداخل ولم يكن هنالك حلاً ديموقراطياً لدكتاتورية صدام حسين: لم تستطع أي حركة شعبية أو إنتفاضة جماهيرية قلب النظام وقد عاش الكورد والشيعية تجربة دموية مريرة بهذا الخصوص.

أنّ ترك صدام حسين يمارس سلطته لوقت طويل كان يعني إدامة المجتمع المدني العراقي وزواله وترك الصراع الدائر بين مختلف التكوينات العرقية والمذهبية للشعب العراقي ليصل إلى نقطة اللّاعودة (وفقاً للتقديرات: ٦٠ بالمئة من الشعب العراقي هم شيعة و٣٦ بالمئة منهم سنّة و٤ بالمئة مسيحيون- أو ٧٥ بالمئة من العرب و٢٥ بالمئة كورد).

نظام ضدّ شعبه

هذا الكتاب الموجه إلى كل من يسعى لممارسة حقّه في تلقّي المعلومات والمعرفة يسمح أولاً في فهم كيف بدأ كل شيء.

يبدأ باتريك بودوان Patrick Baudoin الرئيس الفخري للجمعية العالمية لحقوق الإنسان بذكر بعض التعريفات القانونية التي ستكون أدواتاً ضرورية لقراءة هذا الكتاب: ماذا تعني إبادة، جريمة حرب، جريمة ضدّ الإنسانية وأي صنف جنائي من

مختلف هذه المصطلحات القانونية ينطبق على الجريمة الخاصة لصدام حسين؟

ويؤيد باتريك بودوان الإعتراف بحق الضحايا " من أكبر الغائبين" في المحاكم.

بيتر سلوغليت مؤلف الكتاب الذي يمكن إعتباره مرجعاً حول العراق بعد ثورة ١٩٥٨ يرسم في " صورة للدكتاتور" سيرة صدام حسين مشيراً إلى أنّه كيف إستطاع هذا المقاتل الطموح واليتيم بلا تربية والقادم من قرية صغيرة في منطقة تكريت تصفية كل من كان يحيط به ويكون ظلاً له ليمارس وحده السلطة المطلقة- مسيرة مليئة بالدماء. يرسم بيتر سلوغليت أيضاً في " حزب البعث: العروبة، القومية - الإشتراكية والدكتاتورية" الخط الحزبي الطبيعي في البداية والمثالي وكيف امسى حزباً للجماهير وأصبح فيما بعد أداة للسلطة تم إفراغه عملياً من كل أيديولوجية. في هذه المحاولة التي تثير النقاش يقوم سلوغليت ب" نسف " بعض الأساطير عن القومية العربية مشيراً فيها بشكل خاص عن سبب المناادة بالقومية العربية، إختراع من الطليعة السنيّة لم تجد لها إلاّ صدئاً محدوداً نظراً للتركيبية القومية والدينية في العراق. لم يصبح حزب البعث حزباً شعبياً إلاّ بعد الوصول إلى السلطة.

" الدكتاتور وصورته "...لا وجود لنظام كئي دون الإفراط في نشر صورة " القائد " .

زهير الجزائري، رئيس تحرير جريدة المدى في بغداد يتساءل عن اصول عبادة الشخصية: هل أنّه ثمرة لرغبات " القائد " أم أنّه ينبع من حاجة الناس " للمُنقذ "؟

لم يبحث صدام حسين ظاهرياً عن معرفة فيما إذا كان الجمهور الذي يؤديّ المسيرة أمامه يحبّ الرئيس أم لا وإنما كان يهتم بإدارة تمثيل صورته بدقّة في كل البلاد دون أن يترك مجالاً للصدفة: وإنتهى بتحويل أحلام امرأة شابة مخدرة إلى كابوس...

في مقال " صدام حسين، أي نظام كئي؟ " يعيد حازم صاغية، الكاتب اللبناني والمحرر في جريدة الحياة، صدام حسين إلى حجمه الطبيعي إذ يقارنه بأكبر دكتاتورين في القرن العشرين - هتلر وستالين - متسائلاً: " من يعلم إن كان لهتلر أخاً أو لستالين إبناً للعلم؟ " يوضّح لنا حازم صاغية إلى أي درجة تتميز دكتاتورية صدام حسين المبنية على حلقة الأخوة والعائلة عن الدكتاتورية الأوروبية، دكتاتورية غير قادرة على إدارة الموارد الإنسانية والإقتصادية لبلد عصري. قارناً لكل شيء ومعتاداً على كتابات حنا أرندت وانجيلز يسلط حازم صاغية الضوء على الضحالة الفكرية لنظام صدام حسين

ويؤكد بأن النصوص البلاغية التي كتبها ميشيل عفلق لا تستحق أن تصبح كتاباً... للصف الأول ابتدائي!

يحلل بيتر سلوغليت في "حزب البعث منذ عام ١٩٦٨" كيفية عمل نظام صدام حسين الذي لم يدخر شخصاً ولم يترك "لا لينين في المنفى ولا مانديلا في السجن ليأخذ شعلتهم" في حين يقوم إبراهيم المرعشي، الإختصاصي البارز في مخبرات البعث بتصنيف وتحليل كيفية عمل هذه الخدمات الإستخبارية التي سمحت لصدام حسين بتصفية المعارضين وغيرهم بعنف وشدة.

يُعتبر السجن الهائل لأبو غريب، المشهور بعد إرتكاب المخالفات الأمريكية، والذي يشغل مساحة (١٣٠ هكتار) رمزاً مأساوياً لقمع البعث خلال عقود.

مرت فيه مئات الآلاف من السجناء وغالباً قبل أن يُعدموا. إلتقينا بسعدون قصاب، المهندس الذي إشتراك في بنائه قبل أن يضعه البعثيون فيه وتشكل شهادته وثيقة إستثنائية.

وقمنا كذلك بإعادة طبع شهادة عبدالهادي الحكيم: وهي رواية عن التعذيب أصبحت للأسف الشديد رتيبة لكثرة تكرار سردها خلال عقود من قمع البعث.

رواية رجل أغلقوا عليه باب السجن لمدة ست سنوات وجريمته الوحيدة هي حمل لقب العائلة الشيعية المعروفة وهي شهادة عن التصرف العشوائي لنظام البعث. وقد تم إنتخاب عبدالهادي الحكيم في المجلس الوطني العراقي الجديد في كانون الثاني من عام ٢٠٠٥.

قمع وإضطهاد الشيعة

تم إستثناء الشيعة الذين يشكلون ٦٠ بالمئة من الشعب العراقي من السلطة في العراق منذ تأسيس الدولة العراقية من قبل الإنكليز الذين سلّموا السلطة بيد أقلية عربية سنية. لكن بعد وصول البعث للسلطة أصبح هذا الإستثناء إضطهاداً: أصبحوا هدفاً لإنتقام حقيقي...

يذكر الصحفي الألماني جينس أوه راهيه واحداً من أشهر حلقات قمع هذه الشريحة من قبل البعثيين- طرد عشرات الآلاف من الشيعة العراقيين العرب في بدايات عام ١٩٨٠ وإتهام السلطات لهم بأنهم مواطنون من أصل إيراني.

منذ أكثر من خمسة عشر عاماً تناضل إمّا نيكولسون أوف وينتربورن من أجل إنقاذ أهوار جنوب العراق، هذا النظام البيئي الإستثنائي في العالم، هذه الأهوار التي جفّت صدام حسين معظمها لأنها تحمي متمردين شيعة ومجتمعاً عربياً وحيداً في شكله. درست إمّا نيكولسون المراحل الأساسية التي شكّلت جريمة بيئية وإبادة بشرية في آن واحد وأصدرت حكماً رهيباً ضدّ صدام حسين. وفقاً للتقديرات ينبغي ما لا يقل عن مليار دولار لإرجاع الأهوار إلى حالتها الأولى.

يختتم فالح جبار هذا القسم من الكتاب الأسود الخاص بالشيعة بسرد إنتفاضة الشيعة عام ١٩٩١ والقمع الذي تبعها وأودت بحياة أكثر من ثلاثمائة ألف شيعي معظمهم مدنيون.

الإبادة العرقية للكورد (الجينوسايد)

يحاول كريس كوتشيرا في "دولة ضدّ الكورد" التطرق إلى تاريخ الدولة العراقية التي أدمجت الكورد قسراً وضدّ إرادتهم في كيان أغليبيته من العرب، في دولة إختارت سبيل الحروب والدمار والتهمير للتعامل معه. ويشير كيف أنّ صدام حسين طور حملة القمع التي بدأت بعد سقوط الملكية عام ١٩٥٨ بقليل وجعلها مشروعاً للإبادة من خلال إضافته لجرائم حربية وجرائم ضدّ الإنسانية لتؤدي في النهاية إلى الجينوسايد. من بين الجرائم الرئيسية لصدام حسين ضدّ الكورد يحلّل المؤلف بالتفصيل حملة التعريب، إختفاء ثمانية آلاف بارزاني، حملة الأنفال، إضطهاد المسيحيين في كوردستان وضرب حلبجة.

في الفصل المخصّص عن إستخدام الأسلحة الكيماوية ضدّ المدنيين في كوردستان تذكر فرانسواز برييه بأنّه إذا كانت للأسلحة الكيماوية نتائج تدميرية مباشرة، معروفة ومكشوفة فإنّ لها نتائج ثانوية وبعيدة المدى غير مدروسة إطلاقاً. وتوضّح بأنّه لم يجرى لحدّ اليوم أي تحقيق دولي في ساحة العمليات عن إستخدام صدام حسين للسلاح الكيماوي ضدّ الشعب الكوردي.

يتطرق جينس أوه راهيه إلى جريمة أخرى لصدام حسين غير معروفة بشكل جيّد ألا وهي تهجير عشرات الآلاف من الكورد الفيليين(شيعة) وإعتباراً من عام ١٩٦٩ وبداية السبعينات وكان لهذا التهجير أهدافاً متعدّدة من بينها السماح لصدام حسين

بـ"تصحيح" التركيبة الديموغرافية للعراق وكذلك توجيه ضربة جماعية لبعض شرائح المجتمع الذين يشك في "ولائهم" وفي ذات الوقت تشديد الضغط على إيران.

حروب صدام حسين

أدت حروب صدام حسين إلى مقتل مئات الألوف من الضحايا، في البداية عسكريون ومن ثم مدنيون من العراق وإيران وبدرجة أقل من الكويت.

في القسم الرابع من الكتاب الأسود يوضح كريس كوتشيرا كيف أن الحرب الأولى لصدام حسين، حربه ضد إيران (١٩٨٠-١٩٨٨) تسجل كإمتداد للصراع التاريخي بين الدولتين ولكن سبب وقوعها هذه المرة هو طموح دكتاتور تصور الاستفادة من ظروف الثورة الإسلامية في إيران - ليصبح قائداً للعالم العربي وللشرق الأوسط. ويشير المؤلف أيضاً كيف أن الدول الغربية، من فرنسا وإلى الولايات المتحدة ساندت صدام حسين في صراعها " ضد التعصب الإسلامي" ... وكيف أن الاستخدام الكثيف للأسلحة الكيميائية " أنقذت" نظام صدام حسين.

يعود إلى شهر يار خاطري، الإختصاصي الإيراني في الأسلحة الكيميائية سرد التفاصيل حول أي نوع من الغاز استخدمه العراقيون ضد قطعات الجيش والمدنيين الإيرانيين وماذا كانت النتائج المباشرة والثانوية لهذه الأسلحة الكيميائية. وهو يجري لأول مرة دراسة عن النتائج المروعة للقصف الكيميائي عملية بعد عملية. سجل كريس كوتشيرا شهادات الضحايا الإيرانيين - والمحاربين القداماء وكورد مدنيين من العراق - والذين يعانون من النتائج الثانوية للغاز رغم مرور عشرين عاماً على الحدث.

الشبكات القريبة من العراق

كل الدول من الشرق كما في الغرب ساندت نظام صدام حسين إلى يوم إحتلال الكويت فالبعض منها سكنت ولم ترغب في رؤية مايجري وأما البعض الآخر فقد تميزت بشكل خاص من خلال تجهيزها بأسلحة غير تقليدية أو بمواد محذور تداولها...

يفتح جوناثان راندل، المراسل القديم للواشنطن بوست القسم الخامس من الكتاب الأسود كاشفاً فيه خفايا غير معروفة عن العلاقات الغامضة بين واشنطن وبين دكتاتور بغداد وبالأخص خلال الأعوام الثمانية الطويلة من حرب العراق - إيران (١٩٨٠-).

(١٩٨٨) التي وصلت فيها واشنطن إلى قناعة تعتبر بقاء نظام صدام حسين كأولوية مطلقة فأغمضت عينيها حين إستعمال الأسلحة الكيميائية ضد الكورد والعراقيين...وساردا كذلك كيف كان صدام يسعى لإمتلاك القنبلة النووية.

ويبرز كريس كوتشيرا المراحل التي مرت فيها "علاقات الحب والهيام" بين صدام حسين وفرنسا التي لم يفضح أحد سياسيتها جرائم صدام حسين سواء كانوا من اليمين أو من اليسار.

يسرد اوليس وبيتي سمولانسكي، المختصان الأمريكيان في الدراسات السوفياتية العلاقات العراقية السوفياتية/ الروسية بدقة ويوضحان كيف أنه منذ عهد غورباتشيف سعت موسكو إلى التوفيق بين هدفين صعب عليهما تحقيقهما حيث رغبت الإبقاء على صدام في السلطة من جهة والإحتفاظ بعلاقات طيبة مع واشنطن من جهة ثانية.مشددان على الدور المركزي للعلاقات الروسية - الأمريكية فيعلنان بأن موسكو لن تكون بأي حال من الأحوال مستعدة لإنقاذ صدام حسين مقابل إهتزازعلاقاتها مع واشنطن. وأوضحا بأن الأولوية رقم واحد بالنسبة لروسيا هي توسعها الإقتصادي. ويذهبان إلى أبعد من هذا فيتساءلان عن مدى جدية الكرملين لرفع الحصار حيث أن تطبيق قرار " النفط مقابل الغذاء" على مدى عشر سنوات سمحت لروسيا الحصول على فوائد هائلة من عقودها مع العراق. وإستنتاجاً بأن نهاية نظام صدام حسين تعني إنتهاء " العلاقات الخاصة" التي وحدت موسكو والعراق.

يحلل أنطوان صفير الأسباب التي دفعت الشارع العربي برمتها إلى تأييد صدام حسين، رافضاً إعتباره جزأراً للعراق بل بالعكس قام بتمجيده وإعتبره " بسماركاً للعالم العربي". كان ينظر إليه بإجلال ويحسبه الرجل الذي جعل من العراق " بلداً يتقدم ويستفيد مواطنوه من الريع البترولي الموزع بينهم بعدالة " خلافاً لواقع العالم العربي الغارق في التخلف. ويوضح أنطوان صفير بشكل خاص بأنه لم يبقى للشارع وللطليعة العربية خياراً - الذين إحتجوا وفضحوا الشيء الوحيد الذي سمح لهم الدكتاتور بفضحه: الهيمنة الأمريكية.

محللاً أسرار ١٢٠٠ صفحة من التقرير الهائل لديفلر عن أسلحة الدمار الشامل يعرض كريس كوتشيرا حجم برنامج الأسلحة البيولوجية والكيميائية لصدام

باحثة آثار ألمانية ومختصة في التشريح الطبي الشرعي للمقابر الجماعية، توضح سينج كورين ستويكه بأن كل العراقيين كانوا يعلمون بأن النظام يخفي ضحاياه في مقابر جماعية - وحتى الغربيون الذين غمضوا عيونهم عن جرائم صدام لأن ذلك كان يتوافق مع مصالحهم - وتساءلت: "متنا ألف كوردي وعشرات الآلاف من الشيعة وآلاف السجناء فكم من الجثث ينبغي إنتشالها للبرهنة على أن صدام قاتل؟" وتستمر في الحديث ببرودة علمية قائلة كيف أن كل هذه التفاصيل المرفوعة خلال البحث في مقبرة جماعية - قطع الملابس والأشياء والوثائق والجروح - توفر مؤشرات ثمينة عن هوية الضحايا: وعن الطريقة التي تم بها إعدامهم وأخيراً تعطينا سينج كارين ستويكه لأول مرة قائمة كاملة ومريعة ولكنها للأسف غير نهائية بالمقابر الجماعية المكتشفة في العراق وتذكرنا بأن الهم الأساسي للعراقيين هو تحقيق العدالة، وقبل ذلك معرفة المواقع التي تم فيها إيواء مفقوديهم لكي يقدروا على تحمل العزاء.

أي عدالة لصدام حسين؟

بعد توضيح العلاقات التي تربط بين الديمقراطية والقضاء يشرح أندريه بوبار، أستاذ شرف في القانون بجامعة مونتريال، في القسم السادس من الكتاب الأسود لصدام حسين الشروط التي يجب أن تتوفر لتحقيق محاكمة عادلة ومنصفة لصدام حسين. ويذكر احتمالين متوقعين - محكمة عراقية أو محكمة عالمية -، وحسب تقدير أندريه بوبار أنه بالرغم من صعوبات إجراء المحاكمة في العراق غير المسافر إلا أنه يجب أن يحاكم صدام حسين بمحكمة عراقية لتكون القضية مثالية بحق وفي ذات الوقت لتصبح اللبنة الأولى لتكوين مجتمع عراقي مبني على دولة تحترم القانون تسيّر بالعراقيين وتعمل من أجلهم. ويلح على ضرورة إعطاء الكلمة للضحايا.

حسين(مبرزاً بشكل خاص الدول التي ساعدته في صنع هذه الأسلحة) ويذكرنا بأنه في عام ١٩٩٠ كان صدام حسين على وشك إمتلاك القنبلة النووية. ولكنه خسر هذا السباق ضد الزمن بإحتلاله للكوييت مبكراً. والسر الأكبر الذي يكشفه تقرير دويلفر هو بلا شك أن يقوم صدام حسين بإصدار الأوامر في منتصف ١٩٩١ بتدمير كل الأسلحة غير التقليدية ووحدها الإنتاجية. ولكن لردع أعدائه بمهاجمته فقد مارس عن سبق اصرار التمويه والغموض حول وجود هذه البرامج واضعاً نفسه في مصيدة أكاذيبه وحقائقه النصفية.

من بين المذنبين هنالك بعضاً من الدول ساندت صدام حسين وقامت بتسليمه أسلحة كيميائية أو عناصراً ومواداً تساعده في صنعها. يحاول السياسي الكوردي خالد صالح تفكيك هذه الشبكات التي سمحت لصدام حسين بضرب الشعب الكوردي والإيراني كيميائياً ومتهماً بشكل خاص مواطني دولتين اوروبيتين - ألمانيا وهولندا. ويتساءل عن مدى براءة هولاء القادة الأوروبيين الذين كانوا يعلمون مايفعله صدام حسين وتركوه يتصرف كيفما يشاء. وي طرح هذا السؤال الجوهرى: " تجار الموت الذين جهزوا صدام بهذه الأسلحة هل ينبغي مطاردتهم؟

البراهين

خلال محاكمات صدام حسين وأعوانه سيسعى الإدعاء العام إلى إستخدام ثلاثة أصناف من البراهين: شهادات الأحياء أو أفراد من عوائلهم، الوثائق والمقابر الجماعية.

يذكرنا كريس كوتشيرا بالإنفاضة الكوردية القصيرة في آذار من عام ١٩٩١ وكيف أنها سمحت للكورد بالاستيلاء على ملايين الوثائق الأصلية للنظام العراقي(وثائق إدارية وتقارير المخبرات السرية) وكيف تم نقل هذه الوثائق إلى الولايات المتحدة الأمريكية والتي تبعتها وثائق تم الإستيلاء عليها بعد تحرير الكوييت ومن ثم تلك التي عثروا عليها بعد سقوط نظام صدام في نيسان من عام ٢٠٠٣ ، هذا الكم الهائل من الوثائق تم ترقيمها وتصنيفها وتحليلها من قبل " مشروع البحث والتوثيق في العراق" وتحتوي على براهين دامغة عن جرائم صدام حسين وحكام البعث الرئيسيين. أنها تسمح كما يصف ذلك عدنان مكّية بصورة ممتازة " بالغوص في أحشاء الوحش".

الجزء الأول

نظام ضد شعبه

منذ عام ١٩٨٠ و ٨٠٠٠ فرد من العشيرة البارزانية من معسكر قوشته به و ١٨٢٠٠٠ كوردي خلال عملية الأنفال). دُمّرت ٤٥٠٠ قرية و ٢٦ مدينة كوردية خلال سنوات الثمانينيات. في كردستان العراقية بنى النظام البعثي ١١٠ معسكراً للتجمع المسماة بـ " المعسكرات الجماعية " أو وفقاً لتسمية النظام بـ " القرى الإستراتيجية " أو " القرى العصرية " وهي محاطة بالسياج ومطوّقة بقوآت الأمن. وضعوا فيها ما يقارب عن ٧٥٠٠٠٠ كوردي هجّروهم من المناطق الجبلية على طول الحدود الإيرانية، التركية والسورية العراقية. وتم تهجير نصف مليون كوردي إلى الصحراء في معسكرات على حدود المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية وهي معسكرات العرعر ورضا ونكرة السلمان وكذلك في منطقة الرمادي. النظام العراقي يتحمل مسؤولية ٤ ملايين لاجيء لحد هذا اليوم.

هذا ما صرّح به بختيار أمين وزير حقوق الإنسان للحكومة الإنتقالية العراقية في تمّوز من عام ٢٠٠٢ وعبر عن الجرائم الدولية المرتكبة من قبل نظام صدام حسين خلال سنوات الرعب بإعتباره مديراً لمنظمة التحالف العالمي من أجل العدالة.

ما هي باختصار الخطوط الكبيرة التي تحدّد وتعرّف اليوم جريمة الجينوسايد (الإبادة العرقية) ، وجريمة ضدّ الإنسانية وجريمة الحرب؟

جريمة الجينوسايد

التعريف الذي تحدّده المادة السادسة من قانون المحكمة الجنائية العالمية (CPI) يستند كلياً على التعريف المحدّد في الإتفاقية الموقعة في ٩ كانون الأوّل ١٩٤٨ عن تحذير وقمع جريمة الجينوسايد. وتمّ الإعتماد أيضاً على هذا التعريف بالحرف والكلمة في قانون المحكمتين الجنائيتين العالمية (TPI). وإتفقت الدول بالإجماع تقريباً على أن لا يتم تبنيّ نصوص عند تحديد تعريف لجريمة الجينوسايد، تتناقض مع النصوص المُعتمّدة في الإتفاقيات الدولية الموجودة. وإستهدف هذا التوجّه تجنب العديد من النقاش والجدال حول تعريف الجريمة التي تم تداولها عند إعداد أعمال إتفاقية ١٩٤٨ .

وهكذا فالجينوسايد يفترض " النية في تدمير، كلياً أو جزئياً، أي مجموعة قومية، إثنية، عرقية أو دينية ". عُرِضت هنا إذاً ثلاث علامات مميّزة: النية في التدمير، النية في تدمير مجموعة كمجموعة، والإرادة في تدمير مجموعة قومية، إثنية، عرقية أو دينية.

تعذيب ، جينوسايد، جرائم ضدّ الإنسانية، جرائم حرب

باتريك بودوان

Patrick Baudoin

بعد مرور شهر بالكاد على سقوط تمثال الرجل القوي للنظام العراقي في نيسان من عام ٢٠٠٣ أعلنت الهيئة القضائية التابعة لمجلس الحكم العراقي برعاية التحالف المؤقت (CPA) للشعب العراقي وفي ذات الوقت لبقية العالم عن تشكيل محكمة خاصّة عراقية لمحاكمة مسؤولي النظام البعثي.

وطبقاً للنظام الداخلي ينبغي على هذه المحكمة معرفة جرائم الحرب وجرائم ضدّ الإنسانية والجينوسايد المرتكبة بحق كل شخص يحمل الجنسية العراقية (المادة ١٠٠٠). ومن كل فرد يقيم على الأراضي العراقية بين ١٧ تمّوز ١٩٦٨ وإلى مايس ٢٠٠٣ وكذلك في "أي مكان آخر" (المادة ١٠٠٠). وبضمنها المرتكبة والتي لها علاقة بحربي العراق ضدّ الجمهورية الإسلامية الإيرانية وضدّ الكويت.

من المفيد أن نسجّل بأنّه فيما يتعلّق بتعريف الجرائم فرغم إعتراض الولايات المتحدة الأمريكية الشديد للمحكمة الجنائية العالمية فإنّ القانون الخاص للمحكمة العراقية مُستوحى من قانون روما الذي تبنته ١٢٠ دولة في ١٧ تمّوز ١٩٩٨ .

تعريف جرائم الحرب، جرائم ضدّ الإنسانية والجينوسايد المطبّقة على الأفعال المرتكبة من قبل صدام حسين ونظامه

قُتل وجرح مليونان من الأشخاص في المنطقة الحدودية بين العراق وإيران خلال الإحتلال العراقي ١٩٨٠: قُتل ٢٠٠٠٠٠ شخص خلال حرب الخليج و ٢٠٠٠٠٠٠ شيعي عراقي في إنتفاضة ١٩٩١ و ٥٠٠٠٠٠ كوردي عراقي بعد تبنيّ نظام صدام حسين لسياسة الإبادة العرقية. ويملك العراق أيضاً الرقم القياسي العالمي في عملية الإخفاء المتعمّد: أكثر من ٢٠٠٠٠٠ مفقود (إختفى ١٠٠٠٠ كوردي فيلي من بغداد وضواحيها

يسلسل قانون محكمة الجنايات العالمية CPI الأعمال التي تدخل في إطار الجريمة:

- إغتال أفراد مجموعة بشرية؛

- المس الخطير بالحرمة الجسدية أو العقلية لأفراد مجموعة؛

- إخضاع المجموعة عمداً إلى ظروف حياتية تؤدي إلى تدميرها جسدياً كلياً أو جزئياً؛

- إتخاذ قرارات تمنع التناسل داخل المجموعة؛

- النقل المتعمد للأطفال من مجموعة إلى أخرى.

حبّذت بعض الدول المشتركة إدخال مجموعات أخرى من الضحايا في هذا التعريف " تجمّعات محدّدة لأسباب سياسية " ولكن تم رفض هذا الإقتراح بمبادرة من الإتحاد السوفياتي والسبب المقدم هو إعاقة صفة الإستمرارية التي تميّز المجموعات المختارة في الإتفاقية. وكان السبب المخفي هو الخشية في تجريم الحكومات الشرعية عندما تقاوت ضدّ العناصر التخريبية (خوف الحكومات ذات النظام المستبد أو الحزب الواحد).

يمكننا إيجاد مرجع لبدأ الإستقرارية في حكم أكايسو (Akayesu) من المحكمة الجنائية العالمية لرواندا (TPIR) حينما نطقت المحكمة بالإفتراس الذي يقول " الجينوسايد قد وُضع وكأنّه لا يقدر على إستهداف غير المجموعات المستقرّة، المكوّنة بصورة دائمة والتي يُنتمى إليها بالولادة، وإستثناء المجموعات الأكثر حركة التي يُنتمى إليها بالإلتزام الطوعي الشخصي". ولكن هذه الفكرة الموضوعية لطبيعة المجموعة، المؤرّخة في التاريخ، غير كافية. يستحيل في الواقع برهنة الإلتناء إلى مجموعة معيّنة دون التفكيك بوجود عناصر شخصية. الإلتناء إلى مجموعة يفترض حتماً الإرادة الفردية لكل عنصر من عناصر المجموعة، ويمكن بالإضافة إلى ذلك أن يولد من فكرة شخصية للعناصر الخارجية عن المجموعة المُفترضة.

إضافة إلى هذا ينص قانون محكمة الجنايات الدولية على أنّها مؤهّلة لمحاكمة الجينوسايد، محاولة إرتكابه والإشتراك والتفاهم بقصد إرتكابه. والمادّة ٢٥ من القانون تمنح كذلك الصلاحية للمحكمة، بشكل خاص في مجال الجينوسايد، لمعرفة جريمة التحريض المباشر والعلمي. والجريمة الأخيرة هذه ليست جديدة في نظام القانون الدولي. وقد ظهرت لأول مرة خلال محاكمات المجرمين النازيين أمام محكمة

نورينبيرغ العسكرية عام ١٩٤٥ ، وقد تم خلق جريمة التحريض في ذلك الوقت بشكل إعتباطي لمحاكمة جوليوس سترايشر (Julius streicher) الذي كتب نصوصاً عديدة قاسية وعنيفة ضدّ السامية وأدخلوا حالته ضمن نطاق الجريمة ضدّ الإنسانية. بعد ذلك بثلاث سنوات، إعتبر محرروا إتفاقية تحذير وقمع جريمة الجينوسايد التحريض المباشر والعلمي جزءاً من الأعمال الإجرامية كالجينوسايد (الإبادة)، محاولة إرتكابه والإشتراك والتفاهم بقصد تحقيقه. وتم وضع هذه الجريمة لاحقاً في قانون المحكمتين الجنائيتين العالمية. وتستند بعض دعاوي إتهامات هذه المحاكم بشكل رئيسي تقريباً على هذه الجريمة كما هو الحال بالنسبة.

"لقضية الصحافة الرواندية".

جريمة ضدّ الإنسانية

لا تشمل أية إتفاقية في النظام القضائي تعريفاً محدداً للجريمة ضدّ الإنسانية. ظهرت هذه الفكرة الشائعة تقليدياً بشكل إعتباطي في إتفاقات لندن التي كوّنت قانون المحكمة العسكرية الدولية لنورينبيرغ (TMI) لمحاكمة المجرمين النازيين. عُرّفت (جريمة ضدّ الإنسانية) قانونياً لأول مرة في من قانون المحكمة العسكرية الدولية الملحق بإتفاقية لندن في ٨ آب ١٩٤٥، وتشمل الإغتال، الإبادة، العبودية، التهجير وكل عمل آخر غير إنساني مرتكب ضدّ المدنيين، قبل وخلال الحرب، أو حصول قمع وإضطهاد لأسباب سياسية، عرقية أو دينية. وحينما تحدث هذه الأعمال فسواءً شكّل ذلك خرقاً لنظام الدولة التي وقعت فيها أم لا فإنّها تُعتبر جريمة تدخل ضمن صلاحيات المحكمة، أو على إرتباط معها.

لقد تجاوز هذا النص إطار محكمة نورينبيرغ لكي يتم تطبيقه في ألمانيا بشكل خاص وفي بلدان أخرى على مجرمين خارجين عن صلاحيتها. تم بعد ذلك الإعتماد على تعريف جريمة ضدّ الإنسانية في قانون المحكمتين الجنائيتين الدولية لرواندا (TPIR) وليوغوسلافيا السابقة (TPIY) وكذلك في المحكمة الجنائية العالمية ولكن مع بعض الإختلافات البسيطة.

وفقاً للمادّة السابعة من قانون محكمة الجنايات الدولية CPI جريمة ضدّ الإنسانية تعني:

أي من الأعمال التالية المرتكبة في إطار إطلاق هجمة شاملة ومنظمة ضد أي تجمع مدني عن سبق اصرار وترصد:

أ- إغتال؛

ب- إبادة؛

ت- عبودية؛

ث- ترحيل أو نقل متعمد للأفراد؛

ج- سجن أو أي شكل آخر من التقييد الحاد بالحرية الجسدية خرقاً للمبادئ الجوهرية للقانون الدولي.

ح- تعذيب؛

خ- إعتداء على الشرف، عبودية جنسية، بغاء قسري، حمل قسري، تلقيح قسري لمنع الحمل أو أي شكل آخر يماثل هذه الإعتداءات الجنسية؛

ع - إضطهاد أي مجموعة أو أية تجمع يمكن تحديد هويتها لأسباب سياسية، عرقية، قومية، إثنية، ثقافية، دينية أو جنسية وفقاً للفقرة ٣ أو حسب إعتبرات عالمية أخرى مُعترف بها وغير مقبولة في القانون الدولي لها علاقة بأي فعل مذكور في هذه الفقرة أو أي جريمة تدخل ضمن صلاحيات المحكمة؛

غ- إخفاء متعمد؛

ق- أبارتايد؛

ك- أعمال غير إنسانية أخرى لها صفة مماثلة تسبب الآلام والعذاب عمداً أو تمس بالحرمة الجسدية أو الصحية أو العقلية.

يبدو أن التعبير المذكور في قانون المحكمة الجنائية الدولية CPI " هجمة شاملة ومنظمة " يشدد على طبيعة الجريمة المنظمة أكثر مما على حجمها. لكن في الواقع التعبير المُستخدَم في النص الإنكليزي للمادة ٣ من قانون TPIR يحمل في مضمونه عنصراً كميّاً ". (.....)

تعريف جرائم الحرب

تعرف جرائم الحرب عموماً كخرق خطير للقوانين والأعراف الحربية. تم تجريمها في العديد من الإتفاقيات الدولية وبشكل خاص في إتفاقية جنيف ١٩٤٩ والبروتوكولات المُضافة إليها عام ١٩٧٧ .

المادة الثامنة من قانون محكمة الجنايات الدولية تعدد وتحدد قائمة طويلة من الأعمال التي تكون جرائم الحرب. بشرط أن تكون هذه الأفعال مُرتكبة ضمن إطار نزاع عسكري ولها إرتباط بالصراع: تم إرتكاب الفعل من قبل عنصر من القوات المسلحة لطرف ضد عنصر معادي للقوات المسلحة أو ضد مدني من الطرف الآخر في النزاع أو بدقّة أكثر ضد شخص أو ممتلكات " محميّة " طبقاً لمعنى إتفاقية جنيف والبروتوكولات المُضافة إليها عام (١٩٧٧) يأخذ القانون في نظر الإعتبار الواقع الذي يشترط إمكانية تسجيل هذه الجرائم في إطار خطة أو سياسة أو أن يشكّل جزءاً من سلسلة من الجرائم المماثلة تم إرتكابها على نطاق واسع. مما يدفع إلى عدم الإهتمام بجرائم الحرب الواقعة بشكل منعزل. التشديد على تحديد خطورة الجريمة أمر يؤسف عليه ويُعتبر تراجعاً في القانون الدولي البشري.

يمكن ملاحظة أربعة أصناف من الخروقات في المادة الثامنة من القانون:

- الخروقات الخطيرة لإتفاقيات جنيف ١٢ آب ١٩٤٩؛

- الخروقات الأخرى الخطيرة للقوانين والأعراف المطبقة في النزاعات العالمية المسلحة؛

- الخروقات الخطيرة للمادة الثالثة المشتركة في إتفاقيات جنيف ١٢ آب ١٩٤٩ الأربعة والخاصة بالنزاعات العسكرية التي لا تحمل صفة عالمية؛

- خروقات خطيرة أخرى مرتكبة في نزاعات لا تحمل صفة عالمية.

يمكننا بشكل خاص ملاحظة التطور في القانون بهذا المجال: تضخمت قائمة جرائم الحرب المرتكبة في النزاعات غير العالمية بشكل هائل بفضل الأحكام الصادرة من محكمة الجنايات الدولية.

كما كان الحال بالنسبة لجرائم ضد الإنسانية حصل أيضاً تقدّم كبير لتعريف الجرائم في مجال العنف ضد النساء. تم في الواقع إعتبار الإعتداء الجنسي، العبودية الجنسية، العهر القسري والتلقيح القسري ضد الحمل كجرائم حرب. تحقّق أيضاً إنجاز آخر في ميدان حماية الطفولة لأنّ تجنيد أو إشراك أطفال تقل أعمارهم عن أربع سنوات تُعتبر جريمة حرب.

حين التفاوض على ضم استخدام السلاح النووي والألغام الفردية كجريمة حرب وافقت ٢٧ دولة على ذلك وعارضته ٥٧ دولة بشدّة. ينص القانون النهائي للمحكمة بأنّ

المسؤولية الجنائية الفردية وسلطة القيادة داخل السلطة السياسية العسكرية خلال حكم صدام حسين

وفقاً للباحث هشام داود كانت السلطة السياسية - العسكرية العراقية تتمحور حول تسع مراكز للقرارات:

- ١- مجلس قيادة الثورة وهو الجهاز الرسمي الأكثر أهمية ويترأسه صدام حسين.
 - ٢- الحرس الجمهوري: وحدة عسكرية تتكوّن من اثنتا عشرة فرقة يقودها صدام حسين أو عضو من عائلته أو واحداً من مدينة تكريت.
 - ٣- الحرس الجمهوري الخاص: وهو تشكيلة من مختلف الأسلحة تحت قيادة المخابرات وعضو من عائلة صدام: يُمنح لجنود هذا الحرس إمتيازات خاصة.
 - ٤- الحرس الرئاسي الخاص: وهو قوّة ضاربة ومهمتها تأمين حماية صدام حسين: يتم تجنيد أعضاء هذا الحرس من بين العشائر والعوائل التي يعتمد عليها النظام تقليدياً، كان يقود هذا الجهاز قصي، الابن الأصغر لصدام حسين.
 - ٥- الميليشيا، وهي مكوّنة من تنظيمين:
 - " فدائيي صدام ": تم تشكيله من قبل عدي، الابن الأكبر لصدام حسين في عام ١٩٩٤ وقادهم بعد فترة قصي. مسؤوليتهم كانت حماية رجال السلطة وكذلك ضرب الإنتفاضات الشعبية. وإعتباراً من عام ١٩٩٦ أرتقي قصي وأصبح نائباً للقائد العام للقوآت المسلّحة (يعني نائباً لأبيه)؛
 - الجيش الشعبي وهو يمثل ميليشيا الحزب يقوده طه ياسين الجزائروي رفيق مسيرة صدام حسين.
 - ٦ - مختلف الخدمات الأمنية والإستخبارية.
 - ٧- القيادة القطرية للبعث.
 - ٨- الجيش النظامي: يتكوّن من خمس فيالق مرتبطة بقيادة الأركان وتعتبر العمود الفقري للجيش العراقي.
 - ٩- وأخيراً الحكومة.
- جريمة الجينوسايد، جريمة ضدّ الإنسانية وجرائم الحرب يفترض وجود تنظيم

إستعمال أسلحة تنثير بطبيعتها الألام والعذاب غير المفيدة أو تتصرّف بلا تمييز مخالفة في ذلك القانون الدولي حول النزاعات المسلّحة يشكّل جريمة حرب بشرط أن يُعتبَر ذلك محرماً للجميع وأن يُسجّل في ملحق للقانون.

تعريف جريمة التعذيب

وفقاً للمادّة الأولى من معاهدة معارضة التعذيب والعقوبات الأخرى أو التصرفات الوحشية، غير الإنسانية أو الوضيعة التي تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠ كانون الأوّل ١٩٨٤ فعبارة " تعذيب " تعني أي فعل يولّد عذاباً أو آلاماً حادّة، جسدية أو عقلية والفعل هذا مفروض عمداً على شخص ما بقصد الحصول منه أو من شخص ثالث على معلومات أو على إقرارات، بمعاقبته على فعل إرتكبه أو يشك في إرتكابه هو أو شخص ثالث، بإرهابه أو بالضغط عليه أو بإرهاب شخص ثالث والضغط عليه، أو لأي سبب آخر مبني على أي شكل من أشكال التمييز، حينما يكون هذا العذاب أو تلك الألام قد سببها أحد موظفي الدولة أو أي شخص آخر يمثلها رسمياً أو بتحريض منه أو برضاه علنياً أو ضمناً. هذه العبارة لا تشمل فقط العذاب أو الألام النابعة من العقوبات المشروعة، التابعة لها أو الناتجة بسببها.

تم إدانة التعذيب بإجماع الدول ومنع ممارسته دون إستثناء طبقاً للقوانين الدولية الصادرة منذ عام ١٩٤٥ وفي نفس المعنى أصدرت محكمة الجنايات الدولية بخصوص يوغوسلافيا السابقة عام ١٩٩٨ حكماً يؤكد الصفة العالمية في منع التعذيب والذي لا يستثني أحداً من الملاحقة مهما كانت صفته الرسمية.

وقد تم مؤخراً، في ١٠ كانون الأوّل ٢٠٠٤، الإحتفال بالذكرى العشرين لمعاهدة معارضة التعذيب والعقوبات الأخرى والتصرفات الوحشية، اللا إنسانية أو الوضيعة وتفرض نصوصها مسؤولية مزدوجة على عاتق الدولة: فعليها من جهة تبني مشروع قانون يجرم أعمال التعذيب وإعترافها من جهة أخرى بميكانيكية صلاحية المحاكم الدولية لمحاسبة مرتكبي جرائم التعذيب. وهكذا فإذا تواجد مرتكب لجرائم التعذيب على أراضي دولة وقّعت على الإتفاقيه فإنّها أمام خيارين المسمّى عامّة: إمّا تسليمه إلى الدولة التي تطالب به أو أنّها تعرض القضية على محكمة وطنية مؤهّلة لمحاكمته.

سياسي، عسكري أو إعلامي نو تسلسل هرمي غالباً عند ارتكاب الجريمة. وبسبب وجود روابط السلطة هذه واهميتها في إكمال الجريمة الدولية ولد بجانب المنفذ مسؤول خاص عنها: قائد الهرم المدني أو العسكري.

مسؤولية القادة غير العسكريين يصعب علينا إثباتها بصورة واضحة . يمكن البرهنة على الجريمة بالنسبة للقادة العسكريين بسبب الهيكل التنظيمي العسكري وضرورة المحافظة على الانضباط . القادة العسكريون مسؤولون عن الجرائم المرتكبة من قبل جنودهم إذا " عرفوا أو بسبب الظروف كان عليهم أن يعرفوا " بأن هذه الجرائم قد ارتكبت وإذا نسوا إتخاذ قرارات لازمة تمنعهم أو تعاقبهم.

بالنسبة للقادة غير العسكريين فأنهم مسؤولون عن الجرائم المرتكبة من قبل موظفيهم إذا عرفوا أو إذا أقفلوا عيونهم قصداً عن المعلومات التي أشارت بوضوح بأن هؤلاء كانوا في سبيل إعداد أو تنفيذ جرائم تهم محكمة الجنايات الدولية وحينما نسي هؤلاء إبلاغ القضاء المؤهل. درجة البرهنة المطلوبة في هذه الحالة تكون عالية لأنه يجب الإثبات بأن المسؤول كان على إطلاع عند حصول الجريمة أو أنه تجاهلها عمداً.

إلى أي مدى يمكن تسجيل الجرائم المرتكبة في عهد نظام صدام حسين ضمن تعريف الجرائم الدولية؟

حرب إيران والعراق

في ٨ نيسان من عام ١٩٨٠ تم إغتيال باقر الصدر، رجل الدين العراقي وممثل خميني في العراق. من خلال تعرض العراق لشخصية مقدسة في عيون الشيعة صبّت الحكومة العراقية زيتاً على نار العلاقات الصعبة والمتأزمة أصلاً بين السلطة البعثية والحركة الدينية الشيعية.

في ١٧ أيلول من عام ١٩٨٠ أعلن صدام حسين سيادته على شط العرب المنطقة المتنازع عليها وبعد الإعلان بخمسة أيام إحتل إيران بمباركة ضمنية من القوى الغربية. هذا الصراع الذي إستمر من أيلول ١٩٨٠ وإلى تموز ١٩٨٨ أصبح من أسوأ النزاعات حسب كمية الخسائر وعدد الضحايا في النصف الثاني من القرن العشرين. مات فيه مليون ضحية إيراني وأكثر من ٣٠٠٠٠٠ عسكري من القطعات العراقية.

خلال هذه السنوات الثمانية من الحرب تجاوز المعسكران وإرتكبا كل بدوره مخالفات تجاه مقررات معاهدة جنيف لعام ١٩٤٩ والبروتوكولات المضافة إليها في عام ١٩٧٧ والتي تحرم الهجوم المباشر ضدّ المواطنين وخاصة الأهداف المدنية وكذلك تمنع استخدام الأطفال في ساحة المعركة وتحمي أسرى الحرب.

وإرتكب العراق أيضاً جريمة استخدام المتكرّر للسلاح الكيميائي ضدّ المقاتلين الإيرانيين في البداية ومن ثمّ ضدّ مواطنيه الكورد وقد خالف في ذلك بروتوكول جنيف لعام ١٩٢٥ الذي يحرم استخدام الأسلحة الكيميائية. وقد برهنت المعارك التي أدارها العراق ضدّ نظام الملالي في إيران إحتقاره المنتظم لكل القوانين الحربية.

وأعطت هذه السنوات من الحرب الحجة الكافية لصدّام حسين باستخدام وسائل وطرق بربرية جهنمية في ارتكاب جرائم بمنتهى القساوة والعنف والتي إستمرت حتى بعد إنتهاء الحرب لإبقاء المواطنين العراقيين يعيشون في جو إرهابي.

حملة الأنفال ضدّ المواطنين الكورد في عامي ١٩٨٧ و ١٩٨٨

في عام ١٩٩٣ فضحت الميدل إيست ووج Middle East Watch في تقرير لجنة تحقيق الجينوسايد المرتكب ضدّ الكورد، إضطهاد وقمع تم توجيهه من قبل علي حسن المجيد، ابن عم صدام حسين وصديقه وقام بقيادة سلسلة من الحملات من ٢٦ شباط وإلى ٦ أيلول سمّوها "أنفال".

وكلمة أنفال تعني " غنيمة " وهو تعبير رمزي مقتبس من السورة الثامنة للقرآن لتسمية الكافرين الذين يجب إبادتهم إلى آخر فرد "....."

إستخدام الأسلحة الكيميائية ضدّ المواطنين المدنيين

يعترف المجتمع الدولي اليوم بإستخدام صدام حسين للإسلة الكيميائية ولرأت متعدّدة خلال السنوات الثمانية من الحرب العراقية الإيرانية ويظهر ذلك في تقارير الأمم المتحدة المختلفة. إشتكى النظام الإيراني منذ عام ١٩٨٣ لدى الأمم المتحدة بخصوص إستخدام صدام حسين للأسلحة الكيميائية لصدّ الهجمات البرية الإيرانية. رفض العراق إرسال خبراء الأمم المتحدة إلى الدولتين للتحقيق في ساحة العمليات. رغم ذلك، نشرت الأمم المتحدة تقريراً في عام ١٩٨٤ بعد المراقبة على الأرض الإيرانية فقط

تؤكد فيه استخدام العراق لغاز الأعصاب والتابون.

ولم تعرف النتائج المريعة لهذه الأسلحة الكيميائية إلا بعد نشر صور الجثث المحنطة لآلاف الضحايا من مدنيي حلبجة على العالم (أنظر فصول فرانسواز برييه وكريس كوتشيرا).

بعد إنتهاء الحرب ضدّ إيران بقليل جنّ صدام حسين حينما أعلموه إحتلال القصبه الكوردية(حلبجة) القريبة من الحدود الإيرانية من قبل البيشمركة الكوردية المتحالفة مع الحرس الثوري الإيراني فأطلق في ١٦ آذار من عام ١٩٨٨ موجات من الهجمات الجوية على المدينة. إستعمل غاز الأعصاب والتابون والساارين (تم إعداد هذين الغازين من قبل النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية ولكن لم يُستخدم مطلقاً) وكذلك ال VX الذي إستخدمه العراق لأول مرّة ممّا أدّى إلى مقتل ثلاثة آلاف مدني كوردي في لحظات.

وحلبجة لم تكن حالة معزولة لأنّه في الواقع عند إستيلاء الكورد عام ١٩٩١ على آلاف الوثائق العراقية أكّدت بعضها على إستخدام صدام حسين للأسلحة الكيميائية لستين مرّة على الأقل ضدّ القرى الكوردية في نهاية الثمانينيات وعلى الأخص خلال عملية الأنفال في عامي ١٩٨٧ و ١٩٨٨ .

ذكر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في القرار المرقّم ٦٨٧ الصادر في ٣ نيسان من عام ١٩٩١، " طلب عزل الأسلحة البيولوجية والكيميائية في العراق " التصريحات التي كان قد حذرّ فيها العراق عن إستعداده بإستخدام أسلحة تخرق إلتزامات بروتوكول جنيف الموقع في (١٧ حزيران من عام ١٩٢٥) الخاص بتحريم إستخدام الغاز الخانق، والمسمّم أو ما شابهه وكذلك الوسائل البكتريولوجية. وذكر مجلس الأمن أيضاً لجوء العراق سابقاً إلى الأسلحة الكيميائية وأكد بأنّ أي خرق آخر له نتائج وخيمة عليه.

وذكر مجلس الأمن بالإضافة إلى هذا بأنّ العراق قد وقّع على الإعلان الذي تم تبنيّه من جميع الدول التي إجتمعت في مؤتمر دول بروتوكول جنيف والأخرى المهتمّة به المنعقد في باريس بين ٧ وإلى ١١ كانون الثاني من عام ١٩٨٩ ، الإعلان الذي حدّد هدفاً بإزالة كل الأسلحة الكيميائية والبيولوجية.

من خلال هذا القرار أكّد مجلس الأمن على العراق القبول غير المشروط " بتدمير، برفع أو بتحييد وبإشراف دولي:

أ- كل الأسلحة الكيميائية والبيولوجية وكل مخازن موادها الأولية وكذلك كل الأنظمة التحتية والعناصر وكل منشآت البحث والتطوير، والمساعدة للإنتاج في هذا المجال؛
ب- كل الصواريخ الباليستكية التي يتجاوز مداها ١٥٠ كيلومتراً وكل المكونات الأساسية ومنشآت التصليح والإنتاج".

إستخدام صدام حسين ونظامه للأسلحة الكيميائية والبيولوجية وعلى نطاق واسع ومبرمج يشكّل - بأدنى المستويات ودون اللجوء للبحث عن دلائل أخرى - جرائم ضدّ الإنسانية وفقاً للقانون الدولي.

غزو الكويت وإحتلاله في عام ١٩٩٠

في نهاية ١٩٨٠ خرجت الكويت عن الإرادة الجماعية للدول المصدّرة للبتترول وقرّرت زيادة الإنتاج ممّا سبّب إنهيار سعر البترول في السوق العالمية. فخرس العراق المختنق بعد ثماني سنوات من الحرب ضدّ إيران نتيجة لذلك ثلثي موارده النفطية. بعد الرفض الكويتي بإلغاء ١٥ مليار دولار من الديون الممنوحة للعراق أثناء الحرب ضدّ إيران أمر صدام حسين بإحتلال الكويت في ٢ آب ١٩٩٠.

من خلال صوت مجلس الأمن أدان المجتمع الدولي ما وصفه بالإعتداء الصريح. ووفقاً للقرار ٦٦٠ الذي تبناه مجلس الأمن في ٢ آب من عام ١٩٩٠، هنالك كنتيجة لغزو الكويت من قبل العراق إختلال في السلام والأمن: ووفقاً للمواد ٣٩ و ٤٠ من ميثاق الأمم المتحدة فإنّ مجلس الأمن يدين الإحتلال ويناشد العراق بالإنسحاب الفوري وغير المشروط لقطعاته العسكرية من الكويت. وبعد ذلك بأقل من اسبوع أي في ٦ آب من عام ١٩٩٠ أصدر مجلس الأمن القرار رقم ٦٦١ يقول فيه نظراً لأنّ مجلس الأمن في متابعته قد لاحظ بأنّ القرار ٦٦٠ لم يتم تنفيذه وأنّ إحتلال الكويت أدّى إلى المزيد من الخسائر البشرية وإلى المزيد من التدمير المادّي والمالي لذا يقرّر وضع العقوبات الإقتصادية.

من الصعب تحديد حجم وطبيعة الجرائم المرتكبة من قبل القطعات العراقية في

الكويت قبل مباشرة العمليات العسكرية في كانون الثاني من عام ١٩٩١ لقوات التحالف، المشكّلة من ست وعشرين دولة تحت القيادة الأمريكية.

دون الإنتقاص من حجم جرائم صدام حسين في الكويت يجب علينا ذكر حملات التشويه والتمويه من كلا الطرفين المنقولة والمبثوثة على كل القنوات التلفزيونية العالمية. فعلى سبيل المثال نذكر بأنّه في ١٠ تشرين الأول ١٩٩٠، خلال جلسة إستماع متلفزة، وصف شهود أمام الكونكرس الأمريكي الفضاعات المرتكبة من القطعات العراقية: نخص بالذكر ما شهدته ممرضة كويتية والتي روت كيف أنّ الجنود العراقيين قاموا بقطع جهاز الأوكسيجين الذي ينعش ويديم حياة الأطفال الذين يولدون قبل الموعد داخل المستشفى التي كانت تعمل فيها وكيف كانوا يقتلونهم ويرمونهم على الأرض. شهادة هذه المرأة والتي علمنا لاحقاً بأنّها كانت في الحقيقة بنتاً للسفير الكويتي في الولايات المتحدة الأمريكية وقد تم عرض أقوالها من قبل المخابرات السرية الأمريكية وكان وقعها كبيراً على الرأي العام العالمي وشجعت بالتأكيد التدخل العسكري للتحالف الدولي، في إطار عملية عاصفة الصحراء في ١٧ كانون الثاني من عام ١٩٩١.

أدى القصف الجوي والمجابهة بين القطعات العراقية والعالمية إلى الكثير من الخسائر الجانبية وخاصة بين المدنيين وكذلك إلى تدمير العديد من البنى التحتية، نذكر منها على سبيل المثال العشرات من آبار البترول التي تم إحراقها بأمر من صدام حسين.

فضلاً عن هذا فوفقاً لمنظمة الأمم المتحدة يبدو أنّ الموقوفين في الكويت والمحتجزين من قبل السلطات العراقية كانوا " ضحايا للمعاملة السيئة والتعذيب وبضمنها الضرب المبرح والتعذيب بالكهرباء. ففي كل يوم يقودون العديد من السجناء إلى التحقيق ووفقاً لشهود تم تعذيبهم..كانوا غالباً ما يضربونهم ويخضعونهم إلى تصرفات مشينة "

في ٢٦ شباط ١٩٩١ إنتفضت الجماهير الشيعية في جنوب العراق ضدّ صدام حسين بعد سماعهم لنداء بوش الأب، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في حينها. ولكن الأخير لخشيته من نتائج تفكيك العراق تحت تأثير الإنتفاضة التي لا يمكن السيطرة عليها قرّر لوحده، مفاجئاً المجتمع الدولي، إختصار الهجمات وفرض وقف إطلاق النار. فبهذه الصورة بقي صدام حسين على رأس بلده. وحصل أيضاً من الرئيس بوش،

الذي كان يهاب إستلام الشيعة العراقيين المتحالفين مع إيران لمقاليد السلطة، على الضوء الأخضر بإستخدام طائراته السميتية لقمع التمرد الشيعي وذبح الجماهير الثائرة في أهوار الجنوب.

مذبحة ألف مدني كويتي من قبل القطعات العراقية وإختفاء مئات أخرى (انظر إلى فصل كريس كوتشيرا حول المفقودين الكويتيين)، أخذ الديبلوماسيين الأجانب كرهائن، الضرر الواسع الذي سببه للبيئة، إطلاق الصواريخ على المدنيين الإسرائيليين تشكّل أعمالاً تدخل ضمن إطار تعريف جرائم الحرب. بالمقابل، القمع العنيف للإنتفاضة الشيعية في عام ١٩٩١ الذي أوقع ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً من القتلى ومعظمهم مدنيون يحمل في طياته كل العناصر الدالة إنّ لم نقل على الجينوسايد فعلى الأقل على جرائم ضدّ الإنسانية.

ترهيل المواطنين

إضافة لإنتقال تسعمائة ألف كوردي عراقي إلى الشمال(كوردستان) هرباً من حملات التعريب المتعدّدة التي باشر بها البعث في سنوات السبعينيات وحملات التدمير العسكرية اللاحقة وبالأخص ضمن نطاق حملة الأنفال في الثمانينات فقد هاجر في التسعينيات عرب الجنوب الهاربين من حملة تجفيف الأهوار تحت غطاء مشروع تطوير الزراعة.

الإنخفاض الدراماتيكي لمستوى المياه في أهوار الجنوب وخاصة خلال صيف ١٩٩٤ جعل من هذه المنطقة صعبة الحياة فأضطرّ آلاف العاملين إلى الهجرة. إضافة إلى هذا فتجفيف الأهوار حرّم قبائل الجنوب من مصادر العيش الرئيسية كمواد البناء والأكل للحيوانات. الأسلوب التقليدي لحياة هؤلاء المواطنين في الزراعة والصيد التي كانت تضمن لهم إكتفاءً ذاتياً قد تم مساومته بإنعدام وجود الأسماك وبإختفاء مساكنهم.

هنالك، وفقاً لشهادات اللاجئين عدد كبير من مواطني الأهوار لم يستفيدوا من البطاقات التموينية الشهرية لأسباب متعدّدة منها:

الأغلبية الساحقة من مواطني الأهوار تعيش على هامش النظام فهم لا يملكون الهوية الشخصية؛

تنتقم الحكومة جمعياً فتحجز البطاقات التموينية لكل العائلة، لكل الهاربين من

الخدمة أو لغير الموالين لها: كل مواطن مشبوه بمشاركته في الإنتفاضة الشيعية لعام ١٩٩١ تُسحب منه البطاقة التموينية.

إستمرار جفاف الأهوار وحصار القوَّات العراقية للمنطقة عزل ساكني الأهوار وحرَّمهم من وسائل الحياة فلم يبقى أمامهم غير هجرة أراضيهم.

منذ قرار منع الطيران في جنوب العراق عام ١٩٩٢ لم ينقطع على قراهم وقصباتهم القصف الشديد بالمدفعية وبالهاون. فحسب المراقبين الخاصين للأمم المتحدة، " قصفت القوَّات الحكومية بالمدفعية الثقيلة وطويلة المدى مناطق مأهولة بالسكَّان المدنيين خلال الليل أو في الأوقات التي تجتمع فيها العائلة لتناول الطعام". ووفقاً للشهود تقدَّمت بعد القصف قوَّات مكوَّنة من جنود الجيش النظامي والحرس الجمهوري وأفراد من القوَّات الخاصة مع عرباتهم المدرَّعة والدبابات والمدفعية الثقيلة وحاصرت قرى المنطقة.

بعد السيطرة والإستيلاء عليها دخلت القوَّات إلى القرى وباشرت في التحريي المنظم للمنازل وتوقيف المواطنين عشوائياً قبل حرق قصب السكَّر والمنازل.

وحسب الشهود ومراقبي الأمم المتحدة ذاتهم فقد تم تسفير معظم الموقوفين وعيونهم معصوبة في مركز للحجز و بعد ذلك لم يُسمَع عنهم أي خبر.

كانت عمليات التجفيف وسيلةً ومشروعاً لتطهير آلاف الشيعة إثنيًا وهذا يشكل، دون جدال، جريمةً ضدَّ الإنسانية.

الإعدامات الجَّانية لآلاف المعارضين السياسيين

كما يذكر المراقب الخاص للأمم المتحدة حول وضع حقوق الإنسان في العراق، " الإغتيالات السياسية المُرتكبة في العراق، المُدانة كخرق لحقوق الضحية في الحياة، تُعتبر خطيرة لأنَّها تستهدف الإعتداء على حرية التعبير لبعض المجموعات أو لكل الشعب من خلال تسييد الإرهاب".

هذه الجرائم التي دبرتها السلطات عن سبق اصرار وترصد ونفذتها بأيدي عملائها وجلاوزتها، جرائم تم ارتكابها بحق مختار المحلَّة أو وزير الحكومة، وإغتيالات تم تنفيذها في وسط الشارع وتوسَّعت لتشمل حالات معقَّدة من التسميم بالثاليوم في الخارج.

بالرغم من أنَّ هذه الجرائم كانت فردية فقد كان للإعدامات العشوائية هدفًا سياسياً:

كانت تستهدف إسكات صوت المعارضين وتصفيتهم وبالأخص الشيعة والكورد منهم. وإستنتج المراقب الخاص للأمم المتحدة بأنَّ لهذه الإغتيالات السياسية خصوصية إرهابية، " خرق ومس خطير بحقوق الإنسان لمجموعات كاملة من الأشخاص وحتى لكل الشعب".

التعذيب ضدَّ الهاربين والجناة السياسيين

رأى قانون العقوبات العراقي في سنوات التسعينيات تشريعات قاسية وغير معتادة من خلال نشر المراسيم الموقَّعة من صدام حسين بإعتباره رئيساً لمجلس قيادة الثورة. فعلى سبيل المثال يمكننا ذكر، إضافة إلى قطع اليد اليمنى لمرتكبي السرقة، المحدد في المرسوم رقم ٥٩، قطع أذن الهاربين وبعض السجناء السياسيين: تم تشريع هذه العقوبة بالمرسوم رقم ١١٥ لمجلس قيادة الثورة والمؤرخ في ٢٥ آب ١٩٩٤، الموقع عليه من صدام حسين، ينص هذا المرسوم بأنَّ الهاربين وكل من يستقبلهم ويأويهم معرضون إلى بتر إحدى أذانهم وإلى وضع وشمة X (في الواقع، علامة بالحديد الأحمر) بين الحاجبين وفي حالة تكرار الجريمة، بتر الأذن الثانية؛ وعقوبة الجريمة الثانية هي الإعدام رمياً بالرصاص. ووفقاً للتقارير المرفوعة من المنظَّات غير الحكومية المختصة بالدفاع عن حقوق الإنسان فإنَّ هذه العقوبات كانت سارية حتى عام ١٩٩٨.

تطبيق هذه الممارسات لم يشمل الهاربين فقط وإنما أصاب المعارضين السياسيين أيضاً. كانوا يقودونهم إلى مستشفيات عسكرية حيث يقطعون الأذن بلا تخدير ولا إستجواب. ويرمونهم بعد ذلك في عربة عسكرية تقودهم إلى معسكراتهم الأصلية حيث ينتظرون الإستدعاء للإستفادة من عفوٍ ما لصدام حسين. وفي كل الأحوال، تعطيه وزارة الدفاع بطاقة حمراء تعني بأنَّ الهارب كان مواطناً من الدرجة الثانية، متَّهمة إياه بإرتكاب جريمة " خيانة شرف الأمة".

مورس التعذيب في لحظات التوقيف وبعد ذلك خلال التحقيق بصورة منظَّمة. كانت بعض مراكز التوقيف والتعذيب معروفة كسجن أبوغريب ولكن يبدو ظاهرياً بأنَّه تم استخدام المزيد من المواقع "غير الرسمية" لهذا الغرض.

ذكر الشهود الذين حقَّقت معهم المنظَّات غير الحكومية المختصة بالدفاع عن حقوق

العام وبأنها (العملية الجنائية) تحتوي على جريمة. بعبارة أخرى، لا يمكن إعتبار الضحية إلا بصفة شاهد والتعويض الوحيد الممكن هو الاعتراف بوجود جريمة دولية وبالنتيجة معاقبتها.

النصوص المتجددة لقانون المحكمة الجنائية الدولية تستند على نظام قضائي مختلط بين حق الانكلوس ساكسون والحق القاري وتجب جزئياً على الإنتقادات الموجهة من جمعيات الضحايا ضد محكمة الجنايات الدولية TPI لرواندا وليوغوسلافيا السابقة. هذه النصوص تؤكد على حقوق الضحايا في المشاركة وفي حقها بالتمثيل أمامها والحصول على التعويض.

وصول الضحايا إلى العدالة الجنائية الدولية حديث العهد إذاً، ولا يزال هزيلاً: النصوص مصدقة في قانون محكمة الجنايات الدولية CPI ولكن لم يتم إنتقال هذا التطور في قوانين المحاكم الدولية المعروفة بـ "الجيل الثالث" وكمثال على ذلك محكمة سيراليون الخاصة، والمحاكم الخاصة بمحاكمة الخمير الحمر أو أيضاً المحكمة العراقية الخاصة.

وهكذا نستنتج بأسف بأن القبول المتدرج للمسؤولية الجنائية الفردية لم يواكبه لحد الآن قبول حق الضحايا في المثل فعلياً أمام المحاكم المستقلة وغير المتحيّزة.

الإنسان والمراقبون الخاصون للأمم المتحدة كلهم ودون إستثناء بأنهم كانوا ضحايا للتعذيب كما كان حال كل المعتقلين منذ نهاية السبعينيات. يبدو إذاً بأن تعذيب السجناء لم يتوقف أبداً خلال هذه السنوات وإنما كان بأقصى درجاته، بضمنه تجاه الأحداث مهما كان جنس الضحية. أستخدمت معهم طرق تعذيب متعدّدة: إبتداءً بضرب الرجلين وإنتهاءً بالجلدة والتعذيب بالكهربة والحرق والإعتداء الجنسي ووصل الأمر أحياناً إلى قلع أظافر الأصابع. توسّع حجم هذه الممارسات كوسيلة لقمع إرادة المعارضة.

وإستناداً إلى أقوال المراقب الخاص للأمم المتحدة في مجال حقوق الإنسان بالعراق، "فالعقوبات المحددة في المرسوم رقم ١١٥ لمجلس قيادة الثورة، القاسية وغير المعتادة تشكل خرقاً صريحاً في إلتزامات العراق تجاه المادة ٧ من المعاهدة الدولية الخاصة بالحقوق المدنية والسياسية. إضافة إلى هذا يخرق المرسوم ١١٥ بنصه وروحه مبادئ الإعلان حول حماية كل الأشخاص ضد التعذيب والعقوبات الأخرى أو الممارسات القاسية، غير الإنسانية أو المشينة".

ملاحظات نهائية: للإعتراف بحقوق الضحايا العراقيين!

في الوقت الذي تم فيه تأسيس المحكمة العراقية الخاصة، وكيفما كان الرأي الذي نحمله تجاه هذا القضاء، فإننا نلاحظ عدم تحديد موقع للضحايا العراقيين.

أهمل القانون الدولي ولمدة طويلة مصير الضحايا. بفضل الإتفاقيات المتعلقة بحقوق الإنسان وعلى الأخص المعاهدة الدولية حول الحقوق المدنية والسياسية لعام ١٩٦٦، ومعاهدة مناهضة التعذيب لعام ١٩٨٤ أو المبادئ الجوهرية والتوجيهات المتعلقة بحق الإستئناف والمطالبة بتعويض ضحايا إنتهاك القانون الدولي الخاص بحقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني لعام ١٩٩٩، بفضل كل هذا تقدّمت فكرة بأن للضحايا حق تعويض ما لحق بهم أمام القضاء الوطني والدولي.

حينما تشكّلت المحكمة الجنائية الدولية في عامي ١٩٩٣ و ١٩٩٤ فقد تم نسيان الضحايا. تبّى محرّروا نصوص قانون المحكمة الجنائية الدولية لرواندا ونظام الدعوى القضائية والإثبات فلسفة الدعوى الأنكلوساكسونية والتي تقول بأن العملية الجنائية المعروضة أمام المحكمة الدولية تهدف أولاً إلى قمع الفعل الذي يمس النظام الدولي

سائقه وجرح قاسم فقط. تفرق المتآمرون وتبعثوا في الشوارع الضيقة لبغداد ونجح غالبيتهم في الهروب.

نجى السكرتير العام للبعث، فؤاد الركابي، وخلفه علي صالح السعدي بجلده من خلال الفرار إلى سوريا. رافقهم صدام حسين الذي التجأ لاحقاً إلى مصر وبقي فيها لخمس أو لست سنوات.

وتعتبر هذه الإقامة هي أطول فترة زمنية يقضيها صدام حسين خارج العراق فما عدا بعض الزيارات للعواصم العربية والأوروبية في سنوات السبعينيات وفي الثمانينيات كرئيس أو كمثل للعراق فصدّام حسين لم يغادر العراق إلا نادراً. وفوق ذلك يتحدث بلغة إنكليزية بدائية وركيكة ولا يعرف أي لغة أجنبية أخرى. فهذا يعني في النهاية بأن معرفته وفهمه للعالم الخارجي يعتمد على تفسير الحاشية التي تتردد أكثر فأكثر في إعلامه بالذي لا يود سماعه.

وهذا ما يفسر عناده ولو جزئياً بمواصلة غزوه للكويت. بالفعل، يبدو أنه كان يحمل تصوراً محدوداً أو غير موجود أصلاً بما يقبل به العالم ويسمح له. رغم عدم وجود براهين رسمية تثبت ما نقول فصدّام حسين عقد لقاءاته الأولى مع المخابرات المركزية الأمريكية عن طريق السفارة الأمريكية في القاهرة.

فالبعث والأمريكان كانا يحملان نفس الضغينة ضد الشيوعيين. وليس مستغرباً بسبب هزلة نظام عبدالكريم قاسم أن تبحث الولايات المتحدة الأمريكية عن حليف سياسي حكمت عليه بأنه متجانس، له مستقبل وخاصة في قمة " الصعود".

على هذا الصعيد أي قبل الانفصال النهائي وتشكيل الفرعين العراقي والسوري الذي جرى في عام ١٩٦٦ فالبعث استمر في العمل كتنظيم قومي: حيث يملك قيادة قومية مشكّلة من أعضاء ينتمون عملياً إلى جميع دول الشرق الأوسط. وهذا يعني بأن له السلطة على كل " القومية العربية".

بالنسبة للبعث فكل دولة هي " اقليم للأمة العربية"، وله قيادته القطرية (العراقية والأردنية...إلخ).

أحد أسباب صعود صدام حسين في الهرم الحزبي بعد عودته من مصر في عام ١٩٦٣ هو العلاقة الحميمة التي عقدها مع ميشيل عفلق وكذلك علاقته العائلية البعيدة

صورة للدكتور

بيتر سلوغليت

Peter Sluglett

ولد صدام حسين عام ١٩٣٧ قرب تكريت من عائلة فلاحية فقيرة. تكريت هي مدينة صغيرة تقع على نهر دجلة، على مسافة ١٥٠ كيلومتراً في شمال غرب بغداد المعروفة اليوم باسم " المثلث السنّي". وقد رباه زوج أمه ووالدته.

بعد إنتهاء المرحلة الابتدائية غادر إلى بغداد لمواصلة دراسته وكان العراق يومه محكوماً من عائلة ملكية قريبة من الغرب. بإستثناء الحزب الشيوعي العراقي الذي ينتمي إليه أعداد كبيرة فالأحزاب المعارضة الأخرى كانوا غالباً مدانون بالعمل في الخفاء.

في العام ١٩٥٥ لإنجذابه إلى القومية العربية التحق صدام حسين بحزب البعث العراقي الذي كان ينتمي إليه ٣٠٠ عضو تقريباً في تلك الآونة. في سيرته الرسمية كان على " رصيد " صدام حسين ثلاثة أو ربّما أربعة إغتيالات قبل محاولته إغتيال الرئيس العراقي عبدالكريم قاسم في تشرين الأول من عام ١٩٥٩.

النتيجة المباشرة للثورة التي قلبت النظام القديم وجاءت بعبدالكريم قاسم إلى الحكم في تموز من عام ١٩٥٨ هي هيمنة الشيوعيين على السلطة لفترة قصيرة. ولكن كان عليهم مواجهة العداوة الشرسة للقوميين العرب الذين تشكّلوا من الناصريين والبعثيين. وقد شعر الأخيرون وشاركتهم القوى الرجعية والدينية في الرأي بأن الراديكالية المفترضة للشيوعيين وشعبيتهم الظاهرية لدى أطراف الحكم تهددهم وتقلل من شعبيتهم.

في تشرين الأول ١٩٥٨ حاولت مجموعة متآمرة من البعثيين، بينهم صدام حسين وعلي صالح السعدي، رئيسي عصابات بغدادية مغامرة إغتيال الرئيس العراقي فقتلوا

مع أحمد حسن البكر وحردان التكريتي الذين ساندوه لتسلّم مسؤولية الفرع المدني للحزب العراقي في عام ١٩٦٤ .

كان قد وقع حزب البعث بشكل ما في النسيان أثناء هذه الفترة فإنقلاب شباط ١٩٦٣ على عبدالكريم قاسم قاده " تحالف " البعثيين مع الناصريين.

وفي تشرين الثاني من نفس هذا العام تتابعت أحداث مضطربة انتهت بإنشقاق الفرعين المدني والعسكري لحزب البعث والذي أدّى إلى طرد الممثلين المدنيين وعلى الأخص علي صالح السعدي إلى إسبانيا بطائرة عسكرية.

جاء عفلق من دمشق وحاول تهدئة اللعبة دون نجاح. إنضمّ جميع البعثيين الرسميين الكبار إلى جانب عبدالسلام عارف في صراعه ضدّ " المدنيين "، ولكن تم إقالة أحمد حسن البكر وحردان التكريتي وصالح مهدي عمّاش من وظائفهم في الحكومة وحلّ محلّهم مؤيدون أكثر أماناً لعارف.

في تمّوز من عام ١٩٦٤ أعلنت حكومة عارف برنامجاً طموحاً عن التأميمات شملت البنوك وشركات التأمين وكذلك الحقول الصناعية والتجارية الكبرى. مثلت هذه السياسة تحولات اقتصادية عميقة لم تباشر في العراق قبل هذا التاريخ.

لم تنجح هذه المبادرة لأنّ الذين إمتلكوا الوسائل نقلوا أموالهم خارج العراق بطريقة غير مشروعة.

واجه عارف معارضة بدأت تتصاعد فباشر بتثبيت موقعه معيّناً ضباطاً عسكريين من عشيرته الجميلة وسلّمهم المفاتيح الرئيسية للسلطة.

خلال كل هذه التغييرات والتي وضع الموت المفاجيء لعبدالسلام عارف بحادث طائرة في نيسان من عام ١٩٦٦ حداً لها لم يكن حزب البعث رغم ضعفه خارج السباق. وكانوا على إستعداد للتعاون مع القوميين والناصرين إن فتح لهم ذلك سبيلاً للدخول في الحكومة.

الأخوان عارف وعلي الأخص عبدالرحمن الذي أصبح رئيساً للجمهورية من نيسان ١٩٦٦ وإلى تمّوز ١٩٦٨ كان ينظر إلى الضباط البعثيين فيما إذا كانوا يصلحون لأن يكونوا وزراء أكثر ممّا ينظر إليهم " كمعارضين ". رغم كون هؤلاء معلّقين وظيفياً منذ بداية عام ١٩٦٤ فلم تُوجّه ضدّهم عقوبات ممّا سمح لهم إنتظار الفرصة المناسبة وراء

الكوايس وبراحة نسبية - التي حانت لهم في تمّوز من عام ١٩٦٨ .

لا ندري بدقة ما كان صدّام يفعل خلال هذه الفترة. فحسب أقواله، تم توقيفه وسجنه في تشرين الأوّل ١٩٦٤ " بعد حملة كبيرة من التوقيفات " ومن ثمّ أُخلي سبيله أو " دُفع " من السجن عام ١٩٦٦ ، في أيلول من نفس هذا العام اصبح سكرتيراً عاماً مساعداً للحزب. الأعضاء المهّمون الآخرون للحزب خلال هذه السنوات كانوا عبدالكريم الشيلخي، أحد مشاركي صدّام حسين في محاولة إغتيال عبدالكريم قاسم عام ١٩٥٩ ، مرتضى الحديثي من أصل تكريت، عبدالسلّم السامرائي وعبدالخالق السامرائي.

في عام ١٩٦٤ كلّهم أصبحوا أعضاء في القيادة القطرية والذي يماثل القيادة الاقليمية للتنظيم البعثي. يضاف على هؤلاء الأسماء كلّ من طه الجزراوي المعروف بطله ياسين رمضان من الموصل وصلاح عمر العلي من تكريت وعزّة مصطفى من عانة الذين تم تعيينهم كأعضاء للقيادة القطرية أيضاً في عام ١٩٦٦ بعد التحركات الداخلية التي صاحبت تشكيل حزبين مختلفين، البعث السوري والبعث العراقي.

في تمّوز عام ١٩٦٨ حدث إنقلاب آخر فأعاد البعث إلى السلطة وأحمد حسن البكر إلى الرئاسة. يبقى البعث نظرياً في السلطة منذ هذه اللحظة وإلى الغزو الأمريكي عام ٢٠٠٣ ، سهر صدّام حسين ليتمكن الحزب السيطرة على ماكنة الدولة وعلى القوّات المسلّحة بتعيين رجال يثق فيهم في مواقع إستراتيجية بالجيش وتحملّ بنفسه المسؤولية الأمنية للبلد.

في عام ١٩٦٩ وعمره لم يتجاوز ٣٢ سنة أصبح سكرتيراً عاماً مساعداً للحزب ونائباً لرئيس العراق. عبقرية صدّام حسين وإن كانت العبارة بهذه المناسبة غير سعيدة تتمثّل في أنّه آمن بقدر المستطاع من خلال الإرهاب والتصفيات الجسدية والتخريب والعقوبات النموذجية، الولاء غير المشروط والمطلق لحاشيته المباشرة. خلال أعوام السبعينيات ترسّخت سلطته بتحالفه مع البكر ووضع أصدقاءه وأعضاء من عائلته التكريتية في المواقع الأمنية الداخلية الرئيسية وفي الحرس الجمهوري. وهكذا فليس عجيباً أن ترى تعيين ثلاثة من إخوته من الأم (برزان ووطبان وسبعراوي) في مواقع رئيسية من السلطة خلال أعوام الثمانينات وإلى التسعينيات.

في نهاية ١٩٧٠ تمّ تعيين ٣٠٠٠ شخص في القوّات المسلّحة ممّا سمح للبكر

وصدام حسين بوضع ضباط سياسيين في كل المواقع العسكرية وهم أشخاص لهم تسلسلهم القيادي الخاص ولا يرتبطون بغير مرجعهم صدام حسين.

الصراع على السلطة وسط القيادة البعثية

بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٣ كان الصراع على أشده في أعلى مستويات البعث للهيمنة. والكل يدور بشكل رئيسي حول شخص صدام حسين وتعتمد قدرة أي واحد منهم بالإحتفاظ على موقع للسلطة على مدى موافقة السكرتير العام لمجلس قيادة الثورة.

نظراً للجانب الشخصي جداً لهذه الوظيفة السياسية فأنه يستحيل علينا تحليل الصراعات التي رافقت صعود صدام حسين من الناحية الفكرية.

الإستناد على هذا النوع من التحليل يربك أكثر مما يضيء الطبيعة الحقيقية لما كان يجري....

إضافة على ذلك فيما أن كل القرارات الداخلية للحزب كانت سرية وأن مجلس قيادة الثورة لا يكشف عن محاضر جلساته فليست معلوماتنا الخاصة بالقرارات المتخذة إلاً إفتراضاً بالطبع.

وهكذا فوصف الأحداث التي تراكمت مع صعود صدام حسين لا يمكن بناءه إلاً على تحليل نتائج مختلف القرارات المتخذة من القيادة لأنه من المستحيل بناء تركيب العملية التي أدت إلى هذه النتائج.

في نهاية عام ١٩٦٩ وبعدها بقليل كان لايزال هناك في الجيش وفي رأس الحزب جيوب مقاومة كبيرة للبكر ولصدام حسين. تراجع أحد مدنيي المجلس، عبدالسلوم السامرائي، وزير الثقافة والإعلام وعينه وزيراً للدولة في كانون الأول من عام ١٩٦٩ قبل أن يقيلوه ويبعده عام ١٩٧٠ ليكون سفيراً للعراق في الهند.

في تشرين الثاني من عام ١٩٦٩ تم الإعلان عن زوال وظيفه نائب رئيس الوزراء، وهو قرار موجه ضد الشخصين الذين أشغلا هذا الموقع، صالح مهدي عمّاش وحرمان النكريتي ؛ بالنتيجة لم يعد في وسع أي منهما الحضور في إجتماعات مجلس الوزراء بغياب أحمد حسن البكر. وتم تقليل سلطتهما أكثر في نيسان من عام ١٩٧٠ حينما أُقيل الإثنين من وزارتهما وتم تعيينهما " نواباً للرئيس". تواكب مع هذا التعديل سلسلة

من التقلات والترقيات العسكرية في أعلى المستويات. واجه صدام حسين إجمالاً صعوبات أكثر مما كان يتوقع للتخلص من عمّاش وحرمان النكريتي ولكن أحداث الأردن في عام ١٩٧٠ المعروفة باسم " أيلول الأسود " جهزت لصدام والبكر في النهاية التبرير اللازم لتنحية حرمان النكريتي وتصفيه مؤيديه الرئيسيين في صفوف القوات المسلحة.

مسؤولية عدم تدخل الجيش العراقي بجانب المقاومة الفلسطينية ألقوه على عاتق حرمان النكريتي بوصفه القائد العام المساعد للقوات المسلحة وأشيع بأن صدام حسين كان مؤيداً للتدخل ولكن تحرك حرمان بكل ما يستطيع أن يفعله لمنع تحقيق إرادته. نُفي حرمان إلى الجزائر في تشرين الأول من عام ١٩٧٠ قبل أن يلتجئ إلى الكويت حيث أُغتيل في عام ١٩٧١ لم يُطرد عمّاش في النهاية قبل شهر أيلول من عام ١٩٧١ حينما عُين سفيراً للعراق في موسكو. وفي نفس الفترة تم تنحية منافس آخر لصدام حسين من مجلس قيادة الثورة عبدالكريم الشيكلي وعينه ممثلاً للعراق في الأمم المتحدة.

مهما كان وحتى بعد نجاح صدام حسين بوضوح في فرض نفسه كرجل قوي في النظام قبل أيلول ١٩٧١ بكثير وتنحية الشيكلي وعمّاش فغالبية العراقيين وبضمنهم أكثرية أعضاء حزب البعث لم يعوا ويدركوا بوضوح مدى إتساع حجم سلطته ولا الوسائل التي إستخدمها للوصول إلى مآربه.

وهذا لأن البكر - صدام وحاشيتهم المباشرة سهروا دائماً على تقديم سلطتهم وكأنها للبعث والحفاظ على صورة مجلس يعمل بأسلوب جماعي يتخذ القرارات ديموقراطياً.

وتكرّست صورة " الحزب في الحكومة " لاحقاً مع الدخول المنظم لأعضاء الحزب في كل المؤسسات الحكومية والعسكرية وفي كل المنظمات الجماهيرية وكذلك في الإعلام عن طريق اللجوء المستمر إلى الزمرة الأيديولوجية للحزب لتبرير مختلف تصريحات النظام.

التحالف مع السوفيات

منذ إستلام السلطة في عام ١٩٦٨ حاول البعث تقديم نفسه على أنه حزب يساري عبر إتخاذه لسلسلة قرارات تقدمية ظاهرياً وإستمراره في تهميش الشيوعيين سواءاً

بالإستيلاء على أفكارهم أو بالتعامل معهم بأسلوب مزدوج يجمع بين القمع والمصالحة. (...). التكنولوجيا السوفياتية ساعدت العراق في إبراز قيمة المصادر البترولية غير المستغلة لحد هذا التاريخ في جنوب العراق والتي شجعت الحكومة بتأميم شركة النفط الوطنية العراقية في الأول من حزيران عام ١٩٧٢ وكذلك بالسيطرة على الربيع النفطي الهائل للبلد.

أي قرار لأي حكومة عراقية منذ ثورة الرابع عشر من تموز لم يولد حماساً جماهيرياً كهذا مما سمح للبعث إستغلال الرأسمال المعنوي المتولد من هذا الفعل خلال سنوات. ولأنّ تأميم النفط كان يشكل نقطة رئيسية في البرنامج السياسي للحزب الشيوعي العراقي فلم يبقى له سبيل غير الإلتحاق بالهوس الجماهيري وإستنشاق نسمة هواء النصر التي تهب على كل البلد.

لم يتولد الرأسمال المعنوي لوحده بالتأكيد وإنّما أصبحت " الحكومة العراقية " معادلاً " لصدّام حسين وحلقته " ، نظام دكتاتوري وراثي oligarchie يملك فجأة مداخل لا حدود لها.

تمّ بالتأكيد تخصيص جزء منها لتمويل مشاريع قابلة للحياة ولكن الجزء الأكبر منها أُستخدم أساساً لشراء مساندات القوى السياسية العالمية ولبناء قوة عسكرية تقليدية ولتطوير وسائل الرقابة والسيطرة البوليسية الأكثر كفاءة وحدثة.

مساندة الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي خلال سنوات الثمانينيات بالإضافة إلى إكتساب أجهزة تتطور بإضطراب سنة بعد أخرى وخلق أشد جهاز قمعي للسيطرة على الدولة، كل هذا يفسّر كيفية إحتفاظ صدّام حسين بالسلطة لفترة زمنية طويلة.

التحالف مع الشيوعيين الذي شجّع عليه السوفيات أعطى صدّام حسين الوقت الكافي للمباشرة بتكميم أفواه المعارضين الأكثر حدة، الكورد، لأنّه لم يكن له سبيل بالتعرّض إلى الهدفين في آن واحد.

إنهارت الحركة الكوردية في عام ١٩٧٥ نتيجة لإتفاقية الجزائر الموقّعة مع إيران بصورة غير منتظرة والتي بموجبها إلتزم الشاه بغلق الحدود الإيرانية وبمنع القوّات الكوردية من التجمّع والتسلّح في إيران . بالمقابل وافق العراق على النسخة الإيرانية

لخريطة الحدود بين البلدين في شط العرب وفي أي مكان آخر. وبعد هذا لم يعد للإقتران عقلياً بالشيوعيين موقع في الإعراب فتم مطاردتهم دون هوادة. في نهاية الثمانينيات، أصبح المثقّفون العراقيون وكل عراقيو اليسار تقريباً في السجون أو أُغتيلوا أو إضطروا للهجرة.

السلطة المطلقة

حينما وصل البعث إلى السلطة في تموز عام ١٩٦٨ لم يكن قادته معروفين بإستثناء البكر الذي كان واحداً من الضبّاط الأحرار عام ١٩٥٨ ورئيساً للوزراء من شباط إلى تشرين الثاني ١٩٦٣ . في ذلك اليوم كان عمر صدّام حسين ٣١ عاماً وكان قد إكتسب بعض الشهرة من خلال إشتراكه في محاولة إغتيال عبدالكريم قاسم عام ١٩٥٩ ولم يميّزه شيء عن الآخرين على الأقل خارج صفوف حزب البعث. وإستند تضامن البكر- صدّام المذكور وإعتمادهما على البعض بشكل كبير على علاقاتهما بالسلسلة القيادية لحزب البعث وهيمنتهما عليها في داخل وخارج القوّات المسلّحة.

بعد إستقالة حردان التكريتي وصالح مهدي عمّاش وفشل المؤامرة التي نظّمها ناظم كزار، مدير أمن صدّام حسين في تموز ١٩٧٣، لم يعد هناك من يثير النقاش حول قيادة البكر وصدّام وبإستثناء بعض التصفيات والإستقالات فقد ظهرا أسياداً على الموقف.

بالتوازي مع الإزدياد المضطرب لسيطرة الحزب على كل مفاصل الحياة كان صدّام يستخدم كفاعته السياسية والدبلوماسية المكتسبة حديثاً لكي لا يخرج عن سيطرته أي جهاز للدولة أو للحزب.

خلال السنوات الأولى لعب التأثير الشخصي لأحمد حسن البكر على الضبّاط الكبار دوراً حاسماً في تثبيت النظام على الحكم. مهما كان فإنّ "التبعيث " السريع للقوّات المسلّحة منذ نهاية الستينيات وخلال السبعينيات الذي رافقه تعيين ضبّاط سياسيين حزبيين بكل المستويات وإحالة مجموعة من الضباط غالباً ماكانوا من مؤيدي الحزب ولكن لم يكن ولاهم مطلقاً أو مضموناً، على التقاعد مع مخصّصات سخية. كل هذا أدّى إلى الهيمنة الكاملة للحزب على القوّات المسلّحة وجعل من مهمّة الوسيط بين " العسكريين " و " المدنيين " الممارسة من قبل البكر لا تعني الكثير.

في كانون الثاني من عام ١٩٧٦ قلدَّ صدام حسين، الذي لم يشترك في أي دورة عسكرية، نفسه رتبة فريق وذلك، بالعودة إلى الوراء، أي تحديد تاريخ منحه للرتبة إعتباراً من ١ تموز ١٩٧٣ ، بعد هذا التاريخ بأسابيع أُعلن عن مضاعفة عدد أفراد الجيش الشعبي، التشكيلة العسكرية المرتبطة بالحزب ووضعت تحت قيادة طه ياسين رمضان.

خلال السنوات التالية إزدادت تجهيزات هذا الجيش بحيث جعلته قوةً مقابلة للجيش النظامي. في تشرين الأول ١٩٧٧ سلمَ أحمد حسن البكر حقيبة الدفاع إلى صهره المقدم عدنان خيرالله والذي كان نسيباً لصدام حسين. وفي نيسان من عام ١٩٧٨ كان لا يزال عمر عدنان خيرالله ٣٨ عاماً حينما مُنح رتبة فريق.

في حين كان يُمنح لضباط الجيش النظامي مرتباً عالياً ويتمتعون بإمكانيات كبيرة في العمل والجيش مجهز بأحدث الأسلحة ولكن حجم السيطرة المتدرجة للجيش الشعبي " كغريم للجيش النظامي " وكذلك الهيمنة المفروضة من عائلة صدام حسين على القوات المسلحة أدت إلى تحييد إمكانية أن يتحوّل الجيش إلى مصدر معارض للنظام.

إضافة إلى هذا فالدوائر الأمنية الداخلية الملحقه بالدائرة العامة للمخابرات ترفع تقاريرها إلى صدام حسين عبر ابن عمه سعدون شاكر ورقابة وسيطرة الحزب الذي يقوم بها رسمياً " ضباط التوجيه السياسي " وموظفون من الحزب يرتبطون أيضاً مباشرة بنائب الرئيس.

بالرغم من أنه لا يمكن تسمية النظام على أنه عسكري خالص مثل الدول التي تغتصب سلطتها زمرة عسكرية وتخلق بعدها حزباً من كل قطعة فإنّ القوات المسلحة لم تكن بأقل من عمود رئيسي للسلطة. فمن المخطيء في هذه الحالات وصف النظام على أنه " مدني " أكثر ممّا هو " عسكري " لأنّ المفصلان يتداخلان.

رافق " التبعية " المنهجية لجهاز الدولة، والتدخل بكل الوسائل في مفاصل الحياة السياسية وكذلك إعتبار القوى السياسية الأخرى كلها خارجاً عن القانون وعلى الهامش صراع معقّد من أجل السلطة والوظائف الرئيسية في داخل قيادة الحزب.

رغم صعوبة تقييم الضغوطات والحركات التي كانت تنسج وراء الأبواب المغلقة في

تلك المرحلة من الواضح أنّ الصعود القوي لصدام حسين وتقلده رويداً رويداً لمناصب السلطة الرئيسية كان يشكّل تهديداً للكثير في أوساط القيادة التي هيمن عليها في النهاية كدكتاتور أوحده وخاصةً لأنّ صحّة البكر كانت تتّجه رويداً رويداً من سيء إلى أسوأ.

الربط المباشر بين عملية " التبعية " وأساسيات السلطة الشخصية لصدام حسين ينعكس بشكل خاص في إندماج القيادة القطرية للبعث مع مجلس قيادة الثورة في أيلول ١٩٧٧ والذي كان يعني نهاية البعث كهيئة مستقلة.

هذا القرار الذي يمكن تسجيله في الحقيقة ضمن إستراتيجية بعيدة المدى لإمتصاص (أو لإفساد) كل شخص يُحتمل أن يشكّل خطراً فعلياً أو كامناً، فإذا لم يكن بإمكانه إضعافه أو تصفيته ينبغي عليه تحييته ويفسر الحالة على أنه من أجل " تعميق المشاركة الجماعية والديموقراطية " .

كان أوّل " قرارات " مجلس قيادة الثورة الموسّع هو إصدار مرسوم بنقل كل جوانب السياسة النفطية والتجارة البترولية من وزارة النفط إلى هيئة المسائل النفطية وتطبيق الإتفاقيات والتي يترأسها، لا داعي لأن نقول، نائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدام حسين. ينص المرسوم على أنّ الرئيس هو " المسؤول عن كل جوانب السياسة النفطية، عن التنسيق والعمليات وبأنه لا يمكن إتخاذ أي قرار يخص تجارة النفط دون موافقته " .

وهكذا تم إيجاد نوعاً من الإنسجام في داخل القيادة. على أي حال، ضرورة شدّ الصفوف لمواجهة سلسلة من " التهديدات " الداخلية والخارجية ككامب ديفيد والثورة الإيرانية أدت إلى تغطية الإنقسامات لفترة ما على الأقل. فبينما إستمرت حملة قمع وأضطهاد مضاهرات الشيعة التي بدأت منذ عام ١٩٧٧ شرعت الحكومة في قيادة حملة حقيقية هذه المرة ضدّ الشيوعيين في ربيع عام ١٩٧٨ في الوقت الذي واجهت فيه كوردستان سياسة الأرض المحروقة الشرسة وحيث تضاعفت الإعدامات والإقالات في صفوف القوات المسلحة.

إستطاع صدام حسين في هذه الفترة، في قمة بغداد، أن يسجّل لأول مرة طفرة نوعية على خشبة مسرح السياسة العربية-العربية. أهدافه الأساسية كانت عزل

وإدانة مصر وعدم الإعراف باتفاقيات كامب ديفيد في الوقت الذي يسعى إلى تخفيف حدة توتر علاقاته مع سوريا.

إنتظر الرفاق إستقالة البكر في عام ١٩٧٩ ليعودوا إلى التمرد من جديد.

في ١٦ تموز ١٩٧٩، غداة الإحتفال بالذكرى الحادية عشرة لإستلام البعث للسلطة، أعلن البكر إستقالته في التلفزيون وأدى صدام حسين " القسم " مباشرة كرئيس للدولة، عملية إنتقال للسلطة يبدو بأنها كانت مهياًة بدقّة ومنتظرة منذ أمد.

في الخطاب قام أحمد حسن البكر بمدح صدام حسين ودعم " ترشيحه ". أصبح عزة الدوري، رجل صدام الوفي منذ بداياته نائباً للرئيس. كانت بعض الإشارات المعلنة للأحداث بادية على السطح والمثال على ذلك تبديل محي عبدالحسين المشهدي بطارق حمد العبدالله في وظيفة سكرتير مجلس قيادة الثورة.

بعد ذلك بخمسة عشر يوماً أي في يوم ٢٨ تموز من عام ١٩٧٩ تم إعلان " مؤامرة " مدبرة من قبل سوريا مستهدفة قلب النظام فشكّلت محكمة حزبية خاصة مؤلفة من سبعة أعضاء لمجلس قيادة الثورة برئاسة نعيم حداد وبعد أيام تم تنفيذ حكم الإعدام بـ٢٢ شخصاً ومن ضمنهم المشهدي وأربعة من زملائه في المجلس وكذلك بعدالخالق السامرائي الذي أودع في السجن منذ عام ١٩٧٣ لمشاركته المفترضة في محاولة مؤامرة قلب النظام من قبل ناظم كزار.

بعد تنفيذ الحكم سمى كل من نعيم حداد وصدام حسين والأعضاء الباقين من القيادة هذه الإعدامات ب «إعدامات ديموقراطية».

صوّرت " دعاوي " و " إعرافات " المشهدي في فيلم وتم إستنساخ وتوزيع واسع للفيديو داخل الحزب كشاهد إثبات على جريمة وذنب المتآمرين وعلى مشاركة سوريا في القضية. وتبقى هذه المرحلة بارزة في كونها أنّ عدداً من الذين تم إعدامهم ينتمون إلى الحاشية القريبة من صدام حسين وفي وقتها قيل الكثير بشأن ذلك بأن البعض منهم لم يكونوا حذرين فتجرأوا الحديث عن إقامة نوع من المركزية قد تجاوزت الحدود. وبأنّ المشهدي قد عبّر عن قلقه من الأساس العائلي لسلطة صدام حسين وأنّ واحداً آخر قد طعن مصداقية صدام في مقولته بأنه أُنتخب بالإجماع في الوقت الذي لم يصوّت بنفسه لهذا الأخير. ولا يمكن معرفة الحقيقة حول مشاركة سوريا كذلك،

الحجة التي إعتد عليها صدام حسين لتخليص النظام من إلتزام الوحدة التي نادى بها الطرفان.

بعد التصفية، تم تقليص عدد أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى ١٦ عضو لم ينجو منهم غير ثمانية في سلسلة أخرى من الإقالات قام بها في حزيران من عام ١٩٨٢ . رغم أنّه لم يتم إعدام هذه الوجبة كرفاقهم في ١٩٧٩ فقد أوضحت مجريات أحداث عام ١٩٨٢ وجود نواة قوية داخل المجلس مؤلفة من عزة الدوري وطه ياسين رمضان " الجزراوي " ونعيم حداد وحسن علي العامري وسعدون شاكر وطارق عزيز وعدنان خيرالله.

لا نعرف غير القليل عن العامري؛ شاكر، ابن عم صدام حسين، أصبح وزيراً للداخلية وحداد في الأوقات العادية كان رئيساً " للبرلمان " العراقي الذي تم تأسيسه بمهرجانات وطبول والذي صدّق بلا تحفّظ على كل قرارات النظام في سنوات الثمانينيات والتسعينيات وعدنان خيرالله، نسيب صدام حسين، كان لوقت طويل وزيراً للدفاع ومات في نيسان من عام ١٩٨٩، موت تم تسويقه على أنّه وقع بسبب " حادثة طائرة مروحية ". يبقى عزة الدوري وطه ياسين رمضان وطارق عزيز الذين شكّلوا مع أفراد عائلة صدام حسين القرييين والبعيدين، حسين كامل المجيد (صهر الرئيس) قائد الحرس الجمهوري، وإخوته من أمه برزان (مدير الأمن العام)، سبعاوي (نائب مدير الشرطة) ووطبان (محافظ لتكريت) نظاماً دكتاتورياً وراثياً يقودون البلد.

بعد مرور سنة على تقوية وتثبيت سلطته أقدم صدام حسين في محاولة جريئة بل جازف بإحتلال أراضي الجمهورية الإسلامية الفتية لإيران لتأكيد قيادته الإقليمية.

على صعيد السياسة الخارجية، أدت الحرب إلى إعتقاد العراق المتزايد على الغرب وعلى حلفائه العرب التقليديين منها الأردن ومصر. حاول صدام حسين إقناع جزء من مستمعيه العرب بأنّ إيران متحالفة مع الصهيونية وبأنّ الحرب هي " مؤامرة صهيونية عالمية مدبرة ليس للعراق فحسب وإنما ضد المنطقة كلّها " ومن جهة ثانية كان العراق مستعداً بشكل ما التخلي عن موقفه الصلب تجاه قضية الصراع العربي الإسرائيلي مقابل المساندة الأمريكية (انظر إلى فصل جوناثان راندل عن الولايات المتحدة-العراق، العلاقات الغامضة).

بعد أيام من العودة الكاملة للعلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٨٤

صرّح طارق عزيز للتلفزيون الأمريكي بأنّ بلاده تساند " أي إتفاقيه عادله، مشرفه ودائمه بين الدول العربيه وإسرائيل " مضيفاً بأنّ " العراق لا يعتبر نفسه طرفاً مباشراً في النزاع لأنّ إسرائيل لم تحتل أي بقعة أرض عراقية ". ونظراً لعدم مواكبة التهديدات المنطلقة من العراق بالفعل في هذا الشأن لذا لم يتم معاينة هكذا تصريحات بالشكل المطلوب.

التأثير السياسي للحرب على العراق

لم تضعف طوال الحرب عبادة شخصية صدام حسين ؛ فقد كتب في عام ١٩٨٣ صحافي يقول: " في الواقع، حينما تمشي في الشوارع يستحيل عليك عدم الوقوع على صورة أو رسم أكبر من الطبيعي لصدام حسين وهو بالبزة العسكرية، بالقاط والرباط أو مرتدياً الملابس العربية التقليدية. صورته مطبوعة على كرات قدم الأطفال." في البداية وُضعت للحرب تسمية " قادسية صدام " تخليداً لذكرى الإنتصار الإسلامي الاسطوري على الفرس في عام ٦٣٧ م (تركت هذه التسمية تدريجياً عندما إبتعدت إحتمالية الإنتصار). وتم كذلك تغيير اسم مدينة الثورة التي بناها عبدالكريم قاسم في بدايات ١٩٦٠ للفقراء وسمّوها مدينة صدام في تشرين الأول من عام ١٩٨٢ .

بقيت المعارضة الشيعية للنظام العراقي سرّية خلال الحرب وأخطر مظاهرات المعارضة كانت تأتي من الكورد والشيوعيين. إضافة على هذا فقد أصبحت المعارضة الشيعية والكوردية والشيوعية ضعيفة جداً بسبب عدم توحيد جهودهم أو لتعارض أفكارهم (التي لا يمكن تجنبها بسبب إختلاف الأهداف) أو الإثنين معاً.

بعد بدايات ناجحة أخذت القوات العراقية تتراجع تحت ضغط الإيرانيين ومن ثمّ تراوحت المواقع وإستمر النزاع لثمانى سنوات (انظر فصل كريس كوتشيرا " حرب إيران- العراق "). اليأس والهزائم الإيرانية يعود سببها إلى الضغط الممارس عليها من قبل الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي وذلك بتجهيز العراق بالأسلحة والمعلومات والتدريب.

في آب من عام ١٩٨٧ وقّع العراق مع الولايات المتحدة الأمريكية إتفاقيه إقتصادية وفنية لمدة خمس سنوات تضاف إليها مساعدات غذائية بقيمة مليار دولار. و في الوقت

نفسه قامت الولايات المتحدة الأمريكية وعدد من الدول الأوروبية الأخرى بتجهيز العراق، عن طريق دول ثالثة، بأسلحة ذات تكنولوجيا متقدّمة وأعطوه وسائل لتصنيع أسلحة كيميائية وبكتريولوجية أو تجهيزه بالسلح مباشرة أو عن طريق دول أخرى مخالفين بذلك قوانين تلك الدول (انظر فصل خالد صالح " تجار الموت ").

السيطرة على الجنوب كانت بادية وقويّة فركّز صدام حسين إهتمامه بشمال العراق (كوردستان) حيث بعض المناطق الحدودية محتلّة من قبل إيران منذ تمّوز عام ١٩٨٣، من خلال مرسوم صادر في ٢٩ آذار من عام ١٩٨٧، تم تعيين علي حسن المجيد، ابن عم صدام، القائد الأعلى في الشمال. سجّل هذا التعيين البداية أو ربّما درجة أعلى من الإضطهاد بحيث أدرك مستوى لم يمر في الخيال، الشروع في حملة جينوسايد (إبادة) ضدّ الشعب الكوردي. تم إزالة مئات القرى من الوجود خلال هذه السنة- وهذا يعني بأنّه تم تهجير المواطنين وأنّ مساكنهم قد سوّيت على الأرض وسمّمت الآبار أو تم سدّها بالكونكريت المسلّح.

في نيسان ١٩٨٧ كما كان الوصف الدقيق لكنعان مكية فقد تم قصف قرية شيخ وسان بالأسلحة الكيميائية وإضطّر الأحياء منهم على المغادرة والهجرة. يمكن إعتبار هذا العمل والهجمات الأخرى المثيلة لها كبداية لحملة أخرى مبرمجة ضدّ الكورد سمّيت بالأنفال والتي إنطلقت بعدها بسنة تقريباً (انظر فصل كريس كوتشيرا، " حملة الأنفال ").

في ٢٠ تمّوز من عام ١٩٨٧ إستجابة للضغوط العالمية الكبيرة تبنى مجلس الأمن القرار رقم ٥٩٨ الذي ينادي بإيقاف الحرب ويوعد بتشكيل لجنة تحقيقية لتعيين ايّ من الطرفين كان معتديا على الآخر. وافق العراق على القرار ؛ وحاولت إيران التملّص. مع ذلك، وبالرغم من ضعف إيران فقد كانت لا تزال قادرة على تكبيد العراق خسائراً جسيمة وإحتلال جزءاً من أراضيه. في ربيع ١٩٨٨ أطلقت إيران هجوماً في شمال العراق بمساندة الإتحاد الوطني الكوردستاني وإحتلت مدينة حلبجة في ١٥ آذار. قصفت القوآت الجوية العراقية في اليوم التالي مدينة حلبجة بالغازات السامة أدت إلى مقتل خمسة آلاف مدني وإلى هروب مائة ألف إنسان نحو إيران وتركيا. وفي نيسان وحزيران إستخدمت القوآت العراقية الأسلحة الكيميائية من جديد لإستعادة الفاو ومهران.

بدأت المقاومة الإيرانية تتنفس بصعوبة في هذه الفترة، ففي بداية تموز إنهارت معنويات الحكومة الإيرانية أكثر بفقدان طائرة الخطوط المدنية الإيرانية التي ضربتها سفينة حربية أمريكية. سلسلة من الإنكسارات العسكرية قادت إيران إلى فقدان كل الأراضي العراقية المحتلة في أواسط تموز.

في ١٨ تموز ١٩٨٨ أعلن خميني قبول إيران غير المشروط للقرار ٥٩٨ وإلى نهاية تموز دفع العراقيون القوات الإيرانية إلى خارج مركز وجنوب العراق وفي ٢٠ آب تم وقف إطلاق النار بين الطرفين.

ضرب حلبجة في عام ١٩٨٨ ونزوح الأحياء منهم نحو تركيا وإيران والهمس الدائر حول تجاوز حملة الأنفال للحدود المعقولة لم يثر رداً للفعل لدى الحماة الغربيين للعراق باستثناء بعض الإنطباع السيء الذي تركه هذا العمل لديهم، إحساسهم بأن طفلاً إنفعالياً قد تجاوز ربما الحدود. كما تم التأشير لذلك لاحقاً فحلبجة لم تكن ربما إلا خطوة أولية لحملة أوسع وأشمل وإن لم تكن وحشيتها محسوسة بشكل كامل في العراق.

مع الزمن يظهر بأن المخابرات السرية الأمريكية والبريطانية كانت تحمل فكرة واضحة لما يجري؛ بالفعل، مبدئياً يتوجب أن يكون تدمير البنى التحتية مرئياً على صور الأقمار الصناعية. ومع ذلك إرتأت الحكومات الغربية بمعظمها المحافظة على صمتها وكانت واعية جداً بأن الإدانة العلنية ستضر بمصالحهم.

الوضع السياسي والعسكري بعد الحرب

بين نهاية العمليات الحربية في ١٩٨٨ وغزو الكويت في عام ١٩٩٠ جرت محاولات عديدة للوصول إلى حل نهائي بين الطرفين. لكن في كل مرة كان العراق يتماطل في المفاوضات لأن صدام حسين كان يحب بكل بساطة أن يظهر بأنه هو المنتصر في النهاية. وكان هناك أيضاً مسألة تنفيذ الشرط رقم ٦ في قرار الأمم المتحدة ٥٩٨، " إجراء تحقيق حول مسؤولية الطرف الذي بدأ الحرب " فربما كان يستنتج بأن الباديء هو العراق. مع ذلك ورغم العلاقات المتشنجة فلم تكن هناك أية إشارة تذر بإحتمال عودة العمليات على نطاق واسع.

بعد مرور اسبوعين على غزو الكويت أي في ١٥ آب ١٩٩٠ اقترح صدام حسين على

إيران إتفاقية تفترض التطبيق الكامل للقرار ٥٩٨ وكذلك تستند على إتفاقية الجزائر الموقعة في آذار ١٩٧٥ والتي مزقتها على شاشة التلفزيون العراقي أمام الملا قبل ذلك بعشر سنوات. فهذا التصرف كان يعني بشكل ما الإستسلام بفرضية أن هذه الحرب مع كل ما رافقها من خسائر بشرية ومادية كانت في النهاية فارغة من أي معنى.

رغم أن العراق، في نهاية الحرب عام ١٩٨٨، لم يكن يعاني من أي ضغط جدي لتسديد ديونه ولكن سعتها عقدت مسألة الانتقال من إقتصاد الحرب إلى إقتصاد السلم. وخلافاً لتمنّيات وإفتراضات الكثيرين من الناس فإن الحرب جعلت من العراق قوة عسكرية وأصبح جيشه أقوى بكثير مقارنة مع ما كان في ١٩٨٠.

في سنوات ١٩٧٩-١٩٨٠ كان عدد الجيش العراقي ١٩٠٠٠٠ فرد؛ في عام ١٩٨٧-١٩٨٨ وصل الرقم إلى أكثر من خمسة أضعاف أي بحدود المليون وإزادات التجهيزات بنفس النسبة. إضافة على ذلك طور العراق صناعة عسكرية هامة ومن بين ما كان ينتج صواريخ أرض - أرض طبقاً لموديل سكود السوفياتي بالتعاون مع مصر والأرجنتين.

في ١٩٨٩ - ١٩٩٠ بدأ حجم التصنيع العسكري يضايق الكثيرين على المسرح العالمي وخاصة حينما تم التأكد بأن العراق يصنع أسلحة كيميائية وصواريخ متطورة جداً وأنه في سبيل إمتلاك الوسائل الضرورية لصناعة السلاح النووي بفضل مساعدات أساسية قادمة من الشركات الغربية والأمريكية.

لم تكن لصدّام حسين شخصياً أي تجربة عسكرية وهذا ما أعاقه وشكل لديه نقصاً جدياً حين إدارته لحرب طويلة مرتبطة بشخصه ومستقبله.

فكلما إستمرت الحرب التي كانت نهايتها بعيدة كان يتضاعف عدد الضباط؛ إضافة على ذلك فقد كان هناك احتمال بأن يصعد من بين صفوفه منافس جدي يتحدّى الرئيس. لتقوية حصانته ضد هذه الفرضية مارس صدام حسين أقصى سيطرة على الجيش وعلى قيادته ممّا كان يعيق جدياً سير العمليات الحربية. وهكذا فالفريق ماهر عبدالرشيد، قائد الفيلق السابع القادم من تكريت والذي إكتسب سمعة وشهرة خلال المرحلة الأخيرة من حملة تحرير الفاو في نيسان ١٩٨٦ وكريمته المتزوجة من أصغر أبناء صدام حسين، قصي، وكذلك الذي إحتل العديد من أقربائه مراكزاً هامة في الجيش والإدارة، فقد وقع هذا الرجل تحت رحمة الرقابة في خريف عام ١٩٨٨ وأصبح مقيماً جبرياً في مسكنه.

في بداية عام ١٩٩٠ تفاعلت مجموعة من العوامل وقدمت للقائد العراقي إمكانية التقمص من جديد وأخذ دور الرجل " المحاصر".

ففي شباط فضحت الميديل إيست ووج Middle East watch وهي منظمة غير حكومية لها مقر في نيويورك ونشرت تقريراً عن وضع حقوق الإنسان في العراق ؛ وفي آذار نددت الصحافة الغربية وأدانت العراق على إعدامه للصحفي البريطاني فرزاد بازوفت Farzad bazoft (المتهم بالجاسوسية) ؛ وفي نيسان انفجرت فضيحة ما سميت " بالمدفع العراقي العملاق " ومن ثم مسألة إكتشاف قطع الغيار الجوهرية للأسلحة النووية في حقائب المسافرين العراقيين المارين عبر مطار هيثرو. قدمت هذه الحوادث وكأنها دلائل على مؤامرة الامبريالية الغربية ضد العراق والأمة العربية وقامت الصحافة العراقية بقيادة حملة إعلامية شرسة ضد الأمريكان لإستمالة عقل وقلب العراقيين وغيرهم في العالم العربي .

وقام الإعلام العراقي بإتهام الدول المجاورة أيضاً على خيانتها للعراق وللأمة العربية. في بداية ١٩٩٠ مارس المسؤولون العراقيون ضغطاً قوياً على رؤساء دول الخليج لخفض إنتاج النفط ولزيادة سعر البرميل إلى ٢٠ دولار. وفي نفس هذه الفترة أصر صدام حسين الحصول على مرفأ في المياه العميقة للخليج لأنه لم يكن تحت تصرف العراق غير ميناء أم قصر وممراته الضحلة جداً.

وضع صدام حسين عينيه على الجزيرتين الكويتيتين بوبيان ووربة وطمع فيهما كبديل عن مرفأ بحري يمكن الإستفادة منهما. في ربيع ١٩٩٠ صعد صدام حسين من مزايداته من خلال مطالبته بممر إلى هذه الجزر ومكرراً الإدعاءات العراقية حول حقه في حقول الرميطة الممتدة من شمال الكويت وإلى العراق. وهدد الكويت أيضاً على مجازفتها حينما طالبت من العراق بتسديد جزء من ديونها وعلى مساهمتها في تخفيض سعر البترول إلى مستوى واطيء. في تموز من عام ١٩٩٠ تم إرسال قسم من الجيش العراقي على طول الحدود وأمام رفض الكويت بالإستجابة لمطالبه إحتلها العراق في ٢ آب وجعلها محافظة تابعة له.

التطور الهائل للجيش خدم في المحصلة صدام حسين في نهاية الحرب لتثبيت موقعه. إستخدم " الإنتصار" على إيران للمطالبة ضمناً بقيادة العالم العربي وهو مطلب عبر عنه من خلال إستخدامه لصورته وإثارته للعاطفة القومية العربية. وكذلك من خلال ظهوره المرتب والمنسق بدقة وهو يرتدي الزي العربي التقليدي متنقلاً على حدود العراق ؛ وكذلك من خلال إكتشافه للإسلام ؛ وفي لهاته وعجلته بالتدخل في الشؤون الداخلية اللبنانية وحتى قبل نهاية الحرب (جزئياً للإنتقام من سوريا المتحالفة مع إيران)...ومع كل هذا فإن أساس سلطته في العراق، قبل وبعد الحرب، كان يستند كلياً على أفراد عائلته المباشرة أو الذين إرتبطوا معها بعلاقات زواج منذ فترة طويلة.

التهديد للغزو

بفضل الإحتياجات النفطية الهائلة للعراق فبالرغم من وضعه الإقتصادي من المؤكد السيء بعد خروجه من الحرب فلا يمكن إعتباره دولة بائسة. كان يكفي أن لا ينهار سعر البترول وأن تدار الشؤون بحذر وأن توضع مراقبة صارمة على الإستيرادات والإنفاقات الحكومية لكي تستعيد الدولة عافيتها الإقتصادية.

مع هذا فالخيارات السياسية إختلفت كلياً. فرغم أن إعادة بناء المدن والبنى التحتية للصناعة تُعتبر أهدافاً هامة، فقد تم تخصيص خمس مليارات دولار سنوياً للتسليح في ١٩٨٨-١٩٨٩ وملياران ونصف فقط للبناء والذي تضمن مشاريع إستعراضية لتخليد النصر" مثلاً أو بناء قصر رئاسي جديد. بهذا الشكل أصبحت " الحالة ميئوس منها " بسبب الإنفاق الذي يعبر عن أولويات صدام حسين أكثر مما يعبر عن هدف إقتصادي للبلد.

مباشرة بعد الحرب إعتبر صدام حسين وبصورة مُعلنة تعمير البلد وخاصة تعمير مدينة البصرة كتحدٍ وطني يستدعي مساهمة جميع المواطنين العراقيين. وشدد بأن الثمن المفروض دفعه والذي لا يمكن إجتنابه سيكون غالباً جداً وأصر كذلك على ضرورة شد الحزام والقبول بالتضحيات لفترة معينة. فضلاً عن ذلك بعد إهماله للإلتزامات الإشتراكية والحماية الإجتماعية التي كانت تنادي بها الأيديولوجية البعثية أخذ صدام حسين يبحث عن الجديد من وسائل التشنج والإثارة كي يدفع بالقومية نحو الأمام ولكي يؤكد في الوقت نفسه بأنه لا يزال مؤمناً بالوحدة وبالأمة العربية.

غزو الكويت وتناجه

كان ردّ الفعل على غزو الكويت في ٢ آب ١٩٩٠ سريعاً. بشكل عام لم يتعاون أي دولة عربية مع العراق ولكن البعض منها كالاردن واليمن وكذلك ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية تردّوا لأسباب مصلحية محضة بإدانة هذا الفعل علنياً. على المستوى العالمي تبنى مجلس أمن الأمم المتحدة بسرعة سلسلة من القرارات تدين العراق. في ٧ آب أمر بوش بإرسال قطعات أمريكية محمولة جواً إلى العربية السعودية للدفاع بشكل خاص عن هذا البلد تحسباً لأي هجوم عراقي محتمل. أغلقت السفارات الغربية في الكويت وأرسل موظفيها إلى بغداد. في الأسابيع والشهور اللاحقة وقتلت القوّات العراقية عدداً كبيراً من الكويتيين بشكل عشوائي: وأوقفت كذلك كل عراقيي الكويت وسجنتهم (معظمهم كانوا لاجئون سياسيون).

تمّ توقيف الآلاف من الكويتيين وإختفى الكثيرون منهم إلى الأبد. أفرغت المستشفيات والبنائيات الحكومية من أجهزتها وساد النهب والإعتداءات على المدنيين. في بعض مناطق العالم العربي وخاصة في الأردن والأراضي المحتلة وكذلك في بعض المدن المغربية كنّا نرى هياجاً شعبياً مصحوباً بعلامات تأييد لصدّام حسين لأنّهم على الأرجح وجدوا فيه الشخص الذي لا يهاب تحدّي الغرب وتوابعه المحليين (كان صدّام حسين نفسه وقبل فترة وجيزة من هذا الحدث واحداً منهم). ولم تكن العلاقات بين الفلسطينيين ودول الخليج بأجمل صورها بسبب اسلوب تعاملها معهم. إزداد الحقد ضدّ الغرب والصهيونية فأدرك القمّة؛ كعادته إستخدم صدّام حسين حركة الرأي لمصلحته ونادى بالجهاد ضدّ " أعداء الإسلام". وأصدر آية الله العجوز عبدالقاسم الخوئي، المرجع الديني للشيعة، فتوى تدين كل تحالف ماضي بين المسلمين وغير المؤمنين ضدّ المسلمين. إستمرّ صدّام حسين في الشهور التالية باللعب على الحس الإسلامي مندداً بوجود القوّات غير الإسلامية على الأرض العربية المقدّسة. مهما يكن، وحتى لو أنّ فكرة الحرب الدينية " الإسلام ضدّ الكفر" التي باشر بها صدّام حسين لا تتفق مع الواقع فيقينا أسلوبه في تحدّي الولايات المتحدة الأمريكية سحر وجذب إليه بشكل مؤكّد العطف والمساندة غير المشروطة في العالمين العربي والإسلامي.

تحت ضغط الولايات المتحدة الأمريكية تبنت الأمم المتحدة في تشرين الثاني القرار

٦٧٨ وهو القرار الأكثر حسماً لحد هذا اليوم حيث تسمح نصوصه للدول الأعضاء بإستخدام كل الوسائل الضرورية لإجبار العراق بالخروج من الكويت إن لم يحصل الإنسحاب قبل ١٥ كانون الثاني ١٩٩١ .

حينما تجاهل صدّام حسين هذا الإنذار قامت الولايات المتحدة والمتحالفين معها في ١٧ كانون الثاني بضرب الأهداف العراقية مسبباً العديد من القتلى المدنيين وأضراراً بالغة في البنى التحتية للبلد. فردّ العراق بضرب إسرائيل والسعودية بصواريخ سكود. قُتل ١٥ إسرائيلي في تل أبيب نتيجة لهجمات هذه الصواريخ ولكن إسرائيل لم تردّ عليها. وبعد مرور خمسة أسابيع من القصف الجويّ باشرت القوّات البرية في ٢٤ شباط هجومها الذي أدّى إلى تفكيك وتدمير الجيش العراقي بأكمله في ٢٧ شباط أي يوم وقف إطلاق النار؛ وفي المساء تم طرد القوّات العراقية من الكويت بأكملها.

نتائج حرب الخليج

إستناداً إلى أقوال راصد فقد زاد عدد القتلى بسبب الغزو والحرب (إعتباراً من ٢ آب ١٩٩٠ وإلى ٢٧ شباط ١٩٩١) عن ١٠٠٠٠٠ قتيل مدني وعسكري وعن حوالي ٣٠٠٠٠٠ جريح. هاجر أكثر من مليونين ونصف شخص من الكويت وهم مضطرون على ترك منازلهم ومواقع عملهم. والخسائر الماديّة تجاوزت ما قيمته ١٧٠ مليار دولار في العراق و ٦٠ ملياراً في الكويت ودون إحتساب الخسائر في مجال البيئية بعدما قام العراق بتفجير ٧٠٠ بئر نفطي كويتي.

وطبعاً لكون أنّ وقف إطلاق النار مع إيران لم يكن قد مرّ عليه عامان في آب ١٩٩٠ فتأثير هذه التجربة الإضافية على الإقتصاد العراقي كان أكبر من تقديره هذه الأرقام.

إنتفاضة الجنوب الشيعي وكوردستان

بعد أيّام من دخول وقف إطلاق النار حيّز التنفيذ في شباط ١٩٩١ انفجرت مظاهرات ضدّ النظام العراقي في الجنوب وفي كوردستان. ففي ٤ آذار إستولت القوّات الكوردية، البيشمركة على مدينة السليمانية وفي ٢٤ آذار سيطرت عملياً على كل كوردستان بما فيها مدن أربيل وكركوك. حتّى ولو أنّ " المتمرّدون" نجحوا في الإستيلاء على بقع واسعة من الأراضي بين نهاية شباط وبداية آذار فقد ردّت وحدات الحرس الجمهوري بوحشية إستثنائية

ونجحت سريعاً في إستعادة البصرة والنجف وكربلاء.

في المدن الجنوبية قام المنتفضون بأسر وقتل المسؤولين المحليين للبعث وعناصر المخابرات وعوائلهم تعبيراً عن حقدهم لهذا النظام الذي قمعهم. وحينما إستعاد الحرس الجمهوري سيطرته على المدن الجنوبية قام بدوره بتنفيذ الإعدامات الجماعية دون أي تمييز بين الجماهير. وقد صبغوا على الدبابات شعار " لا شيعة [حيّاً] بعد هذا اليوم " فهدموا العديد من العتبات المقدسة في المدن الشيعية. قُتل ٣٠٠٠٠٠ شخص أثناء هذه العمليات.

كانت سياسة الغرب تجاه العراق بعد حرب الخليج مترددة، مضطربة، غير موقّعة والرؤية المستقبلية على المدى البعيد غائبة عنها. حيث شجّعت الولايات المتحدة الأمريكية والمتحالفين معها المنتفضين الشيعة والكرديين بصراحة ولكنّها خذلتهم ولم تساندهم حين الإنتفاضة ممّا ولّد شكّاً حول " نيّتهم الحقيقية".

عبرت العربية السعودية وتركيا عن قلقها تجاه أي مساندة أمريكية، معلنة أو خفية، تقوي وتشد من عزيمة الشيعة الذين، كما قيل في حينها، تقف وراءهم إيران. والقلق نفسه عبّروا عنه بخصوص الكورد حيث كانوا يردّدون بأنّه ينبغي إحتواءهم ولكن بعدما نقلت القنوات التلفزيونية صوراً عن معاناتهم وآلامهم إستحال عليهم عدم الإستجابة سياسياً لمساعدتهم.

إضافة على هذه العصبية المكشوفة عند جيران العراق وحلفائهم الغربيين فقد كان سبب سقوط الإنتفاضة هو إفتقار المعارضة للوحدة والإنسجام وكذلك عدم إستعدادها. فمشاكل التعبئة كانت واضحة ؛ لكن المعارضة أظهرت عدم قدرتها في إستغلال إنهيار الجيش والوضع الإقتصادي السيء. يبدو واضحاً ومعلوماً للجميع بأنّه رغم عدم إرتياح المجتمع العراقي خلال الحرب مع إيران وحرب كانون الثاني- شباط فقد تمكّن صدّام حسين من إستغلال الحس الوطني للعراقيين الأمر الذي أخرج المعارضة التي لم تخلق لحد هذا التاريخ إنطباعاً بأنّها لا تسير في درب مشترك مع أعداء العراق.

عقوبات وتفشيحات الأمم المتحدة

جمّد قرار الأمم المتحدة المرقّم ٦٦٠ والمتبنّى في ٦ آب ١٩٩٠ كل الأموال العراقية في الخارج وفرض حصاراً على المبادلات التجارية وسمح فقط بإستيراد التجهيزات الطبيّة

والمواد الغذائية دون إنتقاص. تمّ تعديل نظام العقوبات بعد وقف إطلاق النار في نيسان ١٩٩١؛ حتّى وإن لم يعد العراق مجازاً بتصدير النفط فقد كان بوسعه إستيراد الغذاء و " كل المواد الضرورية الأولى للمدنيين" (القرار ٦٨٧). وسترفع العقوبات إذا نفّذ العراق أربع شروط أساسية:

- كشف وإزالة أسلحته ذات الدمار الشامل؛

- تأشير حدوده مع الكويت مصحوباً بالإعتراف على السيادة الكويتية؛

- تحرير الكويتيين والأجانب الآخرين المحتجزين في العراق؛

- إنشاء لجنة تعويضات تقوم بتقدير خسائر الحرب ويدفع العراق من خلال إقتطاع ٣٠٪ من مدخول نفطه.

في ٢٠٠٣ لم يكن العراق قد لبّى بغير شرط واحد من هذه الشروط بالكامل، وإستجابة لضغط عالمي قوي أعلن في ٤ تشرين الثاني ٢٠٠٤ إعترافه بالحدود والسيادة الكويتية. بصراحة، لم يكن متوقّعاً أن يستمرّ الحصار إحدى عشرة سنة وأدّى هذا الزمن الطويل إلى العديد من النتائج غير المحسوبة.

التوافق العالمي الذي كان أساسياً لفرض العقوبات تراخى جزئياً على مدى السنين بسبب نتائجها المدمرة على المواطنين المدنيين وكذلك بصورة خاصة نتيجة لأنّ دولاً " مترددة " مثل الصين وفرنسا وروسيا كانت ترجو الإستفادة من الإمكانيات التجارية المربحة جداً والتي منعتها عنهم.

فضلاً عن ذلك فإنّ محاولات الوصول إلى إتفاقية بشأن " النفط مقابل الغذاء " قد رفضت بشكل ثابت من قبل العراق لإعتبارها تدخلاً بخصوص سيادته الوطنية. ما ترجّاه العراق قبل مايس ١٩٩٦ حينما وافق على القرار ٩٨٦ هو رفع العقوبات بأكملها. ولكن أُسْتُبعد هذا الإحتمال نتيجة لإعترافات اللاجئين المستمرة أو لكشوفات مفتشي الأمم المتحدة حول حجم السلاح النووي والكيميائي والتقليدي في العراق.

أُخرجت فعاليات المفتشين العراقيين بأقصى الدرجات ولكن ذلك يعود إلى أنّهم تسترّوا على الكثير من البرامج ولأنّ النظام بصراحة إعتبر الإحتفاظ بالإمكانيات أفضل من التضحية براحة المواطنين.

خلق " منطقة عازلة " في عام ١٩٩١ تغطي القسم الأعظم من المنطقة الكوردية أدّى إلى إنسحاب السلطات المدنية والعسكرية العراقية تدريجياً من المنطقة وإلى ولادة إقليم مستقل عملياً متبّعاً مساراً يمتد من حدود تركيا وإلى الحدود الإيرانية ماراً بجنوب مدينة زاخو وأربيل وبغرب جمجمال وكفري.

في نهاية نيسان وخلال مايس ١٩٩١ زار بغداد القائدان السياسيّان الكورديّان الرئيسيّان مسعود البارزاني وجلال الطالباني وقد يمكن وصف زيارتهما كمحاولة " لإدخال كركوك وخانقين ومنذلي ضمن الاقليم المستقل.

من الصعب توضيح التغيير الذي حصل في علاقة القائدين مع بغداد سواءً في عام ١٩٩١ أو خلال العقد الذي تلاه. فمن الممكن بأنّ البارزاني على الأخصّ قد تأثر كثيراً بما حصل لشعبه من إبادة وكان على معرفة بالوحشية اللامتناهية للنظام وأنّه إعتبر بقاء الكورد في الوجود أولوية لديه كما أنّه ربّما فكّر بأنّ ما يبغيه يمكن تحقيقه بالتفاوض أكثر ممّا يتمكن الحصول عليه بالتحديّ.

في خريف عام ١٩٩١ إنقطعت المفاوضات في بغداد وتجدّدت المناوشات بين القوآت الحكومية والكورد ففرضت بغداد حصاراً على الاقليم.

رغم أنّهم يشكّلون أكثر من نصف المواطنين فقد مارست الحكومات المتعاقبة على العراق تمييزاً ضدّهم وعلى الأخصّ في عهد البعث. وبرز هذا التمييز خلال عمليات الطرد الجماعي في سنوات الثمانينيات ووصل إلى أقصى مداه خلال إنتقامات الحرس الجمهوري الرهيبة بعد إنتفاضة الجنوب عام ١٩٩١ ، وإستمر مع الترحيل القسري لقسم كبير من مواطني منطقة أهوار الجنوب في بداية ١٩٩٠ . في نهاية آب ١٩٩٢ فرض الحلفاء منع الطيران على منطقة واقعة في جنوب خط عرض ٣٢ ويعود السبب جزئياً إلى الإعتداءات الجوية والبرية العراقية على الجنوب وإلى ضحايا الجينوسايد من عرب الأهوار. يعود سبب المعارضة الشيعية في عهد البعث إلى التمييز المذهبي الذي مارسه الحزب تجاههم وليس لأنّ لديهم مطالب دينية ينادون بها.....

عملياً، منذ وصول البعث إلى السلطة في نهاية سنوات الستينيات لم يُسجّل إعتبار لحقوق الإنسان ما عدا خلال فترة نسبية بين ١٩٧٤ و١٩٧٨ حينما إضطرّ التحالف مع الشيوعيين. ويجب علينا أن لا ننسى بأنّه عند مروره في السلطة بين شباط وتشيرين الثاني ١٩٦٣ إنتمى البعث إلى حكومة لم تتردّد في إرتكاب أفزع أنواع العنف على الإطلاق منذ الحرب العالمية الثانية. وقد تطرّق إليها كلّ من دافيد ماكدوال في (التاريخ الحديث للكورد) Modern History of The Kurds وكذلك الدراستان المنشورتان في لندن عام ١٩٨٦ و ١٩٩٤ من قبل فران هازلتون Fran Hazelton (حملة ضدّ القمع ومن أجل الحقوق الديمقراطية في العراق) وخصّص لها بصورة ناطقة سمير خليل وكنعان مكية في قسوة الصمت وجمهورية الخطر مساحات واسعة عن الجرائم المرتكبة من قبل النظام العراقي ضدّ شعبه خلال أعوام الثمانينيات والتسعينيات.

منذ غزو الكويت فالتقارير المنشورة سنوياً من قبل الإدارة الأمريكية

Country Reports on Human Raights Practices (وكذلك العائدة إلى اللجنة العليا للأجّيين (UNHCR) تثير الرعب واليأس. لم يكن، بإختصار، لدولة القانون وجود في العراق. مارس النظام التوقيف والسجن والتعذيب والإعدامات بشكل عشوائي وإعتباطي.

وفقاً لمنظمة العفو الدولية في عام ١٩٩٧ إختفى مئات الآلاف من العراقيين منذ بداية الثمانينيات. وقد حصل أن طلبت السلطات من العوائل أن تذهب إلى السجون أو إلى المشرحة لإستعادة أجساد المعدومين. وفي آب ١٩٩٤ صدر القرار ١٠٩ والذي ينص بتطبيق عقوبة وشم الجبين بالنار أو قطع الأذان على المتخلّفين من الجيش وعلى الخارجين عن القانون وسارقي السيّارات ؛ كان على الأطبّاء تنفيذ هذه العقوبات وإلّا فسوف يتحملون ذات المصير.

لم تكن هنالك حرية التجمّع ولا الإنتخابات عدا بعض الإستفتاءات الصورية لتعزيز سلطة الرئيس. أُعتبرت الإنتقادات الموجهة ضدّ الرئيس أو التذمّر من حالة البلد جرائم لا يمكن إغتفارها.

خلال حرب الخليج وفي عدّة مناسبات أُخرى إدّعت بعض المنظّمات الإنسانية التي

رغبت إنتهاء العقوبات بأن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها إعتبروا بل لا يزال يعتبرون صدام حسين والنظام العراقي كالشيطان لتبرير حرب الخليج ومن ثم الحفاظ على العقوبات المفروضة عليه.

لكن الحقيقة هي أن النظام قد " إستخدم الحصار للتأثير على رجال السياسة وعلى المثقفين الغربيين وكأنه لم يكن مسؤولاً عن الوضع المأساوي للشعب العراقي وكأن الحصار لم يكن مرتبطاً بمسألة حفاظه على السلطة ."

واضح جداً بأن الولايات المتحدة وحلفاءها وكذلك الإتحاد السوفياتي وحلفاءه قد صنعوا هذا النظام السادي والعنيف ومن ثم جهزه بالأسلحة المتطورة ومنحوه الوسائل لصناعة أسلحة الدمار الشامل إعتبراً من بداية السبعينات وخلال سنوات الثمانينات وقد أقفلت كل الحكومات الأجنبية عيونها على الطبيعة السيئة للنظام العراقي حتى غزو الكويت في آب ١٩٩٠ .

لا يمكن تغيير الحقائق بأي حال من الأحوال وليس مستغرباً أن يحاول واحد من الإدارة الأمريكية الإعتراف علناً بما حصل كما فعلوا مؤخراً بخصوص الدور الذي لعبته الولايات المتحدة الأمريكية للإبقاء على الملكية الإيرانية المنبوذة شعبياً في آب من عام ١٩٥٣ أو بخصوص الإطاحة بالحكومة الشيوعية المنتخبة ديموقراطياً في أيلول ١٩٧٣ .

ولكن مهما كان تأثيرالعقوبات المفروضة على العراق ورغم نتائجها الفضيعة والعذاب الكبيرالذي تحمّله الشعب العراقي فلا يمكن أيضاً إنكار سيادة الرعب والإرهاب الذي فرضه صدام حسين والجرائم الوحشية المرتكبة ضدّ المواطنين قبل فرض العقوبات بوقت طويل وخلالها.

فلربما لم يفتال صدام حسين ناساً بقدر ما فعله هتلر و بول بوت أو ستالين ولكن الحال التي أوصل إليها بلاده من خلال تعلّقه وتعلّق نظامه بالسلطة يضعه في خانة أسوأ هؤلاء الطغاة.

السياسة العراقية إعتبراً من عام ١٩٩١

بقيت السياسة العراقية جامدة على حالها قبل غزو الكويت ولحد عام ٢٠٠٣ . قائد دكتاتوري محاصر حكم دولة فأفقرها إلى أدنى مستوى بفضل بعض الشركاء القدامى

والقريبين منه وساندته عدّة دول من الجوار بحماسة إن لم نقل ظاهرة فسوف نقول باطنية.

إعتبراً من عام ١٩٦٨ حينما وصل البعث إلى السلطة (على الأقل نظرياً)، ومن ثم إعتبراً من عام ١٩٧٩ حينما أصبح صدام حسين الحاكم الأوحدهم لم تتمكّن أي سلطة حقيقية بديلة ومعترف بها إظهار نفسها سواءً في خارج البلد أو في الداخل فلم يكن هنالك لا لينين في المنفى ولا منديلا في السجن لإثبات قياديته.

بنظر الكثير من العراقيين في المنفى في ١٩٩٠ - ١٩٩١ ففترة غزو الكويت كانت مشحونة بالإنتظار والغيان الشعبي: وأخيراً ذهب الدكتاتور بعيداً جداً ؛ وأخيراً سينال ما يستحقّه. الهموم التي أشغلت بال العراقيين كانت غريبة على القوميين العرب بمختلف إتجاهاتهم الذين تجاهلوا الماضي الغامض لبطلم ورأوا في صدام حسين المتحدّي اللزوم والضروري لمرحلة رئيسية في طريق بناء الأمة العربية وتحرير فلسطين وتحقيق أي حلم جميل آخر. متناسين وعلى عجل بأن العراقيين هم أنسب الناس للحكم لأنهم ذاقوا هيمنة البعث خلال إثنتا وعشرين عاماً.

مرّ النظام بصورة مستمرة بمشاكل كثيرة منها محاولات إنقلابية وإغتيالات لشخصيات هامة. بعض تلك المؤامرات شملت عناصر قيادية في الوحدات الخاصة للحرس الجمهوري المشكّلة رئيسياً من أفراد ينتمون إلى قبائل الدليم والجبور والعبيد فواجهت هذه الوحدات قمعاً عنيفاً خلال ربيع وصيف عام ١٩٩٥ .

وحصل أيضاً إنشقاق كبير ومخرج من بين الشخصيات القيادية وأكثرهم إثارة هو مغادرة إبنتي صدام حسين إلى الأردن برفقة الأطفال والأزواج في آب عام ١٩٩٥ ، واحد من أزواج بناته - كانوا إخوة وأبناء أعمام لصدام حسين - يدعى حسين كامل المجيد وكان وزيراً سابقاً للصناعات العسكرية أبدى في عمان إستعداده لتسليم معلومات دقيقة عن القدرة العسكرية للنظام. وبتصرف جنوني عاد الصهران مع عوائلهم إلى العراق في شباط عام ١٩٩٦ فقتلهم وقتلوا أيضاً المقربين الآخرين من الذكور بعد مرور يوم على وصولهم.

التغييرات والإنقلابات التي حصلت وسط القبائل الموالية والموثوق بها سابقاً، الإنشاقات والمشاجرات العائلية العقيمة بدأت تنخر بغطاء قدر الضغط الذي أجلس

عليه صدام حسين سلطته ولكن دون أن تؤدي به إلى الهاوية. وبعد ١٩٩٨ ظهر بأن الرئيس قد تراجع قليلاً في إعماده على المقربين من الشبكة العائلية واتجه نحو حزب البعث مانحاً إيها الإهتمام الذي فقده في فترة ما.

في منتصف حربه ضد إيران انحرف إتجاه النظام نحو الإقتصاد الحر ساعياً بذلك تفضيل نوع من " الفاعلية " من جهة والتخلص من جزء هام من القطاع العام من جهة ثانية.

كحال أوروبا الشرقية فالهيكل البيروقراطي لشركات القطاع العام كانت مؤلفة من عناصر ومسؤولي الحزب (الشيوعي في الشرق والبعثي في العراق) ووجد هؤلاء أنفسهم وهم يتراجعون تدريجياً أو بلا وظيفة. وفي ذات الوقت يبدو أن النظام قد تقرب من العشائر وترك الحزب. مهما يكن فالوضع الإقتصادي والإجتماعي المنهار في نهاية التسعينيات وبداية القرن الواحد والعشرين أعاد للحزب أهميته وعبر الرئيس عن سعادته على جهوده المبذولة في ميدان الرقابة على الأسعار والتوزيع العادل للمواد الغذائية.

عند نهايات عهده قلّد صدام حسين مناصباً كبيرة لعدد من أعضاء الحزب القدامى، الأوفياء له، حيث أن بعضهم كان قد إرتبط بالحزب وبصدام منذ محاولة إغتيال عبدالكريم قاسم في عام ١٩٥٩ . وهكذا فقد منح الرئيس ثقته الواسعة " بالحرس القديم " ، هؤلاء الرفاق الذين كانوا معه منذ البداية: طارق عزيز الناطق الرسمي بلسانه للعالم أجمع وعزة الدوري وطه ياسين رمضان.

الإستنتاج

في نهاية التسعينيات أو بالأحرى حتى ١١ أيلول ٢٠٠١ فالعالم كله كان يجتمع على الرأي القائل بأن الدكتاتورية أفضل من الفوضى وأمام خطر تقسيم العراق فالأولى ترك الأمور على حالها.

أكبر أخطاء عملية " عاصفة الصحراء " كان بالتأكيد إنهاء الحرب قبل الوصول إلى حل. إستناداً على تاريخ التدخّلات العسكرية الأمريكية فمن الصعب قبول التصريحات المزكّشة للمسؤولين الذين إعتبروا بأن الإدارة الأمريكية ستتجاوز بخطورة حدود مهمتها فيما إذا سمحت لشوارزكوف بإرغام النظام العراقي على إستسلام مهين.

بعد سنتين من سقوط النظام فرغم كل شيء من الصعب علينا التفكير بأن حال العراق بدون صدام حسين لم يصبح أفضل. وتشير مغادرته نهاية فصل مأساوي أسود عن تاريخ العراق وعن تاريخ المنطقة بشكل عام وحيث لم يكن متوقّعاً الوصول إلى أي سلام أو مصالحة داخلية أبداً طالما بقي صدام حسين وأزلامه في السلطة وكان واضحاً لنا بأنه ليس في قدرة المعارضة الداخلية إزاحة هذا النظام يوماً ما. لهذا السبب ساندت وربما بسذاجة حرباً هدفها المعلن هو مغادرة صدام حسين للحكم. إضافة إلى ذلك فحتى لو أنه من غير المحتمل تواجد إتصال فعلي بين العراق والقاعدة بسبب التناقض الكبير في " مبادئهم " السياسية ولكنني كنت أخشى إمتلاكه (جاهلاً ما نعرفه اليوم جميعاً) لأسلحة الدمار الشامل. على أية حال، ليس من الحكمة الإعتقاد بأن المقولة التي يكررها بوش وبليز في كل مناسبة " حال العالم أفضل (وأكثر أماناً) بدون صدام حسين " تشرح بشكل وافي أو تبرر عدم كفاءة السياسة الأمريكية في العراق. فذلك غير صحيح.

دون أدنى شك، يسير العالم بشكل أفضل بلا صدام حسين ومع ذلك فهل الغاية تبرر كل الوسائل؟ تمنى معظم العراقيين التخلص من صدام حسين وكانوا غير قادرين على ذلك بمفردهم ولكنهم لم يحبّوا أن يتحقّق هذا الأمر على حساب الانهيار الكلي تقريباً للأمن العام في أجزاء كبيرة من البلد. ولم يباركوا تشكيل حكومة مكونة كلياً تقريباً من لاجئين قدماء، نقول هذا دون الشك بالضرورة في شخصياتهم ولكنهم بصراحة هم دمي في يد الامريكان.

و نقول على نفس المنوال بأنه، في عالم مثالي، لا ينبغي على أي بلد إرسال جيش إحتلال إلى بلد آخر ولا البحث عن تعويض للأموال المصروفة في العمليات العسكرية من خلال منح مواطنيه عدداً من عقود بناء ما بعد الحرب الراححة عن طريق مزايدات تجارية غير واضحة بتاتاً وهكذا إلى آخره.

إن كانت عدم الكفاءة والحماقة المطلقة للسياسة الأمريكية في العراق واضحة وبيّنة فلا بد من الإعراف بأن الولايات المتحدة قد أزاحت عن السلطة نظاماً منعزلاً وسيئاً للغاية. وليس واضحاً على الإطلاق بأن الأمريكان سينجحون في بناء ما ادّعاه بول فولفويتز وآخرين غيره، الديموقراطية في الشرق الأوسط على المدى البعيد. فجميع الأنظمة العربية تقريباً منبوذة ومكروهة من الشعب الذي يتحملها كل يوم وسبب ذلك

يعود جزئياً ربّما إلى المساندة التي تلقّاها أو التي تلقّتها معظم هذه الأنظمة ومن ضمنها العراق من الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن جهة ثانية فبناءً أو تشجيع الديمقراطية هو هدف سامي وتحقيقها سيثير الحماس في كلّ المنطقة كما حدث الأمر في أمريكا الجنوبية.

يبدو أنّ المشكلة الحالية في العراق هي أن يُسمعوا صوتهم وأتساءل كم من الوقت ينبغي على الشعب الأمريكي وبشكل خاص على الشعب العراقي المُنهك أن يتحمّلوا عدم القدرة اللامتناهية ظاهرياً للولايات المتحدة في الفهم.

٣

حزب البعث:

الوحدة العربية القومية - الإستراتيجية والدكتاتورية

بيتر سلوغليت

Peter sluglett

في فجر القرن الواحد والعشرين لم يعد يقتنع حتّى أكثر المؤيدين حماساً بتحقيق الوحدة العربية. ولولا دفع الكلمات الجارية للدفاع عن الأنظمة الدكتاتورية الساعية إلى الحفاظ على بقائها في السلطة لكانت قد إنتهت ومنذ أمدٍ بعيد بتلك الأيديولوجيات المنسية وذات الذكريات الحزينة.

برزت فكرة الوحدة العربية التي يجسدها البعث في أسوأ صورها بعد إنهيار الامبراطورية العثمانية وخلق دول عربية جديدة أثناء ما بين الحربين العالميتين. الوحدة العربية التي ظهرت بعد سقوط الإمبراطورية هي صورة من القومية الاثنية - اللغوية كما رأينا بروزها في بقاع أخرى. ولن يكون عبثاً إذا قمنا بدراسة هذا " الخط الثقافي " لتحديد الطريق الذي مرّت عليه هذه الأيديولوجيات عند تطوُّرها خلال القرن العشرين.

جذور الوحدة العربية " السياسية "

مهما يقوله بعض المفكرين المعاصرين والقدماء فلم يكن هناك عدد مُعتَبَر من سكرة الامبراطورية ينادون ومنذ زمن " بالتخلُّص من الهيمنة العثمانية " وبإدارة شؤونهم بإستقلالية عن إستانبول. ومن المخطيء أيضاً الاعتقاد بأنّه كان لهؤلاء المواطنين العرب المستائين نظرة واضحة عن ماضي عربي أصيل قبل العثمانية وبأنهم كانوا يطمحون العودة إليه بعد التحرير.

في الواقع، شكّل العالم العربي كياناً سياسياً موحداً خلال فترة زمنية قصيرة نسبياً، من ٧٠٠ - ٩٠٠ بعد الميلاد في عهد الأمويين ومن ثمّ العباسيين. وفي نهاية

القرن العاشر إنقسم العالم العربي إلى مقاطعات دون أن يكون في الوسع إعتبارها كمدخل لكيانات سياسية عصرية. تم إدارة حكم هذه المقاطعات من قبل سلالات محلية مختلفة (مغربية على سبيل المثال) أو خارجية (أتراك ومماليك).

واضح جداً بأن وجود الاختلافات والتنوعات السياسية لم يمنع بروز ثقافة وحضارة " عربية - إسلامية " تستند على لغة ودين مشتركين بتنوعات محلية وإقليمية. عند المقارنة نلاحظ تطابقاً في الكثير من النقاط مع تطور حضارة القرون الوسطى " المسيحية " في أوروبا الغربية المؤسسة على لغة دينية وأدبية مشتركة مع تنوعاتها المحلية والإقليمية المشتركة. بإختصار " فالوحدة العربية " موجودة على أنها صورة لأمر أخلاقي أكثر مما هي عنصر للذاكرة الشعبية الحية وبإستثناء فترة زمنية قصيرة فلا يمكن إعتبارها " كواقع تاريخي " حتى إذا تم تقديمها منذ سنوات العشرينات على هذا الشكل وبإلحاح لأجيال من خلال المراحل الدراسية في الدول العربية.

مع ذلك، وبسبب المواظبة على هذه الأسطورة فمن المفيد تخصيص بعض الوقت لنسفها. في كتاب الأمم والقومية Nations and nationalism المنشور في عام ١٩٩٠ يسجل إيريك هوبسباوم Eric Hobsbawm بأن " القومية تفرض إعتقاداً كبيراً بشيء غير موجود أصلاً " ويتابع حديثه بعرض المقولة المنقولة في ما هي القومية لرينان Re-nan: " النسيان وأقول حتى الخطأ التاريخي هما عاملان رئيسيان لتكوين القومية ولهذا فغالباً ما يُعتبر التقدم في الدراسات التاريخية خطراً على الجنسية ."

بالنسبة للعالم العربي هناك إعتقاد بأن الحرب العالمية الأولى أدت مباشرة إلى تغيير أربعة قرون من التجزئة والامبريالية والحكم الفردي العثماني بالامبريالية الفرنسية والانكليزية. ويمكننا القول حقاً بأن الإدارة الإستعمارية أو الشبه إستعمارية لأوروبا قد أحرّت أو فرملت " التطور العربي " ولكن في ذات الوقت ليس صحيحاً إعتبار الإمبراطورية العثمانية على أنها شكل " بسيط " من أشكال الامبريالية. وعلى نفس النهج نقول ليس صحيحاً أيضاً تسجيل بداية النضال القومي " العربي " ضدّ العثمانيين قبل القرن العشرين.

هنالك سببان رئيسيان ومتداخلان قد أديا إلى عدم إنتشار النضال القومي في الأقاليم العربية للإمبراطورية العثمانية إلا بعد مرور زمن. أولهما كان الهوية حيث أنها

عُرّف دينياً وسط الشعوب وليس قومياً وثانيهما فالأمة الإسلامية بغالبيتها تنتمي إلى المذهب السنّي كما كان حال العثمانيين. وبالنتيجة فمفاهيم " الحكومة الظالمة لطاغي أجنبي " لا تتوافق مع التاريخ. وكان سبب شكاوى الفلاحين العرب هو إمّا الضرائب العالية المفروضة عليهم أو الفساد المتفشي وليس بسبب الإلتناء القومي المختلف عنهم. وظهرت الأفكار القومية الإثنو- لغوية وتقرير المصير مبكراً في القرن التاسع عشر بين شعوب الجنوب الشرقي لأوروبا العثمانية. فهكذا كان حال اليونان في الجزء الذي لم يكن يوغوسلافياً بعد وكذا الأمر بالنسبة لبلغاريا ورومانيا الحالية ممّا قادهم إلى الإستقلال خلال القرن التاسع عشر. وأوروبا الجنوبية الشرقية كانت مسيحية أرثوذكسية بشكل رئيسي يعيش معهم قلة من المسلمين. كانت غالبية الشعوب تتحدث بلغات محلية مختلفة والتي تحولّت إلى لغات قومية للدول الجديدة.

لم يتم التعبير عن شعور " قومي " مماثل في الأقاليم العربية إلا نادراً مقارنة مع حركة التجديد اللغوي والأدبي المبدع النهضة في نهاية القرن التاسع عشر. بل على العكس فالإصلاحات الجوهرية للقرن التاسع عشر حفّزت بشكل عام بل حتى ساهمت في خلق مجموعات قويّة في المقاطعات التي لها روابط متينة مع إستانبول.

الفكر السياسي والإجتماعي التقليدي للسلطان عبد الحميد (١٨٧٥ - ١٩٠٩) وكذلك الإمتيازات الحقيقية الممنوحة لأشراف المدينة الذين ساندوه ساهما في إضعاف المعارضة أينما تواجدت ففي سوريا مثلاً تحدّدت هذه المعارضة بين ناس لم يتحمّلوا الإستبداد وطمحو إلى الحرية السياسية وكذلك وسط علماء الدين الذين رأوا فكرة الوحدة الإسلامية التي نادى بها السلطان بأنها لم تعد تلبّي حاجة الإصلاحات الإسلامية بعمق. وبالنتيجة عند إستيلاء لجنة الإتحاد والترقي على السلطة أثناء ثورة الشبيبة التركية في عام ١٩٠٨ إستقبلت جماهير مدن سوريا الكبرى هذا الحدث بحماس وفسّرتّه بأنه بداية لعصر جديد قد يدفع بالإمبراطورية العثمانية لإستعادة موقعها الطبيعي كعضوة في نادي " الأمم العصرية ": عصر أو زمن يسمح لهم التمتع بالحقوق التي وعد بها الدستور العثماني لعام ١٨٧٦ قبل أن يعلّقها عبد الحميد في عام ١٨٧٨ .

ولكن هذه المحاولة، أي محاولة الإستيلاء على السلطة لم تعجب الكثيرين من " النبلاء والأشراف " لأنهم رأوا في ذلك مخاطر التطبيق الفعلي لمفاهيم " الحرية " و

المساواة ". في الواقع، إستوجب إنتظار تنحية عبد الحميد عن الحكم ومردودات إنقلاب نيسان ١٩٠٩ لتتمكّن الشبيبة التركية تدريجياً بسبب مساندتها المتزايدة لقضية " التتريك " التملّص من دفاعه عن الحقوق المدنية وعن تمسكه بالعادات التقليدية.

وحتى أنّ خبر إلحاق إيطاليا للـ " تريبوليتين " عام (١٩١١) والهزائم الكبيرة للعثمانيين خلال الحربين البلقانيتين (١٩١٢ - ١٩١٣ و ١٩١٣) أثارت مظاهرات كبيرة في حلب والعديد من المدن العربية تأييداً للعثمانيين. يبدو أنّ الهدف الرئيسي لقادة ما نسّمهم " بالمعارضة العربية " خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى كان بالتأكيد بناء شكل مقبول من العثمانية يرتكز على لا مركزية إدارية واسعة.

وبعد إنهاء الإمبراطورية في عام ١٩١٨ لم يعد لهذا الخيار وجود طبعاً. فلحد هذا التاريخ يبدو أنّ " الأغلبية المسلمة وحتى بعض المسيحيين قد إعتبروا الإمبراطورية العثمانية القوّة السياسية الوحيدة الباقية والقادرة على مواجهة الطموحات الإستعمارية الأوروبية ". بإختصار، ليس هناك شيء يجعلنا نعتقد بوجود حركة واسعة " ناكرة للعثمانيين " قبل الحرب العالمية الأولى.

وأخيراً رغم الجهود البريطانية والفرنسية حول إنتقاد الإمبراطورية العثمانية لتبرير " أراضيها العربية خلال وبعد الحرب العالمية الأولى فالإمبراطورية العثمانية بإستثناء بعض المقاطعات البعيدة لم تكن ساكنة وجامدة ومتأخّرة. كما كتب عن ذلك جيمس جيلفين James Gelvin قبل فترة وجيزة: " في بداية القرن العشرين كان هناك أكثر من نصف مليون موظّف عثمانى يؤدّون واجبات تخص أصلاً الدولة - القومية وذلك إعتباراً من إدارة المستشفيات وإنتهاءً ببناء وصيانة البنى التحتية الجوهريّة " .

ويذكر راشد خالدي شعوراً مماثلاً حينما يلاحظ بأنّ " لأنظمة الإنتداب في الشرق الأوسط إمتياز خاص...حيث أنّها حلّت محل دولة قوية نسبياً - الإمبراطورية العثمانية القديمة " .

الحرب العالمية الأولى والصعود القومي العربي

هنالك عوامل عديدة ظهرت خلال الحرب العالمية الأولى وساعدت في بروز الوعي القومي بمستوى أعمق ممّا كان في السابق....

عملياً خلال فترة الحرب العالمية الأولى من عام ١٩١٤ وإلى عام ١٩١٨ فالإجراءات القسرية التي فرضها العثمانيون على الأهالي والحصار المفروض على السواحل السورية من قِبَل الحلفاء أدّى إلى نقص مأساوي في التموين والجوع في كل أطراف سوريا الكبرى ويُضاف إلى ذلك النظام الصارم الذي فرضه قائد الجيش الخامس العثماني، جمال باشا، وبالأخص تنفيذ حكم الإعدام على أحد عشر شخصاً إتهمهم بتأييد «الإستقلال العربي» في بيروت بتاريخ آب ١٩١٥ وواحداً وعشرون آخرون في بيروت ودمشق في شهر أيار من عام ١٩١٦ .

وثمة عامل مهم آخر والذي تمثّل في الإنتفاضة العربية المُساندة من البريطانيين في الحجاز بتاريخ حزيران ١٩١٦ ، بالتأكيد، هذه الإنتفاضة لم تنجح في ملمة الجماهير في البداية (أمل القيام بإنتفاضة في سوريا لم يتحقّق أبداً) ولكن يبدو بأنّ الإستيلاء على دمشق من قِبَل الجيش العربي لفيصل في عام ١٩١٨ رغم جريانه في ظروف ربّما غير مثالية وغير بطولية لم يتلقّى الكثير من الحماس. وهنا أيضاً لم تجر الأمور ظاهرياً مثلما وصفوها ؛ الدراسات الحديثة تناقض المعلومات التي إنتشرت في حينها بشكل واسع حول الحقيقة التي تقول بأنّ فيصل و «حكومته العربية» المشكّلة من العراقيين بغالبيتهم كانوا مؤيدين من الجماهير السورية. ولكن بعد أربع سنوات من الحرب ونهاية الحكومة العثمانية من المشروع التفكير بأنّ العديد من السوريين كانوا يتمنّون بأن يقودهم «واحد من بينهم» بدلاً عن منافس قادم من الحجاز ومُساند من البريطانيين ممّا يقود المرء إلى الإستفهام حول المعنى الحقيقي «للوحدة العربية» في ذلك الوقت من التاريخ.

لسكّان المحافظات العراقية تجربة حربية مختلفة جداً عن تلك التي عايشتها جماهير سوريا الكبرى. فأولاً بدأت حملة العراق ثلاث سنوات قبل ذلك حيث وصلت القوآت المكلفة بالهجوم على الميزوبوتاميا إلى الفاو في تشرين الثاني من عام ١٩١٤ في الوقت الذي لم تعبر القوآت المكلفة بدخول مصر سيناء إلّا في خريف عام ١٩١٧ وقد إستولوا

طالما تبني الشعور بالكبرياء والولاء داخل الدولة الجديدة. من الصعب القول بأن هذه السياسة كانت تتقصد عمداً تحييد الإنقسامات العرقية (عرب، كرد و تركمان) والدينية (شيعية وسنة) في الدولة الفتية ولكن بما أنها مورست فقد كانت تصر على الشعور بالانتماء إلى أرض مشتركة.

إن هذين التيارين - الشعور بالانتماء إلى القومية العربية والشعور بالانتماء إلى الوطن - كانا حاضرين في الكتب المدرسية لذلك الوقت، الإحساس الجديد بالوعي أو بالشعور الوطني والقومي في آن واحد إنتشر لدى قطاعات واسعة من الجماهير وتحول تدريجياً إلى أيديولوجية مشتركة إضطر أن يتحلّق حولها مجمل الممثلين السياسيين ويأخذون موقفاً منها.

حينما ظهرت الأحزاب الأيديولوجية فقد تأكّدت بأنّ المساندة الجماهيرية مشروطة بتبنيها في برامجها لمبادئ وطموحات أوسع، مثل الإستقلال العراقي أو العربي حسب الوضع السياسي للمرحلة.

وهنا فمن الواجب الإلتزام بالحدز لأنّ العناصر المتبنيّة للقومية العربية وكذلك العقيدة بذاتها قد واكبوا التطور مع الوقت وحصل فيهم تغييرات نوعية مهمة.

فيما يخص الضباط الشريفيين الذين ربطوا مصيرهم بفيصل وبدولة العراق بعد ١٩٢٠ فموقفهم القومي والوطني الأوّلي - بمعنى طموحهم في التحرر من السلطة العثمانية - لا يمكن الشك فيه مطلقاً. وعلاوة على ذلك فقد كان بإمكانهم القول بصورة مشروعة وحتى في بداية العشرينيات بأنّ العراق رغم عدم شبيهه بدولة عربية مستقلة فأنه كان «أكثر عروبية» في إدارته وأكثر إنسجاماً مقارنة مع وضع الولايات الثلاثة تحت الهيمنة العثمانية.

مهما يكن، من الواضح جداً بأنّه في نهاية العشرينيات فشخصيات عديدة كنوري السعيد وجعفر العسكري كانت تكتفي بمسايرة متطلبات السياسة البريطانية وبالنتيجة فالمبادئ القومية العربية التي قد تبنتها ربما لم تعد تعمل لصالحها أمام الجماهير العراقية.

إنتقل التيار المهيمن للوعي القومي العربي أو العراقي حينئذٍ بإتجاه مجموعات مختلفة وترسّخ بين شرائح واسعة من المواطنين عبر مزج الرغبة في الإستقلال العربي

على القدس في شهر كانون الأوّل. في البداية لم تواجه القوّات الهندية البريطانية أي مقاومة أثناء تقدّمها عبر جنوب العراق ولكنها أوقفت في الكوت ولم تتمكن من الإستيلاء على بغداد في أيّار ١٩١٧ إلا بعد إرسال إمدادات هائلة ونقل قائد العمليات من دلهي إلى لندن. لم يعرف المواطنون العراقيون النقص الفضيع في التمويل الذي عاناه السوريون في تلك الفترة ولكن حينما إنتهت الحرب في خريف عام ١٩١٨ كانوا قد وضعوا قسماً من العراق، بشكل مبرمج نوعاً ما، تحت إشراف الإدارة المدنية والعسكرية الهندو - بريطانية منذ أربع سنوات. مقارنة مع وضع العراق فإدارة الجنرال ألبني لسوريا كانت بدائية متخلّفة حتى نهاية الحرب ؛ وبعد ذلك فقد حصل شكل من التعاون Partenariat الصعب نوعاً ما مع المملكة العربية لفيصل وتحت ضغط الفرنسيين فقد إنتهوا بالانسحاب من سوريا في خريف عام ١٩١٩ وبعد هذا التاريخ فقط، أي في نيسان ١٩٢٠ تلقت فرنسا، التي بعثت بجيش إحتلال إلى سوريا، إنتداب سوريا ولبنان (من جمعية الأمم التي منحت إنتداب العراق وفلسطين للبريطانيين في نفس الإجتماع).

العروبة، الوحدة العربية والحياة السياسية في العراق ما بين الحربين

السلام الذي تم تشييده في عام ١٩١٨ - ١٩٢٠ لم يسمح بإقامة دول مستقلة «حقاً» رغم أنّ العديد من العرب رغبوا، وإن إستدعى الأمر الكفاح من جديد، شكلاً جديداً من العربية. بدأ هذا المفهوم «القومية العربية» يظهر بالأخص في الدول التي كانت تحت رعاية مجتمع الأمم.

خلال الفترة ما بين الحربين أو بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة معظم ممثلي الساحة السياسية في العالم العربي إن لم نقل كلّهم كانوا ينتمون إلى هذا التيار. بالنسبة للجماهير فإنّها كانت تكتشف من جديد «تراثاً» عربياً مشتركاً ممّا يستوجب الاعتراف بوجود «قومية عربية» يشكّل العراق أو سوريا أو فلسطين جزءاً متكاملًا منها.

فيما يخصّ العراق فقد رافق ذلك الإحساس بالشعور الوطني أمام الدولة المستقلة حديثاً وكذلك أثناء الإنتداب والملكية وفترة حكم عبدالكريم قاسم وتبنوا فكرة قائمة على أساس أنّ عراقيي القرن العشرين هم الورثة المباشرين للميزوبوتاميين والبابليين، نسب

أو العراقي بطموحات سياسية وإجتماعية مناسبة. من المؤسف أن يعتبر بعض الرجال السياسيين الذين خدموا الملكية أنفسهم «قوميين عرب» عند التعبير عن أعمالهم ودورهم في حين فقدت هذه التسمية ومنذ زمن كل معنى لها.

من الصعب جداً تكوين صورة عن الأسلوب الذي تمّ فيه نشر الوعي الوطني العراقي بين المواطنين بسبب عدم ذكر أدبيات الأحزاب السياسية إلا بعضاً من جوانبه. المشاركة الجماهيرية الواسعة والنضالية في أعمال وتظاهرات المعارضة ضدّ البريطانيين والحكومة وخصوصاً في عام ١٩٤١ وبعد ١٩٤٥ هي مؤشّر رئيسي لهذا الوعي الجديد.

إضافة إلى هذا وتحت تأثير الشيوعية والحزب الشيوعي العراقي (PCI) فعدد كبير من أحزاب تلك المرحلة دخلت إليها الاشتراكية والشيوعية التي طبّعت مصطلحات وأساسيات أيديولوجية التنظيمات السياسية. كان السبب في الإنجذاب نحو الحزب الشيوعي العراقي يعود إلى قدرته في جمع النضال لصالح التغيير الاجتماعي والكفاح ضدّ الامبريالية ومن أجل الإستقلال الوطني.

في نهاية العشرينيات كانت الحياة السياسية الرسمية تشبه لعبة المقاعد الموسيقية المعقّدة والأحزاب السياسية المسموح لها بالمشاركة كانت تتحالف وقتياً بمجموعة من الأشخاص يحملون ذات الآراء لفترة زمنية معيّنة.

إعتماداً على هذا السلوك فالفشل الأيديولوجي والأخلاقي للنظام السياسي كان واضحاً وبالأخص في عيون أولئك الذين تم وضعهم على الحاشية وكذلك أمام عيون المجموعات والإتجاهات السياسية «الخارجة عن البرلمان» التي بدأت ترى نور الحياة.

في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، أي قبل بروز الحزب الشيوعي العراقي، القوة الوحيدة القادرة على معارضة السلطة القائمة لوقت ما كان بالإمكان تمييز تيارين كبيرين. فمن جهة هنالك تنظيم مركّب من ناس هدفهم الإصلاح الاجتماعي والوطنية العراقية ومن الطرف الآخر هنالك مجموعة أخرى تنادي بالوحدة العربية.

التيار الاجتماعي الإصلاحية العراقي كان ممثلاً بشكل خاص عن جماعة الأهالي ، المؤسسة من قبل مجموعة من الطلبة العراقيين في الجامعة الأمريكية ببيروت في نهاية العشرينيات. كانت أيديولوجية جماعة الأهالي مستوحاة بشكل واسع من الفايبانية

البريطانية التي إعتقدت بضرورة ربط الإستقلال السياسي والإقتصادي مع فكرة الإصلاح الاجتماعي - الديمقراطي. كان يُعتَقَد بأن هذه الفكرة هي مثالية لا يمكن تحقيقها إلا عبر صندوق الإنتخابات وقد أيدت شريحة واسعة من مثقفي الطبقة الوسطى الرأي المذكور.

ومع هذا فمحاولات عناصر ومؤيدي الأهالي للحصول على الإستقلال كانت تُحاصر على الدوام بالرغم من أنّ العديد من أعضاء جماعة الأهالي، من بينهم كامل الجادرجي وعزيز شريف، قد أصبحوا رموزاً سياسية ذات مكانة مُحترمة وبارزة، فالتقليد الذي جسّدوه في الثلاثينيات ووجدوا أنفسهم في الحزب الديمقراطي الوطني بعد عام ١٩٤٦ لم تتعمّق جذوره في المجتمع العراقي بشكل كافي وبالنتيجة لم يحصل مطلقاً على المساندة الواسعة.

الإتّجاه السياسي الثاني ما بين الحربين، الذي وُصف بأنّه كان الأكثر تأثيراً هو الفكر العربي الوجودي. تعود هذه الفكرة بشكل أساسي إلى التربوي ساطع الحصري (١٨٧٩ - ١٩٦٨) التي طبعت خيال جيل كامل وخاصة عبر كتاباته المُعتمّدة في الكتب المدرسية لتلك الفترة.

ولد الحصري في اليمن حيث يمارس فيها والده الحلبي مهنة قاضي. بدأ حياته الوظيفية في القسم الإداري من الخدمة المدنية العثمانية ونقلوه إلى كوسوفو بين عام ١٩٠٥ و ١٩٠٨ ، بعد ثورة الشبيبة التركية في عام ١٩٠٨ عاد إلى إستنبول كمدير لمعهد الإعداد التربوي (١٩٠٨ - ١٩١٢) قبل أن يتم تعيينه مديراً عاماً للتربية في سوريا، الوظيفة التي مارسها حتّى نهاية الحرب العالمية الأولى.

في عام ١٩١٩، بعد مرور أشهر على إستيلاء فيصل على دمشق وقيام المملكة العربية فقد وافق الحصري على منصب المدير العام ومن ثمّ وزير التربية، الموقع الذي إحتفظ به لحين إزاحة الفرنسيين لفيصل من الحكم في تموز ١٩٢٠ إلتحق بفيصل في العراق في عام ١٩٢١ وتم تعيينه على التوالي كمدير عام للتربية وعميداً لكلية الحقوق ومديراً للتربية ومديراً عاماً للآثار إلى أن نُفي في عام ١٩٤١ وأشركوه بعد ذلك في معهد القاهرة للدراسات العربية العليا، الذي شكّل أحد تقسيمات الجامعة العربية الذي عمل فيه حتّى تقاعده في نهاية الخمسينيات.

من الغريب حقاً أن يصبح هذا المنتج للنظام التربوي العثماني الحديث، والكادر الوظيفي الرفيع في الوزارة العثمانية للتربية والذي احتفظ طوال حياته باللكنة التركية الفاضحة حينما كان يتحدث بالعربية، مريداً رئيسياً ومدافعاً عن أيديولوجية بعيدة جداً عن «العثمان ليليك» التي إنتمى إليها ظاهرياً في بداية حياته الوظيفية.

في الخطوط العريضة، وفقاً للعقيدة التي طورها الحصري، متسائلاً فيما إذا كانت البلدان العربية قد تحررت فعلاً من السلطة العثمانية حيث أن وضع العالم العربي الذي تلى العهد العثماني تلخص في إحلال السلطة العثمانية القديمة بشكل آخر من الهيمنة. نعم حقاً، كان العالم العربي كياناً جغرافياً واحداً تم تجزأته بشكل إصطناعي وإعتباطي في البداية من قبل العثمانيين وبعد الحرب من قبل القوى الغربية. كان الحصري مُعجباً بإبن خلدون وخصوصاً تفسيره للزمرة، تضامن المجموعة بدلاً عن الدين، «كأقوى رابط في المراحل الأولى لبناء الدولة». وقد أشار كذلك على الأهمية الحيوية للغة العربية حينما وضع النظام التربوي في العراق خلال العشرينيات وأيضاً حينما أعاد تنظيم التعليم في سوريا بعد إنتهاء الإنتداب الفرنسي في عام ١٩٤٤ .

لأن الحصري يرى بأن الدعائم الرئيسية الثلاثة لبناء أي قومية هي التطوع الكلي والتعليم الكلي والإنتخاب الكلي لها. كانت القوميات كيانات مبنية على لغة مشتركة وتاريخ شاركوا بشكل كبير في مسيرته والذي ينبغي دراسته بحيث يساهم في خلق الوعي القومي. وهو يتقدم في مسيرته أشار الحصري إلى أن الشيوعية والقطرية على سبيل المثال تحث على ولاء خاص لسوريا ولعصر بينما إعتبرت الإسلامية كعقبة كبيرة أمام القومية العربية. كان يعارض نظريات النقاء العنصري ويرفض المفهوم الإرادي للقومية، هذا المفهوم العزيز على قلب رينان Renan. كان لا يعتبر العربية كمنظورية أو كأيديولوجية ولكن كبديل للهوية الوطنية وبالنتيجة مثلما تم ذكره سابقاً كإلتزام أخلاقي أو واقع لا يحتاج إلى براهين. كان يعتقد بأن الولادة الجديدة للمجتمع العربي وكذلك للمجتمع الإيطالي والألماني في وقتها لن تتكامل إلا عبر توحيد «الأرض القومية» التي يشكل العراق جزءاً كاملاً منها.

التشعبات الواسعة لهذه العقيدة تبرهن بأنها تتناقض كلياً مع الواقع التاريخي ويبدو بأنها لم تقلق الحصري ولا مؤيدوه. ويتضح الأمر بشكل أدق حينما ترى الحصري

يتغافل عن المشاكل الإجتماعية الكبيرة التي واجهها العراق والبقية من العالم العربي في تلك الفترة، كالأمية والفقر والمعدل الواطيء لعمر الفرد والخذق الذي كان يتعمق ويتوسع بإضطراب بين الأغنياء والفقراء.

وحتى لو أن الوحدة العربية وجدت لها صدىً كبيراً في عراق ما بين الحربين وتشكل «معياراً» يتفق بشأنه الجميع عن التاريخ العراقي فهذه العقيدة لم تكن مقبولة بهذا الحجم الذي يدعون به. في الواقع التركيب القومي والديني للعراق يجعل من الصعب التخلي بأن الرؤية العربية والسنية بشكل رئيسي في العالم العربي - الإسلامي هي «العقيدة المختارة» للشعب المؤلف بأكثر من نصفه من الشيعة وبما لا يقل عن خمسه من الكورد. فلم تتلقى تلك الأفكار في عراق ما بين الحربين تلك الشعبية التي تلقتّها في دولة كسوريا مثلاً.

فمشاعر التفرقة والإنقسام في هذا البلد الذي ظهر فيه المفهوم العروبي الثقافي في نهاية القرن التاسع عشر وجدت لها صدىً في إنفصال فلسطين عن سوريا وفي الإنقسامات الداخلية في سوريا نفسها التي فرضها نظام الإنتداب الفرنسي.

على أية حال، كان العراق مستقلاً على الأقل في الشكل وكان يمتلك جيشاً حيث ضباطه الكبار كانوا قد خدموا الجيش العثماني أو الشريفي أو الإثنيين معاً في بعض الحالات وينتمون بمجملهم تقريباً إلى المذهب السني. مجموعة الضباط العراقيين كانت من جهتها متجاوبة لهذه الأفكار ورافضة للأيديولوجية «القطرية» أو «العراقية» المتطرفة لحزب جماعة الأهالي. عدا حظوتها بعض الشيء لدى أعضاء نادي المثني القادمين من الأوساط القريبة من الضباط القوميين العرب الذين إرتبطوا بهم في العموم بأواصر عائلية أو بعلاقات صداقة فمن المشكوك فيه أن تكون تلك الأفكار قد تلقت التأييد خارج صفوف الجيش قبل منتصف سنوات ١٩٣٠ . وهناك أيضاً، بإستثناء التظاهرة التي أقيمت بمناسبة زيارة صهيوني بريطاني معروف لبغداد في عام ١٩٢٨، فالقضية الفلسطينية، المقياس المفيد دائماً لتسجيل درجة حرارة الشعور العربي الوحدوي، لم يتم تبنيها من قبل أية حكومة أو أي تنظيم سياسي عراقي قبل تمرد عام ١٩٣٦ .

مع ذلك، فمثلما قيل سابقاً، إستولت مجموعة صغيرة من ضباط الجيش المتأثرين بهذه الأيديولوجية على السلطة وهيمنت على الحياة السياسية العراقية بين عامي

١٩٣٧ و ١٩٤١ ، الفترة التي شهدت بداية صعود أشكال جديدة من المعارضة لبريطانيا العظمى.

في المرحلة الأولى ، أظهر هؤلاء الضباط ومع عدم إهتمامهم وإنشغال همومهم بإدخال تغييرات مظهرية في العلاقات بين العراق وبريطانيا ، بأنهم من هذا اليوم فصاعداً قد أصبحوا المحور المركزي للسلطة السياسية حيث أنهم تمكنوا من تشكيل وإسقاط سبع حكومات خلال هذه السنوات الأربع. بعد ذلك، بدأ بأن لأحداث فلسطين تأثير متصاعد على الدوائر السياسية العراقية وخصوصاً بعد مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن بتاريخ كانون الثاني - آذار ١٩٣٩ ووصول مفتي القدس إلى بغداد في شهر تشرين الثاني. وأخيراً، ظهر بأن إندلاع حرب لا توجد بالضرورة أي ضمانات بإنتصار بريطاني فيها، يفتح سلسلة جديدة من الإمكانيات للذين أغوتهم الأشكال الجديدة للقومية في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية، دولتان تمكّنتا من البروز كأهم قوى، مجهزة عسكرياً وموحدة بعد مرور زمن طويل على تجزأتها مما جعل منها أمثلة لمستقبل متطور في عالم عربي يحتذي بها.

وفي نيسان ١٩٤١ تجاوزوا مرحلة صعبة وحرجة حينما رفض رشيد عالي الكيلاني، قائد حركة الوجوديين العرب الذي كان يتمتع بمساندة الجزء الأكبر من قوات الجيش الإنصياح إلى أوامر البريطانيين الذين ألحوا عليه بالإستقالة فيما إذا إمتنع عن تطبيق بنود الإتفاقية البريطانية العراقية التي تبيح إستخدام المطارات ومرور القطعات البريطانية على الأرض العراقية. كانت المسألة حساسة ظاهرياً لأنها على ما يبدو تشكل تدخلاً مباشراً في الشؤون العراقية الداخلية. أدرك التشنج مداه بحيث هرب الوصي ونوري السعيد وتركوا البلاد بمساعدة البريطانيين. وكان رشيد عالي الكيلاني وشريكه يونس السبعواوي يعتمدان ربّما أو يأملان على الأقل تلقّي شكل من أشكال المساعدة من ألمانيا ... والتي لم تصلهم أبداً.

بالرغم من الأخطار الواضحة المؤشّر عليها حين نزول القوات البريطانية في البصرة في منتصف نيسان فليس هناك أدنى شك بأن حكومة رشيد عالي الكيلاني كانت تتمتع بشعبية كبيرة لدى جميع التيارات السياسية بسبب تصميمها وإرادتها في معارضة البريطانيين.

نظراً لتوازن القوى المتواجدة على الساحة فالهزيمة و «إعادة إحتلال» العراق بعد «حرب الثلاثين يوماً» كانت متوقّعة بشكل أو بآخر ولكن هذه الحلقة من التطوّرات أظهرت بأن الهيمنة البريطانية أو شركاءهم من العراقيين لا يتمتّعون بالتأييد الشعبي المنتظر.

السبعة عشر السنوات الأخيرة من الملكية تميّزت بالإضطرابات المتزايدة النابعة من التغيير المفاجيء في التوجّهات السياسية تبعاً لتطوّرات الوضع الدولي مما أدّى إلى إعطاء المعارضة قوّة وأهدافاً جديدة.

وهكذا فبالرغم من عودة الوصي إلى بغداد في حزيران ١٩٤١، بعد إندحار القوات العراقية مباشرة وعودة نوري السعيد إلى رئاسة الحكومة من تشرين الأول ١٩٤١ وإلى حزيران ١٩٤٤، الأمر الذي كان يوحي إلى إستخدامهم للقمع السياسي ورغماً عن الهجوم الألماني ضدّ الإتحاد السوفياتي (الدولة الحليفة) في حزيران ١٩٤١، فقد تميّزت المرحلة بالحرية السياسية التي أفادت بتنظيمات اليسار السياسية كالحركة الإجتماعية الديمقراطية المرتبطة بجماعة الأهالي والحزب الشيوعي.

لعب الحزب الشيوعي العراقي المؤسس في عام ١٩٣٤ دوراً ملموساً في السياسة العراقية في بداية الأربعينيات قبل أن يصبح قوّة المعارضة الرئيسية في الخمسينيات. وأول بادرة لإبراز القوّة قامت بها منظمة عمالية دفعتها جمعية الحرفيين (جماعة أصحاب الصنعة) التي أسسها محمد صالح قرّان فنظّموا إضراباً عاماً ضدّ مرسوم الضرائب المحليّة لعام ١٩٣١ وفي عامي ١٩٣٣ - ١٩٣٤ قاموا بمقاطعة شركة كهرباء بغداد التي كانت تعود للبريطانيين.

تلقت هاتان المبادرتان مساندة أغلبية قومي ذلك الوقت ومنهم رشيد عالي الكيلاني وجعفر أبو التمن وياسين الهاشمي. وبسرعة زالت الآمال برؤية حكومة حكمت سليمان، التي وصلت إلى السلطة بإنقلاب عسكري في نهاية عام ١٩٣٦ والتي كان ينظم إليها ثلاثة أعضاء من جماعة الأهالي، وتوضّح بأن هذه الحكومة يسيطر عليها العسكريون بشكل كامل تقريباً وبأنها لا تمتلك لا الإمكانية ولا التصميم بالمبادرة في إجراء التغييرات.

تم تهدئته بتعيين، ولأول مرة في العراق، رئيس وزراء شيعي، صالح جبر، بعد إنتخابات عام ١٩٤٧، كان يُعتَقَد بأن جبر سوف يسعى إلى إنجاز بعض الإصلاحات الإجتماعية التي أُعْتَبِرَتْ ضرورية لتحاشي صعود الإستياء الشعبي بصورة خطيرة. فنوري السعيد وزمرته بالرغم من إعترافيهم مبدئياً بأفضلية القيام بإصلاحات فأنهم لم يقتنعوا بالجو الإنفجاري للوضع.

لكن مع ذلك فقد ظهر بأن جبر خلال فترة حكمه يمارس القمع ويتجاهل التسامح مثل سلفه نوري السعيد حيث حُكِمَ على فهد، مسؤول الحزب الشيوعي العراقي وعلى إثنان من أعضاء اللجنة المركزية بالإعدام في شهر حزيران رغم تخفيف حكمهم في محكمة الإستئناف بينما تم تقديم قادة أحزاب اليسار المعتدلين، كامل الجادرجي وعبدالفتاح إبراهيم إلى العدالة في أيلول ١٩٤٧ وحرّموا أحزابهم من ممارسة نشاطاتهم. في هذه الظروف التي توافقت مع الإرتفاع الضخم للكلفة المعيشية والعداء المتصاعد للجماهير تجاه السياسة البريطانية في المنطقة وبالأخص السياسة البريطانية في فلسطين فقد أعلنت الحكومتان البريطانية والعراقية إعادة التفاوض حول نصوص إتفاقية عام ١٩٣٠.

الرأي العام العراقي كان ينتظر مراجعة الإتفاقية لصالح العراق وحينما تم إعلان بنود إتفاقية بورتسموث في بغداد في ١٦ كانون الثاني ١٩٤٨ فقد تضاعفت موجة الإستياء وهاجت محدثةً فيضاناً «برز منها الشيوعيون كقوة رئيسية لا يمكن إغفالها». في ٢٠ كانون الثاني، أطلقت الشرطة النار على مسيرة طويلة لعمال سكك الحديد ممّا أسفر عن قتل العديد منهم. في اليوم التالي وجد الوصي نفسه مضطراً بالإعلان عن عدم تصديقه للإتفاقية الجديدة. في ٢٧ كانون الثاني وقعت مظاهرات هائلة صاحبته مناقشات بين الشرطة والمتظاهرين حيث ردّ الأخيرون برميهم بالأحجار وبوضع حواجز من السيارات المحترقة وفي النهاية وقع بين ٣٠٠ و ٤٠٠ قتيل أثناء المواجهات مع الشرطة والجيش. وقد تم إنتظار عشر سنوات أخرى للإطاحة بالنظام القديم ولكن الحقد الذي تركته هذه المشاهد المرعبة في بغداد كان تبشيراً للغضب القادم.

خلال ربيع وصيف عام ١٩٤٨ إنتشرت المعارضة العنيفة في مناطق أخرى من البلاد وعبر ما أطلقوا عليه بأشهر إنتفاضة، قرب الحديثة، فقد توقفت محطة ضغ للشركة

ومع كونها فتحت الباب لدمقرطة العراق، فظروف الحرب العالمية الثانية أثرت بشكل كبير على الإقتصاد العراقي إضافة الى جملة تأثيرات تم الإحساس بها على الصعيد السياسي. حضور جيوش الإحتلال للحلفاء أدى إلى قدوم أناس جدد يملكون قوةً شرائية ملموسة في حين غياب التموين الإعتيادي للمنتجات الصناعية الأجنبية شجّع المعامل والشركات المحلية لتطوير قدراتها وصناعة منتجات جديدة. تضاعف عدد مواطني بغداد بين أعوام ١٩٢٢ و ١٩٤٧ والزيادة التي واكبته في عدد القوى العاملة إضافة إلى الظروف السياسية التي تم الحديث عنها خلقت ظروفًا مهيبةً لتطور حركة عمالية.

في تشرين الثاني ١٩٤٦ سُجِّلَتْ رسمياً أعداد كبيرة من الحركات السياسية، من ضمنها الحزب الوطني الديموقراطي، الجناح غير الماركسي لحزب الأهالي وحزب الإستقلال المؤيد لشكل غير متطرف من الوحدة العربية مشاركة مع منتدى المثلى الذي تم حلّه بعد أحداث عام ١٩٤١.

الأحداث التي جرت بعد الحرب مباشرة أثرت بشكل حاسم على تقوية جذور المعارضة لبريطانيا العظمى والملكوية ففي خلال حكم حمدي الباجي وتوفيق السويدي من ١٩٤٤ إلى ١٩٤٦ تم تشكيل ما لا يقل عن ١٦ نقابة للعمال حيث يسيطر الحزب الشيوعي على ١٢ منها بصورة قانونية. تشكلت أقواها في أهم المعامل الصناعية للبلد، في ميناء البصرة وفي شركة السكك والحديد العراقية التي كانت لا تزال تحت السيطرة البريطانية. حصلت مظاهرات في الرواتب وأصاب السكك والحديد في عام ١٩٤٥ والميناء في عام ١٩٤٧ وإستمرّ النزاع إلى نهاية الأربعينيات.

رغم قناعة العديد من الوزراء والمسؤولين البريطانيين بأن «هذا البلد لا يمكن أن يتقدم وعلى رأسه الزمرة القديمة في السلطة» فإمكانية ممارسة الضغط على هذه الزمرة القديمة لتطويعها كانت محدودة بسبب كون العراق مركزاً حيوياً لمواصلات وإتصالات الإمبراطورية مع قواعدها ومنشآتها العسكرية الأخرى.

علاوة على ذلك فالوصول إلى النفط العراقي أصبح يوماً بعد يوم أكثر إلحاحاً وضرورة. القلق الذي عبّر عنه بعض المسؤولين البريطانيين في عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٧

النفطية العراقية في نيسان وفي أيار ١٩٤٨ على أعقاب إضراب ثلاثة آلاف عامل ومستخدم نظمه الحزب الشيوعي. بعد مرور اسبوعين ونصف فقد قامت الحكومة والشركة بقطع المياه والأرزاق عن المضربين ؛ وبعد ثلاثة أسابيع قرروا السير نحو بغداد الواقعة على بُعد ٢٥٠ كيلومتراً. وعلى طول المسافة قام أهالي القرى والمدن الصغيرة بإطعامهم وإيوائهم وقدم لهم أهالي الرمادي حتى السيارات.

وعند وصولهم إلى الفلوجة على مسافة ٧٠ كيلومتراً من بغداد تدخلت الشرطة لقطع الطريق عنهم. هذا الفصل من التحدي المعروف في التاريخ العراقي باسم «المسيرة الكبرى» شكّل تعبيراً هاماً عن التصميم الشعبي في وقوفه ضد النظام السياسي رغم عدم وجود توازن في القوى.

توافقت إنتخابات عام ١٩٤٨ مع بداية حرب فلسطين مما أدى إلى إزدياد الشعور بالكرهه تجاه البريطانيين وتجاه الحكومة العراقية بحيث أدخلنا الحكم العرفي العسكري في الخريف وعاد نوري السعيد لتشكيل وزارة جديدة في كانون الثاني ١٩٤٩ بعد إشرافه على إنسحاب الجيش العراقي من مواقعه المتقدمة في فلسطين في شهر تشرين الأول للسنة السابقة. عنف الردود التي إستعملها نوري السعيد ضد أي شكل من أشكال المعارضة والقسوة بيد من حديد برزت بشكل خاص في صباح يومي ١٤ و ١٥ شباط ١٩٤٩ حينما تم تنفيذ حكم الإعدام أمام الجمهور في بغداد بفهد، السكرتير الأول للحزب الشيوعي العراقي وبإثنين من أعضاء المكتب السياسي ، حسين محمد الشبيبي وزقيم باسم ، الذين ووضعو في السجن منذ توقيفهم في بداية عام ١٩٤٧ ورسمياً لإستمرارهم في قيادة الحزب إنطلاقاً من غرف سجونهم. إحتاج الحزب إلى وقت لتجرع هذه الضربة وحتى فيما إذا تم إعتبار فهد ورفيقه شهداءً وأبطالاً لدى الجماهير فتضحيتهم القصوى وكذلك العقوبات الجائرة المفروضة على الشيوعيين الآخرين بسبب نشاطاتهم ضمنت للحزب شعبية تتصاعد يوماً بعد يوم.

تتابعت ما لا يقل عن عشرين حكومة في السلطة خلال العشر سنوات الأخيرة للملكية وقد مثل نوري السعيد الدور الأول فيها وحينما لم يكن هو أو أحد أصحابه في إحدى هذه الحكومات فقد كان يتوجب عليهم النداء له والإلتجاء إليه من جديد.

في هذه الفترة كانت المداخل البترولية تتصاعد بسرعة وحتى فيما لو كانت بريطانيا

واعية بعدم شعبية الحكومة العراقية وكذلك بفساد وسوقية الكثير من أعضائها فقد ساد شكل من الأمل بضمنان إستمرار المصالح البريطانية وبقاء النظام بفضل الإمكانيات المقدمة عبر مدخول البترول «للتنمية»، المجال الذي بدأ نوري السعيد يعتني به.

فوقعت حينئذ أحداث خارج العراق في عام ١٩٥١ الذي تم خلاله تأمين النفط الإيراني مما ولد مطالب بالقيام بإجراء مماثل في العراق، دون إحتساب مفاوضات حلف بغداد في عام ١٩٥٥ وخصوصاً أحداث عام ١٩٥٢ حينما وصل عبدالناصر إلى السلطة في مصر حيث قام الرجل بعد ذلك في عام ١٩٥٦ بتحدي بريطانيا وفرنسا وإسرائيل...

بغيا نوري السعيد في تلك الفترة في أوروبا قرر الوصي تنظيم إنتخابات برلمانية حرة نسبياً في حزيران ١٩٥٤ ، في أيار إتفقت الأحزاب السياسية الرئيسية الثلاثة، الديموقراطيون الوطنيون والإستقلال والشيوعيون لتشكيل جبهة وطنية، وهو تحالف سياسي فريد، مؤثر وقوي ولكنه حاز على ١١ مقعداً فقط من مجموع ١٣٥ مقعداً برلمانياً في إنتخابات حزيران. بالنتيجة تم منع أحزاب وصحف المعارضة والقيام بوضع برلمان خاضع كلياً لمشينة بريطانيا.

خلال عام ١٩٥٤ ترأس نوري السعيد سلسلة من المفاوضات الدبلوماسية التي أدت إلى تأسيس حلف بغداد في شباط ١٩٥٥ ، بالطبع، كان رد فعل ناصر مناهضاً لإتفاقية الدفاع هذه بخصوص الشرق الأوسط والمحرّكة من الدول الغربية. تنديده الشديد للحلف وظهوره الإنتصاري كشخصية دولية في مؤتمر بانكوك في عام ١٩٥٤ زادا من هيئته وعزّزا من تصميمه وإرادته المؤكّدة في قيادة شكل جديد من الوحدة العربية الذي ما لبث أن إزدادت شعبيته في العراق وفي البقية من العالم العربي.

الخطاب العاطفي لناصر في راديو القاهرة أصاب جمهوراً متلهفاً ومبهوراً في العراق. ضمن هذا السياق وضعت أزمة السويس العراق في مأزق وفي وضع صعب جداً. وقعت بالنتيجة في بغداد وعدة مدن أخرى وبالأخص في النجف والحي مظاهرات ضخمة مؤيدة لناصر ومعادية للحكومة العراقية.

لتجميل صورتها اضطرت الحكومة إلى توجيه إحتجاجات ضد بريطانيا العظمى

القومية والعروبة في نهايات عام ١٩٤٠ وخلال سنوات الخمسينيات

كما سبق ذكره، أستحوذت الأدبيات بشكل واسع على الفكرة القائلة بأنّ القومية الوحودية العربية هي الأيديولوجية الطاغية في العراق خلال فترة ما بين الحربين. غير أنّه، مثلما رأينا، فطبيعة التركيب القومي والديني في العراق يقودنا إلى التساؤل حول هذا التفسير. مهما يكن، يبدو واضحاً بأنّ ساطع الحصري، عبر كتاباته الجدلية وبالأخص عبر نصوصه المُعتمَدة في الكتب المدرسية المُستخدمة في العراق ومن ثمّ في سوريا، قد أثار على موقف العديد من الأجيال (التلاميذ) تجاه الماضي العثماني ومستقبل الشرق الأوسط.

تبعه في وظيفة المسؤول العام للتربية، سامي شوكت، المقوت من الحصري والذي تمّ بشكل خاص معرفته بسبب بلاغته الغامضة التي كشف عنها في خطابه عام ١٩٣٣ حينما عرض رؤية عن العراق غير بعيدة عن الموقع الذي احتلته بروسيا في أوروبا، وحيث ينبغي عليه التصرف كعامل رئيسي موحد للعالم العربي.

«أمة لا تجيد حرفة الموت بالحديد والنار مُدانة بالموت تحت نعال الفرس وجزم الجيوش الأجنبية...إذا أردنا أن لا نموت تحت قباقيب وجزم الجيوش الأجنبية فمن واجبنا إتقان مهنة الموت، مهنة الجيش، المهنة العسكرية المقدسة.»

من الصعوبة تقييم حالة الوحودية العربية في العراق بين عام ١٩٤١ والثورة المصرية في تموز ١٩٥٢ وملحقاتها. ظاهرياً، الهزيمة في فلسطين وتزاوج عدم الكفاءة مع الفساد والتمزق أحدثت دويّاً صارخاً في مجمل الدول العربية تقريباً. ويصعب جداً القول بأنّ القومية قدّمت أمراً إيجابياً مهماً قبل وصول ناصر بدور، ولم يلعبه دائماً، القائد الكاريزماتي أو بالأحرى كرمز لطموحات العالم العربي في إستقلال «حقيقي». هكذا كتب داويشه Dawisha:

{.....} إستمرت القومية العربية [في العراق] في مجابهة توجّهات سياسية وإرتباطات عميقة أخرى. في حين أفكار حزب الإستقلال وبشكل أقل خلال هذه الفترة (بالأخص في الأربعينيات)، أفكار حزب البعث المولود حديثاً جذبت أعداداً تتصاعد يوماً بعد يوم من الشباب العراقيين، وكانت لأحزاب أو لجمعيات أخرى كالأهالي مع توجّه العراقي الصريح والحزب الشيوعي جماهير بأعداد كبيرة ومؤيدين أكثر.»

ولكنّها في نفس الوقت قامت بقمع التظاهرة بشكل عنيف وأعدت الحكم العسكري العرفي ورويداً رويداً أصبح الوضع شبيهاً بوضع مصر في بداية الخمسينيات وسقوط النظام أصبح وشيكاً وأزمة السويس عزلتها كلياً. في نهاية عام ١٩٥٦ قطع النظام العراقي عملياً علاقاته مع جميع الدول العربية. ويضاف على عزلتها إستياء تام تقريباً ناتج من بطء تحسين الظروف المعيشية وغياب الحريات المدنية.

وما كان يشغل البال بالرغم من التحسينات الكبيرة في مسلكهم ورواتبهم وفي حياتهم المعيشية هو ظهور الإستياء داخل صفوف الجيش حيث العقائد الوحودية لناصر ونجاح تحديّه لبريطانيا العظمى واجهت جمهوراً مقتنعاً ومعجباً به. تطوّر الجيش العراقي بصورة هائلة فالزيادة السريعة في عدد الضباط بإستحقاق معقول قدّمت الوسائل لشرائح إجتماعية لا تملك المال أو عائلة كبيرة.

في نهاية الخمسينيات فالضباط الأكثر قدماً كانوا لا يزالوا يرتبطون بالنظام عبر الروابط العائلية والودّية أو المصالح المادّية. لكن الجيل الجديد كان يأتي من أوساط إجتماعية متباينة ومن مختلف التيارات السياسية الموجودة في عموم البلاد كالحزب الشيوعي والناصرية والألوان الأخرى من الأحزاب القومية العربية.

بالرغم من أنّ العام الذي سبق ثورة تموز كان هادئاً نسبياً مقارنة مع إضطرابات بداية الخمسينيات والرد العنيف في أزمة السويس في عام ١٩٥٦ فمراقبو تلك الفترة أثارهم الإستياء العميق الذي كان يواجهه النظام.

تشكّلت جبهة جديدة من المعارضة في شباط ١٩٥٧ ضمنّت الحزب الوطني الديمقراطي والإستقلال والشيوعيين وحزب البعث، الفرع العراقي للتنظيم الوحودي العربي المؤسس في سوريا والذي كان ينتمي إليه أقل من ٣٠٠ عضو في العراق في عام ١٩٥٥ ومع ذلك، نظراً لعدم إستقرار الظروف المسرودة سابقاً ولضعف المعارضة السياسية بمواجهة إحتكار الوسائل القسرية للحكومة فلم تتوفر وسيلة أخرى ممكنة لقلب النظام بغير القوة.

فمن قام بقيادة الانقلاب العسكري إذاً، والذي أصبح فيما بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، هو مجموعة عُرفت تحت تسمية «الضباط الأحرار» وقد كانوا ينتمون إلى تنظيم عسكري سرّي.

وفقاً لبطاطو (حنّاً) لم يكن لحزب الإستقلال «حياةً خاصّةً مميّزة وإعتباراً من نهاية الأربعينات كانت تدور بشكل رئيسي حول رئيسه محمد مهدي كبة وحول نائب رئيسه فائق السامرائي وسكرتيره صديق شنشل... بين سنة ١٩٤٦ و١٩٥٢ أصبح شنشل المصدر الرئيسي لأفكار ومبادرات [الحزب]. ومع هذا فإعتباراً من منتصف الخمسينات لم يتمكّن حتى شنشل نفسه من إنقاذ الحزب من جموده والناشيء من سياسة الصالونات جزئياً ولجوء شبابه إلى حزب البعث وكذلك بسبب تذبذب المزاج السياسي للشباب العراقي وميله إلى اليسار».

سواءً بعد الثورة المصرية أوحتى بعد الثورة العراقية لعام ١٩٥٨ فلم يبرز أي حزب أو أي تنظيم سياسي ناصري في العراق. الأمر الذي لا يمكن تحاشيه ويقودنا إلى حزب البعث.

جذور حزب البعث واصلوه

تم تأسيس حزب البعث العربي بشكل رسمي بدمشق في نيسان من عام ١٩٤٧ ، بدأ نشاطه السياسي بينما كانت سوريا لا تزال تحت الإنتداب الفرنسي. تطوّر في المرحلة الأولى كحركة تحررّ قومية وعارض الفرنسيين لاحقاً. حسب نفسه رداً على ما كان يجده مؤسسوه من نقص في الإيديولوجية وفي السياسة لدى الجيل القديم من القوميين السوريين. هؤلاء الأخيرون كانوا في السلطة في عام ١٩٤٦ خلال فترة بعد إستقلال سوريا. تحوّل إلى تنظيم سياسي جماهيري يرجع إلى نهاية الحرب العالمية الأولى وبشكل خاص بسبب هزيمة الجيوش العربية في فلسطين، الهزيمة التي وضعوا مسؤوليتها على عاتق الجيل القديم للسياسيين العرب.

الأبء المفكرين للبعثية هم، وفقاً للتفسير الأوّل، مدرّسان من دمشق، ميشيل عفلق (١٩١٠-١٩٨٩) وهو مسيحي أرثوذكسي وصلاح الدين البيطار (١٩١٢-١٩٨٠) وهو مسلم سنّي أو وفقاً لتفسير آخر للمؤسس الأسطورة، زكي الأرسوزي (١٨٩٩-١٩٦٨) وهو علوي من انطاكيا في سنجق الاسكندرونة. درس ثلاثتهم في جامعة السوربون، أرسوزي في العشرينيات من القرن العشرين، عفلق والبيطار في الثلاثينيات منه. ربّما بسبب الروابط القويّة التي وُجدت بين عفلق ومنافسيه العراقيين قدّم النظام السوري دائماً أرسوزي كأب لهذه الأيديولوجية. دون الدخول كثيراً في التفاصيل فأصل

الخصام فلسفي أكثر ممّا هو تنظيمي؛ لا أحد كما يبدو ينفي واقع بأنّ عفلق والبيطار كانا من بين القادة الأربعة الذين برزوا حين إنعقاد المؤتمر التأسيسي. وبما أنّ «زكي الأرسوزي لم يحضر في هذا المؤتمر ولم يشغل أي موقع في الحزب الجديد» فالأمر الجوهري هنا هو معرفة إلى من نسند بشكل صحيح الفكر الأصلي «للتجديد العربي».

مثلما أشرنا سابقاً بالبعثية هي شكل من أشكال القومية الوحودية العربية وتشاركها في المميّزات غير التاريخية والعلمية وبشكل خاص في المفهوم المركزي لوجود «الأمة العربية»، المطروح كواقع تاريخي لا يعوزه برهان ولا يمكن الجدل فيه.

البعثية التي ظهرت في نهاية الفترة الإستعمارية ما يميّزها بشكل رئيسي عن الوحودية العربية للحصري يعود في كونها تحتوي على عناصر من العقيدة الإجتماعية - الإقتصادية المعدّة لسلوك طريق الإقتصاد المخطّط. وهكذا فتشكيل الحزب يبشّر بتأميم الخدمات العامّة والنقل والموارد الطبيعية (المادّة ٢٦) وسيطرة الدولة على التجارة الداخلية والخارجية (المادّة ٣٦) وتخطيطاً مركزياً...

من بين العديد من نصوصه الدستورية، يتبنّى الحزب خليطاً من القومية - الإشتراكية والإستقلال تجاه الأنظمة الدولية وتشكيل دولة عربية موحّدة. كان المفترض في البعث أن يكون الطليعة التي تحقّق الوحدة العربية. كان شعاره المركزي وبيقي «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة». أيديولوجيته غامضة وغالباً متناقضة حيث يطالب من جهة بالإشتراكية (المادّة ٢٦) وفي ذات الوقت يشدّد على الجانب المقدّس للملكية الفردية (المادّة ٣٤) يذكر (بصورة مشوشة) التناقض الطبقي: «التوزيع الحالي للثروة في الوطن العربي غير عادل وهكذا فمن الضروري مراجعة ذلك وإعادة توزيعها بعدالة» (المادّة ٢٧).

يتبنّى النظام الداخلي للحزب أيضاً نظاماً برلمانياً (المادّة ١٤) بينما في الدولتين التي «إزدهر» بها الحزب، العراق وسوريا، طغت الدكتاتورية و وضعت مراقبة على التعددية السياسية أو أضطهدت الأحزاب بصورة قاسية.

في بداية ظهوره في سوريا أي بعد مغادرة الفرنسيين مباشرة ساند البعث ودافع عنه البعض من تلاميذ الثانوية والطلّاب الراديكاليين ولم يتورّط في السياسة بصورة علنية حيث كان يفضّل التركيز على تطوير أيديولوجيته أكثر ممّا كان يبحث عن

السلطة. كان للحزب فروع في لبنان والأردن والعراق في نهاية الأربعينيات.

التذبذب السياسي في سوريا وهزيمة العرب الساحقة خلال الحرب ضد إسرائيل في عام ١٩٤٨ دفعت عفلق والبيطار (لم يكن الأرسوزي ناشطاً سياسياً في يوم من الأيام) إلى توحيد تنظيمهم مع الحزب الاشتراكي العربي لأكرم الحوراني في عام ١٩٥٣ ممّا أدى إلى أن يرتفع عدد المنتسبين من ٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ عضو. شارك الحزب في الانتخابات السورية «الحرّة» المعروفة لعام ١٩٥٤ وحاز على ١٦ مقعداً.

ورغم ذلك ففي سوريا في منتصف الخمسينيات كانت المعارضة تتشكّل بصورة رئيسية من الحزب الشيوعي الذي كان يقوده القائد خالد بكداش والذي تم إنتخابه عضواً في برلمان عام ١٩٥٤ ، إرتفعت شعبية الشيوعيين بصورة كبيرة بعد مشاركتهم في إتفاقيات جيكا حول الأسلحة في عام ١٩٥٥ والتي إستناداً إليها وافق الإتحاد السوفياتي ودول المعسكر الشرقي على بيع الأسلحة لسوريا ول مصر.

خوفاً من كسوفهم من قِبَل الشيوعيين فقد تقربّ عفلق والبيطار من الرئيس المصري وسعيًا للحفاظ على موقعهم فقد قدّموا مشروعهم الوحدوي المصري - السوري الذي أدّى إلى تشكيل الجمهورية العربية المتحدة، الحقبة الواقعية الوحيدة المعبرة عن «التوحد العربي» والتي إستمرت من شباط عام ١٩٥٨ وإلى أيلول ، ١٩٦١ وهنا المجازفة كانت محسوبة بالنسبة للبعثيين ؛ كانوا يعلمون بأن ناصر قام بحل الأحزاب السياسية في مصر وأن أي توحيد سوف يدين الحزب الشيوعي السوري بالحل. لم تجري الأمور كما كان يشتهيها البعث لأنّ مصر إستخدمت الجمهورية العربية المتحدة أكثر فأكثر كوسيلة لإستغلال سوريا ممّا أزدادت الإنتقادات على عفلق والبيطار.

في عام ١٩٦١ وقع إنقلاب عسكري ووضع حدًا مخزياً لهذه الجمهورية. القادة البعثيون والحوراني واصلوا حياتهم وكلّ في سبيله تاركين الحزب لقادة ومناصرين شباب، قادمين بشكل رئيسي من الحرس الشاب للضباط العلويين في الجيش.

في آذار ١٩٦٣ إستلمت مجموعة من الضباط البعثيين السلطة في سوريا بعد مرور شهر من حادثة إنقلابية مُساندة من البعث في العراق.

حينما بدأ العسكريون في الهيمنة على الحزب في سوريا تعددت الخصومات بينهم وبين العضوين المؤسسين، عفلق والبيطار. في ٢٣ شباط ١٩٦٦ وقع إنقلاب «للبعثيين

الجدد» ، قاده صلاح جديد الذي قام بطرد البيطار من السلطة وأجبره على ترك السياسة والإستقرار في فرنسا في حين إلّتجأ عفلق إلى العراق وعُين في عام ١٩٦٨ سكرتيراً عاماً لحزب البعث العراقي.

الحكومة السورية الجديدة، الأكثر راديكالية والمُساندة من القاعدة العلوية أمّمت الصناعة وحققت إصلاحاً زراعياً بالإضافة إلى مساندتها القويّة للفلسطينيين. إعتد صلاح جديد على المدنيين في الحزب ممّا جعل وزير دفاعه، القائد السابق لسلاح الطيران، حافظ الأسد، يتحداه ويضع نفسه على رأس جهاز الأمن الداخلي ومن ثمّ ينتهي بطرد صلاح جديد من السلطة في عام ١٩٧٠ .

البعث في العراق

دخلت الأيديولوجية البعثية إلى العراق عن طريق بعض المدرّسين السوريين في نهاية عام ١٩٤٩ وفي عام ١٩٥١ إستلم فؤاد الركابي، وهو مهندس شيوعي من الناصرية، قيادة تنظيم مكونّ من حوالي ٥٠ شخصاً، والذي كُنّا قد ذكرنا عددهم بـ ٢٨٩ في عام ١٩٥٥ .

كان الكثير من البعثيين شيعة وهم أصدقاء أو أقرباء للركابي لأنّ التجنيد كان يعتمد بشكل أساسي على الشبكة العائلية والاجتماعية أكثر ممّا يعتمد على الأيديولوجية. في عام ١٩٥٧ أدخل الركابي البعث في الجبهة الوطنية السريّة جنب الشيوعيين والحزب الوطني الديموقراطي وحزب الإستقلال، ساند وهتف لثورة تمّوز عام ١٩٥٨ كما فعلته الأحزاب الأخرى.

خلال فترة الحرّية الفجائية التي أعقبتها إدعى البعث بأنّه جندّ « ٣٠٠ عضواً فعّالاً وسجّل إنتماء ١٢٠٠ نصيراً و ٢٠٠٠ مؤيداً و ١٠٠٠٠ متعاطفاً» إن صدّقنا الركابي.

بعد الثورة، الإستقطاب الرئيسي للحركات السياسية، مثلما ظهر ذلك بوضوح في ربيع عام ١٩٥٩ ، كان يحوم حول عبدالكريم قاسم والشيوعيين ومناصرينهم من جهة وحول القوميّين والبعثيين ومؤيديهم من جهة أخرى. الوحدة العربية، أصبحت الرمز إن لم نقل المادة التي يختلف بخصوصها قاسم والشيوعيين - لأسباب مختلفة - عن الآخرين.

في تشرين الثاني من عام ١٩٥٩ حاولت مجموعة بعثية ومن بينها الشاب صدام حسين إغتيال عبدالكريم قاسم. فشل المحاولة وجه ضربة مؤقتة لتنظيم الحزب الذي علاوة على ذلك كان قد ضعف بسبب سلسلة من التوقيفات وبسبب التنظيم المنافس الذي أسسه الركابي في عام ١٩٦١ .

وأثناء هذه الفترة بدأ علي صالح السعدي، المشترك في محاولة الإغتيال أيضاً، بإعادة تنظيم الحزب في العراق بمباركة من ميشيل عفلق بينما كانت تتواجد على الساحة أعداد أخرى من المجموعات البعثية بعضها قريبة من حزب الإستقلال وأخرى تحوم حول أشخاص.

لم يكن البعث العراقي في بداية الستينيات إذاً بنياناً متجانساً ولكنه يتكوّن من مجموعة عناصر لا تتحرك بالضرورة بتنسيق لأنّ العلاقات بين «الحزب» وبين الأحزاب التي تدعي تمثيلها تتسم بطبيعة لاشكلية وشخصية، معبرة أو لا عن طريق الإنتماء إلى خط سياسي مصطنع.

الإختلاف الرئيسي بين بعث سوريا وبعث العراق قبل الانفصال رسمياً عام ١٩٦٦ إلى حزبين متميزين يعود إلى واقع أنّ للحركة جذور عميقة ومحددة بشكل جيد نسبياً في سوريا في حين كما سبق وأن قلنا بأنّ تقاليد الوحدة العربية كانت أقلّ تجذراً في العراق.

وحتى في ظروف مختلفة من الصعب التفكير بأنّ البعث قد تمكّن من جمع عدد كبير من المؤيدين - بينما لم يكن له أيّ سلطة - ، كما يُستنتج من الأرقام المبالغ فيها لنهاية الخمسينيات وبداية الستينيات التي قدّمها مسؤولو الحزب لبطاطو.

وهنا أيضاً كان عسيراً جداً على البعث أن يعمل في أوساط محدودة نسبياً كان يمكن أن يجري فيها نوع من «التنافس» الإنتخابي كما كان الحال حين إنتخابات الهيئات التنفيذية للنقابات والإتحادات المهنية فالأمر هنا يتعلّق بدوائر مغلقة يهيمن عليها عادةً الشيوعيون الذين كانوا غالباً مصدرراً لهذه التنظيمات ولهم تاريخ عريق بالعمل في صفوفهم وهكذا بالرغم من القمع المُمارس ضدهم خلال أربع سنوات ، ففي آذار من عام ١٩٦٧ تمكّن الشيوعيون من الحصول على الأغلبية في إنتخابات إتحاد الطلبة العراقيين الجامعيين.

لم يكن هدف سياسة البعث العراقي السعي للوصول إلى السلطة بالإنتخابات أو بفضل جاذبية برامجه السياسية بل بالعكس فقد كانوا ينوون اللجوء إلى القوة والإنقلاب عبر إستخدامه لهيكله غير المحددة ولجماعته من المتأمّرين المنظمين بشكل جيد والمطيعين للسيطرة على السلطة. في الواقع، هذه المجموعات كانت مؤلفة من العصابات الأكثر شهرة من بينها المجموعة العائدة إلى علي صالح السعدي، في باب الشيخ أو صدام حسين وصباح ميرزا في الجعيفر والكرخ. كانوا يرتبطون فيما بينهم بعلاقات شخصية ومناطقية أكثر ممّا هي أيديولوجية وبالنتيجة فالمحاصرة التي تحملها الحزب بعد محاولة إغتيال قاسم لم تؤثر مطلقاً على قدرته الأساسية في أخذ السلطة لأنّها كانت تستند على القابلية التنظيمية أكثر ممّا تعتمد اللجوء إلى عملية تعبئة الجماهير المجهددة والبحث عن مساندها.

نظراً لطبيعة نشاطات الحزب في العراق، الضبابية وعدم ملائمة «أيديولوجيته» يتّضح بأنّه لم يصل إلى السلطة في عام ١٩٦٣ مع برنامج آخر غير الإستقرار في قيادة السلطة على حساب منافسيه الرئيسيين الآخرين.

بعد خمس سنوات من سلطة تبتعد تدريجياً عن النضوج والإستقرار تم خلالها إبتعاد المؤيدين عنه يوماً بعد يوم وثار ضده المعارضون فأطاحوا بإنقلاب عبدالكريم قاسم في يوم ٨ شباط ١٩٦٣ قام به تحالف بين البعثيين والقوميين العرب.

أصبح هذا الانقلاب مدرسة حقيقية: تخطيط دقيق ؛ تنسيق متقارب مع ضباط متعاطفين للإستيلاء على المنشآت العسكرية ومؤسسات الإرسال والبت الإستراتيجية ؛ تنفيذ الحكم برئيس الدولة وأقربائه ؛ وتعيين «عسكري دمية» كرئيس جديد.

تم تنظيم الانقلاب من قبل مجموعة من ضباط قوميين وبعثيين ؛ كان ثلثي الجيش في كوردستان حين الوقائع، إستوجب، فقط، على المتأمّرين الإستيلاء على معسكرات أبوغريب والرشيد وعلى قاعدة الحبّانية الجوية - التي تواجد فيها قادة وحدة المتعاطفين - وإحتلال الإذاعة قبل السير نحو وزارة الدفاع التي كانت تحمي مكتب القيادة العامة لقاسم .

حينما بدأ المتأمرون في البث على موجات الراديو صباح ٨ شباط ١٩٦٣ - مع الموسيقى العسكرية وترنيمات «الله أكبر» التي رافقت ثورة ١٤ تموز - إنطلقت على

الفور مظاهرات تأييدية لقاسم في كل بغداد. تدفّق المواطنين في الشوارع وهم يحاولون الدفاع عن نظامهم دفاع اليأس. الرجال الذين تجمّعوا أمام وزارة الدفاع كانوا يتوسّلون قاسم لإعطائهم الأسلحة فرفض بسبب ربّما إعتقاده غير المتزعزع بقدرته في الخروج من المحنة ولو إستوجب إنتظار ٢٤ ساعة أخرى قبل أن يتمكّن المهاجمون من الدخول إلى وزارة الدفاع وتنفيذ حكم الإعدام بقاسم وأصحابه في أعقاب محاكمة صورية فلم يكن هناك أدنى شك بنجاح المحاولة الانقلابية.

البعث والقوميين من شباط إلى تشرين الثاني ١٩٦٣

بين أشهر شباط وتشرين الثاني ١٩٦٣ جرت أفزع مشاهد للعنف بعد الحرب العالمية في الشرق الأوسط. ارتكب البعث وشركاءه فصولاً من الوحشية والبربرية المجانية بمستويات لا يمكن تبريرها بأي دافع.

مسيطرأ على المراكز الإستراتيجية ومنفذاً حكم الإعدام بقاسم باشر البعث بتصفية منافسيه جسدياً. تم تنفيذ الواجب بمعظمه بواسطة قوّاته من الميليشيا غير النظامية والحرس القومي الذي ارتفع عدده من ٥٠٠٠ في شهر شباط إلى ٣٤٠٠٠ في شهر آب. يوم الانقلاب وصف بيان لمجلس قيادة الثورة الإلتزامات بهذه الصورة:

«نظراً للمحاولات التحريضية للعمالء الشيوعيين، الشركاء في جريمة عدو الله [عبدالكريم قاسم] لزرع الفوضى في صفوف الشعب ونظراً لرفضهم إطاعة الأوامر والتعليمات الرسمية، يخول إلى قادة الوحدات العسكرية والشرطة والحرس الوطني بقتل أي شخص يخل بنظام الأمن والسلم. ننادي أبناء الشعب بالتعاون مع السلطات عبر إعلامها بأماكن تواجد هؤلاء المجرمين وتصفيتهم.»

رغم علم قيادة الشيوعيين ومنذ زمن بأن هناك إنقلاب في طور الإعداد فلم يقوموا بوضع أيّة خطة طارئة. تم توقيف أنصار ومؤيدي الحزب في منازلهم أو نفذوا حكم الإعدام بهم على قارعة الطريق خلال الأيام الأولى حينما خرجوا مع الجمع في محاولة شجاعة ولكن عبثية «للدفاع عن الثورة» كما كانت تطلب منهم مناشير الحزب.

من المستحيل تحديد رقم بعدد الأشخاص الذين قُتلوا ولكن تم توقيف عدّة آلاف وحوّلوا الملاعب الرياضية إلى سجون وقتية لإحتواء كل هذا العدد من السجناء. كانوا يقتلون الناس في الشوارع ويعذبونهم إلى حدّ الموت في السجون أو يُنفذ فيهم حكم

الإعدام بعد إجراء محاكمات صورية. ومن لم يُقتل عوقب بأحكام سجن ثقيلة وحملوهم ظروفاً قاسية. إستمرت الجرائم والتوقيفات والتعذيب طوال الفترة التي بقي البعثيون في السلطة ومسؤوليتهم في هذه الجرائم لا يمكن التشكيك فيها.

بما أنّ كل عائلة بغدادية تأثرت - تعاملوا بالسوء مع الرجال والنساء على السواء - فقد أثارت نشاطات البعثيين مستوى عميقاً من الإشمئزاز والذي لايزال مطبوعاً في لوعي العراقيين من هذا الجيل. وحتى لو أنّه تم إغتيال شخصيات يسارية بين وقت وآخر في السنوات السابقة فالجرائم والتوقيفات التي أرتُكبت خلال ربيع وصيف ١٩٦٣ تشهد على حملة منسّقة بعناية وعملياً ثمّة يقين بأنّ أولئك الذين قادوا الغارات في بيوت المشبوهين كانوا يتصرّفون طبقاً للقوائم التي قد جهّزوه بها. ومعرفة كيف تم إعداد هذه القوائم تُعد تخميناً ولكن كانت لبعض القادة البعثيين وبضمنهم ربّما لصدّام حسين إتصالات مع المخابرات السريّة الأمريكية وعلاوة على ذلك فلا وجود مكان للشك بأنّ العراق والشرق الأوسط كانا يخبئان أصنافاً متنوّعة من المجموعات التي كانت مهتمّة بصورة مباشرة بسحق الحزب الشيوعي الأقوى ربّما والأكثر شعبية في المنطقة.

المجموعة التي قامت بإطاحة قاسم كانت مشكّلة من «تحالف» غير محدّد بين البعثيين والقوميين الذين لم يتوانوا في التناحر على تقاسم السلطة فيما بينهم. شرع المتأمرون في تأكيد مرجعياتهم القومية عبر الإعلان عن «الوحدة» مع مصر والذي أكتُشف بأنّ الأمر لم يتجاوز في كونه تصرفاً بلاغياً.

رغم إنهاء الجمهورية العربية المتحدة في عام ١٩٦٣ والإستحالة في إعادة خلق هيكل مثيل عملياً وفي الحقيقة لم يسعى أي نظام بين عام ١٩٦٣ و ١٩٦٨ ولا حاول البعث بالطبع في عهد أحمد حسن البكر وصدّام حسين القيام بأيّ خطوة جدية بإتجاه تعاون عربي - عربي تشير شكوكاً كبيرة حول نيّاتهم الأولى.

خلال الشهور الأولى للسلطة الجديدة فلا عبدالسلام عارف الذي كان بجانب عبدالكريم قاسم حين الإطاحة بالنظام السابق في عام ١٩٥٨ ولا الآخرون في الحكومة تمكّنوا من ممارسة السلطة بلا إعتراض.

كان الشارع تحت سيطرة الحرس القومي الذي كان يقوده المشهور منذر الوندائي المطيع لأوامر السكرتير العام للبعث مباشرة، علي صالح السعدي، وهو كان أيضاً نائباً

لرئيس الوزراء حتى إقالته في شهر تشرين الثاني. هكذا، اجتمعت العناصر القومية للتحالف و «البعثيون المناهضون لخط السعودي» الذين كانوا في معظمهم عسكريون محترفون وهم ساعون في إقامة مراكز قواهم الخاصة ضد السعودي ليس نفوراً من نشاطاته وإنما بسبب إحتكاره للسلطة نظرياً. إضافة إلى هذا فحقيقة إعتبار السعودي كرئيس عصاية صغيرة كانت تعني بأن إستمراره في السلطة سوف لن تجمل مطلقاً الصورة غير الساطعة للنظام.

بين شباط وتشرين الثاني ١٩٦٣ حصلت تطورات سياسية غامضة ومرتبكة وتلخصت في كونها مؤامرات وألغاز تقوم بها مجموعات للوصول إلى السلطة عن طريق الإغتيال والإرهاب الأعمى وكل ذلك بتنسيق وإدارة السعودي والحرس القومي.

ومع هذا ففي حزيران إضطّر السعودي مواجهة العداوة المتصاعدة للبعثيين الآخرين في الجيش ولرفاق البعث في دمشق الذين قاموا بدورهم في إنتقاد طريقته. لمجابهة هذه الإنتقادات أعلن فوراً بأنه ومجموعته كانوا «ماركسيين» وناس «يساريون» ساعياً للتأكيد، بأسلوب طالما تبنّاه البعثيون، بأن صفاء أيديولوجيته أنقى من صفاء أيديولوجية منافسيه ووصفهم «بالرجعيين» وناساً ينتمون إلى «اليمين».

كان السعودي عنيفاً أكثر ممّا كان ناشطاً أيديولوجياً و «إشتراكيته» كانت محاولة للحصول على تأييد بعض الزمر بضمنها القيادة القومية للحزب في دمشق أكثر ممّا كان تغييراً في توجّهه السياسي. بالنتيجة فتصريحاته المفرقة والقائلة بأن «سعودي ومؤيدوه نفذ صبرهم لنشر الإشتراكية في العراق» أو أن آراءهم «تتناغم مع الأفكار الإشتراكية المتطرفة التي قدّمها مجموعة من أعضاء الحزب في سوريا» لا يمكن النظر إليها بجديّة.

يبدو أن الإحتكار الظاهري للسلطة الذي مارسه السعودي قد دفع منافسوه داخل البعث العراقي إلى إزاحته وإزاحة زمريته عن السلطة. بالنتيجة، في ١١ تشرين الثاني، بينما السعودي وأصحابه كانوا يعقدون «مؤتمراً قطرياً إستثنائياً» لطرد «العناصر اليمينية»، أي أحمد حسن البكر وحردان التكريتي وصالح مهدي عمّاش وأصدقائهم فباشر ضباط مسلّحون بتوقيف هؤلاء وأرسلوهم بلا سؤال وجواب إلى مطار بغداد ووضعوهم في طائرة مغادرة إلى مدريد. توجه أمين الحافظ وعفلق بسرعة إلى دمشق

سعيّاً للمصالحة ولكنهم لم يصلوا في الوقت المناسب. إحتل الحرس القومي الشارع خلال خمسة أيام خوّلوه أثناءها في القيام بالتهب والسلب قبل أن تسحقه الوحدات الموالية لعارف. تم تفكيكه عند ذلك وبعد تصفية الزمرة السعودية تمكّن عبدالسلام عارف من ممارسة سلطته الشخصية بمساندة القوّات المسلّحة.

نظام عبدالسلام عارف ١٩٦٣ - ١٩٦٦

يمكن تقسيم عهد عبدالسلام عارف إلى فترتين متميزتين. الأولى إستمرت من شهر شباط إلى تشرين الثاني من عام ١٩٦٣ والثانية تنتهي بموته في عام ١٩٦٦ خلال المرحلة الأولى كانت المجموعات المتنافسة البعثية والقومية تحيك المؤامرات للوصول إلى السلطة، «السعوديون» يعتمدون بشكل كبير على قوّات المليشيا المساندة التي تضاعفت كقوّة تصادمية وحرس قريب من النظام لكنّها بقيت كقوّة إضافية وخارجية عن جهاز الدولة.

بعد تشرين الثاني تم تأسيس قوّة أكثر إندماجاً، الحرس الجمهوري الذي ضمّ بالأخص رجال لواء المشاة ٢٠ - أي وحدة تابعة للقوّات المسلّحة - وتوجّب عليها أن تخدم كقوّة نخبوية للنظام. إتخذ الحرس الجمهوري صورة مجموعة عسكرية داخل الجيش تنفّذ التعليمات الشخصية للرئيس، وهو نظام قام الذين جاؤا بعد عبدالسلام عارف بتطويره وتحسينه.

وإن كان النظام متماسكاً بشكل نسبي لكون معظم أعضائه بشكل أو بآخر إمّا قوميين أو ناصريين فالخلافات الشخصية والأيديولوجية كانت مستمرة حول مسألة علاقات العراق مع مصر. في حين ترك عارف بهدوء حماسته للإتحاد مع مصر مباشرة - لأن ناصر لم يعد يشعر بمصلحة في تحقيق هذا الهدف - فقد كان لايزال هناك أعضاء بارزون في النظام يتعلّقون بهذه الفكرة ويعتبرون بأن كل النظام الإقتصادي والسياسي الذي وضعه عبدالناصر مثلاً يجب على العراق تقليده ولذا أعلن عدد من «المقترحات الإتحادية» المدهشة ترافقها دعايات إعلامية في عام ١٩٦٤ و ١٩٦٥: إتفاق أولي وقّع بين ناصر وعارف في شهر حزيران من عام ١٩٦٤ ينص على تشكيل «قيادة سياسية موحدة» في كانون الأوّل ١٩٦٤ وتبني نسر الجمهورية العربية المتحدة في عام ١٩٦٥ كرمز وطني للعراق. بالطبع لم يفعل ولم يستطع المعينون من الطرفين اعتماد

هذه المقترحات غير الجدّية ولكن الأمر أظهر بأنّ حماسه عارف للوحدة العربية كانت لا تزال كما هي.

مات عارف في حادث طائرة عمودية في نيسان ١٩٦٦ وخلفه بهدوء أخاه عبدالرحمن عارف. ظهر بأنّ عبدالرحمن عارف هو الخلف المناسب لأنّه كان عسكرياً رفيعاً وأخاً للرئيس السابق وإضافة إلى ذلك فمكتب ومجلس الدفاع الوطني الذي إنتخبه يتكوّن من أعضاء عيّنه عبدالسلام بنفسه.

السنّتان المتواليّتان قبل إنقلاب البعث عام ١٩٦٨ رأّت تعاقب الحكومات العسكرية الناتجة من الصراع القائم بين الزمر المتنافسة وسط القوّات المسلّحة. المحاولات الجسورة لمجيد خدوري لتصنيف الزمر والمجموعات أيديولوجياً بدقّة لا يجب أن تخفي واقع صراعها من أجل السلطة وبأنّها كانت تستخدم الماركة الأيديولوجية بشرط أن تخدم مصالحها المباشرة.

موت عبدالسلام عارف ترك فراغاً إستمرّ حتّى إستلام البعث للسلطة في عام ١٩٦٨، وتم ترجمة ذلك بالإفتقار إلى الرجل القيادي وغياب سياسة إقتصادية محدّدة وعدم القدرة في المشاركة عملياً بالحرب الإسرائيليّة - العربية لشهر حزيران ١٩٦٧ والنزاعات المتواصلة في الشمال (كوردستان) وعدم القدرة أو الهرب الظاهري لإتخاذ القرار تجاه شركة النفط الوطنية العراقية والفقدان المتصاعد للثقة بالحكومة.

في وضع كهذا، فلأيّ حزب سياسي منظمّ قادر على التقرب من أفراد يحتلّون مواقعاً حسّاسة في القوّات المسلّحة حظاً كبيراً بالنجاح في قلب الحكومة. ومن الجائز بأنّ حرب حزيران والنشوة الناصرية التي سبقتها أخّرت لأن يقع الإنقلاب في عام ١٩٦٧ وفي النهاية فالتشكيل الذي تمكّن من إستلام السلطة أصبح حزب البعث.

قبل التكلّم عن إنقلابي ١٧ و٣٠ تمّوز ١٩٦٨ من المفيد أن نتحدّث عن بعض الملاحظات حول بنیان ووظيفة وطبيعة الحزب ككيان في السياسة العراقية لسنوات الستينيات. معظم الكتابات المعروضة حول البعث قبل سنوات ١٩٦٠ و ١٩٧٠ تفترض بأنّه كان يملك تنظيماً منظماً بدقّة شبيهاً في كثير من النقاط مع الحزب الشيوعي، مع لجنة مركزية وأيديولوجية مدروسة بعناية ومنهج تبنّاه أو تم التوصية به أثناء مؤتمرات الحزب.

إلى حدّ ما فصورة حزب البعث الذي يملك تنظيمياً منظماً ليست مغلوطة تماماً ولكن يخطيء من يوجّه إنتباهه كثيراً إلى مسائل الهيكل والأيدولوجية لأنّ العلاقات الشخصية والعائلية لعبت دوراً أهم بكثير عن الصفاء والنقاء الأيدولوجي. هكذا وخصوصاً قبل أن يأخذ الحزب السلطة فالعلاقات الشخصية والاصول الجغرافية والمذهبية كانت عوامل حاسمة للإنتماء إلى الحزب الذي يمكن تشبيهه، ولكن ليس على الإطلاق بالتأكيد، بإعلان التضامن مع المجموعة أو إعلان الوفاء لشخص معيّن أكثر ممّا هو إلتزام سياسي أو أيديولوجي.

لم يتم وضع نظام إداري متكامل إلاّ بعد عام ١٩٦٨ وحتىّ أثناء ذلك فقد إستمرت شبكة العلاقات الشخصية غير الرسمية في كونها أكثر حسماً داخل الحلقات المتقدّمة للحزب.

وقراءة سريعة في تاريخ الحزب منذ تأسيسه تسمح لنا بتقدير حجم أهميّة العلاقات الفردية.

وتأكيداً لما نقول ففؤاد الركابي، المؤسس الشيعي لحزب البعث العراقي في بداية الخمسينيات كان يقود تنظيمياً مكوّناً بصورة كاملة تقريباً من أقربائه وزملائه من الطلبة الشيعة ومؤيّدَي علي صالح السعدي كانوا على العموم سوقيون مثله يأتون من محلّة باب الشيخ في بغداد وأمّا بخصوص مجموعة أحمد حسن البكر - صدام حسين التي أخذت السلطة في عام ١٩٦٨ فأنصارهم كانوا في البداية سنّة من تكريت. وثمة أمثلة مشابهة خارج العراق: معظم أنصار الرئيس السوري حافظ الأسد ينتمون إلى مجتمعه العلوي، الأقلّيّة المتجانسة الساكنة في الجبال الواقعة وراء اللاذقية.

في الحقيقة، البعثية مرنة بما يكفي ليتم تبيّنها كأيدولوجية من قبل أيّة مجموعة في الشرق الأوسط العربي سواءً كانت «أقلّيّة» أو «أغلبية» لأنّها مصوّغة بعبارات عريضة ومبهمّة جدّاً تفتقر على السواء إلى الإطار التحليلي وإلى الأهداف المحدّدة بدقّة. وكنتيجة على ذلك فترديد صلوات تقية بسيطة حول «الوحدة العربية» على سبيل المثال أُعتبرت كافية لإعطاء إنطباع على العموم مغلوّط بأنّ الأحزاب أو الحكومات البعثية كانت أو لا زالت تعمل بنشاط لتحقيق هذه الغاية.

رغم أنّ بعض الهياكل التنظيمية ربّما تواجدت بالفعل فلا ينبغي طرح هذه الحقيقة

كمسئمة لأنّ جوهر نشاطات الحزب في العراق بين تشرين الثاني ١٩٦٣ وتمّوز ١٩٦٨ جرت وسط مجموعات متأمرة صغيرة مرتبطة فيما بينها بغموض وينظم إليها أقارب وأصدقاء يحملون ذات الرأي.

وعلى هذا المنوال «سياسة البعث» كانت تتّصف بتهيئة الظروف اللازمة لأخذ السلطة أكثر ممّا تسعى إلى بناء حزب سياسي يمتلك برنامجاً اقتصادياً وإجتماعياً يستقطب الناس ويجذبهم إلى صفوفه.

في ظروف كهذه فتأكدات النقاوة الأيديولوجية كتلك التي عبّر عنها علي صالح السعدي في عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ لم تكن بأكثر من كلمات ظرفية من قبل مجموعات متنافسة أو تبريرات تلبي إعتبارات براغماتية بحتة تماماً.

وهو يناقضها مع النصوص الأولى - وفعاليتها في إعاقة أي فهم واضح لما كان يجري تماماً يجب أن لا يُنظر إليها بعين الإحتقار بسبب العلاقات الوثيقة التي تواجدت بين بعض مؤلفيها وبين المخابرات المركزية الأمريكية -، فمالك مفتي يصف لنا بعرض واقعي الفترة التي امتدّت من أواسط الخمسينيات وإلى منتصف السبعينيات:

«بنهاية الأمر... بقيت حدود الشرق الأوسط كما كانت ولم تحصل شعوب مصر وسوريا والعراق على أكثر من خسارة عقدين من الزمن. وهل كان ممكناً أن يحصل غير هذا؟ كتب متحمّس [كامل أبو جبر] في منتصف الستينيات: «،،البعثيون اليوم هم لوثريو وروسويو وأونويو وماركسيو العالم العربي يحملون رؤيةً وبرنامجاً وحلماً...»، في الحقيقة، لم يكن للقادة البعثيين ولعظم منافسيهم أي رؤية أو برنامج أو حلم: وإنما كانوا يترجّون الوصول إلى السلطة بشفاعة أولّ أجنبي يساندهم في تحقيق هذا الأمل.»

الإستنتاج

من المهم لأسباب عديدة إلقاء نظرة على السوابق الأيديولوجية للبعثية. فأولاً، لا للبعثية ولا للعروبة التي تنبع منها البعثية معنىً والإثنتان تعتمدان على قراءة إنتقائية لتاريخ الشرق الأوسط الحديث عبر ذكر ماضي عربي قديم جداً، أي بعيد كثيراً عن الواقع. ومن ثمّ فالبرغم من النصوص العربية أو الانكليزية التي تجهد في إثبات العكس يبدو صعباً التأكيد بأنّ الأيديولوجيات سواءً الوجودية أو البعثية قد تعمّقت جذورها في الوجدان السياسي لغالبية العراقيين عدا في صفوف الجيش وفي صفوف بعض العناصر من الطبقة الوسطى خلال فترة ما بين الحربين. أي «حزب ناصري» لم يرى النور في الخمسينيات وقبل عام ١٩٥٨ بل يمكننا القول حتّى قبل عام ١٩٦٨ إستقطب البعث عدداً صغيراً جداً من الناس إليه. أُستُخدم الحزب كأداة من قبل العديد من أشخاص عديمي الضمير ومتعطّشون للسلطة بحيث أصبح (الحزب) عند ذلك تبريراً غير مقنعاً للجهود التي يبذلونها من أجل إحتكار الدولة العراقية. لم يتحوّل البعث إلى حزب جماهيري إلاّ بعدما أصبح حزب الحكومة في السنة التي تلت عام ١٩٦٨ وإرتفعت الجماهيرية حينما وهب صدّام حسين نفسه سلطات مطلقة في عام ١٩٧٩ وأصبح الإنتماء جبرياً تقريباً.

حتّى وبعد ثورة ١٩٥٨ «فايديولوجية» الأكثر تقبلاً في العراق كانت تمزج بين الرغبة في الإستقلال الوطني وبين الرؤية الإجتماعية - الديمقراطية التي إعتقدوا على العموم بأنّه من واجب الدولة لعب دور حاسم في الإقتصاد.

في نقاط عديدة لم يختلف برنامج الحزب الشيوعي العراقي، مثل الكثير من الأحزاب الشيوعية في العالم الثالث من نهاية الأربعينيات وإلى سنوات الستينيات، إلاّ قليلاً مع برامج الأحزاب الإجتماعية الديمقراطية والعمالية في أوروبا الغربية. وإنّ لم تكن مسألة الإصلاح الزراعي موضوعاً للنقاش في أوروبا ففي ميادين أخرى كثيرة - تأميم الفحم الحجري والفولاذ والنقل العام ومساندة النقابات العمالية وإعطاء الأهميّة إلى التربية السياسية والصحة والتأمين الإجتماعي - فقد كانوا يشتركون معها في أهداف عديدة.

الشيوعيون واليساريون في الشرق الأوسط تم قمعهم ودفعهم أكثر فأكثر إلى

مشوقو ساحة التحرير في بغداد

كريس كوتشيرا

عند سقوط صدام حسين لم يتجاوز عدد اليهود في بغداد ٥٠ شخصاً...فيما لو أضفنا النساء اليهوديات اللواتي تزوجن من الكورد فالرقم يكاد يبلغ ٧٠ يهودياً في كل العراق. وهذا العدد صغير جداً بالنسبة لأقدم وأهم تجمع يهودي إزدهر في الشرق الأوسط. الروايات العديدة للمسافرين الغربيين تسمح بإعطاء فكرة دقيقة تقريباً حول أهمية المجتمع اليهودي وظروف حياتهم في هذه الفترة.

دافيد بيث هيلل Devid Beth Hillel الذي زار تركيا وبلاد الفرس بين أعوام ١٨٢٤ و١٨٢٨ أحصى ٦٠٠ عائلة يهودية في الموصل و٦٠٠ في زاخو و٢٠٠ في العمادية وكركوك و ١٠٠ عائلة في سندور والسليمانية.

كان المجتمع اليهودي يتكوّن من ناس فقراء ولكن أيضاً من «تجار أغنياء جداً» يعيشون سواءً في بغداد أو في كوردستان في العمادية وفي السليمانية. في القرى كانوا في الغالب يمتنون الحرف اليدوية وتجد بينهم مزارعين أيضاً يملكون المواشي وحقول الأرز. قرية سندور التي كانت تملك كنيسة تسكنها عوائل يهودية فقط.

بعد هذا التاريخ بسنوات أمضى إسرائيل - جوزيف بنجامن الثاني Israel- Joseph Benjamin II الذي يقارن نفسه وبلا تواضع مع بنجامن توليد خمس سنوات في كوردستان من عام ١٨٤٦ إلى عام ١٨٥١. وقد كتب بالأخص وصفاً عن المجتمع اليهودي في مدينة زاخو التي كان يعيش فيها حاخامان وتقريباً ٢٠٠ عائلة يهودية من بينهم تجار وحيّاكة وحينما يذكر جوزيف بنجامن الثاني التجمع اليهودي في العمادية يؤكّد بأنّه لم يكن هنالك شيء يميّز هؤلاء القرويين عن جيرانهم المسلمين إلى درجة بحيث أنّ رفاقه في السفر من المسيحيين (النسطوريين) كانوا يسخطون ويشتاظون

الإختباء والسريّة في سنوات الخمسينيات والستّينيات والسبعينيات. في العراق وفي مناطق أخرى كان معظم كبار مثقفي هذه الحقبة الزمنية ينتمون إلى التنظيمات اليسارية أو على الأقل من تعدّر عليهم شراءه من قبل الأنظمة الحاكمة. في أكثر الحالات تم تغيير الأنظمة السياسية اليسارية ووضعوا محلّها بدائل بشكل أو بآخر سواءً دكتاتورية قومية - اشتراكية أو أنظمة، مثلما كان حال إيران، إستبدادية تبتعد رويداً رويداً عن التسامح.

أدّى هذا الخوف الشاذ، الخوف الذي عمّته الحرب الباردة، أو هذا الحقد على الشيوعيين وعلى اليساريين إلى نتائج مؤسفة حينما إلتجأت المعارضة العلمانية إلى الإختباء في كل مكان تقريباً من الشرق الأوسط. في ظروف كهذه أصبحت «السياسة» إما خطيرة جداً أو ممارسة مخادعة: بالنتيجة فحينما كانت المعارضة موجودة فإنّها تقع تحت سيطرة تنظيمات دينية مختلفة الطباع لأنّ حكومات الدول الإسلامية لا تقدر على الوصول إلى حد غلق المساجد.

غضباً حينما يرونهم يعملون في أيام الأحد : و بعد مقابلة طويلة إكتشفنا بأنهم يهود وليسوا مسيحيين.

التجمع اليهودي كان يشكل ملة تعترف بها السلطات العثمانية ويدير شؤونها دائماً مجلسان مجلس علماني ومجلس ديني. حينما كانت السلطة بيد العثمانيين فالنازي الأمير أو رئيس المجلس العلماني كان يمارس سلطة كبيرة : حيث كان صيرفي الباشا وله حسب إسرائيل جوزيف بنجامين حرية عمل مطلقة. وفي نهاية سلالة باشوات الماليك أصبح النازي تابعاً لآخام باشي أو رئيس الحاخامين الذي يتم تعيينه من قبل الباب العالي وهو يدير حياة التجمع. ويشير إسرائيل جوزيف بنجامين بأنه في أي مكان آخر لم يرى إخوته في الدين محررين بهذه الدرجة من هذا القلق الناتج عن التعصب والإضطهاد.

ولكن تدهور الوضع من جديد في أواسط القرن التاسع عشر حيث كان على اليهود تحمّل تبعات الحروب التي وقعت بين الكورد والسلطان العثماني وهاجر تجار بغداد الكبار من اليهود إلى إيران أو إلى الهند حيث كان قد تم إلغاء إحتكار شركة الهند الشرقية (١٨١٣). ولكن الوضع تغير في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث إبتعد اليهود من التعامل الإيراني السيء معهم وإستقروا في بغداد. إفتتاح قناة السويس (١٨٦٩) والمباشرة في إستخدام السفن البخارية في نهري دجلة والفرات وفرت للتجمع اليهودي في بغداد حياةً مزدهرة ومستقرة لفترة معينة حيث إرتفع عددهم من ١٠٠٠٠ شخص في عام ١٨٣٠ إلى ثلاثين ألفاً في ١٨٨٤ وأصبحوا خمسون ألفاً في نهاية القرن التاسع عشر. وفي نفس هذه الفترة إستقر يهود من بغداد في الصين وفي العديد من البلدان الآسيوية الأخرى كسيلاس حيردون الذي أصبح من أغنى الرجال في شنغهاي أو دافيد مارشال الذي تم تعيينه رئيساً للوزراء في سنغافورة. لكن هذا لا يعني بأن الإزدهار شمل كل يهود بغداد : إستناداً إلى تقرير بريطاني فالـ ٦٠ ٪ من يهود بغداد كانوا فقراء و ٥ ٪ منهم يتسولون...

في عام ١٩١٠ كان هنالك مشروع غريب وفضولي يدعو إلى إستعمار الميزوبوتاميا من قبل يهود روسيا وأوروبا المركزية وقد قدمته الجمعية العامة للإستعمار اليهودي المتمركزة في برلين إلى عدد من مسؤولي الشبيبة التركية. هذا المشروع كان مخططاً له

بأن يقوم بتمويله يهود ليسد العجز المالي العثماني... فيما لو سمحت سلطات إستانبول بهجرة يهودية غير محدّدة وبإقامة دولة يهودية مستقلة في الميزوبوتاميا. في نهاية عام ١٩١٠ زار أحد رؤساء لجنة الإتحاد والترقي لسالونيك المؤيدين لهجرة " الملايين" من يهود روسيا المكاتب الباريسية للجمعية العامة للإستعمار اليهودي. لكن المشروع لم يرى النور بسبب الحرب العالمية الأولى.

بعد وصول القوّات البريطانية إلى بغداد (٣ شباط ١٩١٧)، إتّسمت فترة الإنتداب البريطاني بحصول يهود ميزوبوتاميا على الحرية المطلقة تقريباً. فبعد مرور وقت قليل على الإنتداب سيطر رجال الأعمال اليهود عملياً على كل البنوك وعلى قطاع الإستيراد والتصدير وشركات التأمين والمصانع في بغداد والبصرة. والرقم الذي نذكره يؤكّد ما ذهبنا إليه حيث أنّ ١٠ من مجموع ٢٥ عضواً في غرفة تجارة بغداد كانوا من اليهود (كان فيها عربي واحد فقط) ومن كل الموظفين (٥٠٠) كان بينهم (٢١٥) يهودياً. وقد هيمنوا بفضل مساندة السلطات البريطانية لهم وبشكل خاص بسبب إحتكارهم الكلي تقريباً لمهنة الصيرفة والرهن، الشرف، بفوائد تصل إلى ٣٠ أو ٤٠ ٪ وأكثر، المهنة التي كانوا يمارسونها منذ زمن بعيد والتي قادتهم لأن يكونوا - شرف باشي - باشوات بغداد...أو مزارعي تبغ السليمانية. وأول مصرف غير يهودي، مصرف الرافدين، لم يتم تأسيسه إلا في عام ١٩٤٧،

كان للتجمع اليهودي العراقي منتدبون عديدون في برلمان بغداد يمثلون منطقة بغداد والبصرة وكركوك والموصل وفي بداية العشرينيات كان وزير المالية يهودياً.

إضافة إلى هذا فقد كان لتجار- مصرفيي بغداد اليهود فروع في الهند وفي بريطانيا خلال القرن التاسع عشر كعائلة ساسون المالكة لأموال طائلة التي يمكن مقارنتها بعائلة روتشيلد...فمن خلال إستقرار أفراد من عوائل تجار يهود بغداد في بومباي تمكنا من إستيراد النسيج والأقمشة البريطانية وبيعها في العراق.

هذا الإزدهار وهذه الحرية إستمرّ في الفترة الملكية إلى نهاية عهد فيصل المتفتح إزاء التجمع اليهودي. وقد صرّح الملك علياً في عام ١٩٢١ : " لا ينبغي وصف أي شخص في بلدنا بأنه مسلم أو مسيحي أو يهودي. هنالك تسمية واحدة فقط : مواطن عراقي." وثمة صورة يعود تاريخها إلى عام ١٩٢٤ للملك وهو يزور مدرسة التحالف

الإسرائيلي القومي (Alliance Israelite Universelle) في بغداد ونشرت فيها اسبوعية لفترة معينة. كان هناك العديد من البرلمانيين اليهود ووزيراً للمالية ورؤساء المحكمة العليا في بعض التشكيلات الحكومية.

لكن الوضع بدأ يسير نحو الأسوأ عقب إنتهاء الإنتداب البريطاني (١٩٣٢) ووفاة الملك فيصل (١٩٣٣) نتيجة لصعود وسيطرة المد القومي وحضور اللاجئين الفلسطينيين - أشهرهم كان مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني، وتأثير الألمان المؤيدين للنازية وإنقلاب رشيد عالي الكيلاني في ربيع عام ١٩٤١.

بعد سحق محاولة رشيد عالي المؤيد للنازية (٣ نيسان - ٣١ أيار ١٩٤١) من قبل الإنكليز إنطلقت مظاهرات عنيفة في حزيران ١٩٤١ أدت إلى موت أكثر من ١٢٠ شخصاً وجرح ما لا يقل عن ٨٠٠ من اليهود في بغداد بينهم العديد من التجار وتم نهب ممتلكات الكنائس والبيوت اليهودية من قبل السرّاق والجنود والشرطة المؤيدين لرشيد عالي الكيلاني. وانتظرت القوات البريطانية على عتبة أبواب بغداد يومين قبل التدخل.

هذا الفهود إستهدف التجمع اليهودي الذي تم تشخيصه كحليف للإنكليز. وقد ردّت الحكومة العراقية بشدة من خلال تشكيل مجلس للتحقيق وتوقيف المسؤولين الرئيسيين وسجن البعض الآخر وحتى تنفيذ حكم الإعدام بعدد منهم ودفع التعويضات للعوائل التي تم نهبها.

لكن هذه الأحداث الأخيرة أدت إلى موجة من الهجرة السرية نحو إيران والتسييس المتصاعد للشباب اليهود العراقيين الذين توجهوا نحو الحركة الصهيونية السرية أو نحو الحزب الشيوعي العراقي حيث إثنان من قيادته كانا يهوديان (أُعدموا لاحقاً).

أظهرت إحصائية عام ١٩٤٧ - وهي الأخيرة التي جرت قبل الهجرة الجماعية الواسعة لليهود نحو إسرائيل في الخمسينيات - بأن عدد اليهود في العراق كان ١١٧٠٠٠ حيث ٧٧٠٠٠ منهم يسكنون في بغداد أي ما يقارب ١٥ ٪ من سكّان بغداد. كان هناك في بغداد في هذه الفترة ٣٠ مدرسة يهودية و ٦٠ كنيس يهودي ومستشفين أهليتين. اليهود كانوا يشكّلون النخبة في المجتمع العراقي تجد بينهم الأطباء والمهندسين والفنانين والموظفين البارزين. بإختصار، في هذه المرحلة الحاسمة لتاريخ اليهود العراقيين كان مجتمعهم مجتمعاً مزدهراً نسبياً ومندمجاً في المجتمع

العراقي - من عام ١٩٢٤ وإلى عام ١٩٤٤ لم يهاجر أكثر من ٥٠٠٠ يهودي عراقي إلى إسرائيل.

تغيّر كل شيء مع تأسيس دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨ وتردّت أوضاعهم بسرعة. وقد تبنت الحكومة الملكية لنوري السعيد سياسة تمييزية تجاه اليهود : طردوا المئات منهم من الدوائر الحكومية وتوقفت الحكومة في منح رجال الأعمال اليهود إجازات الإستيراد ومنعت على المصارف اليهودية تحويل العملات الصعبة وحرّموا على أطباءهم ممارسة المهنة. أصبح الانتماء للصهيونية جريمة عقابها الموت إستناداً إلى المادة ٥١ في القانون الجنائي، لم يكتفوا بمنع اليهود بالهجرة إلى الخارج وإنما اعتبروا كل اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين في العشر سنوات الأخيرة كمجرمين. في آب من عام ١٩٤٨ أوقفوا شفيق عدس، المليونير اليهودي ووكيل شركة فورد في العراق وإتهموه بتسليمه أجهزة عسكرية إلى إسرائيل. حاكموه وشنقوه أمام داره. وقد شكّل إعدام هذا الرجل الذي كان قريباً من السلطة صدمة للتجمع اليهودي في بغداد ألذي لم يعد يعتقد بإمكانية الهجرة ورغم ذلك فقد تمكّن ٢٠٠٠٠ يهودي من الهجرة سرّياً عبر إيران أي بمعدل ١٠٠٠ شخص شهرياً.

الهجرة - عملية عيزرا ونحيميا

في آذار من عام ١٩٥٠ تنفيذاً لرغبتها بالتخلّص من " الطابور الخامس " الصهيوني الذي كان يعيش في أحضانه العديد من الشيوعيين والتخلّص من الضغط الدولي الشديد الممارس عليها فقد قرّرت حكومة بغداد السماح لليهود بالهجرة من خلال تبنيها لقانون " نزع الجنسية " الذي كان يفتح لليهود باب الهجرة خلال مهلة عام ولكن يشترط عليهم بيع ممتلكاتهم والتخلي عن الجنسية العراقية. وفي نفس الفترة أي ابتداءً من نيسان ١٩٥٠ وإلى حزيران عام ١٩٥١ فقد جرت سلسلة من التفجيرات المستهدفة للتجمع اليهودي أو الأمريكي أسفرت عن وقوع العديد من الجرحى وقتل ستة من اليهود ممّا أسرع بحركة الهجرة.

ففي الشهور الأولى سجّل أكثر من ٥٠٠٠٠ يهودي أسماءهم على قائمة المرشّحين للهجرة. وصل العدد الكلي إلى ١٣٠٠٠٠ مهاجر يهودي في إطار عملية عيزرا ونحيميا وقد أقلعت الطائرات الأولى من بغداد ومرت عبر خط قبرص ومن ثم إلى

إسرائيل في منتصف شهر أيار من عام ١٩٥١ . وبعد ذلك أصبح هذا الجسر الجوي مباشراً بين بغداد وإسرائيل. حينما إنتهت عملية عيزرا لم يتبق في العراق أكثر من ٦٠٠٠ يهودي.

لكن ما هي الأسباب التي دفعت هذا العدد الهائل من اليهود العراقيين للهجرة ؟ الصهاينة يؤكدون بأن الهجرة كان سببها سياسة التمييز والإضطهاد التي إتبعتها حكومة بغداد بعد نشأة دولة إسرائيل، تلك السياسة بلغت أوجها مع شنق رجل الأعمال شفيق عدس ومع القنابل التي فُجرت في ١٩٥٠ - ١٩٥١ ،

ولكن ثمة فرضية أخرى تقول بأن هذه الهجرة رُتبت من قبل الإسرائيليين : تفجيرات ١٩٥٠ - ١٩٥١ قام بها عملاء صهاينة بقصد إرهاب اليهود العراقيين ودفعتهم إلى المغادرة. وقد دافع عن هذه الفرضية إسرائيليون معادون للصهيونية من أمثال يوري أفيري ولكنها تفتقد إلى براهين دامغة رغم توقيف السلطات العراقية لثلاثة مناصرين صهاينة يعملون في الخفاء وإتهامها لهم بأنهم هم الذين قاموا بعملية تفجير القنابل (تم إنتزاع إعتراقاتهم تحت التعذيب). ومن الجانب الآخر فليس هناك أدنى شك بأن الحركة الصهيونية العراقية السريّة قادت حملة مركّزة لدفعهم إلى الهجرة من خلال تأكديها لهم بأن المغادرة إلى إسرائيل سوف تحل كل مشاكل اليهود العراقيين.

السنوات الخمس التي تلت ثورة تمّوز ١٩٥٨ ووصول الجنرال قاسم إلى السلطة إعتبرها اليهود الباقيون في العراق كفترة سعيدة نسبياً لأنّ الإضطهاد والقمع لم يُمارس ضدّهم.

البعث في السلطة - ١٩٦٨

بعد وصول البعث الى السلطة في المرّة الأولى لم يتأخّر صدور القرارات التمييزية : لم يعد لليهود حقاً في بيع ممتلكاتهم وأُجبروا على إستخدام بطاقة هوية صفراء ومنعوا من السفر إلى الخارج ولكن سقوط النظام البعثي بعد شهور من وصولهم أعطى المجتمع اليهودي فرصة إستراحة جديدة.

لم يعد البعثيون إلى الظهور إلا في السنة الأخيرة من حكم عارف حينما نظّموا تظاهرة أعطت فكرة واضحة عن الأيام القادمة : في ٦ أيلول من عام ١٩٦٧ نظّم البعث مظاهرة شعبية ضدّ الزعيم عبدالرحمن عارف. تعرّض المتظاهرون إلى النظام

وطالبوا بإتخاذ إجراءات ضدّ " العملاء المحليين للصهيونية والامبريالية " ضدّ " الطابور الخامس " المسؤول عن هزيمة حرب الأيام الستة.

لضعفه إنقاد الزعيم عارف تحت ضغط البعثيين وإتخذ بعض الإجراءات ضدّ اليهود : أعلن تجميد الممتلكات غير المنقولة وقرّر تحديد حصّة نسبية للطلبة اليهود الذين يتم قبولهم في الجامعات العراقية ولكن مع ذلك فقد ظلّ القمع خفيفاً في عهد حكم الزعيم عارف : من حرب الأيام الستة (حزيران ١٩٦٧) وإلى إستلام البعث للسلطة (تمّوز ١٩٦٨) يمكن تحديد عدد الموقوفين بـ ١٠٠ يهودي وأطلق سراحهم بعد قضاء فترة وجيزة في السجن ولم يتم تعذيبهم ولا تنفيذ حكم الإعدام بهم.

عودة البعث إلى الحكم بعد إنقلاب ١٧ و ٣٠ تمّوز ١٩٦٨ وتقلّد أحمد حسن البكر لمنصب رئاسة الجمهورية وتعيين صدام حسين نائباً له فتح واحدة من أسوأ الصفحات لتاريخ اليهود في العراق الذين تقلّص عددهم إلى أقل من ٢٠٠٠ شخص. حاول العديد منهم الهجرة وذلك بالعبور إلى الحدود الإيرانية بخفاء وبمساعدة المعبرين وقد وقع الكثيرون منهم بيد القوّات العراقية وإنتهوا في السجن...قبل أن يطلق سراحهم مقابل فدية.

في ٩ تشرين الأوّل ١٩٦٨ ، أي عقب شهرين من عودة البعث إلى الحكم أعلنت سلطات بغداد عن كشفها " لشبكة تجسّسية " في البصرة، المدينة العراقية الكبيرة في الجنوب. تم توقيف سبعة عشر يهودياً ونقلوهم إلى بغداد للإستجواب والتحقيق. وأوقفوا آخرين لاحقاً في بغداد.

في بداية كانون الأوّل قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف الوحدات العراقية المتمركزة في أربد بالملكة الأردنية الهاشمية كردّ على إطلاقهم للنار ضدّ المواقع الإسرائيلية : قُتل ١٦ جندي عراقي وجرح ٣٠ منهم. في اليوم التالي نظّم البعث من جديد مظاهرة في بغداد : سار في الشارع ٤٠٠٠٠ شخص وهم يحملون على أكتافهم نعوش ضحايا القصف الإسرائيلي وتطرق الرئيس أحمد حسن البكر في خطاب عاطفي طويل إلى " خيانة زمرة من العملاء العائدين إلى الطابور الخامس والمناصرين لإسرائيل وأمريكا في الوقت الذي يواجه جيشنا البطولي الهجمات المتكرّرة " .

بعد مرور أيّام قليلة عرض التلفزيون العراقي " إعتراقات " إثنين من المشبوهين الذين أقرّوا بإنتمائهم إلى مؤامرة كبيرة ضدّ العراق لها إرتباط مع إسرائيل وإيران ولبنان

ومسؤولة عن عبور الأسلحة والأموال. أحد المتآمرين كان إسمه فؤاد كبيّ ويعيش في البصرة حيث روت زوجته كيف أنّ الشرطة التي أوقفها وضعت يدها على محوّلات التبريد وهم يصرخون في وجهها : " هذه أجهزة بث : أنتم تتجسسون لصالح إسرائيل". دافع فؤاد كبيّ عن نفسه في البداية معلناً بأنّه غير مذنب ومن ثمّ إعتترف بأنّه تجسّس لصالح إسرائيل بعدما هدده بوليس البعث بالإعتداء الجنسي على زوجته الحامل وبسلخ جلدّها حياً.

في ٥ كانون الثاني ١٩٦٩ بدأت محاكمة " الجواسيس ". في ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٩ حكّم بالإعدام على ١٤ من المتهمين بينهم ٩ يهود وفي نفس اليوم عرضوا في ساحة التحرير جثّة ١١ محكوم عليهم تمّ تنفيذ الحكم فيهم بالسجن، ٨ منهم يهود، أمام مئات الآلاف من العراقيين الذين جاؤوا بدعوة من الإذاعة للمشاركة في " عيد " وصفه الراديو بأنّه " أوّل خطوة شجاعة بإتجاه تحرير فلسطين " .

وذات المشهد تم ترتيبه في البصرة حيث عرضوا جثث الضحايا الثلاثة الأخرى وبينهم جثّة اليهودي المتهم بكونه مسؤول شبكة التجسس.

منظّم هذا " المشهد " المربع كان صلاح عمر العلي وزير الإعلام وعضو مجلس قيادة الثورة و " المعارض " البعثي لاحقاً وقد ألقى خطاباً تهديدياً : " يا إسرائيل يا أمريكا وأنتم أيّها الصهاينة إسمعوني : ليس هذا غير البداية فإساحات الخالدة في العراق سوف تمتليء بجثث الخونة والجواسيس".

وكتب طارق عزيز الذي كان رئيساً لتحرير جريدة الثورة مقالاً يعلن فيه بأنّه " لا يجب الإعتقاد بأنّ مئات الآلاف من الأشخاص الذين فرحوا بروية جثث المشنوقين هم وحوش أو بدائيين...هذا الحدث كان صرحاً من الثقة التي هيّأته وأعدته الثورة على أهم ساحة في بغداد لإثباتها للناس بأنّ ما كان مستحيلًا في الماضي أصبح واقعاً، اليوم، وهو يتحدّث عن نفسه بنفسه " .

كان القادة البعثيون يعلمون علم اليقين بأنّ التجمّع اليهودي العراقي لم يعد يشكل أي خطر. لكن ترتيب هذا " المشهد " مع مشاركة " الجمهور العراقي " كان يستهدف أولاً إثبات شرعية النظام الذي لم يستلم السلطة كما كان يشتهي وأراد النظام بفعلته أيضاً الإثبات للمواطنين بأنّ الحزب يسهر على أمنهم ويعمل لصالحهم. ولكن العراقيون

الذين ذهبوا طوعاً أو جبراً لتأمّل جثث بعض هؤلاء البؤساء من " الجواسيس " وهي تهتز معلقةً بأطراف حبل والمعروضة في ساحة التحرير لم يستوعبوا بأنّ الأمر كان يمثّل " إضطهاد وجمع كل العراقيين في ظل نظام البعث الذي بدأ مع الشريحة الأضعف من بينهم " كما أشار إليه كنعان مكّي في كتابه Cruelty and fears

الرسالة كانت واضحة بالنسبة لليهود : لم يعد لهم مكان في العراق ولم يبق فيه غير المعمّرين والفقراء الذين إنعدمت لديهم وسيلة دفع للمعبرين والهروب عبر الحدود مروراً بكوردستان مثلما فعل إيلي دينوس في نهاية عام ١٩٧٠ وهو المتهم اليهودي الوحيد الذي أطلق سراحه في " الدعوة التي أقيمت ضدّ الجواسيس " .

نهاية تجمّع

بعد الشنق الدراماتيكي لعام ١٩٦٩ إستمرّ البعث في توقيف وإعدام اليهود ولكن مضى زمن المشاهد : حيث تم إعتباراً من هذا التاريخ فصاعداً إخفاء الضحايا المساكين دون إعلام عوائلها بمصيرهم . يُعتقد بأنّ ٥٥ يهودياً " إختفوا " من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧٣ . في نهاية عام ١٩٧٠ تم تخفيف قمع وإضطهاد اليهود حيث بدأوا يتساهلون مع مسألة الهجرة السريّة لليهود العراقيين وفي نهاية التسعينيات لم يتجاوز عدد المتبقّين منهم غير العشرات في بغداد وكوردستان. لم يبق إلاّ كنيس يهودي واحد في بغداد داخل المحلّة القديمة للبتاوين وآخر زواج رسمي حصل فيه كان في عام ١٩٨٠ ومات آخر حاخام في عام ١٩٩٦ .

في عام ١٩٩٧ ذكرت الجيروزاليم بوست بأنّ ٧٥ يهوديا عراقياً هربوا من العراق خلال السنوات الخمس الأخيرة وإستقرّ معظمهم في إنكلترا وهولندا.

في عام ٢٠٠٣ عند سقوط صدام حسين لم يكن في بغداد أكثر من ٣٠ يهودي. إكتشفت القوآت الأمريكية في دوائر المخابرات العراقية عدداً من الوثائق اليدوية ومستندات يهودية قديمة فنقلتها إلى الولايات المتحدة وسلّمتها إلى دائرة الأرشيف الوطني. ومن جهتها قامت الوكالة اليهودية بتنظيم رحلة جويّة إلى إسرائيل لـ٩ من أعضاء التجمّع اليهودي الذين تراوحت أعمارهم بين ٧٠ إلى ٩٩ سنة ونظّمت رحلة أخرى لـ١٧ آخرين أكثر شباباً. بإختفاء أقدم شتات يهودي، طُوّيت صفحة أخرى من تاريخ العراق وإلى الأبد.

بسبب تأثره وإنفعاله لم يقدر سعدون قصاب على مواصلة حديثه...
مات بذبحه صدرية في بداية سنة ٢٠٠٠ .

عبدالهادي الحكيم المولود في عام ١٩٤٩ في مدينة النجف هو ابن أخ (أو أخت) آية الله محسن الحكيم وقد واصل دراسات دينية بعد المرحلة الإعدادية. تم توقيفه في ١٠ أيار ١٩٨٣ مع ٩٠ شخصاً تقريباً من أعضاء عائلة الحكيم - تقريباً كل ذكور العائلة الساكنين في العراق في تلك الفترة - والسبب الوحيد لتوقيفهم هو حملهم للقب الحكيم

«في البداية قادوني إلى دوائر أمن النجف وبعد ذلك إلى مديرية الأمن العامة في بغداد التي قضيت فيها عامين تقريباً قبل أن ينقلوني إلى سجن أبو غريب. في مديرية الأمن العامة حققوا معي خلال سبعة أيام. في ما يخصني لم يعدّونني ولكنهم أخضعوني إلى ضغط نفسي شديد: ثمّة من عدّبوه أمامي أو بجنبي حيث أسمع صرخاتهم. كانوا يسألونني عن نشاطات محمّد باقر الحكيم (الذي كان لاجئاً حينذاك في إيران ويقود ،، المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق ،،) وعن معارضة عائلة الحكيم للنظام. لم أكن أعلم بماذا أنا متّهم، ولم يكن لي حق المطالبة بمحامي. كانت عائلتي لا تعلم أين إختفيت...»

يتدخّل ولداه عصار ومحمّد ويضيفان:

«لم نعرف خلال أربع سنوات إن كان لا يزال حياً أو ميتاً .»

يستعيد عبدالهادي كلامه قائلاً:

«بعد مرور عشرة أيام أعدموا ثمانية من أقاربي ومن ثمّ عشرة آخرين - لم نكن ندري شيئاً وعرفنا الأمر بعد ذلك في سجن أبو غريب عن طريق سجناء كانوا قد سمعوا الخبر من الراديو.

«وضعوني بعد ذلك في حجرة منعزلة خلال شهرين، حجرة بلا تهوية ولا منفذ ما عدا فتحة موجودة فوق الباب. كانت الغرفة وسخة وبدون ماء وترى الديدان على الأغذية فأصبت بأمراض جلدية.

سجن أبو غريب

شهادات

في عام ١٩٥٧ - ١٩٥٨، أي قبل ثورة عبدالكريم قاسم مباشرة كان سعدون قصاب مهندساً شاباً حينما شارك في بناء سجن أبو غريب. كان مخطّطاً للسجن أن يستوعب ٤٠٠٠ سجين.

أراد القدر بأن يمضي سعدون قصاب عاماً في سجن أبو غريب، ثمانية أشهر منه سرّاً قبل أن يُحاكم ويُدان بعشر سنوات سجن. أعفي عنه بعد مرور سنة وتمكّن من الهروب إلى انكلترا.

حينما إلتقيناه، أي بعد مضي خمس سنوات على الأحداث كان لا يزال يعيش مرتبكاً من صدمة إقامته في أبو غريب ويردّد بأنّه لا يقوى على كتابة الذكريات «وسرد الأحداث المساوية والكوميديّة التي عايشها».

«حينما كنت مسجوناً في أبو غريب في عام ١٩٨٥، كان هناك ٤٨٥٠٠ سجين ! كنت تراهم في كل مكان، في الممرات وبعضهم ينامون على درجات الطابق وآخرون على الأراجيح.

«أغلقوا عليّ الباب لمدة ثمانية أشهر في غرفة عرضها متر واحد وطولها ٥،١ متراً، أي في علبة. كنت أمضي فيها أحياناً خمسة عشر يوماً دون أن أخرج منها لأرى النور، لأرى الكائنات البشرية أو طيراً أو أرى الشمس، كان ذلك غريباً جداً فلم أكن أتصوّر بأن هذا الأمر كان موجوداً.

«حدث لي كل هذا لأنني في إحدى سفراتي إلى لندن قلت لسعد صالح جبر ،، صباح الخير.»

«رأيت ناساً يموتون...»

«ومن ثمَّ سجنوني في غرفة عرضها مترين وطولها مترين وعشرون ستمتراً مع نافذة صغيرة جداً وكنا نتواجد فيها بين ستة إلى سبعة سجناء ويصل العدد أحياناً إلى ١٢ سجين، بعضهم من عائلة الحكيم وآخرون قادمون من كربلاء. لم يكن في مقدورنا النوم في آن واحد فيقف بعضنا قياماً وبنام الآخرون خلال ثلاث ساعات ونتناوب فيما بيننا على هذا الشكل. كان الوقت صيفاً قائضاً.

«ومن ثمَّ نقلوني في أحد الأيام إلى سجن أبو غريب مع كل عائلة الحكيم بإستثناء الذين أعدموهم. لا أعلم بالضبط متى لأنني كنت قد فقدت إحتساب الأيام. نقلونا بباصات زجاجاتها مطلية بالسواد. إعتباراً من باب الدخول حسبت ١٦ مزلاجاً. لم أكن أدري بأنَّ السجن هو سجن أبو غريب. أخذونا إلى بناية بطابق واحد وأغلقوا الباب على ٢٢ مناً في غرفة بالطابق، كانت الغرفة مخصّصة للمصابين بمرض السل كما قال لنا أحد أطباء السجن. وضعوا مجموعة أُخرى من عائلة الحكيم في غرفة مجاورة لنا. أمضيت على الأقل عامين أو ربّما أربع سنوات في هذه الحجرة.

«كنا قد إنتخبنا آية الله محمد سعيد الحكيم كرئيس للحجرة. عرض حجرتنا اربعة أمتار وطولها ستة واعدنا ٢٢ سجينا. كنا نملك مروحة هوائية وللغرفة نافذة نرى عبرها النور. لم يكن لنا ماء جاري ونستخدم حفرة منعزلة في زاوية كمزينة تفوح منها رائحة فضيعة وكنا نصطف على الدوام في طابور لإستخدامها.

«قسّمتنا الغرفة فيما بيننا بحيث يحصل كل سجين على مساحة خمسين ستمتراً للأكل والنوم والصلاة. لم يكن لنا أي مخزن لوضع ثيابنا فيه فإضطررنا على صناعة الصمغ عبر مزج السكر بالصابون وهكذا نعلّق أكياسنا على الحائط. في يومٍ ما كان الجوُّ رطباً جداً فوقعت الأكياس كلّها في منتصف الليل...

«كنت أملك بيجاما واحدة - أوقفوني وأنا أردي بيجاما - وغطاءاً.

صنعت منها معطفاً بإبرة من خشب. لم يكن في مقدورنا غسل إغظيتنا ولكن ننظف البيجامة والملابس الداخلية. كان يأتينا في كل صباح حراس يحملون انبويّاً ويقولون لنا: تملكون خمس وعشرة دقيقة لإملاء صفاًتحكم البلاستيكية بالماء. ويقسم الماء فيما بعد على عدد سجناء الحجرة. كنا نملك طاساً للشرب والغسل معاً، إلخ.

«الأيام كانت تمر شبيهة ببعضها. صباحاً عند الفجر كنا نغتسل، نتوضأ ونصلي. بعد أداء الصلاة نغطّ في النوم. ومن ثمَّ يأتي وقت الفطور الذي يتكوّن على العموم من شوربة عدس وسخة ومليئة بالحصو. كنا نحصي الحصو يومياً بحيث عثرنا فيها إحدى المرّات على ٣٠ حبة وبعد ذلك يأسنا من الحالة وتركنا العد. لم تكن لدينا ملاعق فصنعناها من اللعب البلاستيكية الفارغة للبن.

«وكنا نتناقش بعد ذلك إلى الظهر. الحراس كانوا يمررون الأكل تحت الباب المسدود أربع وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة. يتكوّن أكلنا من الرز والأسبيناخ ويعطوننا أحياناً لحم الدجاج. ومن ثمَّ ننام قليلاً وبعد الظهر نقرأ القرآن سراً. لم يكن في هذه البناية التي تحتوي على ٣٠٠ سجين، على ١٢ غرفة تجمع كل منها بين ٢٥ - ٣٠ سجين غير قرآن واحد وتجد كل صفحة من صفحاته محمية بعلاقة بلاستيكية غير شفّافة. كانت القراءة صعبة. الطبيب السجين هو الذي كان يمرّره من غرفة إلى غرفة وقد حدّد وقت قراءة كل سجين بين ٥ إلى ١٠ دقائق. الطبيب لوحده كان يدخل إلى غرفتنا لأنَّ الحراس كانوا يتوجّسون مرض السل الذي أُصيب به أحدنا.

«كان في حوزتنا أيضاً كتاب عن الدعاء والإسترحام والصلاة وهو يمر من غرفة إلى غرفة أُخرى. يتحوّل كل محجوز إلى أستاذ للذي يعرف أقل عنه في مسائل الدين. في حجرتنا، كان عمر أصغر شاب ١٤ سنة يوم توقيفنا واسمه علي عبدالهادي، وهو أحد أحفاد آية الله محسن الحكيم وحيث أنّه أمضى كل هذه السنين معنا وكان قد تم تنفيذ حكم الإعدام بوالده وأخويه.

«حُكِمَ على معظم الذين كانوا في بنايتنا بالسجن لمدى الحياة بسبب النشاطات الدينية. يتواجد بيننا عربي سنّي واحد والسجناء الآخرون من الشيعة وكان هنالك أيضاً كورد فيليون (شيعة) وتركمان شيعة.

«في المساء كنّا نتناول الشورية مع الخبز وأحياناً يزيد عنّا الخبز فنحتفظ به جافاً لفترة شهرين أو ثلاثة أشهر.
«كنت أكتب القصائد.

«لم يكن لدينا لا قلم ولا ورق. كنّا نمرّر السجائر بصورة غير شرعية ونستخدم ورق العلبه التي نبلّها بالماء لنزع الورق عنها ونقدّمه لآية الله مع قلم كنّا قد نجحنا في إدخاله إلى السجن بطريقة غير قانونية فألّف كتاباً. أمّا أنا فقد كنت أستخدم القطع الصغيرة الباقية وأكتب عليها قصائدي وأحياناً أطلب من رفاق السجن حفظها على القلب ونمررها من غرفة سجن إلى غرفة أخرى عن طريق رسم الحروف في الهواء.

«نحن، عائلة الحكيم لم يعاملوننا بسوء في أبو غريب ولكن حال الآخرين اختلفت عنّا. حينما كان صدام يخطب على التلفزيون والحراس يستمعون إليه في الطابق الأرضي: فإذا تم مفاجأة سجين وهو يتكلّم أثناء الخطاب كانوا يقومون بضربه.

«تمكّنا بعد مرور فترة من إدخال جهاز راديو إلى غرفة السجن بواسطة كيس للرز والإستماع إلى الأخبار بصوت منخفض وإخفائه تحت غطاء.

«أسوأ اللحظات؟ كل شيء كان مرعباً ولكن أتعسه هو الخشية أن يُنفذ فيك حكم الإعدام وبالأخص خلال العامين الأوّلين. وفي كل مرّة نسمع المزلاج وبأنّ الباب تفتّح كان الصمت يغطّي المكان لأنّ الأمر ربّما يعني مغادرتي أو مغادرة آخر... ورويداً رويداً تحسّن وضعنا وبالأخص بعد إستعادة الفاو.

«الزيارة الأولى لعائلتي؟

«في أحد الأيام الحراس جاؤا وقالوا لنا: ،، لديكم زيارات ،، فلم نصدّقهم. إقتادونا إلى باحة في الخارج - كنا نرى فيها الشمس -،

فإرتديت ،، معطفي المصنوع من غطاء السجن ،، وكنت أفتخر به. جلسنا على أغطيتنا المفروشة على الأرض ننتظر ما سوف يحصل. وعلى حين غرّة رأينا وصول أفراد من عائلة الحكيم. جرى هذا الحدث في الأوّل من آذار عام ١٩٨٧ .

«جاءت عائلتي وجلست على غطائي - كان لكل منّا مساحة ،، أرضنا ،، وحينذاك لم أعرف صبيّاً عمره بحدود ثماني سنوات وكان هذا ولدي محمّد الذي تركته حين التوقيف وهو بعمر أربع سنوات. كنت أتساءل عن سبب وجود هذا الطفل معنا وعن سبب عدم مجيء ابني الصغير. لم أقل شيئاً ومن ثمّ تعرّفت عليه من ملامح عيونه.»

محمّد الذي بلغ عمره اليوم ٢٥ عاماً يتدخّل:

«رأيت عدداً كبيراً من الرجال بلحاهم الطويلة وهم يرتدون الملابس بطريقة غريبة ويضعون مرشفاً حول أعناقهم... فخفت وقلت لنفسي ربّما أنا مخطيء ومن ثمّ قال لي أخي عصار: ،، هذا هو أباك ،،»

يواصل عبدالهادي حديثه:

«دامت الزيارة ساعتان. إستفسرت عن أحوالهم وأينما وصلوا. ومن ثمّ قلت لهم ما يتوجّب عمله فيما إذا نفذوا حكم الإعدام بي. وبعد ذلك عدنا إلى غرف سجننا بملابس ومأكولات فقاسمناها مع سجناء الغرف الأخرى. عائلة الحكيم فقط حصلت على حق هذه الزيارة.

«كنت مضطرباً ولا أدري كيف أفكّر: حيث من جهة يعلمون بأنّي حي وذلك كان أمراً مهماً ولكنني كنت أتساءل: رأيتهم بعد إفتراق دام أربع سنوات ولكن هل سأراهم من جديد؟ أو أنتني سوف أموت؟ ولكن بعد ذلك حصلنا على حق زيارة شهرية.»

إطلاق السراح

«تم إطلاق سراحنا في ٧ تمّوز من عام ١٩٩١ (بعد مرور خمسة أشهر على نهاية الحرب الثانية للخليج). بعد مكوثنا لفترة ثمانية أعوام في السجن دون إدانتني ودون تقديمي أمام محكمة ومن ثمّ محاكمتي. لم

يُقال لي يوماً: ،، إرتكبت كذا جريمة ،،!

«في يوم من الأيام قادوني مع أكبر عشرة في السن من مجموعتنا إلى سجن الرضوانية. جاء صدّام كامل لرؤيتنا مع حرّاس ومسؤولي الدوائر الأمنية المختلفة. طلبوا منّا أسماعا ومهننا ومن ثمّ قال لنا ،، سوف نطلق سراحكم ولا تبلغوا احداً ما حصل لكم وما جرى... ربّما نحتاج يوماً إلى دعوتكم ولكن لا تقلقوا لأنّ الأمر لا يعدو في كونه محادثة قصيرة.،، وتم إطلاق سراحنا.

«كنت سعيداً بحريّتي ولكنني إنتقلت من سجن صغير إلى سجن أكبر حيث العيون تراقبني وتترصدني. كنت أعتقد بأنّ سراحي لم يطلق بعد وبأنّني لو عدت إلى السجن مرّة ثانية فسوف يعدموني. لذا قرّرت الهروب من العراق في شهر آب من عام ١٩٩٢ وفي اللحظة التي إجتزت فيها الحدود شعرت بأنّي حر حقاً فركعت.

«لا زلت حتّى تاريخ هذا اليوم أحلم بالكوابيس وبالسجن...

«ما الذي يجب عمله في أبو غريب؟

«لا ينبغي تهديم السجن ولكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام:

«في جزء من السجن يجب بناء تمثال يخلّد ذكرى ضحايا وحشية صدّام حسين ونقشت أسمائهم على المرمر ؛

«وفي جزء آخر يجب إنشاء متحف تُحتفظ فيه كل آلات وأدوات التعذيب التي إستعملها النظام ؛

«- وأخيراً يجب توزيع الأرض الشاسعة للسجن على العوائل التي قدّمت ضحايا - إن كان ذلك ممكناً خلق الحياة كبديل لهذه الجرائم.

«وأنا غاضب تجاه الذين يخلطون جرائم الأميركيان بجرائم صدّام التي لا تُعد ولا تُحصى.»

الجزء الثاني

إضطهاد الشيعة في العراق

تهديم وإبادة (جينوسايد) في أهوار جنوب العراق

إمّا نيكولسون أوف وينتربورن

عضوة في البرلمان الأوروبي،

مؤسسة ورئيسة لجمعية عمّار، أنشأت من

أجل تقديم المساعدة لسكنة أهوار العراق

كلمة جينوسايد تُستخدم لتعيين حوادث مثل هولوكوست الحرب العالمية الثانية والفظائع المرتكبة في رواندا. بالنسبة للعراق فالكلمة تعني بشكل عام الهجمات التي تحملها الكورد وبالأخص ضرب حلبجة بأسلحة الدمار الشامل.

في عيون كثير من العراقيين إرتكب صدام حسين جينوسايداً ليس فقط في شمال العراق (كوردستان) ولكن أيضاً في الجنوب ضدّ عرب الأهوار الساكنين في منطقة ميزوبوتاميا السفلى. كنت في موقع أستطيع تأكيد هذا الواقع لأنني قمت بزيارة هذه الرقعة من البلاد لعدة مرّات خلال السنوات الأكثر وحشية وجرماً، إعتباراً من شهر آب ١٩٩١ وإلى نيسان ٢٠٠٣ تاريخ غزو العراق من قبل قوّة التحالف الذي وضع حدّاً للمذابح. في الصفحات القادمة سوف أحاول تقديم لمحة عن ما شاهدته، عن العملية التي فكّر بها وأدارها صدام حسين شخصياً ضدّ عرب الأهوار ونتائج ذلك على أسلوب المعيشة والمأوى التاريخي لهؤلاء الأشخاص. وفي نفس الفترة كنت شاهدة أيضاً على حقيقة أنّ صدام حسين كان مسؤولاً عن تغيير مجرى المياه التي كانت تسقي منطقة الأهوار والممتدة إلى الجانب الآخر من الحدود مع إيران، جاعلاً أرضها مالحة وغير خصبة ومدمراً وسائل العيش لعرب الأهوار الإيرانية. من خلال هذا الفعل العمد والمستمر في مدى زمني فقد خرق لمرة أخرى مبادئ حقوق الإنسان.

أن ينفذ النظام الذي قاده صدام حسين عملية ناقشها وخطّط لها بهدف إبادة عرب الأهوار كمجموعة هو أمر قد حصل فعلاً. قُتل وجرح الكثير من المدنيين خلال الهجمات التي شنّها العسكريون الذين باشرُوا بتصريف مياه الأهوار بشكل منظّم بحيث أنّ هذا الأمر أدّى إلى تدمير الطبقة الأرضية الصالحة للزراعة بغرض خلق ظروف تغلق منافذ

الحياة أمام المواطنين وكنتيجة لما حصل فقد إقترب عرب الأهوار في شهر آذار ٢٠٠٣ من حالة الإختناق. يمكن إعتبار عرب الأهوار مثل الكثير من العراقيين ضحايا للجينوسايد وفقاً لتعريف إتفاقيه جنيف في عام ١٩٤٨ التي وقّع عليها العراق . بالتأكيد، العدالة هي التي تقرّر ذلك ولكن أمام عيون عرب الأهوار وأمام عيني فليس هناك أدنى شك حول حقيقة حصول الجينوسايد.

بما أنّ صدام حسين لم يحصل على نصر حاسم في الحرب التي قام بها ضدّ إيران من عام ١٩٨٠ وإلى عام ١٩٨٨ ولم ينجح في إلحاق محافظة خوزستان الإيرانية (المسمّاة بعربستان في المناهج الدراسية للنظام وفي التصريحات الرسمية) لذا قام بتوجيه أنظاره نحو الكورد العراقيين وكذلك أيضاً نحو شيعة الجنوب وألقى عليهم مسؤولية نكساته وهزائمه. في بداية شهر آذار من عام ١٩٨٨ شنت حكومته هجمات عسكرية مدمرة ضدّ أهالي حلبجة (انظر إلى فصل كريس كوتشيرا حول قصف حلبجة) وضدّ المسلمين من شيعة جنوب العراق. بعد الهزيمة العراقية في الكويت في بداية عام ١٩٩١ والإنتفاضة التي حدثت بعد مرور أسابيع في شمال وجنوب العراق ضدّ دكتاتوريته إزدادت حدّة القمع والعنف في هاتين المنطقتين بحيث وقعت الآلاف من القتلى بين الأهالي من خلال الإعدامات الجماعية العمياء. عرب الأهوار كانوا مُستهدفين بشكل خاص: في الأهوار الثلاثة لميزوبوتاميا السفلى الواقعة داخل العراق هاجموا على المدن والقصبات والقرى والمزارع بالطائرات والمدفعية وأشعلوا النيران فيها وهدموا ؛ وإستخدموا أيضاً أسلحة الدمار الشامل. بعد الهجمات الكيماوية الجوية وتلويث المياه إضطّرّ الباقون في الحياة خلال السنوات الإثنتا عشر التي تلت على ترك هذه المنطقة لعدة مرّات، غالباً بقوة السلاح، ولكن دون أن يتمكنوا من الإحتفاظ بالأرشيف العائلي والعشائري. مواطنوا هذه المنطقة أُصيبوا بالصدمة بحيث أنّهم لم يعودوا يتذكّرون العدد الصحيح من المسفّرين ، وقد ساروا في كل مرّة من ١٠ إلى ٤٠ كيلومتراً.

وفي ذات الوقت قامت الحكومة العراقية بدراسة وتنفيذ برنامج هائل لتصريف مياه الأهوار وبناء سدود تستوجب أعمال ردم وهدم ضخمة ممّا أدّى إلى إبادة الجماهير المحليّة. في ماذا كان هذا البرنامج تهديداً لعرب الأهوار بهذه الدرجة؟ نقرأ في جريدة ليدي أليكساندرا ميتكالف Lady alexandra metcalf وصفاً حياً عن الحياة اليومية

لسكنة الأهوار التي زارتهم في عام ١٩٥٦ .

«لا وجود لجرف وإنما هناك فقط أعشاب وقصب على كل جانب من المجرى الواسع والسريع للماء حيث تغادر منها قوارب نحو وجهات مختلفة، بعضها عريضة وأخرى ضيقة. مجموعات من بيوت القصب المبنية على سطح الأرض تنتصب على ارتفاع ٦٠ سنتمترًا فوق مستوى الماء. ثمة قوارب البعض منها كبيرة نسبياً تسير ضد التيار عن طريق الجذف بالعصا.

«جبايش هي قرية كبيرة نوعاً ما وتبدو لمن يزورها بأنها ذات هيئة عصرية نفتخر بها ولكن لحسن الحظ لا تعدو في كونها بأكثر من واجهة ضيقة تختصر على شارع مع بعض المكاتب على الحافتين خلف شبكة مجاري الماء التي تتموج في الهور. [...]»
«على كل جانب، تنتصب بين أشجار النخيل وبين الحصران والأبقار التي تجتر، بيوت من القصب المنسوج بأشكال وألوان مختلفة وهي مبنية على الأرض اليبسة. أكبر هذه البيوت تسمى مضاييف وقد أُقيمت حصراً لإستقبال الضيوف وبنيت كلياً من القصب بشكل رائع وجميل...»

طورّ عرب الأهوار زراعة وإقتصاداً بحرياً لاتقاس قيمته ولا مثيل لها في أي مكان آخر. الناس في المنطقة كلّها ووسط القبائل كانت منشغلة بأربعة أنواع من الإهتمامات: الزراعة، الصيد، جمع القصب وتربية الجواميس العائشة في الماء. غالبية عرب الأهوار كانوا ينتجون المواد الغذائية ويزرعون بشكل رئيسي الرز والذرة البيضاء والقمح والشعير. ويعتبرون القصب مادة أساسية لبناء البيوت السكنية ولصناعة الأثاث والأدوات المنزلية وكذلك يعتبرونه وقوداً وغذاءً لحيواناتهم. يربون الجواميس لقدرتها في توفير المنتجات اللبنيّة: كانوا يمارسون الصيد بشكل مكثّف وتستخدم المحاصيل للإستهلاك اليومي وتُباع أيضاً في كل بلدان الخليج. زراعة الفواكه والخضراوات وبالأخص الطماطم والنخيل كانت منتشرة قبل جفاف المنطقة. كان المواطنون، دون أدنى شك، نشطون وفعّالون جداً. الأهوار الثلاثة كانت تلعب دوراً رئيسياً في إنتاج وتحويل وتوزيع المواد الغذائية على الصعيد الوطني وكانت تساهم بصورة كبيرة في إزدهار إقتصاد جنوب العراق.

قبل عام ١٩٩١، بُنيت داخل منطقة الأهوار، على الأرض اليبسة عدّة تجمّعات تسكن في بعضها عدّة آلاف من المواطنين؛ وكانت هناك أيضاً قرى ضخمة تجمع بين ١٠٠

إلى ٣٠٠ مزرعة مبنية على أرض صالحة للزراعة على أطراف مجاري المياه الرئيسية وكذلك «مجموعة تلال» تغطّي جزراً صغيرة تنتصب عليها بين ٣٠٠ إلى ٥٠٠ منزل مصنوع من أكوام القصب. بالإضافة إلى هذا، كان هناك نوعان آخران من التجمّعات: «جزر طوافة» تتكوّن من قوارب من القصب وأغصان السلال وقوارب من الطين تحمل كل منها بيتاً أو عدداً من الجواميس، و«جزر من القصب» بأحجام صغيرة ترتفع على جزيرات مصنوعة من طبقات من القصب تتراكم على الطين. كانت الخلية الرئيسية من العائلة تتشكّل من عدّة أجيال ويصل عددها إلى عشرة أعضاء تقريباً يملكون بين ٣٠ إلى ٧٠ جاموساً لإنتاج المواد اللبنيّة.

الأزمة أثّرت بشكل طفيف على اسلوب الحياة وتواصلت المبادلات التجارية خاصّة بنشاط مع المدن والقصبات الواقعة على أطراف الأهوار وفي أعقاب الهجمات التي جرت في ظل حكم صدّام حسين عانت هذه المراكز السكانيّة بجديّة من توقّف نشاطاتها.

وبشكل خاص تعتبر عملية «النهر الثالث» هي العملية الأكثر مأساوية وكارثية التي فكّر بها صدّام حسين والتي تلخّصت في حفر قناة وسط الأهوار لتغيير مجرى نهر الفرات، وتعتبر هذه القناة مشروعاً من بين العديد من مشاريع صدّام التي صعقت خيال العالم بسبب تسميتها «أم كلّ القنوات» على غرار التسمية التي وضعها لحربه مع إيران «أم كلّ المعارك» في شباط ٢٠٠٣ لم يتبقى أكثر من ١٠٪ من المساحة الكليّة للأهوار ممّا أدّى إلى «أكبر كارثة بيئية في العالم» حيث إختفت الأراضي الصالحة للزراعة وأماكن صيد الأسماك إلى الأبد لأنّ طبقات التربة الصالحة للزراعة تم إزاحتها أثناء أعمال الترميم المتعمّدة وبهذه الوسيلة حرّموا على عرب الأهوار وسائل عيشهم الأساسية. كانت النتائج مأساوية على الصعيد الإنساني: إستحال على أهالي الأهوار البقاء والعيش في هكذا ظروف.

الحصار الاقتصادي الذي فرضته الحكومة على الأهوار ومنع وصول الخدمات الصحيّة الأولى إليها فاقم من وضعها بشكل أكبر. التحقيق السريع الذي قامت به منظمّة عمّار في أيار ٢٠٠٣ أظهرت بأنّه منذ عشرات السنين أستفاد ٣٪ فقط من عرب الأهوار بالعناية الصحيّة وأن ٧٨٪ منهم أميون بسبب إغلاق الدوائر المدرسية. هذه الحاجات بالإضافة إلى الهجمات العسكرية المرتب لها والمستمرّة بلا إنقطاع سببت

موت آلاف الأفراد وأدت إلى مغادرة عدد كبير من اللاجئين: فمن بين ٤٠٠٠٠٠ عربي سكنوا الأهوار قبل ثلاثين سنة لم يبقى منهم أكثر من ٨٣٠٠٠ إنسان حي. نتيجة لمحاصرته خلف خطوط الجيش العراقي فقد كانوا يضطرون إلى تغيير بيوتهم بشكل دائمى وإلى القبول بالوظائف المؤقتة؛ إلتجأ ١١٠٠٠ منهم إلى بغداد حيث يعيشون وضعاً بائساً وهرب ٨٠٠٠٠ منهم تقريباً أمام الجيش العراقي ووصلوا إلى معسكرات اللاجئين أو إجتمعوا على بقعة من أراضي الجارة الإيرانية وهم يحملون أحياناً موتاهم المضروبين من قبل الجنود العراقيين.

فيما لو أخذنا بنظر الإعتبار الدرجة الضخمة لعملية الموت التي حصلت ضدّ عرب الأهوار وضدّ منازلهم وكذلك الطبيعة المتعمّدة (الوثائق وصور الفيديو تقدّم الإثباتات على تخطيط العملية وعلى الأوامر الصادرة إلى المنقّذين للقيام بها) فسوف يزول الشك تماماً بأنّ صدّام حسين وأعوانه من السياسيين والعسكريين الأقرب إليه تقصّدوا الإبادة (الجينوسايد) وقرروا معاً إزالة عرب الأهوار عن الوجود. إنتهوا من إعدام هذا الشعب العريق بإكماله تقريباً بين عام ١٩٩١ ونيسان ٢٠٠٣ وكنت شاهداً شخصياً على ذلك حينما إستمرت الإبادة أثناء إنشاء السد الذي أدى إلى تدمير هور الحويزة ومقتل ساكنيه.

في عراق صدّام حسين، عملية بهذا الحجم - تتطلّب تشكيل فريقين مؤهّلين، وإستخدام آلاف الجنود وعناصر المخابرات وصرف ما لا يقل عن مليوني دولار - لم يكن بإمكانها أن تحصل لو لم يتم إعلام الدكتاتور وأن تجري تحت إشرافه. لكن مثل كل المرّات السابقة فقد ساندته شخصيات من بينهم علي الكيماوي، حاكم البصرة الذي كان قد إستلم للتو وظيفته، صاحب السمعة السيئة ومنقذ عار حلبجة.

تدمير اسلوب حياة عرب الأهوار يشكّل خسارة هائلة على الصعيد الثقافي والحضاري. لا نملك أي تصوّر حول الأصول الجنسية (الإنسانية) لهذا الشعب رغم أنّه كانت هناك حضارة دامت لخمسة آلاف سنة في منطقة أهوار الميزوبوتاميا. القبائل التي سكنتها في العراق تنزل في جزء منها من الشعوب السومرية والبابلية وإختلط معها عن طريق الهجرة أو الزواج فرس قادمين من الشرق وبدو جاؤا إليهم من الغرب والجنوب. يتحدّث رؤساء العشائر بفخر وإعتزاز عن أصولهم العريقة وتمتعت المنطقة في كل تاريخها بالخيرات التي صبغت عليها الطبيعة. وغالباً ما تذكر التوراة الحروب

بين الميزوبوتاميين والعيلاميين مستهدفين خيرات بعضهم، المعادن المستخرجة في جبال هذا الطرف ومنتجات الأراضي الخصبة للطرف الآخر. وفي زمن لاحق ذابت المملكة العيلامية الكبيرة في بوتقة الإمبراطورية الفارسية في حين تشكّل العراق الحديث حول الميزوبوتاميا التي بقي قسم منها داخل الجمهورية الإسلامية الإيرانية مثلما هي اليوم. منذ آلاف السنين ينتظم عرب الأهوار ضمن قبائل يقودها شيوخ ويلجأون إليهم عند التحكيم بالتعاون مع البارزين فيها . وهناك نظام تعاوني متناسق ومتواصل لا مثيل له في العراق لصالح أعضاء العشيرة أو القبيلة - على المستوى العائلي أو الفردي - للمحتاجين.

الزي المثير والجذّاب لعرب الأهوار وبالأخص تصفيفة شعر النساء لا تجد لها مثلاً في العالم الإسلامي (وصفها بروعة وجمال ويفريد تيسيكير Wilfred Thesiger). البعض من أزيائهم وإستخداماتها وعاداتهم الخاصة - الرقصات التقليدية، ألعاب المجتمع والأطفال - شائعة بينهم ولا وجود لبديل عنها في أي مكان آخر.

يتكلّم كل عرب الأهوار لغة مشتركة مع بعض الإختلافات في اللهجة تبعاً للعشائر المتنوّعة. وحتى إن كانت اللغة عربية فإنّها تختلف عن العربية الدارجة في العراق وتتميّز عن تلك المتداولة بين سكّان بغداد سواءً على صعيد القواعد والعبارات والجمال أو على صعيد التلفّظ والنطق.

القيم المعتمدة لدى عرب الأهوار تتعارض كلياً مع تلك التي فرضها صدّام على المجتمع العراقي فهذا الأخير كان يكره الفضائل التي كانوا يفتخرون بها - النزاهة والأمانة، حب العمل، الإستقلالية وكانوا معروفين في كل منطقة الخليج بسمو أخلاقيتهم. ومع كونهم شيعة فلا يزالون أوفياء لبعض التقاليد الخاصة بهم حيث قسم منها لها علاقة بالمسك النسائي: هذه الممارسات تنبع من تراثهم الثقافي وخارج الأهوار فهي محرّمة من أئمة الدين.

شهادات الأحياء تقدّم إثباتاً لا جدال فيه بأنّ صدّام حاول إبادة عرب الأهوار كمجموعة. من الواضح بأنّه نظراً إلى البنين الإجتماعي الموصوف أعلاه فإنهم يشكّلون مجموعة وفقاً للتعريف الذي أعطاه إتفاق الأمم المتحدة الخاص بالجينوسايد للكلمة. وإستناداً إلى حياتهم الساحل - بحرية الفريدة في النوع ومميّزاتهم الإنسانية

فلا يمكن الجدل موضوعياً بأنهم يشكّلون اليوم مجموعة إثنية حسب تعريف القانون الحديث وكبرهان على ذلك فعبارة «عرب الأهوار» تم إستخدامها من قِبَل عسكري النظام أثناء مراسلاتهم الرسمية وفي وثائق أُخرى.

في الحقيقة، يجب تسميتهم بسكّان الأهوار، بشعب الأهوار.

حسب بعض التقارير التي صدرت خلال سنوات الخمسينيات كان هنالك حوالي ٤٠٠٠٠٠ من عرب الأهوار العراقيين وفي بداية التسعينيات كان عددهم ٢٥٠٠٠٠ في المنطقة وفي عام ٢٠٠٣ حين سقوط نظام صدام حسين لم يبق منهم غير ٨٣٠٠٠ تقريباً. أدت العملية العسكرية إلى مقتل الآلاف من الضحايا ومات منهم آلاف أُخرى بسبب الجوع والمرض. الأحياء منهم كانوا قد هربوا أو هُجروا قسراً ووضعهم الإقتصادي كان مأساوياً.

الإبادة المنظّمة لعرب الأهوار أنجزت بوسيلتين: عن طريق الإغتيال وطرد المواطنين من جهة ومن خلال تدمير الأهوار من الجهة الثانية من أجل منع المواطنين الذين يبقون بالعودة إلى سلوك حياتهم السابقة.

المقاتلون الكورد الذين كانوا يبحثون عن الإثباتات حول جريمة الجينوسايد المرتكبة في حلبجة عام ١٩٨٨ عثروا في مكاتب شرطة شقلاوة، المدينة الواقعة في شمال البلاد (كوردستان)، على وثيقة بعنوان «خطة العمل للأهوار» وتحمل تاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٩٨٩ وقد ذُكر فيها القرارات التي أُتخذت أثناء جلسات مؤتمر حول الأمن الذي عُقد في البصرة قبل ذلك بشهر تحت إشراف رئاسة «القائد الأعلى»، صدام حسين.

كان الهدف المُعلن بشكل رئيسي هو مراقبة أي «حضور للمعادي» في هذه المنطقة. الترتيبات المفصّلة في الآتي بعد قليل تشكّل الأساس في سياسة الحكومة خلال السنوات الخمس عشر اللاحقة. والترتيبات هي القيام بـ «تلويث وتفجير وحرق البيوت» ، بإغتيال «العناصر المعادية»، بإستخدام «المروحيات المُساندة من قبل الطائرات الحربية» وكذلك إصدار سلسلة من القرارات الإقتصادية من ضمنها «تحريم بيع السمك» وأي «تجمّع قروي على الأرض اليابسة». وقد أُلحوا على ضرورة كتمان العملية: «يجب على المجموعات إستلام أمر بالحصول على تيليغراف سرّية ويجب إرسال المعلومات برموز.»

في شهر نيسان من عام ١٩٩١ نشرت جريدة البعث ست مقالات تنتهجم على الشيعة بشكل لم يسبق له أن حصل. إتّهموا فيها عرب الأهوار بشكل خاص بالفقر والتأخّر وإنعدام الأخلاقية لديهم. تم وصفهم «بالقرود» وشكّوا «بعراقيتهم الحقيقية» وإفترضت السلطات بأنهم نزلوا من سلالة العبيد السود الذين هاجروا إلى جنوب العراق في القرون الوسطى.

إتّهموا النساء بعدم الإحتشام والوساخة. كانت هذه المقالات إشارة إلى التغيير المُعتَمَد في السلوك فتسارع القمع والإضطهاد بشكل لم يسبق له مثيل يوماً. تواصلت الوحشية على شكل إغتيالات ونهب وتسفيرات وإستمرت خلال كلّ التسعينيات مع إستعمال أسلحة الدمار الشامل وقد أكدت التقارير على هذه الممارسات حتّى في عام ٢٠٠٢ . الأعمال الهندسية وتدمير الزراعة والصيد كانت لا تزال مستمرة في شهري شباط وأذار من عام ٢٠٠٣ .

ثمّة شهود عديدين بقوا على قيد الحياة ولكن مثلما هو الحال بالنسبة لكل الأحداث التاريخية فلا نملك تحت تصرفنا، كما يقول غوته Goetha غير «الجزء من الجزء» لمساعدتنا في فهم ما جرى. في الحالة التي تهمّنا لن نصل أبداً إلى معرفة كل تفاصيل الوحشيات المرتكبة ولكن مع ذلك فسوف نقوم بعرض عددٍ من هذه المقاطع - الشخصية الفظيعة - في الصفحات التالية.

في شهر آب من عام ١٩٩١ روت لي أرملة كيف أنّ زوجها أُجبر على الوقوف في صف مع مئات الرجال الأبرياء في حين وضعوا نساءهم من العائلة أمامه لمشاهدة إعدامهم. بعد تنفيذ الحكم قامت دبابات يقودها جنود فخورين بنفسهم ومستهزئين بسحق الصف الطويل من الرجال. إستصعب على الأرملة المواصلة في الكلام بسبب التأثّر والدموع الجارية على خديها وبيكي على جنبها أستاذ جامعي يصف كيف أنّ ولديهِ قُتلا أمام البيت لمعاقبتهم على حصولهم على شهادة علمية كبيرة.

روى رجل إلتقيت به في أيلول ١٩٩١ كان قد هرب من الأهوار بعد إصابته بجرح بليغ في ١٦ أيلول قرب قرية الأرغا. هاجم جيش صدام حسين على قرى الأهوار بقطع المدفعية رافقتها ٣٠ دبابة مجهزة بالرشاشات وبعدها سارت نحوها ٣٠ إلى ٤٠ قارباً يحمل كل واحد منها ١٠ رجال مسلّحين. أودعوا عوائل كاملة في السجن ومن ثمّ قاموا

بقتل النساء والأطفال. شنوا الهجوم بثلاث فرق عسكرية (٢٠ ألف عسكري) في الوقت الذي لم يتجاوز عدد الأهالي ٢٥ ألفاً في قرى: الصحين، الساتوية، العبق، أبوسنحي، الشيد، سلين، الكبة، الساجل. كانت كل هذه القرى تقع بين الطريق السريع للبصرة وبين خطوط جبهة القطعات العراقية على الحدود الإيرانية؛ قاموا بتسفير أو بتصفية معظم السكان المحاصرين.

التقت بمقاتلين من أجل الحرية اللذين شاركوا في إنتفاضة البصرة مبكراً في ذلك الصيف؛ عمرهما على التوالي ٢٢ و٢٣ سنة، كانا خارجين عن القانون؛ وقد تركا الأم والأخوات والزوجات والأطفال لمقارعة الظالم. تحدثا كيف أن القرى والأهوار كانت محاصرة من قبل الجيش وممنوعة عن الغذاء لأنه لم يكن بإستطاعة النساء الخروج للبحث عنه. كان الإثنان يحكان جسدهما بسبب وخزات البعوض.

«كنا نتواجد في منطقة معرضة لمرض الملاريا ونحتمي في بيوت مصنوعة من القصب تخفينا عن عيون جنود صدام.»

ذكر رجال آخرون بأن عدداً كبيراً من عرب الأهوار الذين قاتلوا ضد قوات صدام حسين حاولوا الهروب ولكنه في نهاية شهر آب من هذه السنة سُمع بأن هنالك جائزة تبلغ ١٠٠٠٠ دولار تنتظر كل من يقتل رجل مخفي ويذهب إلى بغداد حاملاً رأس المقتول إلى صدام حسين نفسه.

أكد مزارع قديم وأضاف بأن مثل هكذا تهديد كان سارياً أيضاً على عرب الأهوار الذين لم يتمردوا ضد جيش صدام حسين وقد اضطرّ الهروب للسلام بجلده. ساحة الإضطهاد كانت تتوسع بشكل متسارع. يقع حقله في شمال البصرة ولكن أصبحت الهجمات متكررة وشائعة على الأطراف - تقوم بها قوات من المشاة تساندها الدبابات والقنابل والطائرات والمروحيات المجهزة بالرشاشات - مما أجبر الباقين في قيد الحياة على إخلاء أماكنهم. على متن المروحيات كان الجنود يهددون صارخين عن طريق أجهزة مكبرات الصوت بإستخدام الأسلحة الكيماوية ضد كل من لا يترك المكان. غاصت الناس في عمق الأهوار بحثاً عن ملجأ ومأوى تحتمي فيه. حسب أقوال مزارع آخر كان هنالك بين ٦٠ إلى ٧٠ داراً في كل قرية أي يسكن في كل منها ما يقارب من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ شخص وحالما يقوم هؤلاء بإخلائها يدخلها الجنود ويستقرون فيها لحراستها

وللتأكد من عدم عودة الأهالي إليها.

شاب آخر نُشرت صورته على طول العراق وضعوا ثمناً لرأسه أيضاً والمكافأة الموعودة لكل من يقوم بإلقاء القبض عليه كانت تتكون من سيارة ومبلغ ٥٠٠٠ دينار عراقي. كان قد إلتحق بالتمردين وأصبح قائداً لمجموعة في شباط ١٩٩١، حيث دفعته الرغبة للنضال من أجل تحرير العراق ومقاومة الدكتاتور. في أيلول عام ١٩٩٢ عرض الوضع وأوضح لي الحاجة الملحة إلى تدخل الغرب. سجلت أحاديثه:

«هنالك جوع حقيقي في الأهوار. بعد اسبوعين في حالة غياب عمل مباشر سوف يتم إبادة المجموعة البشرية بأكملها. الهجمات (بالقنابل) في المنطقة عنيفة وشديدة جداً. يجب الرد بسرعة. خلال الأسابيع الأربعة الماضية منذ فرض منع الطيران no-fly zone العملية العسكرية عبأت المدفعية - إنتشرت وحدات الحر س الجمهوري على كل الأهوار؛ قوة أدريان - المؤلفة من ١٢٠٠٠٠ رجل [هذا يعني بأن نصف القوات البرية لصدام إجمعت في الأهوار]. قُتل أو سُجن عدة آلاف من الأشخاص خلال الأسابيع الأربعة الأخيرة؛ من بين ٤٠٠٠٠ من سكنة مدينة المداينة أوقفوا ما لا يقل عن ٦٠٠٠ شخص. بعد ثلاثة أشهر في أقصى تقدير سوف يسود الجوع على كل المنطقة.»

رجل ثالث كان يعاني بفضاعة من جروحه العميقة إلى عظمه ونصف يده اليسرى مقطوعة فتحدث بأن عائلته من أكيا، سكنت الأهوار منذ القدم. قريته كانت تتألف من ٢٥٠ داراً من القصب مبنية على أوتاد. في ٩ أيلول قصفوهم مع القرى المجاورة بطقات شديدة من المدفعية. لم تسلم عائلة في أعقاب هذه الهجمة أو في أعقاب تلك التي قام بها الجنود. قصفوهم في الليل والنهار، قصفاً عنيفاً قبل دخول no-fly zone حين التنفيذ وبعده بشدة أكثر. إنقطعت الهجمات الجوية بسبب منع الطيران ولكن الهجمات الأرضية إستمرت. يقول الرجل بأنه كان من الصعب الولوج داخل المدينة المجاورة، العديل، للتمون. كل الحقول كانت قد أُحرقت وبالرغم من أن المواد الغذائية كانت لا تزال متوفرة بشكل ما في السوق السوداء للمدن لم يكن في إستطاعتنا الحصول عليها لأن الطرق كانت تحت سيطرة الجيش. مرت عشر سنوات على إغلاق المدارس والخدمات الصحية عنهم كنتيجة للحرب ضد إيران.

شاهد آخر وهو رجل بين عمريين وولد في قرية قريبة من العمارة داخل الأهوار. قمت بإجراء لقاء معه خلال إحدى زياراتي للساحة. أعلن بأن قريته دمّرت كلياً من قبل قوات

صدّام قبل ١٦ شهراً. كان يعتقد بأنّ زوجته وأطفاله لا يزالون على قيد الحياة ويتصوّر بأنّهم مسجونون خلف الخطوط حيث قال:

« لا أجازف الآن إلاّ مصادفةً وبعيداً وسط الأهوار ويُفترَض بأنّه هناك سبب خاص مثلما هو الحال هذا اليوم لمرافقتكم لأنّ الخطر كبير جداً. ناقش بأنّه منذ وضع الـ no-fly zone بسبب تشديد الهجمات البريّة؛ تتكرّر في كل يوم إعتباراً من المدن الواقعة على أطراف الأهوار والمستخدمّة كقاعدة لكتيبة الدبّابات السادسة والمجهّزة بصواريخ ذات المدى القصير. رفاقي (المصابين أثناء الإنتفاضة) ونحن نتساءل لماذا لا يشدّد الغرب ضغطه للحصول على إنسحاب القوّات العراقية البريّة وراء خط التوازي (٣٢).

في أيلول عام ١٩٩٢ تحدّث رجلان عن العمليات العسكرية للنظام فقال الأوّل بأنّه قبل سنّة أشهر (في آذار ١٩٩٢)، قاموا بنسف داره في شذّي وأبادوا كل أفراد عائلته. فُلح بصعوبة في النجاة بجلده. والشاهد الثاني، المجرّوح في الرأس والجسد، كان يتكلّم بصعوبة بسبب حالته فقال بأنّه هرب في شباط ١٩٩٢ هَدَمُوا البيت العائلي لمزارع الرز هذا وقتلوا بعض أفراد عائلته القريبين منه. كان يعتقد بأنّ عائلته صقيت إلى الأبد وزالت معها طريقة حياتهم الغائصة في عمق التاريخ.

في شهر كانون الثاني وشباط وآذار من عام ١٩٩٣ تلقّى آية الله محمّد باقر الحكيم، رئيس المجلس الأعلى للثورة العراقية اللّاجيء في إيران، برقية تتحدّث عن قرى وناس وحيوانات تموت حرقاً بالنيران. الأراضي وحقول الرز التي وفّرت لعرب الأهوار السلع الغذائيّة الأساسيّة أُحرقت. الأسماك، المصدر الرئيسي البروتين مانت، والجواميس التي كانت مصدراً للحليب واللحم هربت بفعل القصف المستمر عليها.

في شباط ١٩٩٣ أعلن أطباء عمّار الذين كانوا يعملون في منطقة الأهوار وهم يجازفون بحياتهم بأنّ مرض الكوليرا قد ظهر بين المواطنين. الإلتهابات الجلدية والمعوية والإسهال والتيفوئيد والتسمّم الغذائي والأمراض البصرية والإضطرابات التناسلية والإلتهابات الحوضيّة والأمراض اللثويّة والسنيّة أوقعت كلّها ضحايا. في عام ١٩٩٣ إنتشرت هذه الأمراض ولم تتلقّى أي معالجة.

في هذه الفترة كان كل ماء الشرب ملوثاً ومع إختفاء مجريّات المياه التي كانت تجرف القذارات التي يصنعها البشر بدأ كل سكنة الأهوار يعانون بصورة دائميّة من

الإسهال. وبغياب وسائل التبريد لم يتم تلقيح الأطفال ولذا إنتشرت أمراض مثل شلل الأطفال والحصبة والسعال الديكي وأمراض أخرى خاصّة بالطفل بقوّة بينهم. وعانى الأطفال من نمو غير طبيعي بسبب النقص في حليب الأم الناتج من سوء التغذية ومن كriebها وهموما. لعدم وجود الخدمات الخاصّة بالولادة ولو بصورة بدائيّة فقد ماتت الكثيرات من النساء على الفراش والنقص في البروتين أثر على نمو الطفل عند الحمل لديهن.

لم يعد في مقدورهم زرع النخيل الذي كان يشكّل مصدراً هاماً لتغذيتهم ومصاريقهم خلال آلاف السنين. وفقاً لتقرير صادر من محافظة البصرة فقد تم إقتلاع أشجار النخيل بالبلدوزرات وقطعوا ماء السقي عن الحقول ودمّروا أراضي الأهوار المُستولى عليها. كانت هناك ٢٠٠٠ كيلومتر مربع من المراعي في محافظة العمارة، على أطراف جزيرة الحليب تسمح بتربية ربع حيوانات المنطقة فقامت السلطات بإزاحة طبقات التربة لهذه الأرض وكذلك لحقول أخرى على الأرض اليابسة بواسطة البلدوزرات وإستخدمتها لبناء السدود أو الجسور. وأخيراً بسبب الحصار الإقتصادي الذي فرضته القوّات العراقية منذ قرار no-fly zone أصبح من المستحيل التّمون بالغذاء والوقود ولم يعد سكّان الأهوار قادرين على بيع السمك ولا على شراء شيء يقتاتوه. بعد ٣٠٪ من مجموع ٨٣٠٠٠ شخص بقوا على قيد الحياة في عملية الإبادة المُرتكبة في الأهوار من برنامج «النفط مقابل الغذاء» للأمم المتحدّة مشدداً بذلك سياسته لتجويع هذه الشريحة.

قامت طائرات التورنادو التابعة للـ RAF التي كانت تحلق في سماء المنطقة بإنجاز صور تقدّم إثباتاً على تدمير وتجفيف الأهوار. التحليق بالطيران على المنطقة ومحاولات الحلفاء لنجدة سكنة الأهوار سوندت في البداية من قِبَل بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكيّة وفرنسا. سحبت الأخيرة بعد ذلك مسانديتها ولكن خلال عشر سنوات أبقت بريطانيا العظمى المُساندة من قِبَل الولايات المتحدة على رقابتها أربع وعشرين ساعة أي على مدار الساعة في كل أيام الأسبوع وصوّرت الخراب المتواصل. في شباط عام ١٩٩٤ ذكر تقرير للإدارة الأمريكيّة بأنّ، « قوّات عسكريّة مستخدمة للقنابل الحارقة شنتّ هجوماً مع قوّات مدرّعة ضدّ منطقة السبيجل في أهوار العمارة و

بعد ذلك أحرق الجيش كل المنطقة. في عام ١٩٩٤ أدت العمليات العسكرية إلى مقتل عدد غير محدود من الضحايا المدنيين في الأهوار. هرب أكثر من ١٠٠٠٠ شخص نحو إيران فالتحقوا بـ ٥٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠ لاجيء غادروا خلال السنوات السابقة.» قدرّ محلّو الحكومة الأمريكية بأنّه إضطرّ ٢٠٠٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠٠ ساكن قديم للأهوار إلى الهجرة من المنطقة منذ عام ١٩٩١، إستلمت منظمة الأمم المتحدة تقاريراً عديدة من مراسلها الخاص السيد ماكس فان ديرشتويل M.Max Van Der Stoel روايات الشهود ولكن لم يكن هنالك أي رد فعل على ذلك. في نصوص ثلاثة من القرارات التي مرّت منفصلة بين أعوام ١٩٩٥ وأيار ٢٠٠٢ على البرلمان الأوروبي تمّ ذكر عبارة الجينوسايد للإشارة على المذابح المرتكبة في الأهوار دون أن يثير ذلك أي رد فعل لدى مجلس وزراء الدول الأوروبية ولا من قبل المجلس الأوروبي. خلال إجتماع عُقد سرياً في البنتاباغون وأل State Departement قرّر بأنّ التدخل ليس خياراً صالحاً لأنّ القوآت البرية لوحدها قادرة على إجبار جيش صدام حسين بمغادرة الأهوار. منذ عام ١٩٩١ أشار مراقبو الأمم المتحدة وبالإحاح على أنّ المفاوضات مع صدام حسين بشأن هذه المسألة وكذلك بشأن أيّة مسألة أخرى لا تجدي نفعاً والقوّة هي السبيل الوحيد الذي من الممكن أن يؤثر عليه.

خلال شهور وسنوات كنت شاهداً على آلام وأحياناً على موت سكّان العديد من قرى ومدن الأهوار. خلال كل هذه الفترة سُنحت لي فرصة بالإستماع إلى رواية حزينة لواحدة من مجموعات اللاجئين من أهالي شيكا، وهي مدينة تاريخية صغيرة، غائصة في القَدَم، في منطقة الأهوار العراقية وخرجت سالمة لحد منتصف شهر شباط ١٩٩٢، كانت تسكن فيها ٢٠٠٠ عائلة بشكل دائم، أي بحدود ٢٠ ألف شخص، تدير معيشتها عن طريق الصيد وتربية الحيوانات. هؤلاء الناس كانوا يملكون قطيعاً من الجواميس وعدداً من الأبقار. هذه الحيوانات كانت تعطي كمّيّات كافية من الحليب لسد حاجة المواطنين والفائض كان يُباع خارج منطقة الأهوار على شكل حليب وزبدة وجبن ولبن. في العراق. منتجات الصيد الوفيرة كانت تُباع أيضاً في السوق ومداخيل هذه التجارة كانت تسمح لأهل المنطقة بشراء المواد الضرورية لمعيشتهم.

عبر بناء الجسور وحفر القنوات إستهدفوا في أيار ١٩٩٣ تجفيف الأهوار ولحقت

هذه العملية هجمات عسكرية وصلت إلى مرحلة متقدّمة جداً في أماكن أخرى من المنطقة وفرض الجيش حصاراً لقطع موارد التموين ولنع المواطنين من التنقل. لم تكن شيكا إستثناءً. تردّت جودة المياه فانتشرت عدوى الأمراض بين المواطنين دون أن يتمكنوا من الحصول على الأدوية ولا على المعالجة بسبب غياب الكادر الطبيّ.

في شباط عام ١٩٩٤ وصل الجنود عبر الوديان المجفّفة مؤخراً وهم مجهّزون بالأسلحة الثقيلة المحمولة على الدبّابات فحاصروا المدينة ونادوا عبر مكبّرات الصوت المواطنين وأندروهم بسحقهم وبتهديم المدينة على رأسهم. بدأ الناس في الهروب وهم يتّجهون من مختلف أطراف الأهوار نحو داخل العراق؛ إتخذ البعض إتجاه الشرق والجنوب المؤدّيان إلى الحدود الإيرانية.

بعد مرور خمسة أيّام ضرب الجيش وقتل (من لم يقدر على إنقاذ حياته)، حرق ودمّر البيوت المصنوعة من القصب والمدارس والمساجد والحقول وقتلوا العديد من الحيوانات برصاص البنادق ومات الآخرون من العطش بسرعة.

ومن بقي على قيد الحياة من البشر غادروا بإتجاه الحدود مع إيران وهم يأملون وضع أنفسهم في مأمن وإلتجأوا إلى شريط حدودي يقع داخل العراق فأوت هذه المنطقة خمسة آلاف شخص خلال عدّة أشهر إلى أن هاجمتهم ذات ليلة قوارب مملوءة بالمليشيا العراقيين المسلّحين فأحدثوا مجزرة وقتلوا كثيرين.

في عام ١٩٩٧ إجتمع المنجّدون من هذه المذبحة في موقع يبتعد عن مدينتهم بمقدار ١٥٠٠ كيلومتراً، في شمال شرق مدينة شيراز الرائعة، داخل معسكر لاجئين يقع على أقدام الجبال الزرقاء التي تهيم على منطقة برسيبوليس. كان الماء لايزال نادراً ولم تكن اللغة المتداولة شائعة بينهم ولكنهم يعيشون في أمان وأحياء بفضل كرم إيران وبعيدون عن ديارهم.

بين عامي ١٩٩١ و ١٩٩٦ غزت مجاميع كبيرة من اللاجئين المعسكرات الواقعة في جنوب إيران بسرعة بحيث وصل العدد في النهاية إلى ١٠٠٠٠٠ لاجيء تقريباً. هرب الكل نتيجة للإجراءات التعسّفية التي أمر بها صدام حسين فدمر بذلك إحدى أقدم المجموعات البشرية في العالم. أحتفظت بذكرى عائلة تعيش في معسكر إبراهيم آباد وتتكوّن من شاب يافع عمره ١٣ سنة وفتاتين أكبرها بعمر تسع سنوات والصغرى

بعمر ثمانية أعوام. كلهم يتامى حيث قُتلت الأم أثناء إنتفاضة ١٩٩١ وتوفى الأب في المعسكر. فأصبح الشاب الذي يبلغ الثالثة عشر رئيساً للعائلة ولكنهم بلا عمل ويعيشون بفضل صدقات الناس القائمين داخل المعسكر، أناس لا يملكون شيئاً يمنحوه.

وفي عائلة أخرى كان الأب ضريراً وكذا الحال بالنسبة لإبنتيه ولأطفاله الثلاثة. الأم لوحدها كانت ترى قليلاً فأصبحت المعينة التي يعتمد عليها أعضاء عائلتها للبقاء على قيد الحياة. إجتمعت العائلة في معسكر أشرم أصفهاني وتقوم الأم بجمع بقايا الخبز الجاف وتبيعهها في الصباح فتشتري بالمقابل طعاماً لأطفالها. وهناك مفارقة لأن معسكر أشرم إصفهاني فُتح خلال حرب ١٩٨٠ - ١٩٨٨ بين إيران والعراق من قبل أهالي إيران المحليين الذين فقدوا مساكنهم بفعل صواريخ سكود التي أطلقها العراقيون ويسكنه حالياً هؤلاء اللاجئين العراقيون.

كان واضحاً بأنه بعد النجاة من الموت فضحايا صدام حسين هم ضحايا قبل كل شيء. فر نصف مليون لاجيء عراقي من القمع والإضطهاد، من التعذيب والموت ومعظمهم كان يرغب ويعشق العودة إلى ديارهم من بينهم شباب غير قادرين على التكيف ورجال شباب يرغبون العمل ولكنهم لا يجدوه وأمّهات يرضعن الصغار، أناس يحسّون بالغربة ويحنّون إلى وطنهم الأم. كان صدام حسين سبباً لمآسي الكُل سواءً كانوا يتامى لأباء عذبوهم وقتلوهم أو أطفالاً بلا مدرسة ولا تربية أو صبايا لاجئين قبل أن يولدوا. إلى يوم إزاحة هذا الدكتاتور لم يكن هنالك أمل بأن يتمتع العراقيون بالحرية التي تُعتبر ركناً أساسياً من الحقوق التي يجب تأمينها لأي إنسان.

لكي يتمكن من تدمير هذه الحضارة القديمة والحيوية كان صدام يعرف جيداً بأنه ينبغي عليه ليس فقط طرد أهالي الأهوار وإنما يجعل من بلادهم خراباً لا تصلح للسكن بحيث لن يعود عرب الأهوار إلى ممارسة اسلوب حياتهم مرة أخرى.

«الأهوار» التي نتحدث عنها هنا - المنطقة الهورية لميزوبوتاميا السفلى - تقع على طرفي الحدود بين العراق وإيران والجفاف الذي عمل العراق من أجل إحلاله أثر على المنطقة الواقعة في إيران أيضاً غير أن الخسائر التي تكبدتها المنطقتين اختلفت في مجال ما يخص الأرض في الجانب الإيراني لأن العراق قام بأعمال الردم مستهدفاً في

ذات الوقت تدمير البنايات والحقول وتخريب الأرض التي بُنيت عليها وواصل هذه الممارسة إعتباراً من عام ١٩٩١ وإلى عام ١٩٩٤ بدون إنقطاع. تكوّنت الأهوار منذ آلاف السنين في الوديان السفلى لدجلة والفرات نتيجة لما خلف النهران من ترسبات بمر الزمان على طول مجراها وإلى المصب في الخليج (الفارسي / العربي). الفيضانات المتكررة كانت تغرق الأراضي المجاورة بغطاء لا يتجاوز أكثر من بض سنتمترات من المياه...تشكّلت الأهوار إذاً من الفيضانات المتكررة وهكذا فهور الحمّار جاءت كنتيجة لفيضانات الفرات وأهوار الحويزة والقرنة كنتيجة للكميات الفائضة من مجرى نهر دجلة. قبل المباشرة بعملية التجفيف قُدّر بأن الحوض يمتد على مساحة ١٤٠٠٠ إلى ١٦٠٠٠ كيلومتراً مربعاً وفي آذار عام ٢٠٠٣ لم تتبقّى من كل ذلك غير مساحة ٢٠٠٠ كيلومتراً مربعاً.

التجفيف الذي أمر به صدام حسين ونظامه مرّ بخمس مراحل متميّزة وتنفيذ كل منها جرى تحت تهديد السلاح من قبل المهندسين المدنيين المحميين بقوات خاصة فقاومهم أهالي البلد ليلاً ونهاراً ولكن سُحقت إنتفاضتهم بالدم والنار.

بدأت المرحلة الأولى في شهر تموز من عام ١٩٩٢ في محافظة ميسان ومدينتها الرئيسية العمارة. تلخّص الأمر ظاهرياً ببناء سدود ترابية على طرفي الأنهار السبعة الرئيسية التي كانت تغذي أهوار العمارة والتي كانت تصب المياه في مجريين أكبر ضخامة وقوة، المجر الكبير والبطيرة. السدود التي إنتهوا من بنائها في نهاية تموز أدّت إلى قطع المياه عن ١٢ مجرى كانت تسقي الأراضي الواقعة في جنوب مدينة العمارة والأهوار الممتدة خلفها ووجدت أربع مدن مهمّة نفسها (الميمونة، السلام، العديل والمجر الكبير التي تسمت بأسماء الأنهار) بلا ماء الذي كان سبباً لقيامها ووجودها.

أما المرحلة الثانية فقد أنتهت في شهر أيلول من عام ١٩٩٢ حيث قاموا هذه المرة ببناء سدّين ترابين كبيرين مانعة مرور المياه في مجمل المجاري الكبيرة والصغيرة التي تغذي مدينة العمارة. بنوا السدّين بإرتفاع ستّة أمتار وبعرض ٣٥ و ٢٥ متراً في القاعدة وثمانية أمتار في القمة وكانوا ينوون بهذه الوسيلة تحويل مجرى أربعين نهراً نحو الجنوب وقطع المياه عن أهوار العمارة لكي تصب في الفرات على بعد عدّة كيلومترات منها.

المرحلة الثالثة التي إنتهوا منها في بداية تموز ١٩٩٣ كانت تستهدف تغيير المجرى الطبيعي والتاريخي للفرات إعتباراً من مدينة الناصرية ويجعلوا من هذا النهر سيفوناً لتفريغ هور العمارة ومياهه.

في المرحلة الرابعة تقرّر بناء سد بإرتفاع خمسة أمتار وبعرض ٢٥ متراً في القاعدة و سنتة أمتار في القمة في محافظتي الناصرية والبصرة على طول الساحل الشرقي للفرات لمنع المياه من تغذية مجموعة مكوّنة من أربعة مجاري لعبت دوراً رئيسياً في تموين أهوار الحمّار. بهذه الصورة تم خلق «النهر الثالث» المأساوي المعروف والذي طبلّ له صدام حسين ونشر دعايته بحيث هدأ من روعة الأوروبيين تجاه مشروعه. لن نقدر على خداع أنفسنا والنسيان بأنّ الجهد المبذول من قبلّ النظام العراقي عن سابق تصوّر واصرار لتجفيف الأهوار وتدمير المسكن قد جرى عبر القيام بعملية شيطانية معقّدة وذات فعالية رهيبية. ولتنفيذ هذه المرحلة والمرحلة الخامسة إستخدم مهندسوا بغداد الطرق القديمة في البناء إعتمداً وطبقها الجيش أثناء الحرب ضدّ إيران. تلخّص المشروع في المرحلة الخامسة بتجفيف أراضي تتجاوز مساحتها ١٥٠٠ كيلومتراً مربعاً عبر بناء شبكة من السدود الإضافية لتقطيع وتجزئة الأهوار.

في صيف ١٩٩٣ تم تجفيف ثلثي الأهوار وقد برهن الدكتور ريشارد براسينغتون Richard Brasington عبر الصور المأخوذة بأنّه بين تاريخ ١٩٩٢ وعام ١٩٩٤ تقلّصت المساحات المزروعة لإثنين أو لثلاثة أهوار بشكل جذري. في أهوار الحمّار، مثلاً، تقلّصت المساحة من ٥١٦ كيلومتراً مربعاً في عام ١٩٩٢ ووصلت إلى ٤٤١ كيلومتراً مربعاً في عام ١٩٩٣ و ٩٤ كيلومتراً مربعاً في عام ١٩٩٤، كان الرقم الإجمالي بالنسبة لهذا الهور هو ١٧٢ كيلومتراً مربعاً في عام ٢٠٠٠ مقابل ٣٥٦٥ كيلومتراً مربعاً في عام ١٩٧٧ و ٣٠٤١ كيلومتراً مربعاً في عام ١٩٨٥. أمّا الرقم بالنسبة لهور القرنة فقد كان ١٤٨ كيلومتراً في عام ٢٠٠٠ مقابل ٣٤١١ كيلومتراً مربعاً و ٣٤٤٧ كيلومتراً مربعاً على التوالي في عامي ١٩٧٧ و ١٩٨٥ وإذا ألقينا نظرة على مجمل الأهوار فسوف نجد بأنّ الأرقام مقلّقة حقاً. في عام ١٩٧٧ كانت الأراضي الكليّة الثابتة للأهوار تغطّي مساحة ١٠١٦٩ كيلومتراً مربعاً فتقلّصت في عام ١٩٨٥ إلى ٩٧٥٠ كيلومتراً مربعاً (أي ٩٦ ٪ من المساحة الأولى) لتصل في عام ٢٠٠٠، كما

كان متوقّعاً، إلى ١٤ ٪ من الحجم البدائي ولم تعد تغطّي أكثر من ١٤٦٦ كيلومتراً مربعاً آخذين بنظر الإعتبار نسبة ٥ ٪ من الأخطاء المحتملة. تتطابق هذه الأرقام مع الشهادات العينية والإنتطباع الذي تركه أولئك الذين تمكّنوا من النجاة بحياتهم في الأهوار وكذلك الأشخاص الذين زاروا المنطقة وتجوّلوا فيها.

نادراً ما تلقى تجفيف الأهوار الذي أمر به صدام حسين رد فعل نادراً لدى المجتمع الدولي فقد كان الدكتاتور العراقي يردّد في تبريراته الفضائل والمردودات الهائلة «لخطة عمله من أجل الأهوار» على الصعيد الزراعي. لا نشك في أنّ تصرّفه كان تنفيذاً لسياسة معيّنة وقد تمكّن بفضل دعايته النشطة من إقناع العديد من أعضاء مجلس أمن الأمم المتّحدة بأنّه كان يسير في سبيل يؤديّ إلى خلق أراضي خصبة جديدة لإنتاج محاصيل وبذور زراعية وفيرة وبالأخص القمح ولكن كل الإثباتات في ذلك الوقت ومؤخراً برهنت بأنّ الأمر لم يكن كذلك. في عام ٢٠٠٢، داخل الإجتماعات السياسية وفي مكاتب المنظّمات الدولية كان المعجّبون بصدام حسين يردّدون تبريره ويدّعون بأنّ تجفيف الأهوار يساهم بشكل كبير في تطوير وتنمية العراق ولكن الحقيقة كانت غير ذلك.

تنفيذ كل هذه الأعمال غير القابلة للنقاش كان سرّاً حيث لم يعلنوا عنها في العراق نفسه رغم مشاركة أربع وزارات كبيرة (وزارة النفط ، التصنيع العسكري، الأسكان والصناعة ووزارة الزراعة والري) في هذه العملية التي تطلّبت تعبئة أيدي عاملة كثيرة وموارد هائلة. فلو كان الأمر يتعلّق بسياسة مفيدة غرضها إستصلاح أراضي زراعية وإسكان مواطنين ضعفاء في إمكانياتهم الماديّة لنادت الحكومة الأمة للحصول على مساندها ولقامت بإعلام المجتمع الدولي عن تفاصيل العملية ولصرخت إنجازها على كل سطوح المنازل.

في الواقع، إستعمال العنف من قبلّ السلطات ضدّ المواطنين وإستخدام القوّة لحماية الأعمال والسريّة التي أحاطت كلّ العملية تقود إلى إستنتاج قصد مشؤوم: فعلوا كل هذا بنية إباداة سكّان الأهوار إلى الأبد، تلخّص الأمر في كونه حلاً يضع حداً نهائياً لوجودهم.

في الأهوار، يعتمد كلّ شيء على الماء. القنوات لم تكن موجودة وفي حالة إخلاء

القنوت والمجاري من المياه لم تكن الناس قادرة على الإستمرار في العيش حيث يموتون مع الحيوانات من العطش وخاصةً الجواميس التي تنتمي إلى صنف يعتمد كلياً في حياته على المياه. ماتت الأسماك فتوقّف الصيد. بغياب الإرواء لا ينبت الرز والطيور المهاجرة التي كانت تنتقل بأعداد كبيرة من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى شمال كوكبنا لم يعد لها مكان تستريح فيه بين أفريقيا وأوروبا. تدفق المياه كان ضرورياً جداً لبيئة وإقتصاد المنطقة بأجملها مثلما هو ضروري للناس الذين يعتمدون عليه في المعيشة.

حاول صدام حسين في ذات الوقت إزالة حتى الأرض التي كانت تبعث الحياة في الأهوار. ولمرة جديدة قمت بزيارة المنطقة في شباط وأذار ٢٠٠٣ وتجوّلت في طرفي الحدود. في الطرف الإيراني كانت الأرض البارزة مشقوقة، ملحية ولكنها مسطحة والأمر هذا عادي بطبيعة الحال أمّا في العراق فأنّها كانت مبقورة وجعلوها صحراءاً ترتفع من هنا وهناك أكوام من تربة غير صالحة للزراعة ظلّت عليها آلاف الناس بلا مأوى.

نتائج تدمير الأهوار لا تُقاس فالناس الذين عاشوا هناك لم يغادرونها بسبب أعمال التجفيف فقط وإنما أصبحوا مهاجرين داخل بلادهم أو إلّجأوا إلى البلدان الأجنبية. لم يهجروا موطنهم تحت تهديد السلاح فقط وإنما فقدوا أرضهم بسبب التجفيف ما عدا ١٠٪ من الأراضي المتبقية والمهددة في شباط ٢٠٠٣ بإزاحتها عند الإنتهاء من إنشاء القنوت والجسور في أهوار الحويزة.

السياسة التي قادها صدام حسين أدّت إلى إزالة مساكن وحياة وإقتصاد والهوية الثقافية وتقاليد عرب الأهوار. إستعمال أقصى العنف الذي أكّده التقارير وروايات شهود العيان من بينهم صحفيون ورجال سياسة إستهدف عمداً هؤلاء العرب كمجموعة تتمتع بمميّزات دينية وثقافية وسياسية وإثنية مشتركة.

في نيسان عام ٢٠٠٣ أطاحت قوات التحالف بصدام حسين وأزاحته عن الحكم. الجينوسايد الذي إرتكبه ضدّ عرب الأهوار كاد أن يتوقّف فيه بشكل كامل فتوقّفت مباشرة أعمال التجفيف السائرة في الحويزة وفي ذات الوقت ترك المهندسون العمل وغادروا المنطقة فأصبح سكّان الأهوار أحراراً من جديد ويذهبون إلى حيث يشاؤون

والدخول إلى وسطهم الطبيعي لم يعد محظوراً. بدأت العوائل ترجع بالآلاف وحين لقائي برؤساء العديد من العشائر في هذه الفترة أصبح ممكناً تعريف هوية أكثر من ٢٠٠٠٠٠ شخص وأدركت كل عشيرة كم من عناصرها فقّدت.

أنّه حق ومن الواجب الأخلاقي قيام خبراء عراقيين بتشخيص حقوق عرب الأهوار وتعويضهم وإعادة بناء مساكنهم ولتسهيل ذلك شكّلت عمّار في الحال لجنة علمية مكوّنة من أساتذة وخبراء آخرين في جامعة البصرة وذي قار (الناصرية) ووزراء البيئة والأشغال العامّة والصحة والتربية، الرؤساء المحليين ومدراء المحافظة يهتمون بالمشروع ويشتركون فيه. لطيف رشيد، وزير ري الحكومة المؤقتة لا يدخر جهداً لتأمين رفاهية الجمهور وضمان مستقبلهم وقد شكّل في وزارته خلية خاصة مكلفة بإعادة الحياة إلى الأهوار. العديد من زملائه وبالأخص وزراء الصحة والتربية والبيئة والأعمال العامّة يتعاونون مع الرؤساء المحليين ومدراء المحافظة. المنظّمات الرئيسية للأمم المتحدة من بينها PNUD, HCR, OMS, OIM إعترفت بأنّ عرب الأهوار يشكّلون أكبر مجموعة من الناس المهاجرين في العراق ولكن توقّفت أعمالهم وتركوا البصرة بعد مرور أربعة أشهر، في آب ٢٠٠٣ على أعقاب الانفجار الذي وقع في المكتب الرئيسي للأمم المتحدة في بغداد.

كما رأينا، الأحداث التي وقعت في الأهوار كانت لها تأثيرات متعدّدة: أنّها مسّت جميع مناحي الحياة الإنسانية مثلما مسّت مسائل السكن وأدّت إلى نتائج خطيرة لكل المنطقة؛ أنّها أثّرت على أشكال أخرى من الحياة غالباً ما كانت نادرة أو فريدة؛ وعلى الصعيد الجغرافي، نظراً لحاجة الجزيرة العربية إستثنائياً للمياه فقد أثّرت الأحداث المذكورة على اقتصادها وعلى وسائل العيش للعديد من التجمّعات إضافة على وسائل عيش سكة الأهوار وقد عبّر الإتحاد الدولي لحماية الطبيعة (Lcipn) والمنظمة العالمية للطبيعة World Wild Find, WWF عن قلقها في بداية عام ١٩٩٣ بخصوص المستقبل بعد تدمير الأهوار. وفي عام ٢٠٠١ عبّر برنامج الأمم المتحدة من أجل البيئة (عن قلقه أيضاً بشأن تدمير أكبر أهوار الشرق الأوسط بوجهة نظرهم. تم دعوة إختصاصيين دوليين في هذا المجال إلى مؤتمرات ربّتها منظمات الONG وبالأخص من قِبَل IRAQ Fondaction ومن قِبَل وزراء بيئية خمس دول من بينها إيطاليا واليابان وبريطانيا العظمى وقد عبّروا بعد الولايات المتحدة الأمريكية عن إهتمامهم

بالمسألة ووعدوا بتخصيص الأموال لمعالجتها وعُقدت مؤتمرات أيضاً خارج العراق سواءً في الجامعات أو في مؤسسات أوروبية وأمريكية أخرى.

رغم إهتمام المجتمع الدولي فالوضع يجبر إختصاصيي البيئة على مواصلة عملهم كليا خارج العراق، أي بعيداً عن الأهالي وساحة الحدث. غياب الكادر الرئيسي لخدمات الأمم المتحدة المختصة وخبرتهم التي لا تُقارن ومغادرة جميع متطوعي الـ ONG تقريباً يعرقل جهود إعادة الحياة إلى الأهوار بشكل متزايد. المشاكل الأمنية الداخلية تعيق الوزراء والموظفين في تنقلاتهم وتشكل عقبات لعمل الحكومة نفسها.

بالنتيجة فالمجتمع الدولي يكاد لا يعي المشكلة الأساسية لعرب الأهوار وبضرورة الاعتراف بجريمة الجينوسايد المرتكبة ضد الضحايا وبحق العودة إلى موطنهم الأم. هذا التجاهل يمس حتى ميدان الجغرافيا: لا وجود لأية خارطة تشير إلى مواقع حياة هؤلاء الناس وحتى قبل عشر أو عشرين سنة ولا توجد أية خطة لإعادة بناء مساكنهم أو مواقع صيدهم. من المستحيل في هذه الأحوال توقع نتائج إيجابية ولكن بالمقابل فالمستثمرون الدوليون يهتمون بالمسألة ويحملون مقترحات كبيرة بخصوص الماء والبترو. باشرت إيران بإعادة الحياة إلى الأهوار: هل يفعل العراق مثلها؟

التحقيقات التي أُجريت على مستوى واسع أظهرت بأن معظم العوائل الذين سألوهم كانوا يتمنون الرجوع بأسرع وقت ممكن إلى بيوتها ومدنها وقراها والعودة إلى مشاغلها. العوائل التي عادت لم تحصل على أي خدمات صحية مناسبة ولم يحصل الأطفال على الدراسة المجانية كما كان الحال في معسكرات إيران للاجئين. كانت أمنية الكل هي العودة إلى اسلوب حياتهم القديمة بالإضافة إلى تمتعهم بالتسهيلات العصرية الحديثة. بعد سقوط صدام حسين ونظامه أصبحت مباشرة إعادة بناء الأهوار ممكنة ولكي تتحقق هذه الإرادة السياسية ينبغي عدم الإكتفاء بإعادة المياه إلى مجاريها فقط وإنما أيضاً إعادة إستصلاح مساحات من الأرض بحيث يتم إعادة زراعتها وبناء القرى والمدن عليها وتضاف إليها وسائل جيدة للإتصالات والمدارس والمستشفيات.

عدت إلى العراق في شهر نيسان من عام ٢٠٠٣، لحظة سقوط صدام حسين وقابلت أربعة مهندسين إشتراكوا في تجفيف الأهوار. وقد قاموا بالعمل تحت طائلة التهديد ولم

يتجرأوا على المقاومة. كانت الأوامر صادرة من صدام مباشرة: أي رفض من قبلهم كان يعني الموت لهم، لعوائلهم، لجيرانهم وربما لأخرين أيضاً. كانوا يعلمون جيداً بأن الأعمال المباشرة في الأهوار تعني الموت لهذا العالم وليس منحه الحياة والأمل وتراهم الآن يتوسلون العفو ويرغبون في إصلاح الخطأ والإستعداد للمساعدة.

دون أن نحس تقريباً فقد عاد الماء إلى الجريان وبادر الجيش العراقي بذاته بأول خطوة فقام بتدمير أحد السدود الرئيسية التي كانت تحجز المياه على مسافة خمس وعشرين كيلومتراً في أسفل البصرة منذ التسعينيات وكان قصده في ذلك هو منع قوات التحالف من الدخول إلى المدينة. أدى هذا الأمر في الواقع إلى تجمع مياه بحيرة الحمار مع مياه الأهوار المركزية وبعد ذلك بأسابيع قام العرب بأنفسهم بتدمير بعض السدود. خلال صيف ٢٠٠٣ قام الإيرانيون بسكب كميات كبيرة من المياه في أهوار الحويذة وأمر الوزير لطيف رشيد بالقيام بأعمال أخرى لزيادة إرتفاع المنسوب فأصبح، من جديد، ٣٠٪ من مساحة الأهوار تحت الماء وبدأ القصب في النمو والطيور في التغريد والجواميس تغطس أجسادها في الطين وبدأت تتكاثر. عاد المزارعون إلى حقولهم وبذروا الرز والطماطم.

في تموز ٢٠٠٣، شاهدت بعيني صياداً تحرراً أخيراً من قيد الخروج بقاربه وإصطاد السمك لأول مرة منذ أعوام. كان محصوله من النوع الصغير جداً ولكن تلاميخ وجه الرجل كانت تشير إلى النصر؛ فقد ولد عالمه من جديد.

الجزء الثالث

الإياداة العرقية... الإياداة الجماعية

دولة ضد الكورد

كريس كوتشيرا

بعد الإنتفاضة الشيعية العنيفة في عام ١٩٢٠ للإحتفاظ بالميزوبوتاميا وللتحكّم فيها قرّرت بريطانيا العظمى، تشكيل " حكومة وطنية " في بغداد تدير شؤون بلاد وادي الرافدين التي تعتبر طريقاً وجسراً رئيسياً للوصول إلى الهند كما هو الحال الآن مع الأميركيان بعد هذا التاريخ بثمانين سنة.

بدأ البريطانيون بتنصيب الأمير فيصل ابن شريف مكّة على عرش ميزوبوتاميا واسعة تشمل المناطق الكوردية لولاية الموصل لأنّ الميزوبوتاميا نصف-الصحراوية المؤلفة من بغداد والبصرة لم تكن قابلة للحياة دون إلحاق "مخزن القمح" الكوردي والنفط المخزون في باطن أرض كركوك إليها، وليس هنالك مبرر آخر وجيه إطلاقاً لهذا الإلحاق الذي تم دون إرادة الشعب الكوردي ولهذا لم تخدم الثورات الكوردية المتعاقبة التي إنطلقت بقيادة الشيخ محمود البرزنجي "ملك كوردستان غير المتوجّج" خلال سنوات حكم الملك فيصل إعتباراً من ٢٣ آب ١٩٢١ وإلى يوم إستقلال العراق في ٣ تشرين الأوّل ١٩٣٢،

وإعتباراً من هذا التاريخ أصبح الكوردي الذي يعيش في جنوب الإمبراطورية العثمانية مواطناً لمملكة العراق الناشئة بعد إعتراف (جمعية الأمم) بها، الإعتراف الذي نزع عنه فكرة الانفصال أو الإستقلال من خلال الواقع الجديد المفروض عليه.

أصبح الكوردي بعد هذا اليوم يكافح من أجل مساواته بعرب العراق والمطالبة بحقوق نادت بها جمعية الأمم التي ضغطت في عام ١٩٢٥، دون جدوى، على بريطانيا لتعطي " ضمانات الإدارة المحليّة " وبالأخص "تعيين الموظفين الكورد لإدارة شؤونهم في القضاء والتعليم وإستخدام اللغة الكوردية في دوائرها".

خلال العقود الثلاثة من سنوات التعايش مع المملكة الهاشمية لمعت وسط الشعب الكوردي عائلة بارزانية برز منها الشيخ أحمد والملا مصطفى البارزاني لقيادة الحركة القومية الكوردية وتم تأسيس أول حزب كوردي كبير(الحزب الديمقراطي الكوردستاني) في ١٦ آب ١٩٤٦،

كانت الإنتفاضات الكوردية في بداياتها على نطاق ضيق ولم يتعدّى الإحتكاك مع الجيش العراقي الذي ساندته الطيران البريطاني غير بعض المناوشات الصغيرة.

بعد إنهيار جمهورية مهاباد في عام ١٩٤٧ إلتجأ الجنرال مصطفى البارزاني إلى الإتحاد السوفياتي ولم يعد منها إلا بعد سقوط المملكة الهاشمية التي أذقت الشعب الكوردي بتعاونها مع البريطانيين ألاماً ومأسياً لا تنسى.

تقاسمت مسؤولية ما آل بالشعب الكوردي على بريطانيا أولاً لأنّها رفضت نداءه بالإستقلال وربطت مصيره بمصير الشعب العربي وشكّلت دولة يقودها ملك عربي فزرعت بقرارها لغماً يهز إستقرار العراق إلى بدايات القرن الواحد والعشرين.

وعلى المملكة العراقية ثانياً لأنّها رفضت الحقوق الممنوحة للشعب الكوردي مقابل الإتحاد القسري وتعاملت معه كمواطنين من الدرجة الثانية وإلتجأت إلى منهج القوّة والعنف لسحق أي مطلب من مطالبهم المشروعة.

ورغم كل تلك السنوات المليئة بالظلم والقهر لا يمكن بأيّ حال من الأحوال مقارنتها مع ما كان ينتظره الشعب الكوردي في السنوات الأربعين الأخيرة وخاصة الخمس والثلاثين التي حكم فيها النظام البعثي حيث أضافوا إلى الممارسات السابقة حملات التهجير الجماعية والإعدامات المجانية وحملة إبادة عرقية منهجية. وللحديث عن ممارسات هذا النظام نتوقّف أمام أبرزها بالتفصيل:

١- تعريب كركوك...

٢- فقدان ٨ آلاف بارزاني مع الوثائق والرسائل المتبادلة بين الدوائر الأمنية...

٣- البحث عن المفقودين في المقابر الجماعية...

٤- حملة الأنفال...

٥- تهديم كنائس كوردستان...

٦- قصف حلبجة بالسلاح الكيماوي...

تعريب كركوك

كركوك، العاصمة النفطية للعراق يبلغ عدد سكّانها ٨٠٠٠٠٠ نسمة، وعاشت لعقود متتالية حملات تعريب منهجية مارستها الإنظمة المتعاقبة لحكم العراق وإستهدف البعث عند تسنّمه لمقائيد السلطة في بغداد الكورد والتركماني فطردهم وإستقدم إليها العرب من الوسط والجنوب، وغالباً من الجنوب الشيعي ليحل محلّهم.

دمروا فيها محلاتّ بأكملها- القلعة التاريخية وسط المدينة القديمة بأغلبيتها التركمانية ومحلّة الشورجة التي لم يسكنها غير الكورد- وطرّدوا منهجياً الموظفين والعمال الكورد من شركة نفط الشمال القائمة بإستخراج النفط في كركوك بحيث لم تجد إلاّ العشرات منهم _ أقل من ١٠٠- من مجموع ١٠٠٠٠ عامل وموظف يعمل فيها يوم سقوط صدّام حسين.

جهود حكومة بغداد لتعريب كركوك والمناطق التابعة لها لم تبدأ فقط يوم وصول البعث إلى الحكم وإنما إنطلقت _ وليس ذلك من قبيل الصدفة _ مع إكتشاف النفط وإستخراجه من قبل شركة النفط التركية (TPC) عام ١٩٢٥ .

في الواقع لم يبدأ تصدير النفط الخام من الشركة النفطية التي سمّيت فيما بعد بشركة النفط العراقية إلاّ في نهاية ١٩٣٤ وبداية عام ١٩٣٥ وحينذاك إستقدمت الشركة عمالاً وفنيين عرب إلى كركوك.

وفي عام ١٩٣٦ وبينما كانت العائلة الملكية وهي لا تزال تحت التأثير البريطاني قامت السلطات العراقية بحملة تعريب واسعة في منطقة الحويجة الواقعة على بعد ٥٠ كلم غرب كركوك على الزاب الصغير.

بدأتها ببناء شبكة ري للمياه بين ١٩٣٦ وإلى ١٩٥٢ ومن ثمّ إستقدمت قبائل عربية لإستخدامها والإستفادة منها في الزراعة.

وكذا الحال في منطقة دبس الغنية بالنفط والواقعة على بعد ٣٠ كيلومتراً شمال شرق كركوك حيث وطّنت سلطات بغداد قبائل العبيد وأبو حمدان فيها.

كان الهدف الأساسي من حملة التعريب هو محاصرة المناطق الغنية بالنفط ووضع طوق عربي في جميع أطرافها. ولهذا تم استيطان ٢٢٣٠٠٠ عربي في هذه المنطقة بين عامي ١٩٥٢ وإلى ١٩٥٥ .

آخر إحصائية عراقية يمكن الوثوق فيها هي إحصائية عام ١٩٥٧ قبل ثورة تمّوز ١٩٥٨ ونجد إستناداً عليها بأنّ من مجموع ٢٧٠٠٠٠٠ نسمة من السكّان كان منهم ٤٨,٣٪ كورد و ٢١,٤٪ توركماني و ٢٨,٢٪ منهم عرب وبعد أشهر من وصول البعث إلى الحكم في شباط ١٩٦٣ تسارعت وتيرة حملة التعريب وانتقلت إلى مدينة كركوك نفسها وتم نقل كل الموظفين الكورد إلى جنوب العراق وفصل من كان يعمل في سلك الشرطة والأمن وطرّد الأغلبية العظمى من الذين يعملون منهم في الشركة النفطية وتم كذلك تعريب أسماء الطرق والمدارس ومنع توزيع المنشورات الصادرة باللغة الكوردية وقاموا بتدمير محلّة كوماري _ الجمهورية اليوم _ القريبة من المنطقة النفطية في خلال ثلاثة أيّام بالبلدوزرات ووضعوا ساكنيها في ٣٠٠ حافلة لنقلهم إلى السليمانية وقام الجنرال العراقي الذي كان أمراً للمعسكر بتوجيه القوافل الزائدة عن استيعاب معسكره نحو دريند و بازيان وعلى طريق الرحلة مات العديد من الأطفال والشيوخ.

لم يتوقفوا عند هذا الحد بل قاموا بتدمير القرى المحيطة بكركوك وعلى الأخص في منطقة دبس وأستمروا في الحملة إلى أن فقدوا السلطة في تشرين الثاني ١٩٦٣ .

في أعقاب عودتهم إلى الحكم في ١٩٦٨ وقّعوا مع الكورد في آذار ١٩٧٠ إتفاقية الحكم الذاتي في كردستان العراق.

إتفاقية نصّت على تحديد المنطقة التي تشملها كردستان على أساس الأغلبية الكوردية في مناطقها بالإعتماد على إحصاء يتم إجراؤها بعد حين.

توقّفت حملة التعريب خلال سنوات شهر العسل بين البعث والكورد ولكن لم يتوقّف إتهام الأخيرين للسلطات البعثية بتزوير الوثائق المتعلقة بالمناطق التي يسكنها الأغلبية الكوردية.

وبعد إندلاع الحرب في ١٩٧٤ وإنهيار الثورة الكوردية التي قادها الجنرال مصطفى البارزاني في ١٩٧٥ بدأت حملة التعريب من جديد وتسارعت الوتيرة في الثمانينات.

فرّغت سلطات بغداد منطقة طاووق- داقوق الواقعة على بعد ٣٠ كيلومتراً جنوب كركوك من سكّانها وأنشأت عليها معسكرات وحفرت آباراً إرتوازية لإستقبال ٤٠٠٠ عائلة عربية. وفي ذات الوقت قام البعث بتغيير الحدود الإدارية لمحافظة كركوك ففصلت عنها قضاء جمجمال وكفري وطوز- خورماتو وكلاهما وربطتها إعتباطياً بالسليمانية وديالى وصلاح الدين(تكريت).

رتبت السلطات الكوردية قوائم عن محلات كركوك بعدد العوائل العربية المُستقدمة إلى كل منها: الفدار (٢٠٠٠ عائلة)، اليفدار (١٠٠٠ عائلة)، الحرية (٨٠٠ عائلة)، الوحدة (٧٠٠ عائلة)، قادسية (٢٠٠٠ عائلة)، قادسية (٥٠٠٠ عائلة) وتستمر القائمة المُساوية ليصل العدد الإجمالي إلى ٢٥٠٠٠ عائلة عربية ولم ينسب البعث في النهاية بوضع ١٠٠٠ عائلة عربية في محلة الشورجة التي لم يسكنها غير الكورد يوماً.

الإحصائيات غير دقيقة ولكن حسب مسؤول الحزب الديموقراطي الكوردستاني في منطقة كركوك قبل تحرير المدينة في ٢٠٠٣ (السيد نظام الدين كلي) فإن أكثر من ٢٣٠٠٠ عائلة كوردية (أي ١٥٥٠٠٠ فرداً) قد لجأت إلى مناطق الحزب الديموقراطي الكوردستاني وما يعادلها (وفقاً لنفس المصدر) إلى مناطق الإتحاد الوطني الكوردستاني وأعداداً كبيرة إلى الجنوب العراقي أو المناطق العربية الأخرى، كما أضاف السيد كلي بأن ١٠٠٠ عائلة تركمانية من كركوك لجأت إلى أربيل.

الجنوسايد

لا يمكن تحديد الرقم في إحصائية لأن الكورد المُرحّلين خلال فترة زمنية تمتد لأكثر من عشرين سنة قد تزوجوا وخلفوا أطفالاً...لنقل عشرة لكل عائلة في المعدل.

إستهدفت حملة التعريب تقليص نسبة الكورد الى أقل من ٢٠٪ في محافظة كركوك وللوصول الى هذه النتيجة قامت سلطات البعث ببناء البيوت وحفر الآبار الإرتوازية وتقديم مبالغ مالية لتشجيع العوائل العربية القادمة من الجنوب الشيعي والذين تم تسميتهم بعرب العشرة آلاف. (١٠٠٠٠ دينار عراقي) أي ما كان يعادل في حينه (أكثر من ٣٠٠٠٠ دولار أمريكي) قدّمتها سلطات بغداد لكل عائلة عربية تستوطن كركوك ومنحتها أيضاً في بعض الأحيان لبعض العوائل الكوردية التي ارتضت مغادرة المدينة طوعاً.

وفي سنوات الثمانينيات أهدت الحكومة العراقية ٨٠٠٠ ديناراً أي (٢٤٠٠٠ دولار) لكل عائلة كوردية توافق على شطب سجلها في دائرة نفوس كركوك وتذهب إلى أربيل للسكن والعيش فيها.

واليوم يتراوح عدد سكّان كركوك بحدود ٨٠٠٠٠٠ نسمة ٤٢٪ منهم كورد (باِنخاض ١٠٪) و ٢٣٪ توركمان (رقم مستقر تقريباً) و ٢٣٪ عرب (إرتفاع شديد) ويمكن

ملاحظة أثر التعريب في ريف كركوك بشكل خاص وبصورة تثير الشك في العقل _ يترجم ذلك من خلال العثور على عشرات الآلاف من العوائل الكوردية المطرودة من كركوك وهم يملأون المعسكرات كمعسكر بني صلاوة قرب أربيل وتكيا قرب جمجمال أو يتشرّدون في مدن أخرى من كوردستان والعراق العربي.

تقدّر السلطات الكوردية عدد المطرودين من كورد كركوك ب(٣٠٠٠٠٠) شخص ووضعت سلطات بغداد مغلّمهم ٢٥٠٠٠٠٠ عربي ولم تتوقّف الحملة لحد نهاية سقوط النظام.

خلال زيارة صدّام حسين والتي وصفوها بالتاريخية لقلعة كركوك في عام ١٩٩٥ باشر "تخطيطاً مدنياً" لإبراز أهمية المواقع الأثرية _ المسجد القديم والقبّة الكبيرة والمسجد الذي يأوي قبر النبي دانيال والسوق العباسي والقيصرية _ فطردوا في المرحلة الأولى (٨٥٠) عائلة من منازلها الخاصة وفي المرحلة الثانية قامت البلدوزرات بإزاحة البيوت وبالإمكان رؤية ذلك بوضوح على صور الأقمار الصناعية الأمريكية ولم يتبقّى من الآثار غير بعضها وهي في حالة مرثية وقاموا بسد الأبواب الكبيرة المؤدية إلى القلعة بحاجز كونكريتي.

يبدو للناظر إلى المشهد وكأنّ القلعة قد أصابها حصار ستالينغراد.

سقوط صدّام حسين وضع حدّاً لحملة التعريب ولكنه لن يمحي أبداً نتائج طرد أو تهجير المواطنين وتنقلاتهم خلال عقود.

ترضية لحلفائهم العرب والأتراك قرّر الأمريكان ترك حل مشكلة التعريب للحكومة المُنتخبة القادمة من قبل العراقيين عن طريق المحاكم ولكن لم يقوى الكورد على الإنتظار فبعد تحرير المدينة في ١٠ نيسان ٢٠٠٣ دخلها أكثر من ١٠٠٠٠٠٠ مُرحّل وفقاً لبعض التقديرات وأكثر من ذلك وفقاً للبعض الآخر- من الذين عاشوا حياةً بئسة على أطراف مدينتي أربيل والسليمانية المحميتين _ عادت العوائل إلى كركوك بصورة غير منظّمة وهي تأمل إستعادة بيوتها ومزارعها فإحتتمت المئات منها بمدرجات ملعب العاصمة النفطية ونصب بعضهم خيماً على أبوابه وإحتلت العشرات الأخرى معسكر " عرفة- " التابع لشركة النفط العاملة في نفط كركوك.

وتجد اليوم أيضاً ٢٠٠٠ عائلة تعيش بين أنقاض معسكر خالد الذي كان يأوي فرقة

ستخلق المحاكم مشاكلًا وصعوبات أكثر من حلّها: هُدمت سلطات البعث بيوتهم المحجوزة غالباً أو أنّ مالكي البيوت وورثتهم فقدوا الوثائق والمستندات خلال تنقلاتهم المتعدّدة بين معسكر وآخر.

توصّل بعض مالكي الأراضي الزراعية مع محتليها العرب إلى إتفاق مؤقت بتقاسم المحصول حين بت القضايا من قبل المحاكم ولكن حينما إطمأنّ المحتلون من موقف الأميركيان نقضوا الوعد والعهد ورفضوا التنفيذ.

ثمّة موقفان يتعارضان اليوم: موقف الكورد ورغبتهم في العودة حالاً وموقف الأميركيان الذين يحاولون تهدئة الأمور لأنّ أهميّة اللعبة في كركوك يجعلها معرضة للإنفجار في أي لحظة.

الإيادّة الجماعية (الجنوسايد)... إختفاء ثمانية آلاف بارزاني

في ٢٠ تموز ١٩٨٣ أطلقت إيران المرحلة الأولى من (معركة الفجر الثانية) في كوردستان العراق والتي إعتمدت على سلسلة من الهجمات الحربية غايتها الترميمية وتثبيت قطعات عسكرية كان الأركان العراقي بأمسّ الحاجة إليها في الجنوب وإستهدفت كذلك في ذات الوقت مدينة كركوك، المركز النفطي الكبير للعراق.

أعطت سلطات بغداد طابعاً خاصاً لهذه المعارك بإدعائها مشاركة بيشمركة مسعود وادريس البارزاني بجانب الإيرانيين الذين نجحوا في إحتلال حاج عمران، القرية الحدودية الصغيرة التي اختارها الجنرال مصطفى البارزاني مقرأً لإدارة عملياته الحربية عام ١٩٧٤-١٩٧٥، وفي السيطرة على عدّة كيلومترات من طريق هاملتون الشهير الذي يربط حاج عمران براوندوز. هل شاركت قوآت البيشمركة في تلك العمليات كما إتهمت بغداد القيادة الكوردية بذلك؟ ينفي قادة الحزب الديمقراطي الكوردستاني هذا الإدعاء ويمكن تصديقهم لأنّ الأساليب الحربية للبشمركة تختلف كلياً عن منهج واسلوب الإيرانيين في حركة العمليات العسكرية...ربّما قام البعض من الكورد بدور الدليل لإقتناع قادة الحزب الديمقراطي الكوردستاني في ذلك الوقت بأنّ الوسيلة الوحيدة لإزاحة صدّام حسين من السلطة، الذي كان في طريقه إلى إبادة الشعب الكوردي، هي الإنتصار الإيراني عليه.

عسكرية عراقية وعوائل أخرى عديدة تقاسمت بينها غرف القصر المرمرى ذو البوابة الضخمة العائد لمكاتب الجنرال القائد العام للفرقة وفرش الآخرون الغرف المتواضعة والممتدّة على مسافة كيلومترات بمحاذاة القاعدة العسكرية التي لا زالت تحتفظ بالشعارات المكتوبة على الجدران: "صدّام حسين قائد عظيم لشعب عظيم" أو "صدّام حسين يقود الشعب نحو الذرى" ولكن لم يعد لا للعظمة ولا للذرى أثر.

حينما تفتقد هذه العوائل الإضاءة في مساكنهم المنهارة تبحث عن أسلاك لربطها بشبكة كهرباء المدينة ويعيش أكثرهم بلا ماء لأيام.

"هل نستحق هذه الحالة البائسة؟" يسأل ادريس جوهر المسؤول عن "قاطع" يتكوّن من ٢٢٩ عائلة في معسكر خالد.

أكثرية هذه العوائل اختارت هذا المكان لأنّ قدراتها المادية لا تسمح لها بإيجار بيت سكني في المدينة.

تسألني لماذا عدنا؟

إنّظرنا من الأميركيان مساعدتنا حسب وعدهم وسمعنا كذلك بأنّ المنظمات الإنسانية غير الحكومية تهب لمساعدتنا لما تحملناه في سنوات التشرد، ولكننا لم نرى شيئاً: نعيش بلا مدرسة ولا كهرباء، تركونا على حالنا"

بعد سقوط النظام إكتشف اللاجئون مدينة غرقت بين السلب والنهب وإهمال سلطات بغداد لحالهم.

حينما ندخل شوارع وطرقات المدينة نكتشف جدراناً فاقعة اللون لبيوت بائسة ولا نخال بأننا في عاصمة نفطية لأكبر دولة منتجة للبترو.

توقّعنا رؤية كويت أو دبي ثانية فإذا بنا أمام مدينة تابعة للعالم الرابع.

ولا يمر يوم دون أن يصلها لاجئون جدد، هؤلاء "العائدون" كما يسمونهم "أيّ قوّة، لا مسعود بارزاني ولا جلال طالباني يتمكّنان من ردهم ومنعهم بالعودة إلى كركوك" كما صرّح حسيب روزبباني مساعد الحاكم المسؤول عن إعادة إسكان العائدين إلى كركوك. "لا يتحمّل اللاجئون الإنتظار بالعودة إلى منازلهم ولا يمكننا المقاومة أمام ضغطهم، يصرّ الأميركيان على قدرتهم في تحملّ الصبر إلى أن يتم حل مشاكلهم قانونياً ولكنهم مخطئون."

دفع البارزانيون ثمناً باهضاً لهذا التحالف ففي ٣١ تموز ١٩٨٣ قامت السلطات العراقية بتجميع ٨٠٠٠ بارزاني واخفتهم إلى الأبد ضحيةً لإنتقام لم يحدث له مثيل سابقاً في تاريخ العراق.

في حينها، شكك عن حقيقة هذه العملية التي أصابت أعضاء عشيرة ادريس ومسعود بارزاني مباشرة أقرب الصحفيين وأكثرهم تعاطفاً مع القضية الكردية وكانوا يتساءلون: أ لا يزال هولاء لإثارة الصحافة والمنظمات الإنسانية؟

بعد عامين من هذه الأحداث أي في ١٩٨٥ إنتقيت بساجي البارزاني، وهو واحد من القلائل الذين لم تفلح سلطات بغداد في وضع يده عليه وساجي هو ابن الشيخ عبدالباري حفيد الشيخ عبدالسلام الثاني، الأخ الأكبر للجنرال مصطفى البارزاني، الذي أعدمه الأتراك في ١٩١٤ .

شهد لي ساجي ابن السابعة عشر ومن بيشمركة الدكتور سعيد بارزاني على أرض كردية محررة في شرق كردستان قائلاً:

" بعد إنهيار الثورة الكردية في عام ١٩٧٥ كُنّا ضمن ١٠٠٠ عائلة بارزانية تم تسفيرها إلى وسط العراق في الديوانية وفي عام ١٩٨٠ سمحوا لنا بالعودة إلى كردستان والسكن في مجمّع (قوشته به) التي تبعد ٢٠ كيلومتراً عن أربيل. لم تكن منازلنا مجهزة بمياه جارية فنبحت عنها في الآبار والأطفال يقطعون مسافة ساعة للوصول إلى المدرسة أمّا الرجال فكان عليهم البحث عن العمل في مدينة أربيل أو في مشاريع الطرق وأكثر من ١٠٠٠ منّا يعمل في مشروع طريق (كوير).

"في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، لاحظنا عودة الرجال الذاهبين للعمل إلى البيت وهم يرددون بأنّ التجمّع مُحاصر من جميع جهاته من قبل جنود مسلّحين. وفي السابعة صباحاً دخلوا البيوت وبدأوا التحري وتجميع الرجال إعتباراً من عمر ١٠ سنوات وإلى الشيخ البالغ ٧٠ عاماً ولم يستثنوا في ذلك المعوقين ولا المشلولين وحتىّ المجانين... إدعوا: "تأخذهم للعمل في أربيل".

فتّشوا بيتي ثمان مرّات ولم ينجحوا في إلقاء القبض عليّ حيث إخفيت في المرافق الصحيّة على الطرف المقابل من باحة المنزل.

في الساعة العاشرة والنصف وضعوا من جمعوهم في حافلات وقادوهم إلى جهة

مجهولة لم يعودوا منها أبداً. وعند مغادرتهم قطعوا التيّار الكهربائي عن التجمّع وتعطلت نتيجة لذلك مضخّات سحب المياه عن العمل فأضطرت النساء على قطع مسافة ساعة للبحث عن الماء في القرية المجاورة."

أصابت الحملة أيضاً البارزانيين المتواجدين في (ديانا وحرير) وكذلك الساكنين في بغداد ومنهم والد ساجي، الشيخ عبدالباري.

شهادة سيوان ابن صابر أحد أبناء الجنرال مصطفى البارزاني الذي شملته الحملة،

كان سيوان في الحادية عشرة من عمره يومها:

"كُنّا لاجئين في (قراج) منذ عام ١٩٧٥ .

بعد ثورة إيران ١٩٧٩ قرّر والدي صابر العودة إلى العراق والإستقرار في بغداد. في أيلول من عام ١٩٨٠ أي بعد مرور سنة من عودتنا أُلقت السلطات العراقية القبض على أعمامي عبيدالله ولقمان إبني الجنرال مصطفى البارزاني وإختفيا فخطّط والدي الخروج من العراق ولكن مسؤولياته تجاه عائلة الأعمام أجبرته على البقاء.

" بعد مرور أيّام من إحتلال إيران لمدينة (حاج عمران، ٢٠ تموز ١٩٨٣) إستدعى فاضل البرّك والدي مع أبناء عمّه الشيخ أحمد البارزاني إلى مديرية الأمن وخاطبهم قائلاً: " نبعث لكم سيّارات تقودكم لمقابلة الرئيس".

أدرك والدي المغزى ولم يكن قادراً على الإنفلات منهم لأن منزلنا كان مراقباً ويتبعون سيّارته حال خروجه من البيت.

"وفي الصباح التالي بحدود السابعة والنصف وصلت سيّارة ووقفت أمام البيت تبحث عن والدي. كان البيت مُحاصراً ولم يستطع النجاة بنفسه وفي الساعة العاشرة أُلقت رجال الأمن القبض على حماية والدي وعلى بستاني البيت كما إقتادوا كلّ من يتجاوز عمره ١٢-١٤ سنة من البارزانيين في المحلّة وكان من ضمنهم رجلاً اسمه ابراهيم الذي رافق البارزاني إلى الإتحاد السوفياتي وكذلك صلاح وأزاد ونوزاد وبداد أبناء عمّي لقمان ويستندون غالباً على المظهر الخارجي لتقدير العمر."

"بعد ذلك وصلتنا معلومات عن قوشته به: "جمعوا واقتادوا كل الذكور، حتىّ أطفال المدارس" وبعد أيّام وصلت الحملة إلى (حرير وبه حه ركه)، أي في غضون ثمانية أيّام إخفت اللهجة البارزانية عن الوجود.

وثائق ومراسلات

١

السيد مسؤول الشؤون السياسية

تحياتي واحترامي

طياً معلوماتي عن تسفير البارزانيين في عام ١٩٨٣

" تنفيذاً لتعليمات المدير السابق لمديرية الأمن العامة (السيد الدكتور فاضل البراك) خرجت قوة مؤلفة من ضباط ومستخدمي دائرة أمن أربيل وأمن منطقة الحكم الذاتي مع قوات الطوارئ للمحافظات بقيادة الموقرين العقيد عبدالمحسن والعقيد خيرى صالح داود (مدير أمن منطقة الحكم الذاتي ومدير أمن أربيل).

تم وضع خطة تقوم بموجبها قوة بمراقبة المواقع القريبة من التجمعات سراً والتنسيق مع قوات للحرس الجمهوري في محاصرتها.

بدأوا بتجميع البارزانيين وتنفيذ الخطة على مرحلتين:

الأولى "شملت" تجمعات (القدس والقادسية وقوشته به) القريبة من محافظة أربيل حيث حوصرت مساء تحقيق الواجب وتوجهت إليها قوة من أمن أربيل عند الفجر. والثانية "شملت" تجمعات (حرير في قضاء شقلاوة وديانا في قضاء راوندوز وتجمع ميركه سور في قضاء الزبيار) حيث طوّقتها قوات من الحرس الجمهوري وبقيت قوات الأمن تراقب سراً منذ الصباح الباكر المواقع القريبة منها.

تم توقيف البارزانيين من منازلهم أو من المواقع القريبة منها وبعد ذلك تم تسفير الخونة بحافلات قادمة من بغداد لهذا الغرض بأمره ضباط من قصر الرئاسة وإقتادوهم إلى بغداد.

للإطلاع رجاءاً

المقدم ياسين أسد R.D.Z

١٩٨٩-٠٣-٢٩

طال الإنتظار ولم يعد يتجرأ أحدهم زيارتنا.

"بعد هذه الأحداث بأربعة أشهر جاعنا رجال الأمن إلى البيت وأخبروا والدتي: "لا تقلقي، إحتجزوه فقط ولا تخبري الآخرين، سيعود قريباً إلى البيت"

مرّ عام حينما دخل البيت شخص كوردي يحمل معلومات دقيقة ويدعي رؤيته لوالدي في السجن؛ طلب منّا مبلغ ٥٠٠٠ دولار لمساعدتنا فرفضنا إقتراحه.

في الواقع، أعدموا والدي بعد عشرة أيام من توقيفه وأبادوا البارزانيين كلهم وأفنّوهم جماعياً في صحراء السماوة قرب الحدود السعودية.

"طالب الروس من السلطات العراقية معلومات عن مواطنيهم- عن نساء تزوجن البارزانيين- أثناء إقامة الجنرال مصطفى البارزاني في الإتحاد السوفياتي (١٩٤٧-)

فأجابتهم السلطات: " إختفوا في الجبهة العراقية الإيرانية ! "

(.....)

بسم الله الرحمن الرحيم

" طلب "

التاريخ/١٩٠٠ ,

سيادة معاون مدير الأمن العامة المحترم

الموضوع / البارزانيين

نتلقى بين أونة وأخرى كتب صادرة من جهات عليا، سكرتارية رئاسة الجمهورية بشكل خاص يتوسل فيها المواطنون ويستعلمون عن مصير الأزواج والأطفال ومنهم بشكل متكرر "البارزانيون" الذين أُدينوا وذهبوا إلى الجحيم لخيانتهم أرض الوطن.

وصلنا طلب مرفق بكتاب سكرتارية الرئاسة دون الإشارة بأنه يتعلق بالبارزانيين وقد بعثنا بالرسالة المرقمة ١٣٦٥٤ والمؤرخة في ٢٤-٣-١٩٩٠ نوكد فيها لسكرتارية الرئاسة أن هؤلاء بارزانيون تم في ١٩٨٣ تنفيذ العقوبات القصوى بحقهم لخيانتهم الوطن وأبلغتنا سكرتارية الرئاسة في حينها برسالتها المرقمة ٢٣٩٠ والمؤرخة في ١٣ آذار ١٩٩٠ المرفق نسخة منها طيباً بإعلام عوائلهم بأنهم فقدوا أثناء الحرب مع العدو الإيراني.

للإطلاع رجاءً مع التقدير

مدير الشعبة الثالثة

١٥-٧-١٩٩٠

إطلعت

السيد " معاون المدير "

١٥-٧-١٩٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ / ٢٩-٣-١٩٨٩

السيد مسؤول الشؤون السياسية المحترم

سلامي وتحياتي

١- في نهاية عام ١٩٨٣ تلقيت مع عدد من الضباط أمراً من أمن بغداد ومديرية الأمن العامة بإستلام بعضاً من الخونة البارزانيين المُقتادين من مديريةية أمن منطقة الحكم الذاتي والأمن العامة - الشعبة الثالثة - وعدداً من سجناء مركز أبي غريب.

٢- إستلمنا عدداً كلياً يتألف من ٢٢٢٥ خائناً تحملهم حافلات تم توجيهها إلى البياع لحراستهم هناك.

٣- شكّل السيد مدير أمن بغداد فريقاً برئاسته وأصدر أمراً بتنفيذ حكم الشعب " الشنق" ضد الخونة المذكورين أعلاه.

٤- تم تنفيذ حكم الشعب ضد ٢٢٢٥ خائناً في بداية آب من عام ١٩٨٣ في محافظة المثنى، منطقة البياع بالتنسيق مع مدير أمن المحافظة المعنية.

٥- أعطى المدير السابق للأمن العامة، الدكتور فاضل البراك، توجيهاً بإعداد دعاوي خاصة ضد البارزين منهم فتم فعلاً إعداد (١٦) قضية تشمل ٦٦٧ شخصاً وإرسالها إلى رئاسة محكمة الثورة التي بتت بإصدار العقوبة القصوى بحقهم. لم يتم تحرير شهادات الوفاة.

٦- لم ترفع أي دعوى بحق ١٥٥٨ منهم.

٧- تم تشكيل لجنة من عدد من الضباط لإستلام الأموال التي كانت بحوزة المتهمين أعلاه. أرسلت الأموال إلى مديريةية الأمن العامة _ الشعبة الثالثة _ مع مُستندات

التسليم وفقاً لكتاب مديريةية أمن بغداد المرقم ٤٧٨٣٢ والمؤرخ في ١٤-٩-١٩٨٣
٨- أصدر المدير السابق لأمن بغداد تعليماته بعدم الرد على طلب المعلومات تنفيذاً للأوامر الصادرة من الجهات العليا.

وفقاً للتعليمات، مديريةية الأمن العامة هي الجهة الوحيدة المخولة بهذا الشأن.

للإطلاع مع التحيات

المقدم.....

الإبادة العرقية (الجينوسايد)...

البحث عن المقابر الجماعية للكورد

" أتأسف لعدم قيامنا بإبادة الكورد وإزالتهم عن وجه الأرض "

تصريح لبرزان التكريتي في تموز ٢٠٠٣

بدأ محمد إحسان سليفاني الذي ولد في عام ١٩٦٥ بمدينة زاخو من عائلة كوردية عريقة دراسته في جامعة الموصل واستمر بمتابعتها في لندن للحصول على شهادة دكتوراه في العلاقات الدولية عام ٢٠٠٠ ويتأخر وزارة حقوق الإنسان للحكومة الكوردية في أربيل منذ ٢٠٠١ .

كرّس محمد إحسان جهوده ووقته للبحث عن الدلائل التي تدين نظام صدام حسين (بعد سقوطه في ٢٠٠٣) وإقنع بأن إصراره ومبادراته لن تذهب سدى وسيعثر حتماً على آثار لعشرات الآلاف من الكورد الذين إختفوا وأفناهم نظام البعث في مقابر جماعية.

شهادته:

" خلال كل هذه السنوات التي قضيتها خارج العراق ركزت جهودي في جمع الدلائل من أرشيف النظام المحتفظ به في جامعة هارفارد بعد إنتفاضة ١٩٩١ وإلتقيت مع الكوادر البعثية القديمة إستعداداً لليوم الذي أبحث فيه عن المفقودين في العراق.

" بعد إعلان إنتهاء الحرب مباشرة، أي في ١٠-١١ نيسان ٢٠٠٣ ، تحدّثت مع رئيس الحكومة نجيريوان بارزاني عن ضرورة تشكيل فريق للبحث عن المفقودين فأعطاني الضوء الأخضر للمباشرة بذلك. شكّلنا فريق مؤلّف من خمسة أفراد _ سائق وشخصين للحماية بالإضافة إلى أخي آزاد وأنا- مع سيارة وكاميرا رقمية وتلفون نوع ثرياً (Safelite) يساعدي بالإتصال المستمر مع مكتب رئيس الوزراء و(GPS) لتحديد مواقع المقابر الجماعية وكذلك بعض المأكولات المعلّبة.

" إنطلقنا في ١٧ نيسان ٢٠٠٣ وسأجيبك لماذا هذه السرعة وعدم الإنتظار؟ لقناعتي

بأنّ عدم إنتهاز الفرصة مباشرة يعني تدمير دلائل الإدانة من قِبَل الناس. كنت قد رأيت وقرأت وثائق كثيرة تتحدّث عن العمارة والسماوة فأحببت رؤيتها بعيني والعثور على أشياء لا يلاحظها الآخرون.

أردت التأكّد من عدد البارزانيين الذين إختفوا وهل هم ٨٠٠٠ شخص حقاً ومن الذي قام بإعدامهم؟

أردت التحقيق عن الأنفال وعن العدد الذي تم إفناءهم فهل هم ١٠٠٠٠٠ أم ١٨٠٠٠٠ روحاً؟

عرجت على بغداد لرؤية حالها فكم هو رائع أن ترداد طرقات بغداد بحرية وتتحدّث باللغة الكوردية حينما تشاء. أردت رؤية المذلة في عيون البعثيين. زرت قصور صدام والجثث لازالت ممدّدة على مداخلها وحدائقها وشاهدت صنمه المحطّم على الأرض. تركنا بغداد يوم ١٩ نيسان وتوجّهنا نحو السماوة (جنوب غرب العراق على الحدود السعودية) التي طالما سمعت عنها وهي الموقع المثالي للمقابر الجماعية لأنّها منطقة صحراوية معزولة وخالية من الآثار التاريخية.

" بعد الوصول إلى السماوة بدأت الإتصال برؤساء العشائر وأفهمتهم بأنّي أحمل رسالة موجّهة إليهم من القادة الكورد وأنني في سبيل البحث عن آثار لمفقودين من الشعب الكوردي وعرضت عليهم تمنياتي بلقاء رجال خدموا في الشرطة العراقية وفي دوائر الصحّة والنقل ويمتلكون المعلومات. وكان لنا لقاء خاص مع رئيس العشيرة سامي عزارة المعجون الذي قادنا إلى مواقع.

تتبّعنا في الأيام الأولى آثار تيمور والتقينا بالعائلة التي إستقبلته وأنقذته من الموت فقادونا إلى قبري والديه فتركناها على حالها ولم نلمسها. ودلّنا البدوي الشهم الذي شكرناه على مقبرة تحوي ٢٠٠٠ شهيداً ...

" وصلنا إلى مقابر جماعية أخرى وحفرنا في نقاط معيّنة للتأكّد من أصلهم الكوردي وقمنا بتصويرها .

لم نحتاج إلى الحفر بعمق ماعداً تلك الخاصة بالبارزانيين وبعد الإنتهاء من المهمة هناك توجّهنا إلى الناصرية والعمارة والبصرة والديوانية التي لم تخلو إحداها عن مقابر جماعية.

في الديوانية عثرنا على واحدة منها في حقل يعود إلى علي حسن المجيد وهي تحوي

١٠٠٠ شهيد تقريباً وعند التحقيق في ملابسهم تأكدنا من إنتماء العوائل إلى منطقة زاخو الذين شملتهم حملة الأنفال في مرحلتها النهائية وقد جمعوهم في دهوك وأعدموهم في هذا الموقع.

إلتقيت بشريك علي حسن المجيد الذي نفى معرفته بوجود هذه المقبرة وأنا على يقين بأنه غير صادق.

"إستغرقت الرحلة أربعة أو خمسة أسابيع. كنت قد رأيت في حياتي مشاهدات كثيرة للقتلى ولكن فاجأني وصدمني الاسلوب الهجمي الذي تم فيه إعدام حياة هؤلاء دون تبرير وازداد إستغرابنا حينما سمعنا كلمات ولهجة الذين شاركوا في الجريمة أو الذين شاهدوها وعرفوا عنها.

سمعناهم يتحدثون عن القتل وكأنّ الأمر يعني قطع رقبة دجاجة أو قتل فأرة.

ذهبت لرؤية العقيد خالد وليد، الضابط السابق في المخابرات والذي لا يزال حراً طليقاً. أخفيت نفسي عنه ومررت عليه بأنّي صحفي لبناني (كنت أتردد في لندن على School of Oriental and Arabe studies) فأخبرني بأنّ صدام قد خانته العراقيون وأنه إرتكب خطأين قاتلين:

إنسحابه من الكويت وعدم إبادته للكورد بشكل تام. كنت في بيت ألد أعدائي وحمايته تنتشر في كل زاوية من المنزل، كنت أرتجف من الخوف والغضب وعلى وشك فقدان السيطرة على أعصابي.

قصص عن النساء

تعيش امرأة في مسجد الشنافية الواقع بين الديوانية والنجف منذ عام ١٩٨٧-١٩٨٨ وسر هذه السيدة أنّها صامتة لا تتكلم حيث تعمل في مسجد يأويها ويطعمها. تصوّرت بأنّها كوردية فسجدت أمامها وأقامت الصلاة بالطريقتين السنية والشيعية...لم أرى على وجهها أي ردّة فعل أو تأثر...

حدّثتها بالكوردية: "أتوقع بأنك كوردية...يمكننا الإعتناء بك ومساعدتك بالعودة إلى الأهل فلم تحرك ساكناً.

وأستلمت كذلك رسالة من امرأة كوردية تعرض فيها وضعها...تقول بأنّها تزوّجت

وعمرها ١٣ سنة بشيخ يتجاوز ٧٠ سنة ولها منه ثلاثة أطفال:

" لا يعاملني زوجي بقساوة ولكن أشعر أحياناً بأنّي عبدة له...لا أدري أين هم أهلي...أنا من السليمانية فهل تعتقد بأنّ والداي سيعدمونني؟

هل يقبلون بإصطحابي لأطفالي معي إذا عدت إليهم؟

لم تسجّل المرأة عنوانها في الرسالة ولم تلمح بأي إشارة لإسمها. ويضيف محمّد إحسان: " أتصوّر بأنّ هنالك نساء كثيرات يعشن وضعها "

لاحظت بأنّ أعداداً كبيرة من الناس بدأت تستعين بالآلات الميكانيكية للحفر في المقابر الجماعية ولهذا اعددت رسالة وبعثتها لرؤساء العشائر وقمت كذلك بزيارة آية الله السيستاني فأصدر فتوى بحماية المواقع وعدم المس بها.

وإكتشفنا بعد ذلك مقابراً جديدة في السماوة وفي كربلاء والديوانية يختلط ويصطف فيها جنباً إلى جنب الشهداء من الشيعة والأكراد فأصدرت توجيهاتي بعدم المس بها وتركها على حالها.

عثرنا قرب الموقع الأثري لمدينة الحضر على مقبرة تتكدّس فيها هياكل للأطفال والنساء الكورد يعود أصلهم إلى منطقة السليمانية، من دوكان وقه لاجولان وعلى مقبرة ثانية تحوي رفات ٣٠٠٠ شهيد تقدّر أعمارهم بين ١٤ إلى ٣٥ عاماً.

وفيما يتعلّق بالبارزانيين الثمانية آلاف فقد عثرت على المدعو "البورة" الذي كان مديراً لأمن أربيل عام ١٩٨٣-١٩٨٤ والمتقاعد حالياً، وهو جنرال سنّي من مدينة بيجي. ذهبت إليه وجلست معه كصحفي لبناني مثلما فعلت سابقاً مع صاحبه فوضّح لي بأنّ مهمّته كانت تنفيذ الأوامر الصادرة من برزان التكريتي(الأخ غير الشقيق لصدّام) وأضاف بأنّه إلتقى ببرزان في تموز ٢٠٠٣ فصرّح له الأخير:

" أتأسّف لعدم قيامنا بإبادة الأكراد عن بكرة أبيهم...لأنّهم هم الذين إستقدموا الأمريكان إلى العراق"

في بغداد قاموا بفصل رؤساء العوائل البارزانية عن البقية وأعدموهم على حدة ولا ندري أين واروهم التراب. رأيت لدى العقيد خالد وليد ارشيفاً بأسماء الشهداء المدومين ولم أجد بينها الرؤساء البارزانيين.

إفتادوا الآخرين إلى نكرة السلطان ومن هنالك نقلتهم الحافلات وسارت بهم لخمس

ساعات باتجاه "عدن وبوصويا" في الصحراء قرب الحدود السعودية فأنزلوهم وقاموا برميهم على مجاميع مؤلفة من ١٠٠ إلى ٢٠٠ شخص في كل حفرة.

رسمنا صورة تقريبية عما حدث من خلال المعلومات التي حصلنا عليها في عدن وبوصويا من الذين أشغلوا مواقعاً وظيفية في الشرطة عام ١٩٨٣ .

ذكر لنا عريف سابق للشرطة في تلك الفترة عدد الأيام التي إستقرّ فيها هؤلاء الشهداء لديهم وتذكّر كيف كانوا يقودوهم في كل ليلة إلى الصحراء.

وُضعت المسؤولية اللوجيستية على عاتق مديرية الأمن العامة ومن تحليلنا للطريقة التي تم بها إعدامهم توصلنا إلى معرفة الجهة التي أطلقت النار على كل واحد منهم فإن كان الأداء من قبل الأمن العسكري تلاحظ على الشهيد _ طلقة واحدة في الرأس - وإذا كان من الحرس الجمهوري _ الرمي بالرشاش (صلياً).

وفي السماوة إلتقيت بضابط التوجيه السياسي للأمن خلال ١٩٨٣-١٩٨٤ وهو جنرال يدعى (أبو محمد) الذي قال "كنت مسؤولاً ولم أرمي أحدهم وإنما الحرس الجمهوري هو الذي قام بهذا الدور"

وقد قدمنا كل هذه المعلومات والدلائل للمحكمة العراقية الخاصة والمكلفة بمحاكمة صدام حسين وأعوانه وسنعيد جثث الشهداء الذين يتم التعرف عليها إلى عوائلها ونأوي الآخرين في مقبرة.

لن ننسى ما حصل أبداً - يستطرد محمد إحسان سليفاني - ونعلم بأن الحكومة القادمة ستقوم بغلق الملف بعد محاكمة ١٥٠ متهماً وإعدامهم وتعلن حينئذٍ إنتهت الحكاية" ولكننا لن نكتفي بهذا الحد وإنما نطالب بمحاكمة كل من إشتراك في الجريمة ومنهم قادة الفيلق الأول والخامس للجيش العراقي السابق وكل قادة الوحدات الذين تلطّخت أيديهم بدماء الشهداء."

الإبادة العرقية (الجينوسايد)

حملة الأنفال

قادها علي حسن المجيد، ابن عم صدام حسين وكانت الأنفال حملة منهجية لتدمير الحياة الريفية في شمال العراق (كوردستان) لكي لا تجد فيها المقاومة الكوردية أي مساندة بشرية أو مادية في لحظة حاسمة من الحرب ضد إيران. نتيجتها كانت رهيبية: عشرات الآلاف من الكورد _ بين ١٠٠٠٠٠ و ١٨٠٠٠٠ _ تم إعدامهم ورميهم في مقابر جماعية، هجروا وجمّعوا مئات الآلاف من الفلاحين الكورد ووضعوهم في «معسكرات التجمع» أو في «القرى الجماعية»، ودمروا حوالي ٤٠٠٠ قرية أو قسبة كوردية فحطّموا بذلك الحياة الإقتصادية الريفية التقليدية لكوردستان وقد إستخدموا الأسلحة الكيميائية لتحقيق هذا الهدف.

فمن بين كل جرائم صدام حسين كانت الأنفال دون أي شك أوسعها بحجم عدد الضحايا _ توزعت حملة الأنفال على عدّة مراحل - وأكثرها منهجية وتوثيقاً: تمكّن الكورد من الإستيلاء على أطنان من الوثائق في دوائر الأمن العراقية بعد إنتفاضة آذار عام ١٩٩١ ونقلوها إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث يُحتفظ بها ضمن الأرشيف الوطني للكونكرس والكثير منها تدين صدام حسين وعلي حسن المجيد.

تم تعيين علي حسن المجيد سكرتيراً عاماً لمكتب الشمال في حزب البعث في ١٨ آذار ١٩٨٧ من قبل أعلى هيئتين للسلطة في العراق، مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية (العراق) لحزب البعث. فأصبح في الواقع الرجل الثاني بعد صدام، الممثل الرسمي للدولة حيث تم تحديد صلاحياته بمرسوم مجلس قيادة الثورة المرقم ١٦٠ والمؤرخ في ٢٩ آذار ١٩٨٧: يملك صلاحيات مطلقة على كل فروع الدولة، المدنية والعسكرية وعلى كل الدوائر الأمنية.

أصدر علي حسن المجيد عدّة توجيهات في شهر حزيران ١٩٨٧ والتي أصبحت أوامراً مطلقة. أحدها يأمر بإطلاق النار مرئياً على كل شخص يتواجد في «منطقة الحرام» وآخر مؤرخ في ٢٠ حزيران ١٩٨٧ يطلب من القادة العسكريين القيام «بقصف

عشوائي عبر استخدام المدفعية والهليوكوبترات والطيران في أي لحظة من النهار والليل لقتل أكبر عدد ممكن من الأفراد المتواجدين في هذه المناطق المحرّمة». ويأمر كذلك «عند القبض على أي شخص في هذه القرى يجب حجزه وتوقيفه من قبل دوائر الأمن وأن الذين تقدّر أعمارهم بين خمسة عشر عاماً وإلى سبعين عاماً يجب إعدامه بعد الحصول على كل المعلومات المفيدة».

تتضمّن الأنفال مرحلة تمهيدية مع العمليات العسكرية في نيسان ١٩٨٧ ضدّ الكورد وتنظيم إحصاء في ١٧ تشرين الأول ١٩٨٧ فالعمليات العسكرية لنيسان ١٩٨٧ على الأرض هي نوع من (البروفا...التمرين) بشكل ما قبل المباشرة بالعمليات الكبرى للأنفال. ولأوّل مرّة إستخدمت القوّات العراقية الغاز الكيماوي والتي كانت قد إستعملتها ضدّ القطعات الإيرانية ولكن هذه المرّة بحجم كبير ضدّ مواطنيه وضدّ البيشمركة والمدنيين الكورد.

في ١٥ نيسان ١٩٨٧ قصفت الطائرات العراقية بالغاز مكاتب القيادة العامّة للحزب الديموقراطي الكوردستاني في بهدينان ولإلتحاد الوطني الكوردستاني في سركلو وبركلو (سه ركه لو وبه ركه لو) في محافظة السليمانية. في اليوم التالي أي في ١٦ نيسان ١٩٨٧ قصفت بالغاز أيضاً قرى شيخ وسان وباليسان في جنوب راوندوز قرب شقلاوة حيث تعيش فيها عوائل بيشمركة الإتحاد الوطني الكوردستاني. هذا الهجوم بالإسلة الكيماوية على القرية الكوردية هو الأوّل من نوعه _ إفتتحت الدوائر الأمنية بهذه المناسبة عهداً جديداً: قاموا بتصوير فيلم قصف باليسان عبر كامرة فيديو الذي تمّ العثور عليه لاحقاً . مات فوراً حوالي ١٢٠ شخص معظمهم نساء وأطفال ونقلوا أكثر من ٢٠٠ جريح إلى مستشفى رانية وفي اليوم اللاحق جاءت إليها قوّات الأمن تبحث عنهم وترافقهم إلى مستشفى أربيل فبدأ الأطباء يعتنون بهم ويداوينهم قبل أن تأتيهم قوّات الأمن من جديد وتقومهم إلى دوائرها التي مات فيها الكثير من الجرحى . ومن ثمّ عزلوا الرجال عن النساء والأطفال وأخذوهم إلى موقع مجهول _ لم يعد منه أحدهم على الإطلاق.

وبالتوازي باشرت القوّات العسكرية العراقية بتدمير مئات القرى المحاذية للطرق الرئيسية والمسيطر عليها من قبل الحكومة: ٥٠ قرية من محافظة دهوك و ٢٢٠ من

مقاطعة أربيل و ١٢٠ قرية من منطقة كرميان و ٣٠٠ قرية من محافظة السليمانية ووضعوا مواطني هذه القرى في «معسكرات التجمّع». وبإستغراب سمح الجيش لمواطني هذه القرى بإختيار الأماكن التي يريدون الذهاب إليها للعيش فيها _ معسكر تجمّع للعودة إلى «الصفوف الوطنية» التعبير الذي يستخدمه البعثيون أم المناطق الواقعة تحت سيطرة البيشمركة «المخربّين» وفقاً للعبارة الرسمية. والعوائل التي تقرّر العيش في معسكرات التجمّع تستلم تعويضاً رمزياً على الأغلب ولكن يتيح لها ببناء بيوتها الجديدة عبر القرض. وقد طال التهديم بعض المدن الصغيرة أيضاً كمدينة قرداغ في محافظة السليمانية ومدينة كاني ماسي في محافظة دهوك.

مواصلة تهديم هذه القرى ونقل المواطنين كانت تدخل ضمن خطة نهائية تم كشفها خلال الأشهر اللاحقة. كانوا ينون خلق منطقة غير مسكونة بين المناطق الواقعة تحت سيطرة الحكومة وبين المناطق المحرّمة الواقعة تحت سيطرة البيشمركة لعزل الثوّار عن بقية البلاد قبل الشروع في تنفيذ مرحلة تصفية كل كائن بشري يتواجد في المناطق المحرّمة طبقاً للتوجيه الصادر بتاريخ ٣ حزيران ١٩٨٧ والموقع من قبل علي حسن المجيد. هذا التوجيه كان ينص على أن «يُمنع وصول أي شخص أو ماكنة إلى المناطق المحرّمة» وكذلك «تقوم القوّات المسلّحة بقتل كل كائن بشري أو حيواني يتواجد في هذه المناطق».

وبالمقابل إستمرت حملة التعريب البعثية في المناطق الواقعة تحت سيطرة الحكومة أي على نصف مساحة ٧٤٠٠٠ كيلومتر مربع «لمنطقة الحكم الذاتي» في كوردستان: «هذا غزو حقيقي، أعلن هوشييار زيباري في تلك الفترة، يريدون محاصرتنا في الجبال».

ينتهي إعداد خطة تصفية «المخربّين» الساكنين في «المناطق المحرّمة» مع تنظيم إحصاء ١٧ تشرين الأول ١٩٨٧ ، أطلق البعث إنذاراً نهائياً للكورد المتواجدين في المناطق المحرّمة: عليهم العودة «إلى الصف الوطني» والعيش في معسكرات التجمّع بعيداً عن قراهم وذهب البعث إلى أبعد من ذلك فحدّد بأنّ «العناصر المخربة التائبة يُسمح لها بالعودة إلى أماكنها يوم الإحصاء» ولم ينطقوا بكلمة «العودة» بعد تاريخ ١٧ أيلول ١٩٨٧ وهكذا فمن يُلقى القبض عليه يعتبرونه «مخرباً» ويُحاكّم بالموت إستناداً

المرحلة الأخيرة إذاً بعد وقف إطلاق النار مع إيران أي أن القوات العراقية سوف تقوم بذبح الكورد دون أن تكون مهددة في المؤخرة وقد استخدمت الأسلحة الكيميائية على نطاق واسع وبشكل خاص في كلي بازي، شمال العمادية، حيث تم تطويق ٤٠٠ عائلة كوردية وإبادتها بالغاز. أدت هذه الهجمة العراقية الوحشية إلى نزوح من ٦٠٠٠٠ إلى ٨٠٠٠٠ كوردي واللجوء إلى تركيا حيث إستقرّوا لعدة سنوات داخل معسكرات حول ديار بكر وماردين بينما عبر آخرون إلى إيران مروراً بالولاية التركية هكاري لأنهم اعتبروا إيران أكثر رحمة من تركيا.

جرت جميع عمليات الأنفال على نفس الطريقة تقريباً حيث تبدأ بالقصف الكيميائي السام (مزيج من الإيبيريت وغاز الأعصاب) على مواقع البيشمركة وهي تتشكل غالباً من قرى يسكن فيها مدنيون عزل دون حماية في الوقت الذي يحاصرها الجيش النظامي (الفيلق الأول والخامس للجيش العراقي المتمركزين في كركوك وأربيل ووحدات جاعوا بها من الجنوب وخاصة من الفاو) والجاش من جميع الجهات.

بعد القصف تشرع قوات المشاة بالهجوم، تنهب وتدمر القرى عبر إشعال النار فيها أو تسويتها بالبلدوزر أو استخدام الديناميت. يجمعون المواطنين وينقلونهم بعربات إلى معسكرات التسفير مثل معسكر طوبزواة قرب كركوك أو معسكر دهوك في بهدينان حيث تتكدس فيها الناس بحالة لا يمكن وصفها ويقومون «بتصنيفهم». يوجهون النساء والأطفال إلى معسكرات أخرى وبالأخص إلى معسكر دبس على طريق كركوك- أربيل أو إلى معسكر السلامية قرب الموصل. أرسلوا عدة آلاف من الكورد المسنين إلى معسكر نكرة السلطان ذات السمعة الرهيبة وأماً بخصوص الرجال وبضمنهم الشباب الصغار جداً يشدون عيونهم ويربطون أيديهم ومن ثم يركبونهم عربات وأتوبيسات عديمة المنافذ بملابسهم الداخلية ويختفون. وحينما حرروا معظم النساء والأطفال بعد صدور قرار ٦ أيلول ١٩٨٨ تبين بأن الآلاف منهم قد إختفوا والرجال لم يعودوا أبداً. فوفقاً لبعض الشهود النادرين الذين أدلوا بشهادتهم أمام هيومان رايتس ووج قادوا هؤلاء الرجال بعربات وأنزلوهم على حافة خنادق كبيرة وقام أعضاء حزب البعث وهم يرتدون ملابسهم الرسمية أو عناصر الأمن بإطلاق النار عليهم ومن ثم تقوم البلدوزرات برمي التراب على أجسادهم والكثيرون منهم لا زالوا أحياء. وتعتبر هذه

إلى قرار مجلس قيادة الثورة الصادر في آب ١٩٨٧ المطبق على من لم يُحصى. وتنفيذاً لتوجيهات علي حسن المجيد فالسلطات العراقية منعت حتى بقاء عوائل «المخربين» في المناطق الواقعة تحت سيطرة الحكومة حيث أجبرتهم على الإلتحاق بالمناطق المحرمة والأغرب من كل هذا هو سعي النظام بزيادة عدد «المعارضين» ضد أي منطلق ولكن البعث عدل هذه السياسة في وقت لاحق فطرد النساء والأطفال وسمم الذكور المقدر أعمارهم بين ١٢ وإلى ٥٠ سنة.

بعد المرحلة التمهيدية بدأت حملة الأنفال فمرت بثماني مراحل مستهدفة ثماني مناطق مختلفة في كردستان:

- من ٢٣ شباط وإلى ١٩ آذار ١٩٨٨ تصفية مكتب قيادة الإتحاد الوطني الكوردستاني في سركلو وبركلو جنوب بحيرة دوكان ؛
 - من ٢٢ آذار وإلى الأول من نيسان ١٩٨٨ الهجوم على قرداغ ؛
 - من ٧ إلى ٢٠ نيسان ١٩٨٨ تدمير سهل كرمان ؛
 - من ٣ وإلى ٨ أيار ١٩٨٨ الهجوم على منطقة الزاب الصغير؛
 - من ١٥ أيار وإلى ٧ حزيران ١٩٨٨ الهجوم على وادي باليسان (شرق شقلاوة).
- بعد هذه العملية التجأت عشرات الآلاف من الكورد، البيشمركة وعوائلها إلى إيران: فقط في مقاطعة أذربيجان الغربية تجاوز العدد ٤٥٠٠٠ شخص.
- ثمّة وثائق مؤرخة في ٢٣ حزيران وفي ١٦ تموز من عام ١٩٨٨ تبرهن على مشاركة صدام حسين ومشاركة رئيس أركان جيشه نزار الخزرجي في قيادة هذه العمليات من الأنفال. تقول الوثيقة الأولى بأن «رئيس الجمهورية يمنح موافقته بالمباشرة في عمليات تدمير مكتب قيادة المخربين في حوض باليسان وفي منطقة سماقولي». والوثيقة الثانية تنص: «بإتصال شخصي مرقم ١٤٦٧١ ومؤرخ في ١٦ تموز ١٩٨٨ لمكتب رئاسة الجمهورية والمنقول إلينا عبر رئيس أركان الجيش بإتصال شخصي مرقم ٨٦١ ومؤرخ في ٢٠ تموز أعلمونا بأن عمليات الأنفال يجب أن تنتهي بسرعة بعد الأعياد الدينية.»
- في ٢٩ تموز ١٩٨٨ قرر مساعد رئيس أركان الجيش طبقاً للأمر الصادر تأجيل عمليات الأنفال للمرحلة السادسة والسابعة.
- من ٢٦ آب وإلى ٦ أيلول ١٩٨٨ المرحلة الأخيرة للأنفال ضد بهدينان. دارت

المقابر الجماعية _ تمّ الكشف عن ٢٠٠ قبر تقريباً في طول العراق لحدّ الآن _ كواحد من البراهين التي تدين صدام حسين.

في ٦ أيلول ١٩٨٨ وحينما قدرّ صدام حسين بأنّ عملية الأنفال قد أدركت هدفها أعلن عفواً جديداً وإستناداً إلى ذلك تمّ إطلاق سراح آلاف النساء والأطفال _ حرّروهم من السجون البائسة وتركوهم في الطبيعة دون عون كما رموا آلافاً آخرين في سهل أربيل بلا ماء ولا طعام فمات المئات منهم جوعاً وعطشاً.

وفي ٢٣ نيسان ١٩٨٩ وضع مجلس قيادة الثورة حدّاً لسلطات علي حسن المجيد الخاصة وحين إستقبله خلفه حسن علي العامري قال له: «لا تُستردّ هذه السلطات من الرفيق حسن علي لأنّه لا يستحقّها وإنّما لأنّ هذه المرحلة قد إنتهت.»

نعم فعلاً لم تبقى في المحافظات الشمالية الثلاث أكثر من ٦٧٣ قرية حيث تم تدمير ٤٠٠٠ منها وتصفية ١٠٠٠٠٠ إلى ١٨٠٠٠٠٠ كوردي جسدياً وهكذا إعتبر النظام بأنّ المشكلة الكوردية قد «تم حلّها».

شهادات

- نداء هوشيار زيباري، ممثّل الحزب الديموقراطي الكوردستاني في أوروبا بتاريخ آب ١٩٨٨ يطلب فيه الإستغاثة وتلقّاه كريس كوتشيرا.

«وقع هجوم كبير بالأسلحة الكيماوية بتاريخ ٢٥ آب في الساعة السادسة صباحاً. ضربت ست طائرات حربية بالقنابل الكيماوية خمس قرى كوردية في منطقة زاخو، العمادية: بوزين، ديركال، ديرهوا، بيك مالا وكارا. الغازات السامة قتلت ٨٨ شخصاً وجرحت ٥٠٠ في ذات اللحظة تم قصف خمس قرى كوردية أخرى قرب شقلاوة في محافظة أربيل وهي خيسلر، وير، هيرد، نازنين وباليسان أي بالمجموع عشر قرى. الشعب الكوردي لا يملك وسائلاً لحماية نفسه.»

لم يجد النداء أيّ صدق له.

- رسول كاك أحمد، عمره ٢٩ سنة في عام ١٩٨٨ سجّل كريس كوتشيرا شهادته عام ١٩٨٨ في راجان بكوردستان إيران.

«كنا مجموعة مكونة من ١٠٠ بيشمركة داخل قرية ملكان قرب راوندوز. حلّقت فوق

القرية ١٢ طائرة من نوع سوخوي فأطلقت ٦ منها قنابلاً ؛ لحسن الحظ معظم القرويين كانوا يعملون في الحقول. حرّرت القنابل دخاناً برتقالياً ومن ثمّ لوناً غامقاً نشم منها رائحة الثوم فماتت امرأة بعد ٢٤ ساعة من الألم والعذاب وإسودّ جسدها وإمتلأ بالبقع الغامقة والأورام كانت تتنفّس بصعوبة وتشعر بإحترق العيون. جرح إبنها و ستة من البيشمركة أمّا نحن الآخرون فقد ركضنا نحو الأماكن العليا. لم أدرك في البداية بأنني مُصاب ولكن بعد حين شعرت بإحترق في العيون. لم تتمكّن السيطرة على أنفسنا فبعضهم يطلق كلمات بلا معنى وهو يصرخ [تشخيص هجوم بغاز الأعصاب؟] فأعتنوا بحالي خلال شهر في مستشفى تبريز بإيران.»

- عادل قهّار صادق، طالب عمره ٢٥ سنة كان يسكن بامرني في منطقة بهدينان سجّل كريس كوتشيرا شهادته عام ١٩٨٨ في راجان بكوردستان إيران.

«جاء الجيش وطوّق مدن بامرني وسرسنك وفي ٢٨ آب هاجمنا بحدود الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فحاولنا إجتياز طريق زاخو- كاني ماسي (الواقعة تحت سيطرة الحكومة) والإختباء في جبل متين، كناً ٢٠ بيشمركة، ١٤ رجل و٦٠ عائلة (نساء وأطفال). خلال أربعة عشر يوماً كُنا نقتات أوراق الأشجار ومن أعالي قمة الجبل كُنا نشهد الهجمات الكيماوية على قرى الوادي فالسماء كانت مغطّاة بدخان المدفعية وقد مات في قرية توكا القريبة من زاخو ١٤ مقاتل بفعل السلاح الكيماوي وتم نقل عدد كبير من جرحى قرية كارميلي إلى مستشفى دهوك بواسطة عربتي تراكتور. وفي الليل قرّر بعض الرجال البحث عن الماء والغذاء في القرى القليلة الباقية التي كانت لا تزال مسكونة وبعدها سمعنا بعفو فلم نصدّق الخبر في البداية _ إلى أن أكّدته إذاعة ال بي بي سي - فعدنا عند ذلك إلى بامرني. وبعد خمسة أيّام قادنا الجيش إلى حسن بيركا التي يتمركز فيها فإستجوبونا هناك وفي المساء نقلونا إلى سرسنك حيث قضينا الليل وفي الصباح التالي نقلونا بسيّارات عسكرية إلى كير بيكوف حيث إستجوبونا للمرّة الثانية ومن ثمّ في دهوك مرّة أخرى من قبل العناصر البعثية وبعد ذلك قادونا إلى جيزنيكان وهو أحد المعسكرين المتواجدين في بحركا (به حه ركه) الواقع على بعد أربع كيلومترات في شمال أربيل. حدث هذا بتاريخ ١٧ أيلول ١٩٨٨ وقد كُنا بحدود ثلاثين ألفاً أطفال ونساء، رجال وشيوخ وبيشمركة مختلطين

إستخدموا الأسلحة الكيماوية. قصفنا ثماني طائرات بالغازات في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل حيث ترمي كل طائرة قنبلة واحدة فلم تنفجر إثنان منها. أصابوا مجموعتين للبيشمركة وقد جرح ٦٣ مناً ولم يموتوا لأنهم كانوا في أعالي الجبل. لكننا إضطرننا للإسحاب _ لم نكن قادرين على البقاء بسبب الغازات وكل الجنود العراقيين الذين أسرناهم كانوا مجهزين بالأقنعة الواقية. في إحدى المرات إستعمل اللواء ٧٠٢ الغازات فقتلوا جنودهم.»

شهادات أرامل الأنافال

قبل الحرب الأخيرة مباشرة كانت الآلاف من أرامل المؤنفلين الذين أوقفوهم وإقتادوهم نحو جهات مجهولة في حملة الأنافال عام ١٩٨٨ تعيش في ظروف صعبة وقاسية بفضل سلّة الغذاء للقرار ٩٨٦ ومساعدة بعض المنظمات الكوردية غير الحكومية وتسكن في معسكرات التجمّع وبالأخص في (سه رقه لا) و (الصمود) في سهل كرميان.

- عائشة، زوجة محمد، ببشمركة وُلد في عام ١٩٦٦ وإختفى في نيسان ١٩٨٨، شهادتها مسجّلة لدى كريس كوتشيرا منذ عام ٢٠٠٢ في سه رقه لا .

«رأيت زوجي لآخر مرة في قرية كوالي قرب كلار. كان لدينا طفلين، سنكر وهو ذكر ولد في عام ١٩٨٧ وسركول بنت ولدت في عام ١٩٨٣. جاعنا الجيش في أحد الأيام وأخذونا، الرجال والنساء ومن ثم فرّقونا. بعد ذلك قادونا إلى قرية أخرى وكنا بين ٢٠ إلى ٥٠ امرأة. إنتظرنا في منزل. خوفاً من الحكومة لم يقبل أبوانا في إستقبالنا وبعد ذلك أتيت إلى هذا المعسكر، اخبز للناس وتعيش معي حماتي. زوجي؟ لم أعد أنتظره ولكن إحتراماً لأطفالي فلم أتزوج مرة أخرى.»

- هاجر، من عشيرة زنكنة، ولدت في عام ١٩٨١ وهي بنت عزالدين المفقود في قرية قريبة من قادر كرم عام ١٩٨٨، سجّل كريس كوتشيرا شهادتها في معسكر الصمود عام ٢٠٠٢ .

«كان عمري سبع سنوات حينما عصبوا عيون والدي وشدوا يديه من الخلف. ضربوني وهربت عبر الشبّك. الآن أنا متزوجة ولكن واجهت مشاكل كبيرة من أجل الزواج: طالبتني الإدارة تزويدهم بهوية شخصية ولكنني لا أملكها. ليس لدي أب ولا

ولم يكن هناك شيء فقد كنا ننام على الأرض. جاءتنا النجدة من سگان أربيل و جلبوا لنا الأغذية والماء والغذاء فالناس الذين كانوا يملكون المال إبتاعوا لهم الخيم والآخرين بقوا على حالهم. يموت من بيننا ١٤ أو ١٥ فرداً في كل يوم وقد أتانا طبيب من أربيل يداوي المرضى بحبوب الأسبيرين. لم يكن المعسكر مسيئاً ولم يكن هناك حراس لذا كان في وسعنا الهروب ولكن الجيش كان متواجداً في كل زاوية إضافة إلى ذلك فالرجال الذين كانوا مع العائلة لم يتجرأوا المجازفة بحياة هؤلاء وكذلك بسبب كثرة عدد نقاط التفتيش على الطرق ومع ذلك فقد غامر بعض الشباب وحاول. في إحدى الليالي هربنا، أنا وأربعة شبّان آخرين فمشينا خلال سبع ليالي نحو بارزان حيث نختفي في النهار ونأكل الخبز اليابس. وفي بارزان كان الجيش يسيطر على الطريق المبلّط وكان قد أحرق كل قراها وترى فيها جثث الحيوانات الميتة في كل زاوية وحينما وصلنا إلى الحدود التركية منعنا الجيش بالعبور في البداية ولكنهم سمحوا لنا في النهاية الذهاب إلى إيران...»

أكّد عبدالقهار بأنّ السلطات العراقية نقلت كلّ الكورد الذين أُلقي القبض عليهم قبل العفو إلى قلعة دهوك وعاملتهم معاملة سيئة: الكثيرون منهم قد ماتوا بالحجارة وحتّى مرّقوا البعض بالدبابات وفقاً لأقوال جندي من الجيش وآخرون ماتوا جوعاً. قلعة دهوك كانت مركزاً للتوزيع: يضعون الأطفال والنساء في جانب ويقتادوهم إلى سجن السلامة قرب الموصل ومن ثمّ إلى معسكر (به حه ركه) وأمّا الرجال فقد كانوا يقتادونهم إلى سجن السلامة أيضاً ولكن يقودونهم بعد ذلك إلى جهة مجهولة. وقد أنهى عبدالقادر كلامه قائلاً: «إختفى عشرة آلاف رجل وكان بينهم عشرة من أبناء أعمامي.»

- الملازم جميل حسن، ٤٥ سنة، سجّل كريس كوتشيرا شهادته في زيوه عام ١٩٨٨ .

« في نهاية تمّوز ١٩٨٨ سعت القوآت العراقية الوصول إلى حدود تركيا وفي ١٩ تمّوز ١٩٨٨ نقلوا لواءً مكوناً من ١٢٠٠ عسكري من قوآت المغاوير _ اللواء ٦٨ وهو واحد من أقوى ثلاثة ألوية في الجيش العراقي _ فقمنا بتصفيّتهم بالكامل...بداية أب باسروا بهجوم جديد مع لوائين من المغاوير ولوائين آخرين من الجاش. وفي ٢ أو ٣ آب

عم ومع هذا إستطعت أخيراً أن اتزوَّج. وسوف أكون في إنتظار والدي إلى أن أموت. إذا وقع صدام بين يدي سوف أقطعه في أوصال...»

– ماذا كان مصير النساء المختفيات خلال حملة الأنفال؟

إستناداً إلى وثيقة رسمية للمخابرات العراقية في كركوك مؤرَّخة في ١٠ كانون الأوَّل ١٩٨٩ وتم العثور عليها في بغداد خلال ربيع ٢٠٠٤ ، ثمة ١٨ فتاة كردية بين عمر ١٣ و ٣٠ سنة مذكور أسماؤهن في القائمة طردتها السلطات العراقية إلى مصر وأجبرتها على ممارسة الدعارة. «طبقاً لتعليماتكم أرسلنا عدداً من النساء للعمل في ملاهي جمهورية مصر العربية» هذا هو المكتوب بالنص في الوثيقة.

تهديم كنائس كردستان

يُعتبر المسيحيون في كردستان من أقدم المجتمعات في الشرق الأوسط وحسب التقاليد إعتنقت كردستان الديانة المسيحية في نهاية القرن الأوَّل وبداية القرن الثاني الميلادي حيث كانت المنطقة كلُّها مسيحية قبل ظهور الإسلام في عام ٦٤١ م. هذا المجتمع المسيحي كان ضحيةً للإنشقاكات الدينية في القرن الخامس ميلادي. إبتداءً بنسطوريوس، أسقف القسطنطينة الذي رفض إعتبار مريم «كأم للباري تعالی عزَّ وجل» فتم إدانته في إجتماع إفيز Ephese للكرادلة والأسقف عام ٤٣١ م ومع ذلك إنتشر مذهبه في كل بلاد الرافدين (وفي آسيا) حيث يتواجد مؤيِّدوه لحد هذا اليوم في كردستان: كنيسة النسطوريين أو الأشوريين. وبعد هذا التاريخ بعشرين سنة أي في عام ٤٥١ م فالمونوفيزيت «Monophysite» الذين آمنوا بأن للمسيح طبيعة إلهية فقط قد أدانهم محفل كالسيدوان بدوره: اليعقوبيون أو السيرياك الأرثوذكس الذين تولدوا من هذا الإنشقاق لا زالوا يتواجدون بالآلاف في كردستان. في منتصف القرن السادس عشر (١٥٥٣) إرتبط العديد من الأساقفة النسطوريين بكنيسة روما ممَّا ولَّد الكنيسة الكاثوليكية الكلدانية. بهذه الصورة تشكَّلت الفصائل المسيحية الرئيسية الثلاثة المتواجدة في كردستان لهذا اليوم.

في بداية سنوات الستينيات، قبل الصراع بين بغداد والجنرال بارزاني كان هناك حوالي ٥٠٠٠ كلداني يعيشون على أطراف زاخو فالمنطقة الإدارية المسيحية كانت

تشمل ٣٨ قرية مسيحية مع كنائسها أو بيوت عباداتها ومقسمة إلى ١٩ بارواس Paroisse لكل منها قس. كان المسيحيون يشكِّلون ٤٥ ٪ من سكَّان مدينة زاخو وهناك عشر قرى غالبيتها مسيحية. لم يكن هناك نسطوريون في زاخو ولكن سكنت في العمادية ١٥٠ عائلة كلدانية وعدد مماثل من النسطوريين وكان هناك أيضاً عدة عوائل نسطورية في دووري في منطقة برواري بالا حيث يعيش الاسقف النسطوري وقرب عقرة في نهلة. إعتبر الكلدانيون هؤلاء النسطوريين جهلة لأنهم لا يتابعون الإجتتماعات الدينية.

وصول البعث إلى السلطة لم يؤثِّر على إزدهار المجتمع المسيحي في العراق – على الأقل في بغداد والبصرة والموصل، في المناطق العربية للعراق حيث يشعر المسيحيون بأنهم محميون من قبل البعث الذي يدَّعي العلمانية. ولكن بسرعة سارت الأمور بشكل آخر في المناطق الكردية فمسيحيو كردستان دخلوا في الصراع الدائر بين بغداد والحركة الكردية التي قادها البارزاني رغماً عنهم فالحياد كان صعباً عليهم. فالذين كانوا يعيشون في بغداد مجدوا النظام والذين كانوا يتواجدون في المناطق الكردية إلتحقوا بالمقاومة الكردية – إمتزجت مع المقاومة الكردية حوالي ٢٠٠ بيشمركة كلداني قاتلوا بجانب الكورد المسلمين وقوة خاصة أُخرى مكونة من ٥٠٠ بيشمركة نسطوري – وبدأوا يسمِّون أنفسهم «أشوريون» – قوة «هرمز» تخليداً لذكرى هرمز ملك شيوخ قائد بتاليون الأشوريين في الحزب الديموقراطي الكردستاني الذي تم توقيفه وإعدامه في شهر كانون الأوَّل من عام ١٩٦٣ بعد محاولته تفجير المنشآت النفطية لمدينة كركوك. وقد تم كذلك تدمير بعض قراهم كما كان حال قرية كوماني، قرب العمادية منذ عام ١٩٦٢ من قبل نظام الزعيم عبدالكريم قاسم.

ورغم الفترة الزمنية القصيرة التي تسلَّم فيها البعث مقاليد السلطة في العراق عام ١٩٦٣ والحرب التي قام بها ضدَّ الكورد فقد ترك مجيئهم أثراً دموية عند مسيحي كردستان: الطيران السوري قصف بالنابالم لأول مرة في عام ١٩٦٣ كنيسة وقرية شرانش الواقعتين في شمال زاخو، هذه الكنيسة التي تعتبر من أقدم الكنائس في كردستان.

في عام ١٩٧٢ وخلال فترة " شهر العسل " بين البعث والكورد كان لا يزال هناك إثنان وثلاثون كنيسة و ستة عشر بارواساً في منطقة زاخو.

إنهيار حركة الجنرال بارزاني في آذار ١٩٧٥ وسنوات القمع التي تلت هذا الحدث كانت كارثية بالنسبة لمسيحيي كردستان. حيث لم يكن هؤلاء ضحايا لإضطهاد البعث لكونهم مسيحيون ولكن لأنهم يسكنون في الشريط الحدودي المشهور الذي حدده البعث بعمق عشرين كيلومتراً وكان ينوي جعله منطقة محرمة وميَّنة. تواجدت على هذا الشريط بالذات العديد من القرى المسيحية في المرتفعات قرب الحدود التركية، في منطقة تتكاثر فيها الينابيع وحيث ترى المسيحيين يزرعون ويعتنون بأجمل بساتين كردستان.

سكان قرية بيشخابور الذين كانوا قد عبروا دجلة والتجأوا إلى سوريا في عام ١٩٧٤ ومن ثم عادوا في عام ١٩٧٥ إلى قريتهم إضطروا هجرها بعد أشهر قلائل والذهاب إلى زاخو للعيش هناك. وكذا الحال بالنسبة إلى قرية ديرابون الواقعة على أطراف بيشخابور فقد طردت السلطات العراقية منها سكانها في عام ١٩٧٥. قرية شرانش دُمّرت لأول مرة في عام ١٩٧٦ وإضطرت ٨٥ عائلة من قاطنيتها إخلاءها.. في ١٥ آب ١٩٧٦ وأمر الجيش سكان سانان الواقعة بالقرب من الحدود التركية بإخلاء القرية ودمرها في اليوم التالي مع الكنيسة القديمة المبنية منذ القرون الوسطى.

تميّزت هذه الفترة بالنسبة لمسيحيي كردستان حيث إضطروا القيام بثلاث هجرات: من القرى نحو المدن الكوردية كزاخو ودهوك وأربيل ومنها إلى بغداد ومن بغداد إلى أوروبا والولايات المتحدة وكندا حتى الوصول إلى أستراليا.

تعاملت الحكومة العراقية مع المسيحيين كعرب وليس ككورد حيث لم يستفيدوا من الإمتيازات الممنوحة للكورد خلال حرب إيران - العراق (١٩٨٠-١٩٨٨) الذين تمكّنوا الخلاص من الجندية في الجيش النظامي والذهاب إلى الجبهة عبر تطوعهم في الوحدات «الخفيفة» والبقاء في كردستان.

«ولكن إن كنا عرباً فلماذا دمروا القرى المسيحية؟ كان ذلك قدراً وقانوناً للكورد» علّق مسيحي من زاخو يتباكى على مصيره.

لإيجاز دراما مسيحيي كردستان تحدّث قس كلداني كردستاني عن قصة أحد مرتادي كنيسته: «أصبح توما، عبدالرحمن (عبر إعتناقه للإسلام): والآن فهو كوردي فلو إختار أن يكون توما لتمّ إعتباره واحداً من العرب!»

كانت حملة الأنفال (١٩٨٨) والشهور التي سبقتها دموية جداً بالنسبة لمسيحيي كردستان ففي منطقة زاخو دُمّرت شرانش كلياً ونهائياً وطُرد سكانها - تعيش اليوم ٩٠ عائلة من شرانش في أستراليا وبعضاً آخر في كندا وعشرون عائلة في زاخو وآخرون في بغداد والباقي في أوروبا. وقرية ليفو التي تألّفت يوماً ما من ١٥٠ مسكناً دُمّرت القوأت العراقية أيضاً في عام ١٩٨٨: قصفوها في البداية بالطائرات ومن ثمّ فجّروها بالديناميت.

هدم البعث أيضاً عدّة كنائس قديمة في منطقة العمادية. فكنيسة مار أوديشيو (عبد المسيح) ومار كردك (قدّيس إستشهد في القرن الرابع) مسحها البعث عن خريطة الأرض. في نيسان ١٩٨٧ بُنيت هذه الكنائس بين القرن الرابع والقرن الثاني عشر فكنيسة مار أبريم الواقعة في قرية هرمش قرب أتروش والمبنية في القرن السادس والسابع ميلادي هدموها في عام ١٩٨٧ وكذا الحال بالنسبة لكنيسة سانت ماري في التلة قرب أتروش وكنيسة الداودية جنب بامرني فقد هدموها أيضاً في عام ١٩٨٧ بالآلات الميكانيكية أو بالديناميت.

من الصعب جداً ترتيب قائمة عن الكنائس المفجّرة خلال هذه السنوات ولكن تمّ تهديم ما لا يقل عن ثلاثين قرية كلدانية ومسح أكثر من أربعين كنيسة في بهدينان منذ عام ١٩٦٢: شرانش وعلانش وياردا وباجوا وبحير وأوسطانلاني وبانونا ودشتي تر وإزنار وإمرار ومحمّدية وأشكفتي مارا وتل كعبة وناف كاندالا وليفو ومركسورا وبيراخا وبيدار وديرابون وكاراويلا وطيشكابور وبا جيدة وبارالوجة وإشكاف دالي وصوريا وأفزروك (قريتين، كاثوليكية وأرمنية) وإشكاف دال وشيوز ومار يعقوب. البعض من هذه الكنائس كانت تحفة في الفن المعماري المسيحي وخسارتها لا تعوّض مطلقاً.

لم يكتف البعث بتهديم الكنائس في المناطق الجبلية لبهدينان فقط وإنما طالت يده أيضاً إلى مناطق أخرى وهدم في عام ١٩٨٨ كنيسة مار بنا المبنية في عام ١٤٠٣ في كويسنجق.

خلال المرحلة الأخيرة من حملة الأنفال في بهدينان تعاملت السلطات العراقية مع المسيحيين بقساوة أشد من تعاملهم مع الكورد المسلمين. الذين أرادوا الإستفادة من

عفو ٦ أيلول ١٩٨٨ عادوا من تركيا التي إلتجأوا إليها فأوقفوهم في نقطة إبراهيم الخليل الحدودية وإقتادوهم نحو جهة مجهولة - حيث تم بلا شك إعدامهم - وهكذا إختفى عدّة مئات من المسيحيين وبضمنهم الأطفال والنساء.

أفرغت حملة الأتفال الريف وتضخّم عدد المسيحيين في المدن: فعلى سبيل المثال كنيسة زاخو كانت تستقبل ٦٠٠ شخص في عام ١٩٨٥ وارتفع العدد إلى ١٥٠٠ شخص في عام ١٩٨٧ ليعود إلى ١١٧٦ شخص في عام ١٩٩٠ .

شدّد البعث قمعه ضدّ المسيحيين بعد ظهور الحركة القومية الآشورية التي ساندها الآشوريون المهاجرون إلى الولايات المتحدة الأمريكية وهم يدعون الإنتماء إلى الآشوريين القدماء الذين عاشوا في نينوى وبابل قبل ٣٠٠٠ سنة أو إلى نسطوريي بداية المسيحية ومفكّري هذه الحركة ييغون إعادة الحياة إلى القومية الآشورية على قسم كبير من أراضي كردستان. وسوف لن يفلحوا إلاّ في الإيقاع بعلاقاتهم مع الكورد الذين تعاملوا معهم بحسن نيّة لحدّ الآن ومنحوهم خمس مقاعد في البرلمان الكوردي في أربيل.

في عام ١٩٩١ وبعد إنهيار الإنتفاضة هرب مسيحيو بعض قرى بهدينان خاصّة مع الجماهير الكوردية إلى تركيا وفعل ذلك أيضاً مسيحيو أربيل وعينكاوة ولا نعلم كم هو عدد الذين ماتوا في الإضطراب الرهيب أثناء النزوح.

كانت سنوات ١٩٩١ - ١٩٩٥ فضيحة بالنسبة لمسيحيي كردستان نتيجة للحصار المزدوج عليهم من قبل الأمم المتحدة على العراق ومن قبل نظام صدام حسين عليهم وقد أحسّوا بأنّ الفاتيكان تهملهم حيث أنّها ترسل البعثات إلى بغداد وتنسى مسيحيي الشمال. «ماذا تعمل الفاتيكان للكورد؟ وهل تعلم بأنّ هناك مسيحيون يعيشون هنا؟» يتساءل قسيس من كردستان ويضيف: «يعيش الباتريارك رافائيل بداوي في قصره، في بغداد، وليس على إطلاع بوضع الناس الذين يموتون جوعاً تحت الخيم.» لم تحبّد الفاتيكان ولا باتريارك بغداد تعكير علاقاتهم مع بغداد بسبب إهتمامهم بمصير المسيحيين في كردستان.

وقد تغيّرت الأحوال كلياً بعد تطبيق قرار الأمم المتحدة ٩٨٦ المعروف بقرار «النفط مقابل الغذاء» وتوزيع الأدوية برعاية الأمم المتحدة في المناطق الكوردية. في نهاية

سنوات التسعينات شهدنا حركة عودة من بغداد إلى كردستان للمسيحيين الذين هاجروا إلى بغداد في أعوام ١٩٧٥ - ١٩٧٧ وقد عادوا هرباً من الوضع الإقتصادي المأساوي في العاصمة وبسبب سيادة الأمن والإستقرار في كردستان.

تعيش اليوم ٦٧٥ عائلة كلدانية في زاخو وقد تم إعادة بناء أربع قرى من بين الأربعين قرية مسيحية المدمّرة في منطقة زاخو: ليفو (٢٠ عائلة)، بيركوكا (٢٠ عائلة) وثلاث أو أربع عوائل في قريتين أخريتين.

توجد في زاخو أيضاً كنيسة للكاتوليك السوريين مع قس و ٥٠ عائلة وكنيسة أرثوذكسية للأرمن مع قس و ١٣٠ عائلة. وكذلك يتواجد في دهوك تجمّع مسيحي مهم مع ٤٠٠ عائلة كلدانية.

وتعتبر شقلاوة المبنية، حسب الاسطورة، من قبل سليمان الحكيم واحدة من أكبر مراكز تجمّع المسيحيين في كردستان ففي القرن التاسع عشر حينما كان مجموع سكّان شقلاوة ١٥٠٠ فرد كان هنالك ١٠٥٠ مسلم و ٤٠٠ مسيحي و ٥٠ يهودي (Victor Guinet). واليوم من بين ٤٥٠ عائلة كلدانية عثر ٢٠٠ إلى ٣٠٠ عائلة منهم على عمل في أربيل وإستقروا مؤقتاً بشكل أو بآخر فيها - المرحلة الأولى قبل الهجرة النهائية - وستبقى عينكاوة مركزاً مسيحياً ضخماً تسكنها ٢٠٠٠ عائلة كاثوليكية وثلاث قسس ومطران.

لا توجد في السليمانية غير كنيسة واحدة وتعيش فيها ١٢٠ عائلة مسيحية تقريباً حيث ٩٠ إلى ١٠٠ عائلة منها كلدانية والآخرين نسطوريون. جاءت إليها هذه العوائل من مناطق أخرى في كردستان ولكن في إنتخابات عام ١٩٩٢ لم يصوّت منهم غير ١٦٤ مسيحي.

بعد الإنتفاضة، قدر البعض بأنّ المسيحيين الذين بقوا في كردستان هم بين ١٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ يشكّل النسطوريون ١٠٪ منهم ولكن وفقاً لتقديرات أخرى كان من المفترض أن يكون الرقم أقل بكثير - لم يكن قد بقي غير ٣٠٠٠٠ مسيحي في كل كردستان في بداية التسعينيات. لا يمكن معرفة عددهم اليوم ولكن من غير المعقول أن يعوّض المسيحيون العائدون من بغداد إستنزاف الهجرة إلى الخارج.

كانت نتيجة سنوات حكم صدام في العراق رهيبة بالنسبة للمسيحيين فحامي

مسيحيي بغداد والبصرة المفترض دمر مجتمع مسيحيي كردستان. فعشرات الكنائس القديمة التي كانت تشكل شهادات نادرة على أصول المسيحية قد هُدمت والعشرات من قراهم مُسحت عن وجه الأرض وهجروا أهلها.

كيفما كان مستقبل كردستان ورغم بعض محاولات الترميم فهناك معالم قد زالت إلى الأبد فليس هناك أي قوة قادرة على إعادة عشرات الآلاف من المسيحيين الذين هاجروا إلى الغرب وإستقروا اليوم في أوروبا أو في العالم الجديد.

تصف حلبجة

من بين كل جرائم صدام حسين يُشكل الهجوم على المدينة الكوردية العراقية الصغيرة حلبجة من قبل الطيران العراقي في ١٦ آذار من عام ١٩٨٨ والذي أدى إلى مقتل خمسة آلاف ضحية مدنية جراء تفاعل خليط من غاز الموتارد والساارين وربما أنواع أخرى من الغازات حدثاً لا يمكن ان تجد له مثيلاً في تاريخ الدكتاتوريات: فمن هو الدكتاتور الآخر الذي ضرب شعبه عمداً بالغاز وقتل فوراً الآلاف من مواطنيه وهم يتألمون بفضاعة وترك الأحياء يعانون من الآثار التي لم تنتهي نتائجها بعد؟

قرية صغيرة مكونة من بضع عشرات الآلاف من السكّان وتقع في جنوب شرق كردستان بالقرب من الحدود الإيرانية، حلبجة اشتهرت ببساتينها التي كانت تنتج أفضل أنواع الرمان في كردستان وفي الصيف كان يأتي إليها العديد من سكّان السليمانية وحتى من بغداد بحثاً عن الجو الطيب والإستراحة. ولكن إعتباراً من عام ١٩٨٣ حينما إنتقلت الجبهة إلى الشمال (كوردستان) وجدت حلبجة نفسها في قلب المعارك بين الإيرانيين والعراقيين.

تقع حلبجة ضمن منطقة تأثير الإتحاد الوطني الكوردستاني وكانت أيضاً مركزاً للحركة الإسلامية في كردستان. في مايس ١٩٨٧ ، على إثر توقيف وتهجير مواطنيها إلى جنوب العراق تجرّأت عوائل البيشمركة وقامت بتنظيم مظاهرة - حدث نادر في عراق صدام حسين - فكان رد السلطات عنيفاً جداً وأطلق الجيش النار على الجمع بحيث أوقع جرحى وقتلى بالعشرات (ثمانين قتيلاً وفقاً لبعض المصادر). وحينما قام آباء وأمّهات الجرحى بزيارتهم في المستشفى أوقفتهم السلطات: ٢٧ أو ٢٨ من بينهم

إختفوا وإلى الأبد، تمّ إعدامهم دون أدنى شك.

بعد هذه الأحداث قام الجيش العراقي بمرسح محلة كاني عاشقان المؤلفة من حوالي ٣٥٠ داراً عن الوجود كلياً. أهالي حلبجة كانوا يعلمون بأنه من الصعب على الحكومة السيطرة على الطرقات والمسالك الضيقة لهذه المحلة التي كانت تستقبل البيشمركة وتأييهم.

في شهر آذار من عام ١٩٨٨ كانت المدينة مُحاصرة منذ عدّة أسابيع من قبل الإيرانيين الذين كانوا يسيطرون على الجبال المحيطة بشمال وبغرب المدينة ويقصفون إعتباراً من تلك المواقع قواعد الجيش العراقي. لحماية أنفسهم تعود مواطنو حلبجة على بناء أنفاق تحت حدائق منازلهم - الحذر الذي سبب مقتل الكثيرين من الأهالي. فبعد فرار قائد المعسكر العراقي - وهو ضابط شيوعي كان قد عقد الإتفاق سراً مع الإيرانيين - قرّرت القوّات العراقية الإنسحاب وسلوك الممر الوحيد الممكن الذي يتّجه صوب السليمانية وهو طريق يحاذي بحيرة دوكان من جهة وتحاصره الجبال من الجهة الثانية فتكبّدت خسائر فادحة: ٨٠ ٪ منهم قُتلوا والباقي أصبحوا أسرى.

في نفس اللحظة كان بيشمركة الإتحاد الوطني الكوردستاني يقاومون هجمة كاسحة للقوّات العراقية التي إستولت على مكاتبها القيادية في سيركلو - بيركلو فقرّر قادة الإتحاد الوطني الكوردستاني فتح جبهة ثانية من خلال الإستيلاء على حلبجة بالتعاون مع القوّات الإيرانية.

في ١٣ آذار ١٩٨٨ نجح ١٢٥٠ بيشمركة للإتحاد الوطني الكوردستاني في «تحرير» حلبجة التي إنسحبت منها القوّات العراقية قبل فترة قصيرة وبعد ذلك بساعات دخل الباسدران (حرس الثورة) بدورهم إلى المدينة التي أحرق ونهب المواطنون كل ما يتواجد في دوائرها الرسمية وبقيت حلبجة خلال ثلاثة أيام بأيدي حرس الثورة الإيرانيين وبأيدي كورد الإتحاد الوطني الكوردستاني والحركة الإسلامية الكوردية.

في ١٦ آذار ١٩٨٨ وقعت المأساة حيث قامت طائرات عديدة بست عشرة هجمة على حلبجة والقرى المحيطة بها مثل عنب وخورمال وقذفت عليها قنابلاً محمولة بالغاز السام وقنابل النابالم والفسفورية. مات فيها على الفور آلاف الكورد، مصعوقين كحال

عمر الممدّد على درجات المنزل مع حفيده الوحيد وهو يبحث عن ملجأ. مات الكثيرون في الأنفاق التي إتجأوا إليها ولم يدركوا مخاطرها: بل بالعكس كان عليهم التوجّه نحو أعالي الجبل وفعلاً حاول البعض السير نحو قرية عنب فمات ٩٠ منهم على الطريق ومات في القرية نفسها ١٨٢ شخص. وقام حرس الثورة المجهّزين بالأقنعة بإنقاذ الجرحى فحملوهم ونقلوهم إلى مستشفيات إيران التي عالجتهم وإعتنى بهم فيها الأطباء الإيرانيون الذين إكتسبوا تجربة كبيرة في معالجة الجرحى المصابين بالأسلحة الكيماوية. حفروا الخنادق على عجل وواروا كيفما كان مئات القتلى تحت التراب وبعد الإنتفاضة الكوردية في عام ١٩٩١ أخرجوهم بالبلدوزرات ووضعوهم في مقابر جماعية نهائية. وإستقدم الإيرانيون إلى حلبجة أيضاً المصورين الأجانب الذين قاموا بتثبيت الصور المرعبة وإلى الأزل - وخاصة صورة عمر مع طفله الصغير بين ذراعيه التي دارت حول العالم وأوحت لصانع النصب التذكارى بتخليدهم كرمز لمأساة حلبجة.

وثمة صور أخرى لا تقل عنها فظاعة فعلى حائط منزل منهار كتب أحدهم بوساطة فحم شجرة أسماء أفراد عائلة كاملة قضى عليهم الغاز الكيماوي: حسن علي وأمينة ونكار وجنار وكوزار وجكي ونهان ونزار وجنور ووزكار...

هرب البعض من أهالي حلبجة في ١٥ آذار ١٩٨٨ للتخلّص من الضربات الأولى على المدينة بالقنابل التقليدية بعد «تحريرها» من قبل البيشمركة وحرّاس الثورة وقد أنقذت هذه المبادرة حياتهم ومن بينهم عثمان علي شين الذي إتجأ إلى السليمانية مع ٢٧ عضو من عائلته ويشغل اليوم وظيفة حارس لذكرى شهداء حلبجة. إستمرت المدينة تحت السيطرة الإيرانية إلى يوم وقف إطلاق النار في ٢٠ آب ١٩٨٨ بين الإيرانيين والعراقيين فأخلى الإيرانيون منطقة حلبجة وإستعاد العراقيون المدينة التي بقيت رغم ذلك «منطقة محرّمة».

في تشرين الأوّل ١٩٨٨ أخبرت السلطات العراقية مواطني حلبجة الملتجئين إلى السليمانية وسيّد صادق بإمكانية عودتهم خلال بضع ساعات إلى المدينة للبحث عن الممتلكات في منازلهم فإكتشف قسم منهم حينذاك بأن بيوتهم قد نهبت تماماً وتمكّن القسم الآخر من إستعادة بعض الأثاث والمواد الشخصية.

في نهاية تشرين الأوّل ١٩٨٨ هدّمت القوّات العراقية بعض المنازل إنتقاماً للألغام الموضوعة من قبل البيشمركة على الطرق التي يسلكها العسكريون ومن ثمّ باشر

الجيش في تفجير منازل المدينة بشكل مبرمج إلى أن إنتهى من تدميرها كلياً في بداية عام ١٩٨٩ «كنا نسمع صوت التفجيرات إلى عربد» الواقعة على بعد بضع عشرات الكيلومترات من حلبجة كما ذكر سكّان هذه المدينة الذين شاهدوها تُدمّر دون أن يقدروا على فعل شيء ودمّروا كذلك قرية عنب كلياً في وقت لاحق أيضاً.

نتائج نصف حلبجة

ثمة أنواع متعدّدة من الغازات تمّ إستعمالها من قبل القوّة الجويّة العراقية وخاصة غاز الموتارد (إيبيريت الحرب العالمية الأولى) وغاز السارين المعروف بغاز الأعصاب وكما يشير جميع الإختصاصيين (انظر إلى فصل فرانسواز برييه حول إستخدام الأسلحة الكيماوية ضدّ الكورد) فغاز الموتارد لا يقتل مباشرة ولكنّه يثير إضطراباً في الرؤية وحرقاً في الجلد والقصبات يؤدّي إلى موت الضحايا بعد عشرين أو خمس وعشرين سنة - مثلما هو الحال مع ضحايا ضرب مدينة سردشت في حزيران ١٩٨٧، في كوردستان إيران (انظر إلى شهادات ضحايا الأسلحة الكيماوية من الإيرانيين).

وأما غاز السارين فهو يقتل على الفور عدداً كبيراً من الضحايا - وهو السبب في موت هؤلاء السكّان من أهالي حلبجة الذين يظهرون على الصور حيث صرّعهم الموت وهم راكضين أو صاعدين في سيّاراتهم - ولكنّه يثير أيضاً أعراضاً ثانوية على أولئك الذين إستنشقوه.

فكما أشارت إليه البروفيسورة كريستين كوسدن Christine Gosden، الإختصاصية في نتائج الأسلحة الكيماوية بجامعة ليفربول، «إستعمال هذه الغازات هو في الحقيقة قنبلة موقوتة ستنفجر لاحقاً والعراقيون كانوا يعلمون ذلك من خلال تجربتهم على الجبهة الإيرانية ومن خلال الوثائق حول إستعمال الغازات أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية. صدّام حسين كان يعلم كل الأعراض الثانوية لهذه الغازات - السرطان، التشويّهات الجسدية للأطفال عند الولادة والمشاكل القلبية والنفسية - ولم يكن قصده قتل الكورد فقط وإنما تدميرهم أنياً وعلى المدى البعيد جسدياً ونفسياً» .

ويتساءل المختصّون أيضاً إن لم يستعمل العراقيون في حلبجة قنابل محشوة بمادّة زيكونيوم المشعّة التي يصعب على الفرد إكتشافها لأنّ فترة بقائها النصفى لا تتجاوز ٧٧ يوماً وهذه المادّة تؤدّي إلى السرطان والقصر في الولادة.

نجهل اليوم فيما إذا كانت مخاطر التلوث بماء وتربة كوردستان لا تزال باقية وجين روبرتس Gwynne Robert الصحفية وصاحبة وثيقة «رياح الموت» Winds of Death التي عرضها التلفزيون البريطاني هي الوحيدة التي حققت على الأرض بشكل إجمالي وبسيط. ومهما كانت درجة الإستغراب فلم يرق أي من الدول السبعة التي تملك المختبرات القادرة على التحليل بالبحث لتحديد فيما إذا زالت تربة كوردستان تحتوي على عناصر التلوث. ودراسة الوثائق المستولى عليها بعد سقوط صدام حسين قد تسمح ربما بتأكيد إتهام جين روبرتس «جهزت ألمانيا ٨٠٪ من الآلات والأدوات لمعامل الأسلحة الكيماوية».

جدال ونقاش

بينما الشهادات كلها تؤكد بأن الطائرات العراقية هي التي قصفت حلبجة فلا يزال هناك أمريكيان مثل ستيفان بيلتيير وهو عنصر سبق وأن خدم في المخابرات المركزية الأمريكية ودافع عن صدام حسين حتى النهاية ينشرون مقالات تتهم...إيران بمسؤولية الجريمة ولكن لا يمكن لأي إنسان رصين التوقف أمامها لهزالة وتفاهة محتواها العلمي

والشهادة التالية - شهادة الفريق نزار الخزرجي رئيس أركان الجيش العراقي أثناء الوقائع - يجب أن تضع حداً للجدال الدائر. أثناء لقاء معه في الدانمارك حيث كان لاجئاً سياسياً هناك أجابنا الجنرال نزار الخزرجي بلا ل ف ولا دوران: «أنكم تريدون معرفة كيف علمت بذلك؟ تلقيت مكالمة هاتفية من الجنرال الذي قال لي: «تم قصف حلبجة ... لم يعد لدينا إتصال مع قطعائنا.» فاتصلت حينذاك هاتفياً بوزير الدفاع، الجنرال عدنان خيرالله الذي لم يكن مطلعاً بأيّ خبر. بعد مرور دقائق معدودة خابرنى بعد البحث عن المعلومات قائلاً: «نحن الذين قمنا بقصف المدينة!»

شهادات

- كوجر، فتاة كوردية شابة ولدت في الأول من تموز عام ١٩٧٦ سجل كريس كوتشيرا روايتها في حلبجة عام ١٩٩٢ .

«حينما قُصفت حلبجة ذهبنا إلى ملجأ. كانت هناك طائرات كثيرة تقصف المدينة. لم

يكن والدي هناك وكان أخي عند جدّه. أُصيب والدي وأختي بالغاز وأصبحنا في حالة غير طبيعية. غسلن وجوههن بقطع قماش مبللة. إنتظرنا الليل ومشينا بإتجاه إيران. نويت حمل ملابسني ولكن وصلت طائرة فخفت ورميت الكل. وصلنا إيران في الصباح الباكر وفي الطريق إلتقينا بوالدي صدفه. قضينا سبعة أشهر في المعسكرات داخل إيران، في البداية في كرمان ومن ثم همدان. بعد العفو عدنا إلى العراق وحينما وصلنا إلى الحدود قادتنا الحكومة نحو معسكرات التجمع - في البداية وضعونا في الهواء الطلق دون مأوى.

«في إحدى الليالي هربنا وكنت أحمل حقيبة لا غيرها فإلتجأنا إلى السليمانية وأجرنا غرفة للعائلة. خلال سنتين لم نتمكن من الذهاب إلى المدرسة. وبعد إنتفاضة (١٩٩١) رجعنا إلى حلبجة. دمر كل شيء. حاولت إيجاد داري وأخيراً عثرت عليه فلم يبقى منه غير الكاراج قائماً. وفي كهف المنزل وقعت على بعض الكتب فبقيت... كنا نعيش تحت تأثير الصدمة فعدنا إلى السليمانية.

«بعد إنهيار الإنتفاضة غادرنا إلى إيران وبقينا لسبعة أشهر في معسكر ونعيش ضمن ظروف صعبة وقاسية دون ماء وبلا مدرسة...وبعد ذلك رجعنا إلى حلبجة حيث قمنا بإيجار منزل لم يتم تدميره. أنا سعيدة بعودتي إلى حلبجة...»

- حكمت حمه، ولد في السليمانية عام ١٩٧٦ سجل كريس كوتشيرا روايته في أربيل عام ٢٠٠٢ .

«في ١٦ آذار ١٩٨٨، سمعت القنابل وهي تهز كلّ الدار فإعتقدنا بأن المدفعية الإيرانية هي التي تضرب المدينة. في حوالي الساعة الحادية عشر والنصف وبينما نجلس على طعام الغداء سمعنا بصوت «بانغ» عنيف جداً. لا أعلم إن كان ذلك صوت النابالم أو أيّ شيء آخر فهربنا نحو الملجأ. توقّف القصف فذهبنا عند عائلة ابن عمي وبقينا إلى المساء. لم نكن نرى غير الدخان الأسود وفي المساء بحدود الساعة السابعة والنصف ذهبنا إلى قرية أبابيل فرأيت دخاناً يرتالياً وأخضراً تخرج منها رائحة البرتقال والموز.

«كنا في البداية نريد الذهاب إلى قرية عنب ولكننا إلتقينا برجل يقول: " لا تذهبوا إليها، لأنها خطيرة وقد مات فيها آلاف الناس بسبب الغازات السامة." رأينا أمواتاً

إستخدام الأسلحة الكيماوية ضدّ الشعب الكوردي

فرانسواز برييه

IRAK, An 1. Un autre regard sur un monde en Guerre (Edition du Roche 2004)

IRAK: Une repression intolerable, oubliee et impunie;

وألفت كتاب جماعي

Rapport d'enquete sur la situation des droits de l'homme (Au FITH, Paris, decembre 2001)

المقدّمة

كيفما كان شكلها فبإمكان الأسلحة الكيماوية قتل وجرح وإعاقة آلاف الأفراد خلال بضع دقائق فتشكّل بذلك تحدياً صحياً كبيراً للسلطات المختصة وللناس الذين يفكّرون بتفاعلها السريع والشامل ويحتفظون بصور تدميرها المطبوعة في الوعي الجماعي. وقد أدركت بعض الدول ومن ضمنها عراق صدام حسين أو المجموعات الإرهابية التي لا تأبه بالاتفاقيات الدولية مدى فعّاليتها وتأثيرها ولذا لم تتردّد في التهديد بها أو في أسوأ الأحوال في إستخدامها.

ثمّة سوابق بعيدة نوعاً ما كما كان الحال في ١٩١٤ - ١٩١٨ كانت قد صدم الناس والجنود الذين واجهوا هذا الخطر. وبالرغم من التوقيع على بروتوكول جنيف في ١٧ حزيران من عام ١٩٢٥ الذي يحرم إستعمال الأسلحة الكيماوية خلال المعارك فالبحوث والإنتاج والحرب الكيماوية لم تتوقّف يوماً. وأثناء الحرب العالمية الثانية فمصير المسفّرين إلى معسكرات التجمّع دلّل بأنّ المدنيين يمكن بدورهم أن يُستهدفوا في عمليات القتل على نطاق واسع والجماهير التي سكنت على أرض كوردستان خلال حكم صدام حسين عاشت هذه التجربة المريرة.

رغم تصنيفها بين أسلحة الدمار الشامل وإدانة المجتمع لها فالأسلحة الكيماوية المصنوعة في العديد من دول العالم تمثّل خطراً حقيقياً بالانتشار. للأسلحة الكيماوية

كثيرين ووجوههم كانت منتفخة وجلودهم مسودّة. لم أكن خائفاً من الموتى وإنّما من القنابل، كُنّا نتصوّر بأنّنا سوف نموت بعد نصف ساعة. إسترحنا لمدة ساعتين في قرية أبايلا وبعدها توجّهنا نحو الحدود. أتتنا طائرة مروحية إيرانية وأنقذتنا فبقيت لمدة أربع سنوات في إيران.

«العيش مجدداً في حلبجة؟ أكره فكرة العيش هناك حينما أرى كل هذه البيوت المهدمّة... ومعظم أصدقاء الطفولة ماتوا. السوق مدمّرة ولم أعد أتحمّل النظر إليها. تزوّجت والدتي في الخامسة عشر من عمرها وكانت في الثالثة والعشرين حينما قصفوا حلبجة. باعت ذهبها وكل مجوهراتها من أجل بناء دار هدموه.»

وختم حكمت كلامه قائلاً:

«وحتّى إذا مات صدام فسوف نخاف من قبره.»

- إسماعيل من سكنة حلبجة سجّل كريس كوتشيرا شهادته في حلبجة عام ٢٠٠٠ ،
«لماذا لم يعيدوا بناء حلبجة؟ أنا لا أرغب في بناء منزل في المكان الذي ماتت فيه كل عائلتي أو أرى في مواجهة داري أنقاض منزل مات فيه أعز أصدقائي.»

الأسلحة الكيميائية والعراق

لتكون الأسلحة الكيميائية «فعالة ومؤثرة» على الكائن البشري وبيئته ينبغي تركيزها بأقصى حد في الجو أو على سطح الأرض في لحظة الانتشار. هذا الأمر يمكن إدراكه بفضل الخاصية الفيزيائية - الكيميائية والفيزيولوجية وحسب الطريقة المتبعة في التلوث وكذلك تبعاً لحالات الطقس الجوية. عرف صدام حسين كيفية تنويع طلباته لدى العديد من دول العالم للتمون بالكمية الكافية ويحصل على الأدوات العسكرية الضرورية لتخزين ومن ثم لنشر المواد السامة وعرف كذلك كيفية إعداد الكادر المؤهل لتطوير البحوث العلمية اللازمة.

يمكن تقسيم العناصر الكيميائية إلى ثلاثة أصناف: غاز الإثارة مثلما هو حال الغازات المسيلة للدموع؛ غاز الإعاقة الجسدية أو النفسية، والعناصر الوراثية التي تسبب الموت وهي مصنفة إلى عدة مجموعات، الـ Yperite (الفسفور) والخانق وغازات الاعصاب كالسارين والسومان والتابون.

الـ Yperite يسبب الحروق على الجلد والقصبات الهوائية ويحترق عدداً كبيراً من المواد كالملابس وغيرها ويتفاعل بسرعة سواء كان على شكل سائل أو على شكل غاز. يتذكر سكان المناطق الكوردية في أعوام الثمانينيات أثناء هجمات الطائرات العراقية عليهم الرائحة الخاصة لغاز الخردل:

في البداية أذرتني رائحة الثوم والفواكه الفاسدة ومن ثم إنتقيت بناس يشكون عدم مقدرتهم في التنفس وحرقاً في العيون والتهاباً في القصبات الهوائية.

الغاز الخانق (كلور الكربونيل) C12 يدمر الرئتين والقصبات الهوائية العليا بسرعة وبصورة نهائية، يسبب الموت بعد إستنشاقه مثلما كان حال اليهود في غرف الغاز النازية أثناء الحرب العالمية الثانية. وللغاز هذا إستخدام مزدوج حيث يستعمل في صناعة الورق والتصوير والنسيج وفي الزراعة... الخ

وأخيراً غاز الأعصاب ويتم تقديمه على شكل قاتل للحشرات وهو سائل في الظروف الجوية الإعتيادية حيث يخترق المسامات الجلدية وينفذ في الجهاز الهضمي حين تناول المواد الملوثة به . وفقاً لـ Stockholm International Peace Research Institute أن الهجوم الجوي بالسارين على شعب أعزل يسبب دماراً يماثل دمار القنبلة النووية

غالباً إستخدام مزدوج، مدني وعسكري فالسامة منها والمستخدمة نتيجة تطويرها يمكن السماح بإستخدامها - حالات الرش للزراعة على سبيل المثال - وكذلك في البحوث العلمية نوعاً ما في حين يُحرم إستعمالها إطلاقاً على الصعيد العسكري. لعب المسؤولون العراقيون المخلصون لقادة النظام البعثي خلال سنوات لعبة الغموض من أجل إخفاء ما وصل إليه برنامجهم حول إنتاج الأسلحة الكيميائية. وهكذا، حسب الدراسات التي أنجزتها منظمة الأمم المتحدة أثناء الحرب الأولى للخليج مع إيران فالعراق كان مشكوكاً فيه بصناعة غاز الخردل إعتباراً من محلول يُستخدم في صناعة النسيج وفقاً لطريقة مستعملة في الإتحاد السوفياتي السابق.

إستخدم العراق لأول مرة الغاز المسيل للدموع في عام ١٩٨٢ أثناء صراعه مع إيران وواصل في إستخدامه إعتباراً من عام ١٩٨٣ لغازات الاختناق والأعصاب بشكل واسع ومبرمج فخلال هذه الفترة لم يكتف العراق بإصابة الآلاف من الجنود الإيرانيين وإنما أدار سلاح تدميره الشامل ضد شعبه ومعظمهم من المدنيين الكورد الساكنين في شمال البلاد (كوردستان).

بعد هذه الأحداث هرب مليونان من المدنيين الكورد بأغليبيتهم وكذلك شيعة وآشور-كلدانيين خوفاً وهلعاً في ربيع عام ١٩٩١ نحو البلدان المجاورة للعراق حيث حصل مثلما كان يتمناه النظام العراقي وهو إخلاء المناطق غير الخاضعة لأوامره إخلاء تاماً

النتيجة المباشرة لحروب العراق ضد إيران والكورد هي أن العراق أصبح مصدراً لقرارات الرقابة الدولية الصارمة على نقل تكنولوجيا المواد السامة وبعد ذلك فأن إكتشاف حجم البرنامج الكيميائي العراقي بعد غزو الكويت وحرب الخليج الثانية (١٩٩١) أجبر الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام ١٩٩٣ على تبني إتفاقية تحرم صناعة وتخزين وإستخدام الأسلحة الكيميائية وعلى تدميرها وبقي العراق مثل ليبيا ومصر وكوريا الشمالية على الهامش بينما وافقت ١٢٠ أمة على مصادقة هذه الإتفاقية.

المرمية على هيروشيما والتابون يقتل خلال عشرين دقيقة والسومان خلال عشرة إلى خمسة عشر دقيقة وأما ال VX فذرة بقدر رأس الإبرة تقتل رجلاً بالغا.

والأسوأ من كل هذا هو ظهور الأسلحة الثنائية خرقاً لكل الإتفاقيات الدولية والسلاح هذا يُصنع إعتباراً من مادتين غير خطيرتين ولكن خلطهما يصبح قاتلاً عند اللمس.

النظام العراقي كان يملك العديد من المواد الأكثر خطورة لأنّ صدام حسين كان مهووساً بكل أنواع الأسلحة وقد نجح في تخزين كمّيات هائلة منها ويبدو واضحاً بأنّ ثمة شركات أجنبية قامت بتجهيزه بالمواد وقامت الكوادر العلمية العراقية بتطويرها لصناعة أسلحة الدمار الشامل منها.

بعد وصول حزب البعث إلى السلطة عام ١٩٦٣ لم تتوقّف الحرب ضدّ الكورد يوماً تقريباً ورافق تدمير ٤٥٠٠ قرية والعديد من المدن زرع الملايين من الألغام الشخصية وإستعمال المواد الكيميائية لتجريد الأشجار والنباتات على نطاق واسع وتخريب مناطق زراعية شاسعة. وإستخدم النظام البعثي صراعه (١٩٨٠) مع إيران الخمينية لتبرير حربه الداخلية الجديدة ضدّ الكورد فقام بوصفهم بـ«مخربين» و«خونة للعراق».

قمة الإضطهاد برزت في عمليات الأنفال التي فسرتها عدّة منظمات مدافعة عن حقوق الإنسان بأنّها عملية إبادة (جينوسايد) حيث إختفى فيها ما لا يقل عن ١٠٠٠٠٠ شخص وفقاً لتصريح علي حسن المجيد، ابن عم الرئيس العراقي السابق الذي يسمونه بعلي الكيماوي فقد قام بتطبيق خطة إبادة عنيفة ووحشية بالأسلحة الكيميائية ضدّ الشعب الكوردي.

في ١٦ آذار ١٩٨٨ أدى قصف مدينة حلبجة بالأسلحة الكيميائية إلى موت أكثر من ٥٠٠٠ شخص وجرح الآلاف وإصابة بين ثلاثين ألف إلى أربعين ألف بالتسمم. وأشارت منظمة الدفاع عن حقوق الإنسان Middle East watch أيضاً بأنّ الأسلحة الكيميائية قد تمّ إستخدامها قبل حلبجة بأحد عشر شهراً حيث أحصت بين نيسان ١٩٨٧ وآب ١٩٨٨ أربعين هجمة على مناطق مختلفة.

إجتمعت البراهين الدامغة فإعترف النظام العراقي الذي تأكّد من عدم معاقبته في شهر آذار وفي شهر تشرين الثاني لنفس السنة بأنّه إستخدم فعلاً الأسلحة الكيميائية في كوردستان وقد إعترف قبل ذلك بأنّه خرق القوانين الدولية وقام بإستعمالها خلال

حربه ضدّ إيران. ولكن رغم معاينة ما لا يقل عن سبع بعثات للأمم المتحدة والـCICR أو وزارة الشؤون الخارجية الأمريكية للمرضى الراقدين في المستشفيات الإيرانية فلم تقم أي منظمة بالتحقيق رسمياً لدى المواطنين الساكنين على الأرض في كوردستان العراقية ولم تقم الأمم المتحدة يوماً بسحب عينات في المناطق الملوثة الواقعة داخل العراق.

بما أنّ الصراع كان داخليا فلم تتواجد هناك آلية لحماية الشعب الكوردي بالرغم من الشهادات التي كانت تدين القصف وتطالب من المجتمع الدولي بإيقافها. وفقاً لمبدأ السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للعراق لم تحاول الدول الأعضاء في الأمم المتحدة لأسباب سياسية وجيوستراتيجية التحقيق في الجرائم المرتكبة ولم تحاول حتى في تقديم المساعدة الدولية لهؤلاء الضحايا دون موافقة القادة العراقيين ويمكننا إضافة سبب آخر يفسّر غياب الإرادة وردّ الفعل ألا وهو تورّط العديد من الدول من خلال تقديم التكنولوجيا الضرورية لصناعة الترسانة الكيميائية.

الحرب الثانية للخليج أوقفت السياسة الجينوسايدية للنظام ضدّ سكّان محافظات دهوك وأربيل والسليمانية وكركوك ولكن في جنوب البلاد وبالأخصّ في الأهوار تمّ إستخدام الأسلحة غير التقليدية وفقاً لشهادات تتطابق في السرد لإسكات الجماهير الشيعية التي تجاسرت وقامت بالانتفاضة في عام ١٩٩١ ضدّ صدام حسين.

بإستثناء Halabja Medical Institute (HMI) والبعض من المهنيين الغربيين في ميدان الصحة فلم تقم أي منظمة بتقييم نتائج الضربة الكيميائية رغم العدد الكبير للضحايا والمشاكل الإجتماعية والإقتصادية الكثيرة التي نبتت بشكل مباشر منها. حيث أنّ آلاف العوائل، الريفية بصورة رئيسية، والتي تم نقلها دون تلقّي أي تعويض لم تفقد فقط أقرباءها وإنّما بقيت كذلك إمكانيات معالجة الأحياء الذين يعانون من الأمراض الناتجة من إستعمال الأسلحة الكيميائية قاصرة جداً.

بعد الحرب الثانية للخليج بالرغم من الطلبات المتعدّدة لم تنشر اليونسكوم (لجنة الأمم المتحدة المكلفة بنزع السلاح عن العراق) إلى العلن قوائم بأسماء الشركات الغربية التي ساهمت في حصول العراق على الترسانة الكيميائية ولكن ثمة حقائق لا يمكن تغييرها: أعلى مستويات السلطة في العراق خطّطت ونفّذت هجمات بالأسلحة

غير التقليدية لقتل آلاف المدنيين المجردين من وسائل الدفاع بحجة محاربتها للأحزاب الكوردية وبيشمركتها. قدر الـ HMI بأن عدد الذين تعرضوا وأصيبوا بأسلحة الدمار الشامل يتجاوز ٢٠٠٠٠ شخص ٥٢٪ منهم يسكنون حلبجة و ٧٪ في محافظة كركوك والسليمانية....

خلال فترة الحصار المفروضة إعتباراً من عام ١٩٩٠ فبراير «النفط مقابل الغذاء» الذي تم تأسيسه لسد الحاجات الغذائية والطبية للشعب العراقي لم يأخذ يوماً ضحايا الهجمات الكيميائية بنظر الإعتبار بشكل خاص. لم ترغب المنظمة العالمية للصحة ولا الوكالات التابعة للأمم المتحدة بإجراء تحقيق في هذا الشأن وإكتفى مجلس الأمن بإدارة مسألة نزع سلاح العراق فقط. المنطقة الكوردية التي تم تكوينها في عام ١٩٩١ ولكن دون الإعتراف بها دولياً لحماية المواطنين من بطش نظام صدام حسين لم تتلقى بدورها أي مساعدة لإدارة المشاكل الصحية التي خلفتها تلك الهجمات. ومع ذلك، فالنتائج تضحّت بسبب العزلة وبسبب غياب الموارد الطبية والبنى التحتية المناسبة وبالأخص غياب وحدات الجراحة البلاستيكية والوحدات الطبية الخاصة بالأطفال ووحدات العلاج بالأشعة.

طبيعة عناصر الجريمة

في الساعة الثالثة بعد الظهر تم إسقاط قنابل تحمل خصائص جديدة على المدينة: لم يكن الصوت قوياً كالعادة وخرج من مواقع الحريق عمود من الدخان الرمادي والأصفر ، دخان لم يتبدد وإنما بقي على سطح الأرض. هذا المشهد خلق هysteria جماعية. معظم أهالي المدينة كانوا قد إحتتموا في بيوتهم أو في الملاجئ.

فيما يخص الكورد ثمة عدة أسئلة يمكن طرحها حول طبيعة الأسلحة الكيميائية المستخدمة ونتائجها على صحة المواطنين وعلى بيئتهم. بعض الخبراء يعتقدون بأنه تم مزج عدة مواد سامة إستثنائياً لكي يتفاعل الخليط معاً.

لإجراء تحقيق متكامل عن المواد المستخدمة كان من المفترض وصول فرق مهنية مختلطة إلى الضحايا مباشرة بعد الضربة ومن ثم القيام بتحليل عينات مختلفة. ولكن لأسباب سياسية واضحة لم يكن العراق يقبل مطلقاً بحضور مراقبين مستقلين. ولكن

رغم المصاعب التي تعود إلى الإختباء والنقص في الأجهزة وفي ظروف البحث سواءً في العراق أو في تركيا فقد تم إجراء عدة تحقيقات تساعد في فهم الأحداث التي وقعت في كوردستان العراقية. ونجح العديد من الخبراء في الحصول على عناصر غير متكاملة بالتأكد ولكنها مهمة لتحديد الأنصاف المحتملة للمواد السامة عبر تحليل التراب الملوّث وغير ذلك.

ربط أقوال الضحايا المختلفين جعل من سعة وخطورة العمليات التي إرتكبتها النظام العراقي واضحة بصورة أدق والتشابه في الشهادات سمح بمقارنة هذه الوقائع مع الأحداث التي وقعت أثناء حرب إيران - العراق الموصوفة في المجالات العلمية والطبية ومن قبل مراقبي الأمم المتحدة. وأخيراً فدراسة الأدب المنشور خلال حربَي الخليج والأرشيفات العراقية الرسمية التابعة للمخابرات والشرطة والجيش التي تم الإستيلاء عليها أثناء الإنتفاضة الجماهيرية في عام ١٩٩١ أدت إلى كشف العمليات التي تم خلالها إستعمال الأسلحة الكيميائية حيث أن هنالك عدة وثائق ترسم بشكل دقيق عملية القيام بهجوم كبير على كوردستان العراقية في شهر آب من عام ١٩٨٨ وهرب خلالها أكثر من ٦٠٠٠٠ مدني نحو تركيا التي رفضت إستقبال البعثة التحقيقية للأمم المتحدة. وفي هذه الفترة تلقى الإعلام التقارير الأولى الصادرة من الأطباء العسكريين الترك وهم يصفون جروحاً عند هؤلاء اللاجئين ناتجة من التماس المباشر مع غاز الخردل.

وثمة فريق من الأطباء كان قد عبر الحدود ووصل كوردستان العراقية بشكل سرّي بين ٢٤ و ٢٧ آذار ١٩٨٨ وأخذت عينات من التراب والدم والبول والنبات والماء حيث أثبت تحليلهم بوجود إحتمال في حصول ضربات بغاز الخردل وبحامض السيانيدريك (ميثان نيتريل) وبالغازات السامة. (Physicians For Human Rights)

ومن ثم زار في شهر تشرين الأول ١٩٨٨ فريق من اللاجئين وأقاربهم. عبر إستخدامها لطريقتين في البحث تمكنت الجمعية من الوصول إلى إستنتاج بأن الهجمات الكيميائية وقعت حتماً وإحتملت تعرّضهم لغاز الخردل. ونجح فريق آخر من المحققين بدوره في الوصول إلى كوردستان العراقية في شهر تشرين الثاني من نفس العام فجمع أجزاءً من القنابل المرمية عن طريق الجو وكذلك عينات من التربة ومن صوف الغنم الذي كان يتواجد بالقرب من منطقة الإصابة فقاموا بتحليلها في المملكة

تحدثت بعض الذين تم مساءلتهم عن وقوع موتى بعد حصول الهجمات بدقائق قليلة وهذا ما يؤكد إفتراض إطبائاً بلا حدود بوجود عنصر لغاز الأعصاب السام وكشفت طبيعته بفضل العينات التي تم رفعها من تراب قرية بيرجيني القريبة من المجزرة التي تمّ فيها إيواء موتاهما وغير البعيدة عن الحدود التركية وقد وجدوا فيها لأول مرة وبعد مرور وقت طويل على إستخدامه مادة السارين .

رقد في مستشفى إصفهان بإيران ١٤ طفل من حلبجة تتراوح أعمارهم بين تسعة شهور إلى أربعة عشر عاماً في قسم الأمراض الجلدية بعد وصولهم بثمانية عشر إلى أربع وعشرين ساعة من ضرب المدينة فظهرت من جروحهم ومن العلامات الأخرى المراقبة لدى هؤلاء المرضى بأنهم مصابون ومسمّمون بغاز الخردل وفي حزيران من عام ١٩٩٠ تمّ نقل خمسة من الكورد المصابين إلى مستشفى برلين فأكدوا إعتباراً من الأعراض الثانوية بأنهم تعرّضوا لهذا الغاز السام.

وثمة دراسات أخرى أدت إلى ذات الإستنتاج الذي يؤكد إستخدام العناصر المذكورة في كوردستان وهناك أخيراً تحليلات أكثر حداثة كشفت وجود عناصر لغاز الخردل ولغاز السارين في العينات المجمّعة في عامي ١٩٩٣ و ١٩٩٤ .

مجابة مجمل هذه التحقيقات لا تترك مجالاً للشك حول الحقيقة التي عبّر عن إدانتها سواءً المنظّمات غير الحكومية أو اللاجئون الكورد ومسؤولوهم السياسيون وعلاوة على ذلك فقد ثبت بأن العراق قام منذ آب ١٩٨٣ بهجمات واسعة ومبرمجة على الجيش الإيراني مستخدماً فيها الأسلحة غير التقليدية وفي حينها كشف الأطباء الغربيون المتواجدون في طهران إستعمال العناصر السامة كغاز الإيبيريت وشتاء عام ١٩٨٤ كان مأساوياً بشكل خاص حيث مات أكثر من ٢٠٠٠ من أفراد المشاة الإيرانيين بعد تعرّضهم للأسلحة الكيماوية وقد وجد مبعوثو الأمم المتحدة المرسلون إلى ساحة العمليات القتالية آثاراً لغاز الخردل وكذلك لغاز الأعصاب، التابون. وأكّد العديد من المحقّقين مؤخراً في ١٩٨٧ و ١٩٨٨ وجود هذه العناصر وكشفوا حضور السارين والبعض الآخر تحدث عن ال VX والأنتراكس أو الغازات القاتلة التي تنبعث من فطريات معينة.

الأضرار المكشوفة بعد عام ١٩٩١

أشار تقرير التفقيشات التي قامت بها اليونسكوم بأنّ التجارب الأولى للبرنامج العراقي في مجال السلاح الكيماوي حصلت مع الأدوات الزراعية لرش المواد السامة ضدّ الحشرات. بين أعوام ١٩٨٠ و ١٩٩٢ أنجز العراق صناعة عدّة آلاف طن من المواد السامة ونجح في جعلها فعّالاً في الميدان العسكري وقد صنعها تحت غطاء منتجات الأسمدة أو القاتلة للحشرات وساهم فيها عدد محدود من الكوادر الفنيّة المدنية والعسكرية.

في آذار ١٩٩١ دمّرت القوّات الأمريكية مخزناً للصواريخ في الخميسية دون أن تدري بأنّها كانت محشوةً بغازات الأعصاب ومن بينها السارين الذي تمّ كشفها بعد ذلك من قبل خبراء اليونسكوم خلال عام ١٩٩٦ .

البراهين على إمتلاك العراق للأسلحة المحرّمة لم تكن قليلة ولكن اليونسكوم لم تتمكن من وضع يدها عليها إلاّ في عام ١٩٩٥ بعد هروب حسين كامل، صهر صدام حسين إلى الأردن. بعد ذلك، أي بين عام ١٩٩٧ و ١٩٩٨ إعترف العراق بإنتاجه ليس فقط ٣٠٨٠ طن من غاز الخردل و ٢٥٠ طن من التابون و ٨١٢ طن من السارين و ٢٥٠ طن من ال VX وإنّما أيضاً أسلحة بايولوجية مع ١٩٠٠٠ لتراً من مادة بوتيليك السامة (المسببة للشلل) و ٨٥٠٠ لتراً من الأنتراكس و ٢٢٠٠ لتراً من الأفلاتوكسين.

ووقع المفتشون أيضاً على غرفة من المحتمل بأنّها أستخدمت كمختبر لتجربة بعض المواد المخلوطة على الكائنات البشرية وحيث أنّ هذا الإكتشاف عزّز الشكوك حول إستعمال البشر لغايات مختبرية. في الواقع، كان قد لاحظ بعض السجناء في سنوات قليلة سابقة بأنّ النظام العراقي كان يستخدم السجناء الساسيين والحرب كأدوات لإختبار المنتجات السامة عليهم ورأوا بالنتيجة الموتى من الكورد الفيليين الشباب العائدين إلى مجموعة مؤلفة من آلاف المدنيين الذين فرّقوهم عن عوائلهم في عام ١٩٨٠ وإختفوا إلى الأبد.

وثمة وثائق مكتشفة أخرى في نفس الفترة تشير إلى إختبار مزيج حاصل من خلط الأفلاتوكسين بالغازات المهيجّة و لا يعرف أحد إن تمّ إستخدامها على البشر أم لا .

كل هذه المعطيات تشير إلى التطور الهائل في مجال إنتاج الأسلحة غير التقليدية

عندما نعرف الفعالية الرهيبة لبعض العناصر الكيميائية حينذاك لن تستغرب الصور المعروضة على شاشات التلفزيون ومن السهولة تصوّر المشاهد التي دارت أثناء الهجمات عبر وصف المجلات العلمية. حينما يدخل حامض السيانهيدريك في الجسد عبر الإستنشاق يحس المصابون بإنعدام الأوكسجين ويشعرون بالإنقباض. تموت الضحايا بعد فترة تقيؤ ويليها غياب عن الوعي وفي بعض الحالات الحادة يفارقون الحياة وكأنّ الرعد قد صعقهم.

أول ما يصيبه البخار والدخان الكيميائي في الإنسان هو جهازه التنفسي بينما عناصر كغاز الخردل يتلف المناطق التي ينفذ فيها إلى الجسد أيضاً ولا يمكن التقليل من تأثيره إلا بالتعقيم وبسرعة وهناك عناصر أخرى تتفاعل مع الجهاز الهضمي بعد الشرب والأكل لأنّ الماء والذخيرة تبقى ملوثة خلال فترة طويلة.

الإصابة بغاز الخردل ليست بالضرورة قاتلة مباشرة فثمة مرحلة وقتية كاملة تتناسب مع المسافة الزمنية للتعرض ومع الكمية النافذة في الجسد فيقع الموت بعد مرور أسابيع من المعاناة بضيق التنفس والإلتهابات الحادة. بعد الإصابة يشعر الإنسان بسرعة بالإرهاق والإلتهاب القصبات وبالصداع وآلام حادة في العيون ويحس بمعاناة تتزايد تدريجياً.....

الأحياء من مدينة حلبجة والقرى المجاورة لها الذين إختبئوا في الجبال هروباً من الهجمات كانوا يجهلون المخاطر والاحتياطات اللازمة فعادوا إلى المدينة لحمل ثيابهم ومأكولاتهم قبل المغادرة والذهاب باتجاه الحدود الإيرانية و حينذاك تلوّثوا وأصيبوا كآقربائهم.

عاد البعض ممناً إلى حلبجة للبحث عن المأكولات والأغطية فشهدنا الرعب والكارثة. في مدينتنا كئناً نرى المئات يحاولون الهروب يائساً ؛ وآخرون يموتون أو جرحى يصرخون من الألم. صبايا مرعوبون يبحثون عن الوالدين. مئات الأجساد بلا أرواح تعود بالأخص للنساء والأطفال كانت جاثمة على الأرض حينذاك عرفنا حجم هذه المذبحة. رائحة الغاز بدأت تؤثر على حلقنا وعيوننا فلم نقدر على البقاء لأكثر من عشرين دقيقة. كان علينا حمل الأغطية والمأكولات والمغادرة بسرعة لإسعاف الذين لجؤوا الى الجبال.

ولذا لن تجد اليوم أحداً يتحجج بأنّ هذه الأسلحة لم تجرّب في نطاق سياسة إستهدفت إبادة الكورد وبضمنهم الأقلية الإيزدية وكذلك أيضاً الأشور - كلدانيين الساكنين في نفس المنطقة وهذه الخطّة قرّرتها أعلى سلطة في البلد أي مجلس قيادة الثورة، الهيئة العليا التي يقودها الرئيس العراقي مع العديد من أفراد عائلته ومع مسؤولين كبار آخرين كطارق عزيز. الشهادات والعينات المأخوذة وإزدياد بعض الأمراض بين المواطنين الذين تعرّضوا إلى التهديد تؤكد على وقوع هجمات مختلفة مع سقوط قتابل محشوة بالمواد السامة على شكل خليط أساسه غاز الخردل وحامض السيانهيدريك و غازات الأعصاب وإمتدت لفترات مختلفة وعلى ذات المواقع أحياناً ممّا أدى إلى سقوط العديد من القتلى وإلى نتائج خطيرة على صحّة المواطنين.

نتائج قريبة وبعيدة المدى للمواد المستخدمة في كوردستان العراقية

بسبب الرعب لم أكن قادراً خلال يومين لا على الشرب ولا على الأكل. إتّجه نحو الحدود الإيرانية طابور طويل من آلاف الرجال، بعضهم ينجد النساء والأطفال والشيوخ الجرحى وفي طقس جويّ قارس. مات الآلاف ممناً قبل عبور الحدود. إحتضر أعز أصدقائي لمدة ٤٨ ساعة قبل موته فقد ضاق عليه التنفس وتورّمت عيناه بحيث لم يعد يستطيع فتحهما. حاولت أن أقوده إلى قرية كي يغتسل في ماء ينبوعها ولكنه توقّف عن السير بسرعة. إعتنت والدتي بفتاة شابة كانت تنزف فسلمت الروح مثل صاحبي. كئناً نخشى بأن يحصل كلّ هذا لنا أيضاً.

الدراسات العلمية عن نتائج النزاعات على المدنيين وعلى بيئتهم قليلة جداً وبالأخص فيما يتعلّق بالأطفال لأنهم أكثر حساسية ومعرّضون إلى صدمات نفسية وكذا الحال بالنسبة للبحوث حول إستعمال الأسلحة غير التقليدية فالمتيسر منها يصف مردوداتها على صحّة العسكريين أو على ممارسي الحروب. وثمة معلومات جوهرية إفتقدها الكادر المعنتي بالمصابين في كوردستان. هذه رواية أحد الذين عانوا وعاشوا هذه المأساة.

الهجمة الكيميائية تؤدي إلى سقوط قتلى وجرحى بأعداد هائلة. شهادات الضحايا والأفلام المصوّرة من قبل الصحفيين الذين حضروا إلى حلبجة بعد ضربها مباشرة تشير إلى نتيجة كارثية: عدّة آلاف من الناس ماتوا حالاً أو في الأيام التي تلت الضربة.

الجرحي الذين لم يتمكّنوا اللجوء إلى الدول المجاورة تمّ نقلهم إلى المساجد حيث إعتنى بهم بعض الأطباء والمضمّدون الكورد الذين كانوا يفتقرون إلى الأجهزة والوسائل الفعّالة لمعالجة الحروق وضيق التنفّس. المئات من الأحياء الذين كانوا يبحثون عن المراكز الطبيّة والمستشفيات للمعالجة تمّ جمعهم من قبل الجيش ومن ثمّ رموهم بالنار وقضوا عليهم وكأنّهم حيوانات وليسوا بشراً.

في إيران، نقلوا الجرحى وقسم منهم بالمرحيات إلى مستشفى مدينة بافي غير البعيدة عن الحدود، الأسرّة كانت قليلة والوسائل مفتقرة: كان الإيرانيون مشغولون بمرضاهم ولم يكن أمام والدي غير مسجد راوة لمعالجتها. أعلموني بأنّ الجرحى الذين كانوا يهربون في الطرف الآخر باتجاه السليمانية قد وقعوا بين القوّات العراقية والقوّات الإيرانية فقضت على الكثيرين منهم.

الدراسات التي أُجريت على الأطفال والشباب الذين هربوا إلى إيران ورقدوا في مستشفياتها تصف ظهوراً سريعاً للإلتهابات في الرئة وفي الجهاز الهضمي وكذلك تتحدّث عن تورّم الوجه والعيون. الأطباء الإيرانيون الذين عالجوا هؤلاء الشباب الكورد لم يستطيعوا متابعة حالتهم الصحيّة بعد نقلهم إلى معسكرات اللاجئين القريبة من العراق.

المصاب بغاز الاعصاب يتقيّاً باستمرار بعد مرور ثواني ودقائق على تعرّضه وتجد هذه العوارض الطبيّة حين التسمّم بالمواد القاتلة للحشرات. تنصح الدراسات الجارية على هذا الموضوع بضرورة حماية الإطباء لأنفسهم حين معالجتهم للمرضى ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للكادر الطبيّ الذي عالج الجرحى في كوردستان ولذا إستشهد العديدين منهم أثناء وبعد الهجمات بالأسلحة الكيماوية وفقاً للشهادات التي جمعتها منظمة هيومن رايتس HRW

البعض ممّا يتذكّر بالتأكيد الهجمة التي وقعت داخل نفق مترو في اليابان حين إستعمال غاز السارين الذي، رغم تخفيفه الكبير، أدّى إلى مقتل ١٢ شخص وإلى إصابة ٥٤ شخص بجروح بليغة. رغم العدد الضئيل للضحايا فقد شارك مئات الأطباء والمرضى لمعالجة الجرحى وكذلك للعناية ب ٥٠٠٠ آخرين تواجدوا هناك. ومن هذا المنطلق يمكننا تصوّر الحالة الصعبة التي عاشها مواطنو المناطق الكوردية التي قصفوها لعدّة مرّات ولم يحصلوا على أي مساعدة.

إحدى المشاكل التي تواجهها السلطات الصحيّة الكوردية هي غياب التحقيق في نتائج هذه الأسلحة على المستوى البعيد لأنّه من الممكن أن تظهر أمراض وآثار بسبب التسمّم في المستقبل. وعلاوة على ذلك فهذه الأسلحة سوف تؤدّي إلى تغيير بيئوي حيث ستؤثر على كمّيّة ونوعية المأكولات المعتمدة على الخضراوات والحيوانات ولذا ينبغي عدم إهمال هذا العامل حين الدراسة والبحث.

الدراسات التي أُجريت خلال النزاعات المختلفة التي أُستخدّمت فيها الأسلحة غير التقليدية أو حين وقوع الحوادث مع المواد العضوية الفسفورية المبيدة للحشرات أفادت وقدمت في السنوات الأخيرة مؤشّرات غير مطمئنّة للأطباء العراقيين الذين إفتقدوا المعلومات حول الموضوع خلال فترة الثمانينات والتسعينات.

وهكذا فإنّ قدرة هذه الأسلحة في التفاعل بعد شهور وحتى بعد مرور سنوات تجعل منها أكثر خطورة وأنّ عدم الإستباق إلى معرفة بعض تلك الأمراض سوف تقضي على إمكانية معالجة المصابين بها. فحامض السيانهيدريك يسبّب تردّياً في الملكات العقلية للمصاب وإضطراباً في ذهنه (مرض الباركنسون)...

البحوث التي أُجريت على العمّال الذين أُصيبوا بغاز الخردل بمعدّلات ضعيفة ولكن على إمتداد فترة طويلة أشارت إلى إزدياد عدد المصابين بمرض السرطان وزيادة عدد الذين يعانون من مشاكل التنفّس لأكثر من ٣٧ مرّة مقارنة مع البقية من الناس.

تلوّث بيئة كوردستان نتيجة لإستخدام هذه الأسلحة يجعل ضرورياً المباشرة بإجراء تحقيق شامل وعميق حول الموضوع....

في إيران، برزت ظواهر غير إعتيادية ألا وهي زيادة عدد فاقد البصر والمشوهين خلقياً بين الولادات التي أُصيب فيها أحد الوالدين بالأسلحة الكيماوية.

هذه الوقائع تلتقي مع ملاحظات الأطباء الكورد حول إزدياد بعض الأنواع من الأمراض بين المواطنين الذين أُصيبوا خلال الهجمات. إنخفاض مستوى الولادة والزيادة غير الطبيعية في عدد القاصرين عنها والوفيات أقلقت مسؤولي الصحة الذين يخشون من هبوط عدد السكّان في المناطق الملوّثة خلال السنوات القريبة القادمة ويتساءل معهد حلبجة الطبيّ

Halabja Mediacal Institute حول إمكانية حصول تغييرات لدى (حامل المعلومة

الوراثية) بسبب استخدام خليط من المواد السامة وإلا فما هو التفسير في العدد المرتفع من الإسقاطات والتشويبات الخلقية؟
الوضع الصحيّ خطير جداً ويدعو إلى التفكير بأنّه على الدوام لأسلحة صدام حسين مردودات سيئة.
(.....)

النتائج على البيئة

بالنسبة لكل السموم والغازات المذكورة يجب ارتداء الملابس الواقية والأقنعة حين المرور في المناطق الملوثة .

لقد تأكّد بأنّ غاز الخردل يبقى متواجداً في البيئة بعد إنتشاره ولفترة زمنية طويلة ضمن ظروف جوية معيئة وسيبقى مفعول السم خاصةً حينما تكون الكميات المرشّة على الأرض كبيرة ويكون الجو بارداً أو معتدلاً وقد حدث أن احترق ناس قاموا بحفر الأرض أو مسّوا القنابل بعد مرور عقود على حصول الضربة في الحرب العالمية الأولى.

وبقايا غازات الأعصاب العضوية الفسفورية تظل راکدة أيضاً في أوساط معيئة مثلما أكّدتها التجارب التي أجريت في ظروف شتوية على عينات من التلوج الملوثة بغاز السارين والسومان وال YX والتابون ومشبعة بمستويات يمكن إستخدامها ضدّ البشر. بعد مرور أربعة أسابيع كان معظم العناصر ما عدا التابون لا زالت باقية وبعضها بكميات كبيرة فليس غريباً إذاً إكتشاف آثار فوسفات الخردل والساارين في كوردستان رغم مرور فترة زمنية طويلة على القصف.

والأمثلة على أطنان من الأسماك الميتة في البحيرات والأنهر بعد سكب العناصر العضوية الفسفورية تبرهن على تأثيرها على البيئة الحيوانية والنباتية أيضاً. ومع وجود عناصر مثل ال YX التي تعيش لفترة طويلة فمناطق كاملة لا يمكن الحياة فيها لعدّة أشهر وتمنع العوائل من إستعادة أثارها وذخائرها ولكن بالرغم من ذلك فقد عاد عشرات الآلاف من المواطنين الكورد إلى كوردستان وهم يستغلّون أراضيهم ويجهلون تماماً ما جرى لبيئتهم من تلوّث في المياه والأراضي والنباتات والحيوانات. بعد نزوح

عام ١٩٩١ نحو تركيا وإيران فقد عادوا ليستقرّوا في مواقع قريبة من عدد من المقابر الجماعية دون حذر ودون إمتلاكهم للمعلومات كي يتجنّبوا إحتمال التعرض ثانوياً لهذه السموم.

من المشروع إذاً لمواطني محافظة دهوك وأربيل والسليمانية معرفة المخاطر الموجودة على صحتهم والسبيل الأسلم لمعالجتها.

الإستنتاج النهائي

الإلتجاء المبرمج تقريباً إلى الأسلحة غير التقليدية من قبل عراق صدام حسين دلّل بأنّ القانون الدولي لم يكن قادراً على حماية الدول المحاربة ولا المدنيين بتأكيد أكبر خلال النزاعات الداخلية. بالرغم من خرقه لكلّ المعاهدات والإتفاقيات وإنتهاكه لكل الحقوق الإنسانية فالنظام العراقي لم يُحاسب أبداً وتمّ إهمال واجب حماية مواطني المنطقة والمطالب التعويضية التي عبروا عنها. إحتقار الحياة الإنسانية كان مع الأسف هو القاعدة الثابتة في العراق خلال أكثر من ثلاثين عاماً. إستعمال أسلحة الدمار الشامل ضدّ المواطنين شكّل أداة إضافية بيد نظام الرعب والرقابة الذي شيّدته طغمة من القادة وطبقتّه عدّة آلاف من الجلّادين بلا ضمير. غابت الإدانة الجماعية والقوية على الضربات بالأسلحة الكيماوية التي دامت لعدّة أشهر ضدّ مدنين بلا دفاع.

يجب محاكمة صدام حسين ومسؤولي نظامه لهذه الجرائم ضدّ الإنسانية، المكشوفة والمثبتة بوثائق وشهادات.

للأسلحة الكيماوية نتائج مأساوية في الميادين الصحيّة والإجتماعية والإقتصادية والثقافية لذا ولحماية المواطنين المدنيين ينبغي إتخاذ الإجراءات على الصعيد الدولي، من قبل دوائر الصحة والمنظّمات الحكومية وغير الحكومية ودوائر الجيش والشرطة لمواجهة على تحديات هجمة من هذا النوع.

رغمًا عن الدراسات التي برهنت على شدة فعالية السموم لبعض المواد كغاز الخردل أو غازات الأعصاب التي كشفت سلسلة من المخاطر غير المقبولة لصحة البشرية فمجلس أمن الأمم المتحدة إكتفى في عام ١٩٨٨ بإعلان مبدئي ضدّ الأسلحة غير التقليدية. ولم يفكر أيضاً بالعناية بالمواطنين المدنيين الذين أصابتهم الأسلحة الكيماوية ولم يقدم بالنتيجة المساعدات الضرورية للكادر الصحيّ المحلي بمستوى

ترحيل الكورد الفيليين

جينس أوه راهيه

صحفي ألماني يعمل في جريدة

Suddeutsche zeitung في ميونيخ وقد أنجز عدداً من التقارير حول الدياسبورا

الشيوعية العراقية في أوروبا

مقدمة

حدث ذلك في ٢١ آذار ١٩٨٢ مثلما هو الحال بالنسبة لعدد كبير من الشيعة الكورد إيمان فرج قضت رأس السنة الكوردية مع عائلتها في النجف قرب مرقد الإمام علي. في المساء عند رجوعهم إلى بغداد لم تكن تتصور بأنّها تولج دارها لآخر مرة . كان عمرها ١٩ عاماً وتذكر بدقة تلك الليلة التي غيرت مجرى حياتها .

«عنا مرهقين وذهبنا إلى السرير مبكراً في حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل طرقتنا على الباب. كان أفراد المخابرات وعددهم ستة أو سبعة رجال فادركنا ما يجري بسرعة لأنهم سبق وأن رحلوا العديد من العوائل فجاء دورنا وحينما حاولت والدتي الاعتراض هدّوها بالقتل. «لستم بحاجة إلى حقائب لأنكم سوف تعودون غدا»، خاطب أحدهم والدتي وإقتادونا كلنا: أبي وأمي وأخوأي الصغيرين وأخواتي الثلاثة حيث إحداها كانت حامل وزوجها.»

ثمّة روايات عديدة من هذا النوع في عراق صدام حسين ما جرى لإيمان فرج حدث للعديد من العوائل العراقية في عهد البعث والقليل منهم فقط رأى بيته أو شقته لأنّ النظام جرّدهم من الجنسية قبل طردهم من البلاد ولم يتمكنّ المرحلون وأنسالهم من العودة إلاّ بعد سقوط النظام في عام ٢٠٠٣. جهاز قمع صدام حسين كان يهدّد كلّ العراقيين مهما كان أصلهم السياسي والقومي والديني والاجتماعي في أي لحظة وفي أي مكان ولكن مع ذلك فالترحيل والتهجير الجماعي كان خاضعاً إلى هدف محدّد: التغيير الديموغرافي وبالأخص الإضطهاد الجماعي لمجموعات معيّنة من المواطنين

المأساة لمعالجة ومتابعة الأحياء بشكل صحيح. التوصيات الحالية لعدّة فرق طبيّة دولية أو المنظّمة العالمية للصحة قلقة من عدم الإهتمام في تلك الفترة بنتائج بعيدة المدى للأسلحة الكيماوية على النساء والأطفال بشكل خاص.

بدون إمتلاك معلومات وثيقة كيف يمكن تشخيص مرض السرطان على سبيل المثال؟

هل يمكن معاينة التأثيرات المتعدّدة فيما إذا جرى تفاعل داخلي بين مختلف المواد الكيماوية؟

هل تسمح نهاية نظام صدام حسين بإجراء تحقيق دولي يقوده باحثون مستقلون والمنظّمة العالمية للصحة والأمم المتحدة على كل الأراضي العراقية وبالأخص في كوردستان؟

هل يقدّم هذا التحقيق العميق توضيحاً للعلماء حول طبيعة مجمل المواد المُستعملة وتفسيراً حول إصرار السموم بالبقاء في البيئة؟

إتصالات الأطباء الإيرانيين يجب أن تدفع المجتمع الدولي والعلمي إلى مساندة الكادر الطبي في كوردستان لتحسين قابليته في التشخيص وفي معالجة الأمراض التي يواجهونها... يجب إعداد الوسائل الماديّة والبشرية مع تشكيل فرق متعدّدة الأبعاد للإعتناء بالضحايا ولعلاجهم.

وأخيراً يجب على المجتمع الدولي الاعتراف بالجينوسايد الذي إرتكبه النظام العراقي والسماح بتعويض الضحايا وتعويض آلاف العوائل التي فقدت أقرباءها.

ينظر إليها النظام بعيون مشبوهة. فهذا ما إنطبق على الكورد الفيليين لكونهم - كورد وشيعة - في ذات الوقت ولذا لم يتساهلوا معهم أبداً.

الهوية ختم على الجبين

يتذكر كريم عينة زرغوشي جيداً كلمات والدته:

«كريم، ليس لدينا مشكلة واحدة وإنما عدة مشاكل: فنحن كورد ونحن شيعة ولا نملك أوراق الهوية.»

قال هذا في بغداد عام ١٩٧٥ حينما كان عمر كريم ١٦ سنة ؛ وقد بدأ توّاً إنتماءه السياسي رغم معارضة والدته لحمايته .

هذه الكلمات تلخص بوضوح الوضع البائس للكورد الفيليين في العراق حيث تم تهميشهم على عدة مستويات فكورد كانوا يشكلون أقوى أقلية إثنية في البلد وبسبب مذهبهم وجدوا أنفسهم أقلية وسط المجتمع الكوردي أيضاً وكشيعة كانوا ينتمون فعلاً إلى أكثرية دينية ولكن في الواقع تعاملت الحكومات العراقية المتعاقبة مع هؤلاء وكأنهم أقلية على الصعيد السياسي والاجتماعي. وفعلاً فالفيليون يشكلون أقلية أيضاً وسط المجتمع الشيعي لأنهم كورد يتميزون عن الشيعة العرب والفرس على الصعيد القومي والثقافي.

وعلاوة على هذا فبالإمكان إضافة مسألة الهوية الوطنية حيث أن على هذا الصعيد أيضاً يشكلون أقلية فقد كتبوا على هوياتهم العراقية «من أصول إيرانية»، العبارة التي جعلتهم أو على الأقل أوحى بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية. وقد ذهب صدام حسين وكذلك البعث إلى النهاية في منطقتهم وسحبوا من الكورد الفيليين جنسيتهم العراقية قبل إعلانهم «إيرانيين» وتسفيرهم إلى إيران.

الفيليون: الخصائص التاريخية والاجتماعية

إكتسب الفيليون «شهرة» عالمية بعد الكارثتين التي وقعتا على رؤوسهم في بداية سنوات السبعينيات ومن ثم في بداية الثمانينيات. غالباً يتم ربط الفيليين بالكورد تاريخياً وكذلك فهم يعتبرون أنفسهم كورداً عراقيين أولاً رغم إعتزازهم بخصوصيتهم التاريخية والثقافية. بعض الكتّاب يقربون الفيليين من المملكة العيلامية للشرق القديم التي كانت تشكل المنطقة التي يسكنها الكورد في الوقت الحاضر. تشمل هذه الأراضي بشكل رئيسي المحافظات المركزية الواقعة على الحدود العراقية - الإيرانية: لورستان، كرمنشاه، عيلام وخوزستان في إيران وديالى وواسط وميسان وكذلك الجزء الشرقي من بغداد في العراق وثمة واقع يجب ملاحظته وهو أن القسم الأعظم من الكورد الفيليين يعيشون خارج الولايات الكوردية:

خانقين، مندلي، بدره، بغداد، الكوت والعمارة ونجد عندهم بعض الإختلافات الاقليمية في اللهجة وخاصة بين الفيليين العراقيين والفيليين الإيرانيين ولكن من الناحية القومية والتاريخية فهم يشكلون نفس المجموعة من الشعب حيث يسمونهم «لور» في الطرف الإيراني و«فيليون» من الجهة العراقية.

يربطون كلمة فيلي غالباً ببيلي أو بايلي وقد جاءت التسمية من اسم ملك عيلامي وسلالته (في حدود ٢٦٧٠ إلى ٢٢٢٠ قبل الميلاد) وثمة تفسير آخر يقول بأن كلمة فيلي نبتت من عبارة بهلة وهذه بدورها يجوز بأنّها قد أتت من بارتيا التي هي منطقة في إيران ومن الإمبراطورية البارتية وإعتباراً من القرن الثالث الميلادي أستخدمت عبارة بهلة لتعيين المناطق المأهولة بالفيليين.

مرّ إنتماء الفيليين إلى المذهب الشيعي بمرحلتين متميزتين فبين عام ٦٣٦ وإلى عام ٦٤٢ إحتلت القوّات الإسلامية الآتية من سوريا وادي الرافدين وجبال زاكروس الواقعة في الشمال الشرقي. هذه المناطق الأخيرة كانت تتبع سابقاً للإمبراطورية الساسانية فإنتشر فيها الإسلام السنّي ولكن في القرن السادس عشر والسابع عشر أصبحت المنطقة تحت تأثير المملكة الشيعية الصفوية فأضطرّ الكورد الساكنين فيها على تبني هذا المذهب فإنتموا إلى الفرع (الإثنا عشري) وأمّا الكورد الذين بقوا تحت سيطرة العثمانيين فقد إستمروا على مذهبهم السنّي.

الخوف من الخدمة العسكرية ومن كاهل الضريبة دوراً مهماً في خيارهم وحتى الذين سجلوا أسماءهم كعراقيين كانوا يفضلون كتابة مواطنين من «التبعية الإيرانية» راجين في ذلك التخلّص من الإلتزامات ومن الخدمة العسكرية ولهذا نرى عرب شيعية قد سجلوا أنفسهم مواطنون من «التبعية الإيرانية» بالرغم من ولادتهم على الأرض العراقية.

لكنّ الذين ساروا على هذا المنطق لم يتخيّلوا أبداً ما كان ينتظرهم في المستقبل البعيد فعبارة «التبعية الإيرانية» إلتصقت لعقود بأجيال من الأطفال والأحفاد وقلّلت من فرص عملهم بشكل خاص في وظائف الدولة أو في الوظائف العسكرية. أمّا في الميدان الإقتصادي فقد ازدهرت حياة الفيليين بشكل كبير جداً.

فإعتباراً من سنوات الخمسينيات أصبح الكثيرون منهم رجال أعمال ناجحين في بغداد وفي المدن الأخرى ومارسوا بشكل خاص تجارة الشاي والسكر والفولاذ والخشب. وميزتهم التقليدية كانت إتصالاتهم القديمة جداً مع إيران ولم يكن لهم بديل في ذلك الوقت على الإطلاق ممّا طوّر من علاقاتهم معها.

وكانت هناك أيضاً شريحة إجتماعية فيلية فقيرة جداً فقد كان حمّالو سوق بغداد من الكورد الفيليين ولم يكن نادراً أن يخفي الكورد الفيليين هويّاتهم وخاصّة حينما كانوا يعيشون وسط محيط عربي وغيّرت بعض العوائل أسماءها الفارسية إلى الأسماء العربية وقام القسم منهم بالتكلّم مع أبنائهم في المنزل بالعربية بدل الكوردية. يُفهم من هذا السلوك بأنّ بعض الكورد الفيليين كان يعيش ضغطاً نفسياً كي يغيّر من أصله أو ربّما كان يتحمّل تمييزاً عنصرياً لم يكن بادياً للعيان ولكن رغم كل ذلك فلم يكن هناك خطر على حياتهم حتى سنوات الستينيات حينما وصل حزب البعث إلى السلطة.

١٩٦٩ - ١٩٧١: الموجة الأولى للترحيل

بعد إنقلاب ١٩٦٨ مباشرة وضع النظام ترسانته في الرقابة والقمع موضع التنفيذ ولم تمر عليه سنة حينما باشر في ممارسة الترحيل الجماعي. في بداية ربيع ١٩٦٩ وحتى نهاية عام ١٩٧١ رحّلوا عشرات الآلاف من الأفراد معظمهم كورد فيليون وعرب شيعية أيضاً ومواطنون إيرانيون. يقدر معظم الكتاب عددهم بحوالي ٤٠٠٠٠ فيلي وهو الرقم الذي إعتمه الحزب الديموقراطي الكوردستاني أيضاً.

أصبح البلد الفيلي منطقة صراع بين العثمانيين والصفويين، بين الشيعة والسنة ووقعت السلطة في أيادي عديدة على حساب هذا الشعب: فحينما كانت السلطة تحت السيطرة الشيعية كان وضع السنة مزرياً وبالعكس. في بداية القرن العشرين كانت الولايات العراقية الموصل وبغداد والبصرة تحت سيطرة الإدارة العثمانية في الوقت الذي كانت المناطق التي يسكنها الفيليون والممتدة من الساحل الشرقي لدجلة وإلى الوديان العليا لجبال زاكروس موزعة سياسياً بين مختلف القوى وقد تمّ تثبيت الوضع نهائياً عند تحديد الحدود المفروضة من قبل الدول الأوروبية الكبرى وبالأخص من قبل بريطانيا العظمى.

وتقسيم البلد لم يتوافق لا مع الضمير السياسي ولا مع الحياة اليومية للفيليين فالعلاقات العائلية والإقتصادية والثقافية بين طرفي الحدود كانت أقوى بكثير من الحدود المصطنعة ناهيك عن أهميّة الهيكل العائلي بالنسبة للمجتمع الكوردي.

هذه الميزات الإجتماعية الجغرافية جعلت من إندماج الفيليين في الدولة العراقية الناشئة في عام ١٩٢١ صعباً جداً. وفي هذه الدولة خلق قانون الجنسية لعام ١٩٢٤ الذي تضمّنه الدستور صنفين من المواطنين حيث كنت تجد فيه مواطنو الإمبراطورية العثمانية السابقة سواءً كانوا إيرانيين أو كانوا بدون جنسية لحد ذلك اليوم . هذا «الأصل» الشكلي الذي لم يكن له أي علاقة بالولادة أصبح مؤشراً عليه في «شهادة الجنسية» لكل مواطن فأصبح هنالك إذاً عراقيون من «التبعية العثمانية» أو من «التبعية الإيرانية» ولكن تمّ الإعتراف فقط بالصنف الأوّل من المواطنة العراقية «الأصلية» وبحقوقها النابعة منها.

وقع معظم الكورد الفيليين ضمن الصنف الثاني من العراقيين ذوو «التبعية الإيرانية» حيث لم يكونوا مواطنون عثمانيون ولم يبحثوا عن هذا الأمر يوماً لأنهم لم يحسّوا فعلياً بحاجتهم إلى جنسية معيّنة في تلك الفترة ولم يشعروا «بالإنتماء وطنياً» إلى إمبراطورية راكمت الشعوب والثقافات المختلفة على بعضها. ينبغي علينا أيضاً معرفة بأنّ المواطنة العثمانية كانت تعني إلتزامين غير شعبيين: دفع الضرائب والخدمة في الجيش.

شكّ العديد من العراقيين بالدولة العراقية الجديدة فالناس الساكنين على الحدود كانوا يفضلون الإحتفاظ بالجنسية الإيرانية أو العيش بدون أوراق هوية وقد لعب

من الصعب القول بأن هذه الأرقام مضمونة لأن المعطيات حول حجم المجتمع الفيلي غير متوفرة.

وفقاً لحسابات وزارة الشؤون الاجتماعية العراقية فقد كان عددهم في العام ١٩٤٧ بحدود ١٤٠٠٠ كوردي فيلي في المدن و بحدود ١٦٠٠٠ في الريف، أي ما يعادل ٠,٦ ٪ من المجموع الكلي للشعب العراقي. وهناك آخرون يذكرون نسبة ١ ٪ . على أية حال يجب التفكير بأن كل الكورد الفيليين لم يحدوا الدخول في العملية الإحصائية فنسبة ١ إلى ٢ ٪ من الشعب العراقي تعطي رقماً بين ١٠٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠٠ شخص - فالعدد المذكور سابقاً بخصوص المرحلين الفيليين والمحدد بعدة عشرات من الآلاف يمكن أن يكون صحيحاً تماماً.

من بين ضحايا الوجبة الأولى من المرحلين كان هناك حوالي عشرين شخص من أقرباء كريم عينة الزرغوشي فيتذكر هذا الأخير بأن السلطات أعلنت مسبقاً هذا القرار. «في الأسبوع القادم سوف نقوم بإرسال عشر عوائل من زقاقك إلى إيران»، هذا ما قيل لي دون أن يحدوا أي من العوائل شملها الترحيل. فمن جهة تزايد الشعور بالخوف وعدم الإطمئنان لدى كل جبراني ولكن من جهة ثانية فقد تمكن الذين تم ترحيلهم من جمع قسم من ممتلكاتهم وحملها معهم.

كان عمر جبار فيلي تسع سنوات في عام ١٩٧٠ وقد سرد المشهد التالي:

«كنت في المدرسة، في الثالث ابتدائي حينما دخل فجأة شرطي مع والدي إلى الصف فتحدثوا مع معلّمي الذي أمرني: " إحمل دفاترك وإذهب مع والدك ! " فقادونا نحو مركز للشرطة وهناك التقيت بوالدتي واخواتي. أوضح الوالد بأنه ينوي إرسالنا إلى إيران ولكن تمكنا من العودة إلى البيت بعد مرور ثلاثة أيام لأنّ الوالدين كانا يحملان أوراق هوية صادرة في عام ١٩٤٧»

وآخرون لم تمر على تجنّسهم أكثر من عشر سنوات فربما قد تمّ تهجيرهم كانت الحجّة المقدّمة هي الإدعاء بالهوية «العراقية» للضحايا ولكن السبب السياسي كان الخلاف على حدود شط العرب حيث في شهر نيسان من عام ١٩٦٩ قامت إيران بإلغاء إتفاقية ١٩٢٧ وتوقّفت عن تحويل حقوق الملاحة إلى حساب العراق فردت عليها حكومة

بغداد بعملية الترحيل. واضح تماماً بأن العراق كان ينوي ممارسة ضغط إجتماعي واقتصادي على إيران عبر موجات اللاجئين وعلاوة على ذلك فنشر الإدعاء الذي يقول بأن العدو الإيراني تسرّب إلى البلد سوف يدفع بقية الشعب الى تأييد النظام.

وليس هناك أدنى شك بأن النظام كان يواصل أيضاً تنفيذ خطط لم تكن لها أي علاقة بالأزمة السياسية الخارجية ففي تلك الفترة وبعد الوصول إلى السلطة بوقت قليل لم يكن النظام قد بسط سيطرته كلياً على البلاد ولذا كان يسعى إلى الإتفاق مع القوى السياسية الكبرى فيها والتي تمثلت في الحزب الشيوعي العراقي والكورد. وإستناداً الى ذلك ففي ربيع ١٩٧٠ فاوض صدام حسين الذي لم يكن عند ذاك غير الرجل الثاني للدولة بعد أحمد حسن البكر إتفاقية مع الحزب الديمقراطي الكوردستاني.

وهكذا لحاجة النظام إلى تفاهم مع جبهة الكورد أعلن بيان الحادي عشر من آذار الذي كان يوعد الكورد بنوع من الحكم الذاتي مقابل تعاون قيادته مع الحكومة المركزية. أن هذا التفاهم الذي دام عدة سنوات سمح له بالتنفّس والإستراحة من جهة ومن جهة ثانية مكّن حزب البعث من تثبيت هيمنته وممارسة أقصى أساليب القمع ضدّ المعارضة عبر مفاجأتها بالاعاوي الملققة وخلق جو إرهابي ومطاردة المعارضين السياسيين في الداخل وفي الخارج و وسط قياداته نفسها .

الغرض الأساسي لترحيلات السبعينيات كان إسكات كل صوت ناقد تجاه الحكومة وإضعاف المعارضة أكثر فأكثر. وقد تواجد عدد صغير من مؤيدي حزب البعث وسط الكورد الفيليين نتيجة لتعاطفهم سياسياً مع الشيوعيين ومع الحركات الكوردية وبشكل رئيسي مع الحزب الديمقراطي الكوردستاني والبرهان على ذلك هو ظهور مقاومة حامية ووطنية في المحلات التي يسكنها الكورد الفيليين في بغداد خلال إنقلاب حزب البعث عام ١٩٦٣ .

تهجير الكورد الشيعة كان يخدم النظام لأسباب متعدّدة: كوسيلة للضغط على إيران و لتسديد ضربة إستعراضية للمعارضة وكذلك كوسيلة لتعبئة جماهيره. حسب رأي النظام فالترحيل كان يجب أن يسحب تأييد الكورد الفيليين للحزب الديمقراطي الكوردستاني الذي وقّع على إتفاقية مع النظام فباعته أن هذا الأخير لن يكون مستعداً بالتدخل لصالحهم. وبما أن الفيليين لا يملكون تنظيمياً سياسياً مستقلاً وعلى

الصعيد الإجتماعي يشكّلون أقلية داخل أقلية فإذاً ليس هناك ما يخيف البعث سواءً من الداخل أو من الخارج لمقاومة هذا القرار. وبعد هذا التاريخ بأقل من عشر سنوات دفع غياب أو ضعف ردّ الفعل نظام البعث الى العودة من جديد إلى الترحيل المبرمج.

الموجة الثانية للترحيل ١٩٨٠-١٩٨٢ :

بدعوة من الحكومة العراقية إجتمع أكثر من ٨٠٠ تاجر ومقاوم شيوعي ومعظمهم كورد فيليون يوم ٧ نيسان من عام ١٩٨٠ في غرفة تجارة بغداد ولكنّ المخابرات هي التي كانت بانتظارهم وقامت بتجريدهم من كل شيء ثمّين ومن الوثائق الشخصية ومن ثمّ وضعتهم في حافلات دفنتهم على الحدود الإيرانية دون أيّ مقدّمات أو دعاوي قضائية. في الأسابيع اللاحقة لم تكتفي السلطات البعثية بتهجير أقارب التجار وإنما جمعت آلاف العوائل وأجبرتها على ترك البلاد بحجّة كونهم إيرانيين. في الليل كانوا يطرقون على الأبواب ويوقّفون الآباء والأطفال والشيوخ في منازلهم والغائب عن البيت لم يكن محظوظاً بلقاء أحبائه في المستقبل. وقد منعتهم السلطات الحكومية من حمل أي شيء من الدار.

إيمان فرج تتذكّر:

«قادونا إلى مركز شرطة باب المعظم داخل مكتب للمخابرات وهناك وضعوا زوج أختي على جانب ولم يعد إلينا أبداً ومن ثمّ حقّقوا معنا على إنفراد. أخبروني إنّ كنت متجاوبة " بالتعاون معهم " فسوف يمكننا البقاء اي بعبارة أخرى كان عليّ التجسس على عائلتي وعلى جيراني. وأجبروا والدي بالضغط على أخي للعودة من الخارج حيث يكمل دراسته فرفضنا. في صباح اليوم التالي سمحوا لي بالبحث عن بعض الأمور في المنزل فحملت منه بعض الملابس والشهادة الدراسية بينما النقود كانوا قد سرقوها. في مركز الشرطة مرّونا على دائرة الأحوال المدنية حيث نصحوا والدتي بأن تطالب بالطلاق وفيما إذا إستجابت للنصيحة فسوف يسمحون لها بالبقاء وقد كانت تحمل وثيقة تثبت بأنّ جدّها شارك في إنتفاضة العشرين (١٩٢٠) ضدّ الانكليز وسُجن بسبب ذلك. " لا ينبغي ترحيل هكذا ناس " ، علّق أحد الموظّفين مجازفاً. ولكنّهم

أخذوا في النهاية كل طبع أصابعنا وأجبرونا على توقيع وثيقة تثبت بأننا نرفض الجنسية العراقية.» رغماً عن ولادة كل أفراد عائلة فرج في العراق: إيمان في بغداد عام ١٩٦٣ ووالدها عام ١٩٢٨ في بغداد أيضاً؛ ووالديّ هذا الأخير في بغداد والحلّة؛ ووالدتها في الحيّ عام ١٩٣٦ وأبويّ الأخيرة في العمارة. وكان قد كُتب في أوراق والدها «تبعية عثمانية» ولكن لإنتمائه إلى الحزب الشيوعي، حسب رواية إبنته، فقد حذف عملاء البعث هذه العبارة من وثيقته بعد أول إنقلاب لهم عام ١٩٦٣ ووضعوا محلّه «تبعية إيرانية» وبعد مرور عشرين سنة أصابت هذه الحادثة كلّ أفراد العائلة وقادوهم من دائرة الأحوال المدنية إلى سجن يجتمع فيه كل المغضوب عليهم من الذين لايملكون جنسية.

«باحة السجن كانت تمتليّ يوماً بعد يوم ومعظم القادمين كانوا من الفيليين ولكننا إستقبلنا عرباً شيعة أيضاً من النجف برفقة أطفالهم وكذلك إمراة كوردية نصف مجنونة قادمة من شمال البلاد حيث قتلوا أولادها الأربعة أمام عينيها وقد سبق أن حاولوا ترحيلها ثلاث أو لأربع مرّات ولكنّها كانت تعود إلى قريتها في كل مرّة. بقينا في السجن لفترة اسبوعين حيث يقدّمون لنا الطعام بحاوية للأوساخ، يلزمونا بالصمت وعدم القيام بالضجيج والإحتجاج. قال لنا أحد الحراس يوماً: " أنكم أسوأ من اليهود. " وفي وقت متأخّر من يوم ٦ نيسان وصلت إلينا الحافلات. بينما كنّا قد سعدنا فيها فإذا بهم يأمرّون الرجال بالنزول وحاولوا إعطاءهم قنابل ضدّ الإيرانيين. سارت بنا الحافلات نحو الحدود إلى الصباح والكل يبكي حتّى الرجال.»

كمعظم مرّحليّ منطقة بغداد قادوا عائلة فرج إلى مركز حدود خانقين بين بغداد وكرمنشاه ومن هنالك كان عليهم السير مشياً على الأقدام.

«في الطريق لاحظنا ملابساً وأواني مبعثرة تعود إلى المجموعات التي سبقتنا. كنّا نسير بحذر خوفاً من الألغام المزروعة على اليسار وعلى اليمين. ونحن نسير كان الجو تارةً مشمساً وتارةً يسقط على رؤوسنا

المطر والثلج. عند الظهر إضطررنا في عبور نهر بالرغم من قوّة تيّاره وقد شدّ أهدنا بيد الآخر وشكّلنا دائرة لمقاومته. رأينا امرأة تحمل طفلين بين ذراعيها ففقدت أحدهما وفي حدود الساعة العاشرة مساءً أدرّكنا مركز عسكري إيراني فحملونا في سيّارة وقادونا داخل معسكر.»

كل قافلة تجتاز الحدود كانت تُعدّ بالآلاف وثمة فيلم وثائقي إيراني تعطي الأرقام التالية بالنسبة لمقاطعة كرمنشاه التي يبدو بأنّها إستقبلت العدد الأكبر من اللاجئين: ٤٠٨٨ (٢٤ تموز ١٩٨٠)، ١٢٤٠ (٤ آذار ١٩٨١)، ٣٠٥٨ (٢٩ كانون الثاني ١٩٨٢)، ٢٨٣٢ (٣٠ كانون الثاني ١٩٨٢)، ٨٠٨٤ (٤ آذار ١٩٨٢)، ٢٤٧٠ (٧ آذار ١٩٨٢).

يظهر في الوثيقة بأنّ النظام العراقي قد قام في يوم ٩ حزيران ١٩٨٢، بتسفير المئات من مجرمي الحق العام إلى إيران. وصل الرقم الكليّ لعدد المرّحلين خلال هذه الفترة إلى ٢١٨٧٢ في هذه المحافظة لوحدها. وكانت كل مجموعة تشكي موتاها بسبب الإرهاق أو انفجار الألغام أو نتيجة لهجمات العصابات المسلّحة.

نظراً لأنّ الترحيل كان يسير على قدم وساق بالتوازي في مختلف محافظات البلاد ونظراً لأنّ الرقم ٣٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠ شخص قد تمّ ترحيلهم فعلاً في شهر نيسان من عام ١٩٨٠ فلا بد أن يكون العدد قد تجاوز في بداية الثمانينيات ٦٠٠٠٠ شيوعي والمجتمع الذي أُصيب بشكل أكبر هم الكورد الفيليين. أثناء المفاوضات التي تلت حرب الخليج في عام ١٩٨٨ طالبت إيران من العراق بعودة ٢٠٠٠٠٠ مرّحلّ عراقي إليه ومن المحتمل أنّ هذا الرقم لم يشمل فقط مرّحلي السبعينيات وإنّما عدداً آخراً من اللاجئين أيضاً. في عام ٢٠٠٣ قدّرت اللجنة العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة عدد اللاجئين في إيران والمرّحلين إليها من الذين يحملون الجنسية العراقية بـ ٢٠٢٠٠٠ شخص. كان يقيم حوالي ٥٠٠٠٠ منهم في معسكرات تقع في غرب البلاد والآخرين إستقرّوا وإندمجوا في المجتمعات الإيرانية.

بعكس الأطفال والنساء والشيوخ فالرجال الذين كانوا قادرين على حمل السلاح لم يرحّلونهم وإنّما فرّقوهم عن الأقارب وسجنوهم؛ بالتأكيد لكي لا يتمّ تجنيدهم في الجيش الإيراني وكانت عوائلهم تلتزم الصمت خوفاً عليهم. يُقدّر عدد الشباب الذين إختفوا بحوالي ١٠٠٠٠ شخص وهذه الحقيقة تشير إلى كيفية تطبيق البعث لقوانينه

الخاصّة الإعتباطية والمستبدّة. في الواقع، عدد كبير من هؤلاء الشباب كانوا يؤدّون فعلاً خدمتهم العسكرية فيحملون بالضرورة الجنسية العراقية ورغم ذلك قاموا بتوقيفهم بحجّة جنسيتهم الإيرانية المُفترضة.

إلى منتصف الثمانينيات كان هؤلاء الرجال مُحْتَجَزُونَ في سجن أبوغريب في ضواحي بغداد. أثناء زيارة تفقّدية قام بها برزان التكريتي رئيس المخابرات العراقية والأخ غير الشقيق لصدّام حسين إلى السجن وعد بإطلاق سراحهم حال إنتهاء الحرب مع إيران. هذا الأمر قد يكون تمّ إصداره من «الجهات العليا»، ولكن المصير الذي كان ينتظره هؤلاء إختلف تماماً: تمّ ترحيل البعض منهم وجنّدوا آخرين جبراً في الحرب ضدّ إيران؛ وآخرون ماتوا خلال تجريب الأسلحة الكيماوية عليهم. طبعاً، يمكن القول أيضاً بأنّ مئات عدّة قد تمّ «إعفاءهم» ولكن قبل سقوط صدّام حسين بقليل من الزمن أي بعد عشرين عاماً من التوقيف والترحيل ولا يزال هنالك ٤٠٠٠ مفقود.

كريم عينة زرغوشي يسرد حكاية أخيه حافظ الذي سجّنه في عام ١٩٨٠ وعمره ٢٣ سنة بهذه العبارات:

« تشاجر مع أحد أعضاء حزب البعث وبعد الحادث بقليل مرّت دورية بالملابس المدنية فأوقفته. بحثت عنه العائلة لفترة طويلة وتمكّنت من شراء صداقة عسكري يحتلّ مركزاً كبيراً ويمكّنك معلومات فأعلمها بأنّه حي ومسجون وأضاف ناصحاً بأنّ تمتنع عن معرفة المزيد عنه لأنّ ذلك سوف يشكّل خطراً كبيراً لكلّ العائلة. في عام ٢٠٠٣ عثرنا في بغداد على وثائق تشير إلى موت حافظ. لقد تمّ إعدامه في عام ١٩٨٢ »

مرايم نظام البعث

في ربيع عام ١٩٨٠ فتح مجلس قيادة الثورة برئاسة صدّام حسين باب مجموعة من المراسيم الجمهورية الخاصّة بالتسفير والترحيل. فأصدر أولاً بتاريخ ٣ شباط المرسوم رقم ١٨٠ يخول فيه وزير الداخلية بتجنيس «الأجانب» البالغين وفقاً لشروط معيّنة. ومن بين المجموعات المشمولة يظهر الكورد الفيليين. تُمنح الجنسية بشرط أن يكون الطلب قد تمّ تقديمه قبل ستة أشهر و «بأن لا تشكّل إقامة [طالب الجنسية] ضرراً أو خطراً على أمن العراق». جعل المرسوم إذاً الحصول على الجنسية العراقية خاضعاً إلى

الحجج والأهداف الحقيقية للنظام العراقي

منذ الثورة الإسلامية عام ١٩٧٨-١٩٧٩ في إيران تدهورت العلاقات بين بغداد وطهران بشكل كبير فإقامة دولة تيقراطية بالقرب من الدولة العلمانية للعراق كانت تشكل تهديداً خطيراً للنظام صدام حسين. القادة العراقيون كانوا يخشون بأن تستقطب التجربة الإسلامية مواطنيهم الشيعة وتفسد البلد. فكّر صدام حسين بأنه في حالة حصول صراع فسوف يتمكن من استخدام الإضطرابات والثورة في إيران لصالحه. بعد مناوشات عنيفة على طول الحدود وإستفزازات مختلفة شنّ الجيش العراقي يوم ٢٢ أيلول ١٩٨٠ هجوماً كبيراً على إيران فكان ذلك البداية لحرب الخليج الأولى التي إستمرت ثماني سنوات.

في الحقيقة النظام البعثي كان يواجه معارضة إسلامية متصاعدة داخل البلد منذ السبعينات والثورة الإسلامية قد ساهمت في تطرف بعض الأحزاب السياسية مثل تنظيم حزب الدعوة الإسلامية. في الأول من نيسان حاول عضو منتمي إلى منظمة العمل الإسلامي إغتيال نائب رئيس الوزراء طارق عزيز فمات العديد من الطلبة في العملية التي قام بها داخل قاعة في جامعة المستنصرية ببغداد فقيل حينذاك بأنّ الفاعل لم يكن إسلامياً فقط وإنما كوردي فيلي أيضاً. إستغلّ التلفزيون العراقي هذا الحدث فبثّ على الشاشة صورة صدام حسين وهو يزور طارق عزيز الجريح في المستشفى ووضعت كاميرا التلفزيون زومها على فتاة شابة واقفة بالقرب منه تخاطبه: «أه ! كم أكره الفُرس» ففتحت بذلك للرئيس فرصة للرد عليها: «إعتباراً من تاريخ هذا اليوم يجب على الفرس مغادرة بلد الحزب والثورة.» إن كان هذا المشهد الذي تم سرده في نشرة للحزب الشيوعي العراقي صحيحاً أم لا بكل تفاصيله فذلك يشير بوضوح إلى كيفية قيام النظام بإستغلال الأحداث لصالحه. العملية التفجيرية كانت بمثابة هدية لصدام حسين للإنتقال إلى الفعل ولم يدوم الإنتظار طويلاً حيث بدأ الترحيل بعد ذلك بأقل من اسبوع.

قيادة البعث كانت تتهم بشكل خاصّ التجار الشيعة بالتآمر على العراق ورئيس المخابرات فاضل البراك كان يلومهم بسبب ممارستهم التأثير الإقتصادي.

«من خلال روح عداوتهم تجاه العراق وشعبه فهؤلاء التجار كانوا

مصلحة الأمن الوطني ولم يُترك الأمر للإدارة أو للقضاء بالقيام بالإجراءات وإنما لوزير الداخلية أو بعبارة أخرى للحكومة نفسها. ولكن هذا المرسوم كان في الحقيقة ذريعة وحيلة: حيث دفع عدداً كبيراً من الأشخاص إلى إعلان أنفسهم وقد كانوا يأملون الإعتراف بحقوق مواطنتهم الكاملة ممّا أتاح للسلطات في تشخيص عدد كبير من الكورد الفيليين.

بعد مرور أقل من شهرين، أي في ١٠ نيسان ١٩٨٠ إستثنى مجلس قيادة الثورة في مرسومه المرقم ٥١٨ ، «الأجانب ذوي الأصول الإيرانية» من النصوص السابقة بخصوص التجنس. وبعد هذا التاريخ بأربع أسابيع تصلّب مجلس قيادة الثورة من جديد وشدّد على تلك النصوص: المرسوم رقم ٦٦٦ الصادر بتاريخ ٢٦ أيار ١٩٨٠ يهدّد فيه كل المواطنين «ذوي الأصول الأجنبية» بإسقاط جنسيتهم العراقية وطردهم من البلاد فيما إذا تشكّكت الدولة في «ولائهم».

«١- كل عراقي من أصل أجنبي سوف تُسحب منه جنسيته العراقية فيما إذا ظهر بأنه يفتقد الولاء للوطن والشعب ولا يؤمن بالأهداف الكبرى التي تتطلّع الثورة إلى تحقيقها للأمة وللمجتمع.

«٢- على وزير الداخلية طرد أي شخص أُسقطت عنه الجنسية العراقية من البلد طبقاً للفقرة ١ [...]».

وبعد مرور عام على هذا التاريخ برز للناس قمّة مهزلة مجلس قيادة الثورة حينما خصّص مكافأة للعراقيين الذين يقدمون على طلاق أو يقبلون بطرد زوجاتهم «ذوات الأصول الإيرانية». ووعدا ٤٠٠٠ دينار عراقي لكل عسكري و ٢٥٠٠ دينار عراقي لكل مدني قادر على تقديم إثبات رسمي عن طلاقه ووثيقة جديدة بخصوص زواجه.

كل مراسيم الحكومة العراقية تم التوقيع عليها بيد رئيس وقائد مجلس قيادة الثورة صدام حسين وأنّ هذه الحقيقة تثبت بأنّ الترحيل الشامل كان مخطّطاً له من قبل أعلى مستويات الدولة.

كان الترحيل حملة مبرمجة ومنظمة وضعوها تحت رعاية وزير الداخلية ونفذته المخابرات والأمن بشكل رئيسي.

يشتركون دائماً بشكل أو بآخر بالمؤامرات والأعمال التخريبية لحزب الدعوة ولتنظيم العمل الإسلامي. كان لهم ممثلون بين كوادر هذين الحزبين ويتعاونون معهم.»

لم يكن هذا التصريح المعمّم مهذباً لأنه حتّى في حال إستلام المرجعية لأموال من البازار جمعتها على شكل ضرائب دينية وساهمت في تمويل الأحزاب الإسلامية فإن أي التزام مباشر من قبل الكورد الفيليين أصحاب الشركات تجاه المعارضة الشيعية لم يبدو محتملاً. ومن جهة أخرى رغم أن كل من كان ينتمي إلى حزب الدعوة يُحكم عليه بالإعدام فلم يتم تنفيذ هذا الحكم على المتعاونين المفترضين وإنما تم ترحيلهم. الكورد الفيليون كانوا يميلون إلى العلمانية واليسار والقومية الكوردية فتجد الكثيرون منهم ينتمون إلى الحزب الشيوعي العراقي أو الحزب الديموقراطي الكوردستاني.

الفيليون كانوا ضحايا للإضطهاد الحكومي حينما وصل البعث إلى الحكم لأول مرة وهذا الأمر يقود إلى التفكير بأن قيادة البعث شخّصتهم كمثيري إضطرابات لأسباب أيديولوجية وإقتصادية وسياسية في آن واحد. على الصعيد الأيديولوجي فالفيليون كأقلية قومية ودينية لا يدخلون ضمن إطار مبدأ «الأمة العربية» لمؤيدي البعث وقد سعى البعث دائماً إلى تطبيق المبادئ الأيديولوجية للحزب عملياً وإستغلّ صدام حسين دائماً الاختلافات الموجودة بين الشعب العراقي لحسابه وسعى إلى تقوية السلطة لأنّ هذا الإعتبار كان جوهرياً لديه. على أي حال فالقومية العربية التي نادى بها حزب البعث حملت في طياتها بذور العنصرية وللدلالة على ذلك نذكر حملات التعريب الوحشية في السبعينيات والثمانينيات في كوردستان ومن هذا المنطلق يظهر جلياً بأنّ ترحيل ما يسمّونهم إفتراءً ب «الإيرانيين» كان يتوافق فكرياً مع مبادئهم.

نظراً للسلوك اللا أخلاقي والفعلية لنظام البعث فالتفسير الأيديولوجي لن يكون على الإطلاق كافياً ولذلك يمكننا الإستنتاج بأنّ الباعث الإقتصادي لعب أيضاً دوراً مهماً فالأهداف التي تم تعيينها شملت بشكل رئيسي الطبقة المؤثرة من التجار حيث قاموا مباشرة بحجز أموال هذه العوائل قبل توزيعها وبيعها أو قد تم إستخدامها من قبل حزب البعث. إنتقلت شركات وأعمال المرحّلين الى مؤيدي وأعوان النظام فأصبحت إزاً تحت سيطرة الحزب... ولم يكن ذلك إلا خطوة إضافية بإتجاه «تبعيث» المجتمع العراقي

بأكمله ولكن لم يتطابق حساب حقل البعثيين مع حساب بيدرهم حيث ظهر بسرعة للعيان بأنّ الترحيل قد أثار على الإقتصاد العراقي: لم يخسر البلد عدّة مئات من رجال الأعمال والصناعيين المتمرسين فقط وإنما كذلك آلاف الفنيين والجامعيين والعمّال الماهرين وقد أدّى الوضع أثناء الحرب ضدّ إيران إلى نقص في عدد الأيدي العاملة حيث لم يعد العراق قادراً على سدّ الطلب بدون دعوة الملايين من العمّال الأجانب إليه.

بالإضافة إلى الحجج الإقتصادية والأيدولوجية فربّما تم إتخاذ قرار الترحيل لإعتبارات تكتيكية سياسية أيضاً. فبعد وصول صدام حسين بصورة نهائية إلى قمة السلطة قام مباشرة بوضع النظام كلّ تحت تصرّفه. لم يكتفِ صدام حسين بجهاز الحزب فقط وإنما أراد إمتلاك الجيش أيضاً قبل أن يمدّ يده إلى إقتصاد ومجتمع بلده. عبر ترحيل الكورد الشيعة أبعد صدام حسين عن الساحة السياسية أقلية كانت تحمل بالأحرى موقفاً إنتقادياً تجاهه ولأنّ وزنها الإقتصادي كان يمكن أن يشكّل خطراً كامناً عليه. وبما أنهم كانوا يسكنون على أطراف بغداد، مركز السلطة فهذا الأمر كان يثير أيضاً حذر حزب البعث وكإستنتاج فالترحيل أنهى الكورد والشيعة اللذين كانا يشكّلان أخطر مجموعتين حادثتين وشرستين يعارضان نظام صدام حسين بشكل مستمر.

بإختصار أن الترحيل كان باعثة مزيج من الحجج الأيدولوجية والإقتصادية والسياسية فالكورد الفيليون كانوا في عيون النظام يمثلون عاملاً لإثارة إضطرابات من المحتمل وقوعها ولذا فقد قاموا بتنفيذ الحملة قبل الحرب مع إيران وأثناءها وقد تمكّنت الدعاية البعثية في إقناع الشعب بأنّها تشكّل «طابوراً خامساً» لإيران. الصاق التهمة الجماعية بهم على أنّهم «إيرانيون» دفع العراقيين إلى الإعتزاز بالشعور القومي وفي نفس الوقت تمكنت الدعاية من إستخدامها كوسيلة لتحذير المعارضين.

بعد الترحيل

عند وصولهم إلى إيران بدأ المرحّلون حياة الغربة. ورعّتهم الإدارة الإيرانية في عدّة معسكرات تقع في محافظات مختلفة كخوزستان وفارس وقدمت لهم حداً أدنى من وسائل العيش والخيم والأدوية ولم يسمحوا لهم بترك المعسكر بمحض إرادتهم. ومن عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٨٢ كان القادمون الجدد يلتقون بمواطنيهم من مرحليّ الموجة

الأولى أي قبلهم بعشر سنوات والوسيلة الوحيدة التي كانت لديهم لترك المعسكر هي أن يلتقوا بإيرانيين وكذلك في زمن لاحق بأقارب أو أصدقاء يملكون أوراقاً نظامية في عيون الإدارة الإيرانية يقبلون بكفالتهم ومساعدتهم في المباشرة بحياة جديدة.

ولمساعدة المرحّلين على القيام بالإتصالات الضرورية كانت السلطات الإيرانية تنشر قوائمًا بأسماء العراقيين الواصلين حديثاً.

الموارد التي قدّمتها إيران للمساعدة الإنسانية كانت قد تقلّصت بشكل كبير بسبب الحرب وبسبب العدد الهائل من اللاجئين الهاربين من الحرب الأهلية في أفغانستان ولكن من جهة ثانية فالشيعة العراقيون كانوا إخوتهم في الدين وضحايا للنظام البعثي المعادي فكان من ضمن واجبههم مساعدتهم لأسباب ليس فقط دينية وإنسانية وإنما سياسية أيضاً حيث كان باستطاعة إيران الاستفادة من المرحّلين واللاجئين في صراعها ضدّ العراق وخاصةً بتشكيلها معارضة عراقية في المنفى. أعضاء الأحزاب الإسلامية الهاربون من العراق كانوا يواصلون نشاطاتهم بشكل رئيسي تحت رعاية ملالي إيران وخير مثال على ذلك هو تأسيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق من قبل آية الله محمد باقر الحكيم في طهران.

وبدورهم شكّل الكورد الفيلليون تنظيمات خاصة بهم ففي ٢١ آذار ١٩٨١ أنشأ عبدالجليل الفيلي، العضو السابق في الحزب الديمقراطي الكوردستاني حركة الكورد الفيليين التي يمكن اعتبارها كأول حركة تمثل المصالح السياسية للكورد الفيليين في تاريخ العراق المعاصر. وهي تحمل توجهات شيعية قريبة من المصالح الإيرانية ولكنها تدافع مع ذلك على الصعيد السياسي عن برنامج عمل قومي كوردي. أنّ هذه الحركة تنازلت من أجل عراق فيدرالي يتم فيه منح الحكم الذاتي للكورد وحتى على الأراضي التي يتواجد عليها الفيلليون.

بقي الوضع القانوني للمرحّلين العراقيين رغم كل ذلك سيئاً جداً فالحكومة الإيرانية كانت تنظر إليهم دائماً كعراقيين ولذلك لم تمنحهم الجنسية الإيرانية وإنما يقبلون بهم كلاجئين سياسيين .

في إيران تمكّن معظمهم الحصول على «البطاقة الخضراء» التي تعطيهم حقّ الإقامة والعمل وحق الحصول على الإعانة الاجتماعية والحق في شراء الأرض وحتى السيارة

ولكن ويا للغرابة ! لم تعطيههم حقاً بالزواج. إشتكت منظمة الدفاع عن حقوق الإنسان Human Rights في عام ١٩٩٠ بأنّ اللجنة العليا للاجئين التابعة لمنظمة الأمم المتحدة لا تزال لا تعترف بالمرحّلين كلاجئين يقعون ضمن مسؤوليتها بل نظرت إليهم كأشخاص هجّروا بيوتهم بسبب الحرب طبقاً للإتفاقية الرابعة لجنيف وقدرت بالنتيجة بأنّ الهيئة المؤهّلة لمساعدتهم هي اللجنة الدولية للصليب الأحمر (CICR). ومنذ هذا التاريخ قامت ال HCR بالتعاون مع الحكومة الإيرانية بمساعدة اللاجئين والمطرودين العراقيين ورتّبت كذلك منذ نهاية عام ٢٠٠٣ عودة الراغبين إلى بلدهم. في أيلول ٢٠٠٤ أشارت اللجنة بأنّها ساعدت حوالي ٩٠٠٠ عراقي على مغادرة الجمهورية الإسلامية لإيران باتجاه العراق. في عام ٢٠٠٣ ثمة أكثر من ١٢٠٠٠٠ لاجيء عراقي عادوا بمحض إرادتهم إلى وطنهم وقد قدموا من مختلف الجهات.

العودة والتعويض؟

يعيش الكورد الفيلليون اليوم في مجموعة من الدول الغربية وبالأخص في السويد وبريطانيا العظمى وقد أسّسوا عشرات الجمعيات الثقافية على الصعيد الإقليمي وفي نهاية عام ٢٠٠٢ شكّلوا فيدرالية عالمية: يعتبر المجلس العام للكورد الفيليين نفسه ممثلاً للمصالح المدنية للفيليين العراقيين ويطالب للمرحّلين بحق العودة وحق التعويض وكذلك الاعتراف بهويتهم العراقية ويطالب أيضاً بإلقاء الضوء على مصير آلاف المفقودين. ورغم عدم إعلان نفسه كتنظيم سياسي بشكل مكشوف فقد سارع المجلس بفتح مكتب في بغداد وأرسل له ممثلاً لدى المجلس الوطني العراقي. يناهز المجلس بتشكيل دولة عراقية ديموقراطية وفيدرالية حيث يتم فيها إدارة الأراضي الفيلية ضمن إطار حكم ذاتي كوردي. ووفقاً لرؤيته يمكن ربط المدن والمحافظات المأهولة بالفيليين والتي تقع خارج كوردستان - كخانقين ومندلي وبدرة - بالمحافظات الكوردية فيما إذا صوتت أغلبية مواطنيها على هذا الخيار. يناهز المجلس بأن يذكر بشكل صريح حقوق الأقلية الفيلية في الدستور العراقي الجديد.

أعلنت الحكومة العراقية المؤقتة في شهر أيلول من عام ٢٠٠٤ إلغاء مراسيم مجلس قيادة الثورة الخاصة بقانون الجنسية وأضافته بأنّ كلّ المرحّلين إلى إيران سوف يستعيدون جنسيتهم ومع ذلك فبعض العراقيين المقيمين في ألمانيا قد واجهوا صعوبات

كبيرة لإثبات جنسيتهم القديمة. ومن الصعوبة إيجاد وسيلة أو طريقة لاستعادة الأموال المحجوزة للكورد الفيليين أو لضحايا النظام الآخرين لأن السلطات العراقية جرّدتهم من وثائق التملك التي يمكن تبرير مطالبهم. ولعلاج هذه الحالات فقد شكّلت الإدارة المدنية الأمريكية ومجلس الحكم العراقي هيئة (الدعاوي الملكية) Iraq Property Claims commission في عام ٢٠٠٠ حيث وفقاً لنظامها الداخلي تقوم هذه اللجنة (الهيئة!) بإستلام الطلبات وتعمل على كشف ودراسة الممتلكات المحجوزة في كل البلاد منذ ١٧ تموز ١٩٦٨ تاريخ إستلام حزب البعث للسلطة وإلى ٩ نيسان ٢٠٠٣ يوم سقوط النظام. في شهر أيلول ٢٠٠٤ كان قد تمّ تسجيل ١٩٠٠٠ طلباً حيث معظمها في كوردستان.

عودة عشرات الآلاف من المرحّلين واللاجئين العراقيين المقيمين في إيران والدول الأخرى تضع السلطات والمجتمع العراقي أمام تحديّ كبير وخاصة إذا أضفنا إليها مشكلة حوالي مليون شخص تم ترحيلهم داخل حدود البلد. في نهاية عام ٢٠٠٤ ظهرت إلى العلن مجابهات حامية بين مالكي البيوت القدامى وبين شاغليها الحاليين.

عاشت عائلة إيمان فرج بدورها هذه التجربة أيضاً:

«تقيم والدتي اليوم في السويد وقد ذهبت إلى العراق بعد سقوط صدام حسين لقضاء عدّة أشهر فيه. حملت معها وثائق تملك دارنا في بغداد ولكن الشاغل الحالي لم يكن ذلك البعثي الذي أهدهته الحكومة سابقاً حيث قام هذا الأخير ببيعه. بعد بحث طويل إستطاعت والدتي العثور عليه فلم يكن مستعداً بالإستماع إليها فهددته والدتي بإعلام الأمريكان أو الأحزاب الكوردية فخاف وأعاد للمشتري أمواله وبهذه الطريقة تمكّنا من إستعادة الدار.»

فقدت إيمان فرج ستة من أبناء أعمامها حيث فرّقوهم عن أقاربهم الذين لم يسمعوا عن أخبارهم منذ ذلك اليوم وفي عام ٢٠٠٣ عرفت العائلة بموتهم. رغم كل هذه التجارب المريرة والإبتعاد القسري عن بلدها لأكثر من عشرين سنة ترغب إيمان فرج بالعودة يوماً حالما إستتب الوضع الأمني فيه وثمة أعداد كبيرة من المرحّلين تفكّر مثلها لأنّ الكورد الفيليين يشعرون بعراقتهم وصدام حسين رغم جهوده لم يتمكّن من إزالة هذا الإحساس من قلوبهم.

الجزء الرابع
حروب صدام حسين

العراقي فالعراق وافق بأن الحدود تتبع خط التالويك - الخط الوسطي - لشط العرب، مصب دجلة والفرات. تخلى صدام حسين عن حدود كانت تتبع منذ بروتوكول القسطنطينية لعام ١٩١٣ واتفاقية طهران لعام ١٩٣٧ (رفضها الشاه في عام ١٩٦٩) الساحل الشرقي لشط العرب الذي كان يسمح للعراق بالسيطرة كلياً على هذا الممر المائي الاستراتيجي الممتد على طول ٢٠٠ كيلومتراً - منفذه الوحيد في الخليج (الفارسي / العربي!) - والذي تمر عبره ثلاثة أرباع التجارة البحرية الإيرانية.

- الخصومة والتنافر السنّي - الشيعي

كل شيء كان يعارض بين هذين النظامين الذين ورثا قروناً من الخصومات والتنافر بين السنّة العثمانيين والشيعية الفرس. في بداياتها كانت لإيران سياسة رسمية لتصدير الثورة الإسلامية التي كانت تقلق العراق بالنتيجة. ومنذ طرد الخميني في شهر تشرين الأوّل ١٩٧٨ من النجف التي إلتجأ إليها قبل ذلك بخمسة عشر عاماً فعلاقات الخميني بصدام حسين إتخذت شكل الإنتقام الشخصي حيث ألصق الخميني بصدام حسين صفة الطاغوت (الفاسد) والكافر . إستيق صدام حسين الأحداث حيث كان يأمل بأن يقوم عرب السنّة في عربستان (خوزستان) بالإنتفاضة ضدّ النظام الإيراني حالما تصل القوآت العراقية إلى مناطقهم: خدع نفسه بشكل كبير وبقيت موالاة عرب خوزستان لنظام طهران - مثلما إستمرت موالاة شيعة جنوب العراق بأغليبتها لبغداد...

- الصراع من أجل الهيمنة على الخليج (الفارسي/العربي!)

منذ وصول البعث إلى السلطة (١٩٦٨) فنمّة صراع صامت كان يجري بين إيران الشاه والعراق البعثي حيث يعتبر كلُّ منهما نفسه القائد الطبيعي لمنطقة تحوي في باطنها مصادراً بترولية غير محدودة تسمح بتمويل المشاريع الأكثر جنونية. وقد بدأ هذا الصراع في نهاية عام ١٩٧١، بعد الإنسحاب البريطاني من الخليج (العربي / الفارسي!). حينما قامت القوآت الإيرانية بإحتلال ثلاث جزر (أبو موسى، طنّب الكبرى وطنّب الصغرى) والذي خلق أزمة خطيرة بين البلدين. تشدّدت هذه المنافسة مع وصول الخميني إلى السلطة حيث إعتبر صدام حسين نفسه قائداً للعالم العربي بينما كان الخميني يلعب دور القائد للشيعية وللعالم الإسلامي.

حرب العراق وإيران ١٩٨٠ - ١٩٨٨

الحرب الأولى لصدام حسين

كريس كوتشيرا

مؤمناً بالضعف الكبير لنظام الخميني بفعل صراعاته الداخلية، تصوّر صدام حسين بأنه قادر على «إعدامه» من خلال عملية سريعة وهجوم واسع شنّها بقوآته ضدّ إيران في ٢٢ أيلول ١٩٨٠ ، تفاجأ بأنّ ضربة البوكر كانت كارثية: دامت الحرب بين إيران والعراق لثمانى سنوات طويلة وكانت شبيهة بالحرب التي وقعت في زمن آخر - الحرب العالمية الأولى التي تخلّلتها معارك الخنادق وخسائر بشرية مريعة. سقطت مئات الآلاف من الضحايا المدنيين والعسكريين في البلدين وخسائر هائلة في الآلات أثناء حرب الخليج الأولى. خرج منها العراق في النهاية منتصراً، في الظاهر، وفرض على الخميني وقفاً لإطلاق النار ولكن الحرب ضحّمت من ديونه التي بدرت منها الإشارات الأولى لسقوط صدام حسين المُجبر على الهروب اليأس إلى أمام - غزو الكويت.

أسباب النزاع

مثل كل الصراعات الكبرى فلحرب الخليج الأولى أسباباً مباشرة ثانوية وأخرى عميقة تمتد جذورها في التاريخ. ولكنّها بصورة خاصّة ثمرة لطموح غير محدود لرجل، لدكتور، صدام حسين الذي تخيلّ بأنه سيصبح قائداً للعرب حينما ينتصر على إيران الخميني وتصورّ بأنّ الفرصة مؤاتية لأخذ ثأر ١٦٠٠٠ عسكري عراقي سقطوا في عام ١٩٧٤ - ١٩٧٥ على الجبهة الكوردية التي كانت تساندها إيران الشاه.

- النزاع الحدودي

في آذار ١٩٧٥ حينما وقّع صدام حسين مع شاه إيران على إتفاقية الجزائر التي سجلت نهاية المساندة الإيرانية (والأمريكية والإسرائيلية) للتمرد (الثورة) الكوردي

– تحليل خاطيء ميزان القوة

كان صدام حسين حذراً بالهجوم على إسرائيل لأنه لم يكن يتمنى ما أصاب سوريا التي فقدت بناها التحتية لمرة (١٩٦٧ و ١٩٧٣) بفعل ضربات الدولة العبرية. بالمقابل، كانت إيران تبدو لصدام بأنها عدوة في مستواه. المخابرات العراقية (كانت مخدرة من قبل المعارضين الإيرانيين وربما من قبل المخابرات الغربية) كانت غارقة بمعلومات تؤكد على تحلل وإنهيار القوات الإيرانية المسلحة التي تم توقيف وسجن وإعدام العديد من قادتها - قتلوا ٨ جنرالات في الأيام التي تلت إستلام الخميني للسلطة - والتي كانت بأمر الحاجة إلى قطع الغيار لآلاتها الأمريكية وبالأخص لمدرعاتها وطائراتها. كان قد حل حراس الثورة (الباسدران) الذين يقودهم ملاي بلا أي تجربة عسكرية محل الجيش النظامي. أما صدام حسين فقد كان يملك جيشاً منضبطاً ومدرباً بشكل جيد ٢٠٠٠٠٠ عسكري مجهز ب ٢٢٠٠ دبابة و ٤٥٠ طائرة. ساهمت كل هذه العناصر في إقناع صدام حسين وأركان جيشه بأن الفرصة حانت لشن هجوم بالقوات العراقية المتفوقة في التجهيز والعدة على النظام الإيراني الذي سوف ينهار بفعل الضربات العنيفة لمدرعات وطائرات بغداد. لم يكن النصر غير مسألة أيام وسوف ينتصر العراقيون في معركة القادسية - تيمناً بالمعركة الشهيرة لعام ٦٣٦ التي كرست إنتصار العرب المسلمين على الفرس الزرادشتيين.

– محاولة إغتيال طارق عزيز والمواجهة مع الأحزاب الشيوعية

في الأول من نيسان ١٩٨٠ حاول مناضل من الدعوة، أحد الأحزاب الإسلامية الشيوعية العراقية إغتيال طارق عزيز، عضو مجلس قيادة الثورة بقبلة ألقاها في جامعة المستنصرية. وبعدها بفترة قصيرة أعاد حزب الدعوة محاولة الإغتيال ضد لطيف نصيف جاسم، وزير الثقافة. هاتين المحاولتين أطلقت موجة من القمع والإضطهاد ضد الشيعة: هجروا آلاف الشيعة إلى إيران وفي ٨ نيسان ١٩٨٠ تم تنفيذ حكم الإعدام بالقائد الروحي للشيعة العراقيين، آية الله محمد باقر الصدر وشقيقته.

– سلسلة من الحوادث الحدودية

في شهر حزيران ١٩٨٠ تعددت المناوشات (٢٠٠ مرة من حزيران إلى أيلول) وتم تبادل لإطلاق النار بالمدفعية على طول الحدود وخاصة في قصر شيرين.

حرب بلا نهاية

الهجوم العراقي (٢٢ أيلول ١٩٨٠)

في ١٧ أيلول ١٩٨٠ ألغى صدام حسين إتفاقية الجزائر لعام ١٩٧٥ وأعلن بأن شط العرب هو «نهر وطني» وفي ٢٢ أيلول ١٩٨٠ هاجم العراق.

مستفيداً من عامل المفاجأة فالهجوم العراقي الذي تم شنه في الجو والبر كان ناجحاً في البداية. خوفاً من الفعالية القتالية للقوات الجوية الإيرانية المجهزة بأفضل المعدات الأمريكية أستوحى العراقيون من الدرس الذي قدمه الأسرائيليون خلال حرب الأيام الستة في عام ١٩٦٧ فشنوا هجوماً جويًا واسعاً مستهدفين تحطيم الطيران الإيراني على الأرض ولتحقيق ذلك قاموا بقصف القواعد الجوية الإيرانية الرئيسية (طهران، تبريز، أورمية، همدان، أحواز، عبادان، إلخ). حقق العراق نجاحاً نصيفاً لأن الجزء الأعظم من الطيران الإيراني خرج سالماً بفضل الملاحيء المبنية وفقاً للتصور الأمريكي ومع ذلك تمكّن الطيران العراقي من إصابة العديد من مخازن الوقود والذخيرة.

في نفس اللحظة أطلق الأركان العراقي ست فرق وشن هجوماً برياً واسعاً على ثلاثة محاور. في الشمال إستولى العراق على قصر شيرين وفي الوسط على مهران وفي الجنوب، في خوزستان عبرت المدرعات العراقية شط العرب بلا عقبات و تقدمت بإتجاه عبادان، حرم شهر (مدينتين واقعتين على ساحل شط العرب) والأحواز. في بداية تشرين الثاني، إحتل العراقيون جزءاً من عبادان ودمروا مصفاها بالمدفعية العراقية وفي ١٠ تشرين الثاني سقطت مدينة حرم شهر بعد خوض قتال عنيف. بهذه الصورة إحتل العراقيون ممراً جسرياً هاماً داخل الأراضي الإيرانية وأمام هذه «الحرب الخاطفة» توقع العالم بأجمعه إنتصار العراق في غضون عدة أسابيع.

الهجوم الإيراني المضاد والإنحاب العراقي (١٩٨١-١٩٨٢)

رفضاً لفكرة الهزيمة التي كانت تلوح في الأفق قام القادة الإيرانيون بتعبئة كل القوات الموجودة وحرر الرئيس بني صدر الطيارين الذين كانوا في السجن بسبب موالاتهم للشاه.

في ذات الوقت قامت السلطات الإسلامية الإيرانية بتعبئة مواطنيها: مئات الآلاف من

حرب الاستنزاف (١٩٨٣-١٩٨٧)

انتقلت قيادة العمليات من أيادي العسكريين المحترفين إلى أيادي رجال الدين المقتنعين بأن الإيمان يخلق المعجزات...

في ١٣ تموز ١٩٨٢، اليوم الأول لشهر رمضان، أطلق الإيرانيون عملية «رمضان» - داخل الأراضي العراقية مستهدفين هذه المرة البصرة.

تعتبر هذه المعركة واحدة من أكبر المعارك البرية التي جرت منذ العام ١٩٤٥ حيث تكبد فيها الإيرانيون خسائراً فادحة دون أن يحققوا أي نصر حاسم.

في نهاية عام ١٩٨٢ ارتفعت خسائر إيران إلى أكثر من ١٢٠٠٠٠ شخص بينما وصلت الخسائر العراقية إلى الرقم ٦٠٠٠٠. يبدو أن حرب الاستنزاف هذه كانت تسير لمصلحة الإيرانيين حيث لأنهم كانوا يتقدمون في كل مرة بضع كيلومترات داخل الأراضي العراقية ويضعون صدام حسين، الذي كان يكرّر بلا جدوى مقترحاته للتفاوض، في حالة عصبية دائمة.

من شباط إلى تشرين الثاني ١٩٨٣ شنّ الإيرانيون سلسلة جديدة من الهجمات التي أسموها «الفجر» على جبهة تمتد من كوردستان حتى أهوار منطقة البصرة.

من بين كل هذه الهجمات نذكر عملية الفجر (٢٠ تموز - ٥ آب ١٩٨٣) بإتجاه حاج عمران، المقر السابق للجنرال مصطفى البارزاني، التي اشترك فيها البيشمركة الكورد. بعد هذه العملية بأيام، ألقى النظام العراقي القبض على ٨٠٠٠ رجل من عشيرة البارزاني إنتقاماً، والذين إختفوا إلى الأبد.

بعد فترة إستراحة في الهجمات البرية عادت عمليات الفجر في عام ١٩٨٤.

كانت عملية الفجر ٦ (٢٢ شباط - ٣٠ آذار ١٩٨٤)، والمعروفة أيضاً تحت تسمية عملية الخيبر) ضخمة جداً: عبر نصف مليون من حرس الثورة والباسيج الأهوار بالقوارب ووصلوا إلى بعد كيلومترات قليلة من طريق بغداد - البصرة.

بين تاريخ ٢٩ شباط والأول من آذار سقط حوالي ٢٥٠٠٠ مقاتل من الطرفين. لعدم قدرته في الإستمرار بتحمل هكذا خسائر عالية أمر صدام حسين بإستعمال الأسلحة الكيماوية خلال معركة جزر مجنون التي نجح الإيرانيون رغماً عن ذلك في إحتلالها

المتطوعين - أقلهم سنّاً كان عمره ١٢ عاماً وأكبرهم عمراً تجاوز الستين - يتوجهون إلى الجبهة ويبقون فيها من عدة أسابيع إلى عدة أشهر. كانت هذه الميليشيا الشعبية «البسيج» تشكّل الجزء الأكبر من «الموجات الإنسانية» التي أرسلتها طهران ضدّ المواقع العراقية للتعويض بالعدد مقابل إفتقار الجيش إلى الأسلحة المتطورة. في أيلول ١٩٨١ أجبر الإيرانيون العراقيين على رفع الحصار عن عبادان.

في عام ١٩٨٢، لكي يتمكّنوا من تعبئة مئات الآلاف من المتطوعين، أصدر الخميني فتوى بأنّ الشباب لا يحتاجون إلى موافقة أولياء أمورهم للمغادرة إلى الجبهة وبأنّ التطوع هو واجب ديني. من الأول وإلى ٢٤ أيار ١٩٨٢ أطلق الإيرانيون عملية «بيت المقدس» التي سمحت بإستعادة خرم شهر وأسر ٢٠٠٠٠ عسكري عراقي. غيرت هذه العملية مسار الحرب لأول مرة ووجّهت صفعاً على خد صدام حسين.

وفي ٩ حزيران ١٩٨٢ أعلن صدام حسين إستعداده للتفاوض بشأن وقف إطلاق النار وإنسحاب القوّات العراقية من إيران فردت طهران ووضعت أربعة شروط غير قابلة للتحقيق لوقف إطلاق النار:

- الإنسحاب غير المشروط للقطعات العراقية،

- دفع العراق لمبلغ ١٥٠ مليار دولار كتعويض للحرب

- عودة المرحّلين والمسفرّين إلى العراق،

- تشكيل لجنة تحقيقية مكلفة بتعيين المعتدي.

في ١٢ تموز ١٩٨٢ تبنّى مجلس أمن الأمم المتحدة قراراً ينادي الطرفين بوقف إطلاق النار وبسحب القوّات إلى الحدود الدولية المُعترف بها. رفضت إيران هذا الحل - ولكنها قبلت به بعد مرور ست سنوات.

و إرتكبت إيران بدورها الخطأ في التحليل ولم تنتهز هذه الفرصة لعقد السلام بشروط معقولة. منذ هذه الفترة ولحدّ هذا اليوم يوبّخ الإيرانيون قادتهم - وبالأخصّ الخميني - لإطالتهم الحرب خلال ست سنوات طويلة فالحرب التي كانت «حرباً مفروضة على الإيرانيين» مثلما يقول عنها الإيرانيون أصبحت حرباً مفروضة... من قبل الإيرانيين وكان جواب السوفيات على هذا الخطأ هو العودة إلى تسليم معدّاتهم والآتهم للعراق.

وحيث أنّ مخزونها النفطي يمثل سدس إحتياطيات العراق. إتّهم الإيرانيون بغداد باستخدامه غاز الخردل وغاز الأعصاب (تابون) وإستعماله نوعاً من الفطريات المعروفة تحت تسمية «المطر الأصفر»، المنتجة بمساعدة العلماء السوفيات.

في عام ١٩٨٥ وبعد أن يأسّت بغداد في إجبار طهران على التفاوض فقد أطلقت عمليات تستهدف المدنيين لكي يمارس الرأي العام الإيراني ضغطاً على الخميني. بدأت حرب المدن في آذار ١٩٨٥: ضُربت طهران لعدّة مرّات من قبل الطيران العراقي فردّت إيران بقصف بغداد ومدن عراقية أُخرى وعلى الأخص كركوك بصواريخ أرض - أرض مهداة إليها من ليبيا . إعتباراً من شهر آب ١٩٨٥ هاجمت القوّة الجويّة العراقية ميناء الخرج لأكثر من أربعين مرّة.

في ٩ شباط ١٩٨٦، ذكرى اليوم الذي سقط فيه الشاه، باشر ٣٠٠٠٠ إيراني هجومًا جريئاً بالبرمائيات عبر شطّ العرب بإتجاه ميناء الفاو. تمكّن الإيرانيون على إحتلالها من خلال مفاجأتهم للعراقيين في الليل وإستخدامهم لتقنية يُشهد عليها - كانت العملية ضربة موجعة للعراقيين الذين لم يفلحوا في إستعادتها إلاّ بعد سنتين، أي في نيسان من عام ١٩٨٨ . بدأت حكومات الخليج تتساءل إن كانت مصيبة باللعب على إحتمالية إنتصار صدام حسين وبتمويل جهده الحربي وتساءل الدائنون الغربيون أيضاً إن كانوا محقّين في جدولة الدين العراقي.

في نهاية عام ١٩٨٦ جمع الإيرانيون ٥٠٠٠٠٠ مقاتل لشن «هجوم نهائي» لم يحصل أبداً. مع ذلك، بتاريخ ٢٤ كانون الأوّل ١٩٨٦ أدّت هجمة على مدينة البصرة إلى مقتل أكثر من ٤٠٠٠٠ شخص وكان الإيرانيون على وشك إختراق الخطوط العراقية ولكنهم فشلوا في النهاية.

إعتباراً من ٨ كانون الثاني ١٩٨٧ شنت إيران سلسلة من العمليات أطلقت عليها تسمية كربلاء ٥ و ٦ و ٧ . وأثناء عملية كربلاء ٥ التي إستهدفت البصرة نجحت الطلائع الإيرانية في الوصول إلى بعد خمسة عشر كيلومتراً من المدينة وقد تكبّد العراقيون فيها خسائراً ثقيلة جداً - ٢٠٠٠٠ رجل - ولكن الخسائر الإيرانية وصلت إلى أكثر من ثلاثة أضعاف. وقد أصاب هذا الإنتصار النصفى إرادة الإيرانيين في الصميم: النزيف البشري لهذه المعركة عزّز قناعة الكتلة السياسية التي قرّرت وضع حد نهائي لهذه الحرب.

حرب الناقلات النفطية

منذ عام ١٩٨١ أعلنت بغداد بأنّ المنطقة البحرية المحاذية للسواحل الإيرانية في شمال الخليج (العربي / الفارسي!) هي منطقة حربية. في نهاية شهر نيسان من عام ١٩٨٤ ، أطلقت طائرة سوپر إتاندارد Super Etandard - صاروخ إكزوسيت فأصاب ناقلة بترول سعودية بالقرب من جزيرة الخرج. إعتباراً من هذا التاريخ إبدأت حرب الناقلات البترولية التي تمونّ الغرب بالنفط بين إيران والعراق : تعتمد اليابان على الخليج بنسبة ٧٠٪ من إستيراداتها النفطية وتعتمد عليه أوروبا بنسبة ٥٠٪. خلال الأسابيع الأربعة التي تلت تلك العملية هوجمت عدّة عشرات من الناقلات النفطية من قبل الدولتين.

في آب - أيلول ١٩٨٥ تعدّدت هجمات الطيران العراقي على ميناء الخرج: إنخفض صادرات الخام الإيراني من ١,٦٠٠,٠٠٠ برميل يومياً إلى أقل من ١ مليون برميل ولكن بسرعة قام الإيرانيون ببناء موانئ أُخرى أكثر جنوباً، في جزر سيرى ولارك التي هوجمت بدورها أيضاً .

بعد مرور فترة هدوء نسبي وبمبادرة من العراقيين عادت حرب الناقلات بقوة أكبر في بداية عام ١٩٨٧ . كان هدف صدام حسين هو تحريض وإثارة الإيرانيين بحيث يتّخذوا إجراءات جذرية بإغلاق مضيق الهرمز مثلاً ممّا يؤدي إلى تدخّل القوى العظمى...ولكن ردّ الإيرانيون بطريقة مدروسة ومحسوبة فتعدّدت هجماتها ضدّ الناقلات العملاقة للدول النفطية العربية المُساندة للعراق. إستهدف الإيرانيون بشكل خاص الناقلات الكويتية لأنّ الكويت كانت تشكّل مع السعودية الممولّتين الرئيسيتين لبغداد. وجّه الكويتيون نداءًهم إلى موسكو التي أجرت لهم ثلاث ناقلات وإلى الأمريكان الذين وضعوا علمهم على أكثر من ١٢ ناقلة نفطية كويتية تبحر في الخليج.

نهاية الحرب

لإنهاء الحرب أعلن صدام حسين في عام ١٩٨٧ «حرباً شاملة»: هاجمت الطائرات العراقية أهدافاً إقتصادية مثل مصرفى تبريز التي ضُربت في أيلول ١٩٨٧ . في شباط ١٩٨٨ هطلت موجة تزيد عن ٢٠٠ صاروخ - سكود معدّل - على المراكز المأهولة بالسكّان وبالأخص على طهران أعقبها أيضاً ضربات بالطيران العراقي لعدّة مرّات.

أدت الصواريخ إلى مقتل حوالي ٢٠٠٠ شخص مما هزَّ عقل الإيرانيين فهربوا من العاصمة وتأكَّد لهم عدم إمكانية قادتهم بالرد على الهجمات العراقية.

في ١٦ آذار ١٩٨٨ إستولى حرَّاس الثورة المساندون من قِبَل بيشمركة الإتحاد الوطني الكوردستاني على حلبجة، المدينة الصغيرة لكوردستان العراقية. قصفت الطائرات العراقية المدينة بقنابل محشوة بالغاز وقتلت خلال دقائق معدودة ٥٠٠٠ ضحية مدنية عراقية (أنظر إلى فصل كريس كوتشيرا بخصوص حلبجة).

في ١٧ نيسان ١٩٨٨، عادت القوَّات العراقية التي أصبحت تحت أوامر رئيس جديد لأركان الجيش، الجنرال نزار الخزرجي، إلى الهجوم وإستعادت ميناء الفاو.

وقد كشف الجنرال نزار الخزرجي مفاتيح هذا النجاح: أُستدعي، بعد مرور وقت قصير على تعيينه رئيساً للأركان (تمَّوز ١٩٨٧)، من قِبَل صدام حسين الذي طالبه بإعداد «خطة إعادة إعتبار» فأقترح سحب نصف قطععات (المشاة والمدرَّعات) من الجبهة والقيام بتدريبهم بصورة مكثَّفة في مواقع تم إعادة بنائها قبل المباشرة بشن الهجوم. يبدو واضحاً بأنَّ الخطة كانت محكمة حيث إستطاع العراقييون من إستعادة الفاو.

هذا النصر عزَّز من معنويات القطعات العراقية التي إستعادت على التوالي الشلامجة (بحيرة الأسماك) الواقعة في شرق البصرة يوم ٢٥ أيار وإستعادت بتاريخ ٢٥ حزيران جزر المجنون التي بقيت تحت إحتلال الإيرانيين منذ عام ١٩٨٤ وإنتصرت القوَّات العراقية أيضاً في وسط وشمال الجبهة، في دهلران (١٢ تمَّوز) وفي قاطع قصر شيرين (بعد وقف إطلاق النار...).

في ٣ تمَّوز ١٩٨٨ كانت السفينة الحربية الأمريكية فانسين Vincennes تجوب في الخليج حينما هاجمتها القوارب الإيرانية السريعة وألتي كشف رادارها في ذات الوقت طائرة إيرانية تقترب منها. لم تجيب الطائرة على إنذارات الفانسين فأصدر قائد السفينة أمراً بإسقاطها. كانت الطائرة في الواقع من نوع الإيربوس وهي تجارية تعود إلى إيران أير Iran Air وتحمل ٢٩٠ راكباً على متنها. إعتبر الإيرانيون رسالة هذه «الحادثة» بأنَّها واضحة جداً - الولايات المتحدة أصبحت على إستعداد بالتدخل مباشرة في الصراع.

في ١٨ تمَّوز وافقت إيران دون شروط على قرار الأمم المتحدة ٥٩٨ الذي نصَّ على وقف إطلاق النار وعودة قوَّات البلدين إلى الحدود الدولية المُعترف بها (المادة ١) وتشكيل «لجنة حيادية» من أجل تحديد «مسؤوليات النزاع» (المادة ٦). تحرَّك العراق بالهجوم على عدَّة جبهات للإستيلاء على الأراضي الإيرانية قبل دخول وقف إطلاق النار حيَّز التنفيذ. في ٨ آب ١٩٨٨ أعلن السكرتير العام للأمم المتحدة وقفاً لإطلاق النار مقبولاً للطرفين ونُفذ فعلياً إعتباراً من يوم ٢٠ آب ١٩٨٨ .

كيف قبل الخميني الذي كان يؤكِّد بأنَّ «الحرب المُجبر عليها أفضل من السلام المفروض» بوقف المعارك دون الوصول إلى هدفه: إسقاط صدام حسين؟ التدخل المتزايد للأمريكان لعب بالتأكيد دوراً هاماً فالإيرانيون كانوا مقتنعين بأنَّ الأمريكان قد أصبحوا على إستعداد «لإرتكاب جريمة» من أجل إيقاف الحرب - ضرب الإيربوس هو الإنذار الأوَّل. لكن حسب تقدير بعض المحلِّين فإنَّ ضرب حلبجة بالغازات الكيميائية (١٦ آذار ١٩٨٨) الذي حصل بعد ضربة سردشت (٢٨ حزيران ١٩٨٧) هو بالتأكيد العامل الحاسم لإنهاء الحرب. من خلال ذبح المواطنين المدنيين بغازات الخردل والساارين وأنواع أُخرى أدرك صدام حسين الهدف المنشود: خلق القلق والإضطراب النفسي وسط الجماهير الإيرانية التي كانت ترتعد لفكرة ضرب المدن الإيرانية الكبرى بصواريخ محمَّلة بالغازات وفي النهاية تحقَّق للعناصر الأكثر واقعية (الرئيس رفسنجاني) من محيط الخميني بأنَّ الشعب الإيراني قد أنهكته الحرب: الإيرانيون الذين كانوا على إستعداد للتضحية بحياتهم في بداية الحرب لم يعودوا يقبلون بتضحية جيل ثاني من أجل أهداف غير واضحة ودقيقة بالإضافة إلى الإنطباع بعزلتهم وبمحاربتهم للعالم كلِّه.

إنتهت الحرب بلا منتصر: لم يتمكَّن أيٌّ من القائدين إزاحة الآخر عن السلطة...هذا السبب كان يكفي صدام حسين لكي يعتبر نفسه منتصراً. لم يبقى الخميني على قيد الحياة لفترة طويلة بعد وقف إطلاق النار الذي وجده « مرّاً مثل العلقم» وتوقَّى في ٣ نيسان ١٩٨٩ بينما إستمرَّ صدام حسين في السلطة ١٤ عاماً أُخرى. لكن، حصل الخميني على ثأره فهذه الحرب الأزلية كانت تحمل في نواتها بذور سقوط صدام حسين: من خلال إجباره على التسلَّح الفائض عن حاجته وبالنتيجة إزدياد ديونه،

بشكل خاص من دول الخليج (المقدّر بـ ٨٠ مليار دولار) فبدأت عملية هبوطه إلى جهنّم المشاكل الذي قاده إلى اللّعب ببوكر الكويت الذي دفع بالبلدان التي كانت من أشد مؤيّديه إلى الوقوف ضده وأدّى إلى الحرب الثانية والثالثة للخليج.

حرب لعصر آخر

حسب تقدير الخبراء العسكريين في الغرب فلا العراقيون ولا الإيرانيون إستخدموا بشكل أمثل الآلات العصرية المتطورة التي كانت بحوزتهم فالعراقيون الذين إستخدموا الدبّابات المتطورة مثل ال T72 السوفياتية الصنع والمجهّزة بنظام إلكتروني إستعملوها وكأنها دبّابة مصنوعة في الحرب العالمية الثانية.

بعد فشل هجومهم البدائي في الأسابيع الأولى للحرب إعتد العراقيون حرباً دفاعية من خلال بنائهم لتحصينات، بالأخص حول البصرة المحمية «بحلقة حديدية» مُحاطة بحقل للألغام، دافنين دبّاباتهم غالباً وكأنها قطع للمدفعية. كذلك إستخدموا الأرض بشكل مستمر من خلال إغراق الأراضي المنخفضة لسد الطريق أمام الوحدات الإيرانية المدرّعة والغرض من كل ذلك كان إصابة أكبر عدد ممكن من الإيرانيين وتقليل عدد الضحايا من العراقيين ولكن العمليات العسكرية العراقية كانت غالباً غير منسّقة والقادة المحليون يخشون أخذ المبادرات وينتظرون أوامر القيادة العامّة - يعني من صدّام حسين.

أمّا الإيرانيون من جانبهم فقد إستخدموا مدرّعاتهم بشكل سيء ولم يستفيدوا من قابليتها في الحركة ونسوا تنسيق حركاتهم مع حركات المشاة . تركت العديد من الطواقم دبّاباتها سواءً في الطين أو في أعقاب خلل آلي أو عطل ما . الوسائل الفنية كانت تعوزهم لفتح الممرّات داخل حقول الألغام فالقيادة الإيرانية لجأت إلى الموجات البشرية ووجّهت عشرات الآلاف من حرّاس الثورة والبسيج لمهاجمة المواقع العراقية التي يستحيل عليهم إختراقها . سقط الآلاف من القتلى للبلدين في يوم واحد فقط خلال المواجهات الدموية لإحتلال موضع يتغيّر يومياً لعدّة مرّات بين الطرفين - ودون أن يغيّر شيئاً في مسار الحرب. تدريجياً، أخذت هذه الحرب تشبه الحرب العالمية الأولى - وحتى على صعيد الأدب الحربي مثلما أشار إليه مؤتمر «حرب وذاكرة» الذي نظّمه المعهد الفرنسي للبحث في إيران بعد إنتهاء الحرب بعشر سنوات(IFRI).

كما كان حال المتنافسين في الحرب العالمية الأولى فقد إستخدم العراقيون الأسلحة الكيماوية على نطاق واسع وبالأخص غاز الخردل وأصبح العراق أول دولة في التاريخ عام ١٩٨٤ يستخدم غاز الأعصاب «التابون» في ساحة المعركة. ولكن كم كان مستغرباً تعليق الخبراء الأمريكيان أمام هذا الإستعمال بحيث أنّهم كتبوا:

«قدّمت الأسلحة الكيماوية حلاً مثالياً تقريباً لمشكلة عدد الباسدران والبسيج المسلّحين تسليحاً خفيفاً...حينما إستعملوهم ضدّ مواضع المدفعية ومناطق تجمع القطعات. وهكذا، أصبح إندماج الأسلحة الكيماوية أسلوباً وعقيدة عسكرية.»

وفقاً لتقرير شارل دويلفر فصدّام حسين مقتنع لحد اليوم (٢٠٠٤) بأنّ الأسلحة الكيماوية كانت عاملاً «حاسماً» لإنتصاره في عام ١٩٨٨ على إيران وبأنّها «أنقذت» العراق ٢٠٠٤ (Iraq Survey Group, 30 Septembre 2004) النتيجة النهائية للخسائر العسكرية الإيرانية الناجمة عن الأسلحة الكيماوية رهية جداً فيما لو صدّقنا هذا التقرير. حاول الإيرانيون إستخدام الأسلحة الكيماوية أيضاً ولكن، كما قال الجنرال نزار الخزرجي، رئيس أركان الجيش العراقي « خبرتهم لم تكن بمستوى خبرة» العراقيين.

عولة الحرب

قلب هذا الصراع قطعة الشطرنج الجيوستراتيجية للشرق الأوسط: كل الدول تقريباً، إن شاعت أم أبت، إنحازت لهذه الدولة أو تلك. الدول العربية المحافظة ساندت بالطبع العراق. المملكة العربية السعودية والإمارات والكويت كانت تموّل خلال كل هذه السنوات الجهود الحربية العراقية عبر «ديون» أو «منح» تصل إلى عشرات المليارات من الدولار. قدّمت مصر والأردن مستشارين عسكريين وأسلحة - كميّة الآلات العسكرية السوفياتية الصنع المسلّمة من مصر قدّرت بـ ١ مليار دولار في عام ١٩٨١ فقط...وتجدّد التسليم في السنوات اللاحقة و«تطوّع» حوالي ٣٠٠٠٠ مصري في الجيش العراقي بينما وصل أكثر من مليون مدني مصري ليحلّوا محل الأيدي العاملة العراقية التي ذهبت إلى جبهة المعركة...

في الحقيقة، لم يكن الإجماع العربي إلاّ ظاهرياً: إحتفظت الإمارات وخاصة سلطنة عمان بعلاقاتها الجيدة مع طهران.

حادث عن القاعدة وإنفصلت منذ البداية دولة عن هذه الجبهة العربية، أصبحت سوريا حافظ الأسد المتطرف الحليفة الأكثر وفاءً لإيران فأقفلت خط الأنابيب الذي يمر عبره النفط العراقي إلى البحر الأبيض المتوسط. الدوافع السورية كانت معروفة: منذ وصولهم إلى السلطة عام ١٩٦٣ في دمشق (للبقاء فيها) وفي بغداد (لعدم العودة إليها إلا في عام ١٩٦٨) كانت هناك منافسة دموية بين جناحي حزب البعث وكان حلم حافظ الأسد هو إعادة تكوين سوريا الكبرى على أنقاض القوة العراقية. إصطفت ليبيا واليمن أيضاً داخل معسكر مؤيدي إيران ولكن بقي دورهم ثانوياً جداً رغم تسليم ليبيا لبعض الصواريخ من نوع سكود إلى إيران في عام ١٩٨٥ والجزائر التي كانت قريبة من إيران في البداية أخذت تبتعد عنها وكانت تحاول الحفاظ على علاقات جيدة مع المعسكرين.

حصل الإيرانيون أيضاً على مساندة غير رسمية وغير مُعلن عنها: مساندة إسرائيل التي كانت تخشى الطموحات النووية لصدّام حسين القريب نسبياً من إسرائيل مقارنة مع الخطاب العدائي ضدّ الصهيونية للخميني الذي لم ينسى بأنّه لا يزال هناك تجمع يهودي هام (يقدر بـ ٣٠٠٠٠ شخص) في إيران. ودخل الإسرائيليون بشكل مباشر في الصراع حينما هاجموا في ٧ حزيران ١٩٨١ وضربوا مركز البحث النووي لتمّوز، قرب بغداد، المبنية بمساعدة فرنسا. ورغم الحصار الرسمي الأمريكي المفروض على بيع الأسلحة إلى إيران فقد قامت إسرائيل بتسليم قطع الغيار إلى طهران حتى عام ١٩٨٢ وإعتباراً من عام ١٩٨٥ تورّطت إسرائيل مباشرة في فضيحة تسليم الأسلحة الأمريكية إلى إيران المقترح من قبل مستشاري الرئيس ريغان - إيران غيت.

ولكن قامت دول غربية عن المنطقة - الإتحاد السوفياتي، الولايات المتحدة الأمريكية، فرنسا - بالتدخل في هذا الصراع بشكل حاسم وبالتأكيد بعد القيام بمراوغات طويلة. حاولت الصين وكوريا الشمالية الرد على المبادرات السوفياتية بلعب دور في بيع الأسلحة - حيث جهّزتا ٤٣٪ من الإستيرادات العسكرية الإيرانية في عام ١٩٨٥ و ٧٠٪ في عام ١٩٨٦. بعد تخليه بسرعة عن هدفه الأولي بسحق القوّات الإيرانية وبالإطاحة بنظام الخميني حاول صدّام حسين إعتباراً من عام ١٩٨٢ - ١٩٨٣ التفاوض مع الخميني. أمام رفض قائد الثورة الإسلامية بالتفكير في التعامل مع دكتاتور شرير سعى صدّام حسين إلى فرض المفاوضات بالقوة من خلال تكبيد

الإيرانيين خسائراً بشرية هائلة وإستخدام الأسلحة الكيماوية وإستهداف الصارات النفطية الإيرانية ومهاجمة الناقلات النفطية في الخليج وأخيراً فعل كل ما كان يقدر عليه من أجل توريث القوى الكبرى في الصراع.

في بداية الحرب، أعلن الإتحاد السوفياتي رغم إرتباطه بمعاهدة صداقة وتعاون (نيسان ١٩٧٢) حياده وعلّق صادراته من الأسلحة إلى الطرفين المتحاربين. بعد توقيف وإعدام قادة حزب توده القريب من الإتحاد السوفياتي في شباط ١٩٨٣ وطرد ١٨ دبلوماسي سوفيّاتي في أيار ١٩٨٣ قطعت موسكو نظرياً علاقاتها مع إيران وأعدت تصدير أسلحتها إلى العراق ليصبح الإتحاد السوفياتي من جديد المصدر الرئيسي مع فرنسا ولكن مع ذلك فلم تغلق موسكو الباب على إيران حيث سمحت لحلفائها من أوروبا الشرقية بتصدير الأسلحة إليها.

مرّت علاقات الولايات المتحدة مع العراق بأربع مراحل؛ كانت المرحلة الأولى حيادية - كان الأمريكان غارقون في أزمة الرهائن مع إيران. ثمّ بعد إستعادة خرم شهر من قبيل الإيرانيين جاءت مرحلة الإنفتاح حين قيام دونالد رامسفيلد بزيارة بغداد في ١٧ كانون الأوّل ١٩٨٣ والتي أدت إلى عودة العلاقات الدبلوماسية مع العراق. ومن ثمّ حين إحتلال الفاو مرّت العلاقات بمرحلة المساعدات المالية والعسكرية «التقنية» (تسليم المخابرات المركزية الأمريكية للمعلومات الموثقة بصور الأقمار الصناعية الأمريكية عن المواضيع الإيرانية إلى العراقيين والقيام بتشويش الإتصالات التلفزيونية الإيرانية) مما شكّلت المرحلة الأخيرة من التدخل المباشر في الصراع. ضمن هذا التسلسل المنطقي للأحداث ثمة حلقة لا تتوافق معها - تسليم الأسلحة إلى الإيرانيين مع أمل تحرير الرهائن الأمريكان في لبنان (١٩٨٥) وكوسيط بين الطرفين، إسرائيل..وهو القضية المعروفة باسم إيران غيت (أنظر إلى فصل جونatan راندل، «الولايات المتحدة - العراق، علاقات غامضة».

كانت مساندة فرنسا كلبية ووقعت منذ البداية في فخ العلاقات القوية والتعاون التي بنتها الحكومات اليمينية التي سبقت وصول فرانسوا ميتران إلى السلطة. ولكن تحوّل إلتزام فرنسا الإشتراكية وبالأخص وزير خارجيتها كلود شيسون بسرعة إلى إلتزام سياسي وأيديولوجي: بين نظامين لا يُعرفان بأنهما ديموقراطيان إختارت فرنسا، مثلما كتب عنها بول بالتا Paul balta الدولة «التي تُعتبر أكثر علمانية وعصرية، الدولة التي

لا تجازف بإشعال النار في الشرق الأوسط وهز إستقرار المغرب». ذهب هذا الإلتزام - هذا التعامي، إن أمكن القول - إلى حد إعاقة (تشرين الأول ١٩٨٣) طائرات سوبر إيتاندارد Super Etandeedر مجهزة بصواريخ إكزوسيت التي لعبت دوراً هاماً في حرب الناقلات النفطية (أنظر إلى فصل كريس كوتشيرا، «فرنسا - العراق، علاقات الحب والهيام».

كلفة الحرب

الكلفة المالية للحرب كانت ضخمة جداً للبلدين.

بالنسبة لإيران فالأرقام الصحيحة غير متوفرة ولكن حسب تقديرات معينة للوكالة الأمريكية في رقابة الأسلحة . US Arms Control and Disarmament Agency (فالنفقات العسكرية كانت تشكل ٢٩,٩ ٪ من نفقات الحكومة المركزية في عام ١٩٨٤ . الرقم ضخم جداً وإستنتج البنك الدولي بأنه إذا حُصص ثلث الميزانية السنوية للجهود الحربية فلا بد أن يؤثر ذلك على قواطع - التربية، الصحة، السكن، إلخ. كان الدمار هائلاً في الدولتين ففي إيران أصبحت مدينة خرم شهر كتلة خراب وألحقت خسائر جسيمة بمدينة عبادان ومصفاها ودمرت عشرات المدن الأخرى. قدر تقرير إيراني منشور في آذار ١٩٨٣ الخسائر التي تكبدها الاقتصاد العراقي ب ١٣٥ مليار دولار حيث يمثل ٣٥ مليار منها النقص الحاصل في الصادرات النفطية و ٢٣ مليار دولار الخسائر التي تكبدها قطاع الزراعة.

الكلفة البشرية هي أكثر صعوبة في التقدير ولكن في نهاية عام ١٩٨٦ فالخسائر الإيرانية، وفقاً لبعض التقديرات، زادت عن ٢٥٠٠٠٠ قتيل و ٥٠٠٠٠٠ جريح وقدرت الخسائر العراقية ب ١٠٠٠٠٠ قتيل و ١٥٠٠٠٠ جريح وعند إنتهاء الحرب ذكرت بعض المصادر بأن الخسائر الإيرانية كانت بين ٧٥٠٠٠٠ الى مليون قتيل ! وأما عدد أسرى الحرب فقد وصل الرقم ، وفقاً للصليب الأحمر الدولي CICR إلى ١٥٠٠٠ إيراني و ٦٥٠٠٠ عراقي. المعارك التي دارت في المناطق الحدودية وتدمير المدن الإيرانية القريبة من الحدود وتسفير وترحيل عشرات الآلاف من العراقيين ذوي «الأصول» الإيرانية (أنظر إلى فصل جينس أوه راهيه، «تسفير وترحيل الشيعة إلى إيران») أدى إلى ظهور مليون ونصف لاجيء إيراني.

في العراق، إتبع صدام حسين أثناء المرحلة الأولى من الحرب «سياسة الزبدة والمدافع» لإقناع الجماهير من خلال إدخاره للتضحيات التي ترافق إعتيادياً أي صراع حيث ضخّم الميزانية لترتفع من ١٤ مليار دولار في عام ١٩٨٠ إلى ٣٠ مليار في عام ١٩٨٢ ونجح في مواصلة مشاريع التنمية الموقّعة قبل الحرب وأمر بإستيراد كميات هائلة من المواد الإستهلاكية. تسابق رجال الأعمال بالوصول إلى بغداد أنسى جماهير العاصمة بأنه ثمة صراع يجري على الحدود.

ولكن كل هجوم إيراني كان يؤدي إلى إستنزاف حقيقي وسط مراتب الجيش العراقي وأصبح يوماً بعد يوم أصعب على السلطات مسألة إخفاء تلك الخسائر وتعويضها بمتطوعين جدد في بلد يمثل تعداد نفوسه ثلث عدد نفوس إيران. إعتباراً من عام ١٩٨٣ شعر صدام حسين بعجز موارده المالية: هبوط الصادرات النفطية وإنخفاض سعر البترول ونفقات الحرب أنهكت الإحتياطيات النقدية للعراق التي إنخفضت من ٣٥ مليار دولار إلى ٣ مليارات في نهاية عام ١٩٨٣ ، تركت سياسة الزبدة والمدافع وكان على العراق تبني برنامج تقشفي من خلال خفض الإستهيرادات المدنية إلى النصف والتي كانت بحدود ٢١,٥ مليار دولار في عام ١٩٨٢ لتصبح ١٠ - ١١ مليار دولار سنوياً من عام ١٩٨٤ إلى عام ١٩٨٧ ، لكي يستمر، رغم كل هذا، في شراء الأسلحة - تمّ تقدير المبلغ الإجمالي لمشتريات الأسلحة في العراق من عام ١٩٨٠ وإلى ١٩٨٩ بأكثر من ٥٥ مليار دولار - وفي إستيراد المواد الإستهلاكية وتوزيع الرواتب والمخصّصات للمقاتلين ولعوائلهم إتجه صدام حسين صوب إمارات الخليج التي كانت تقدّم له المنح أو « الديون» بعشرات المليارات من الدولار والتي تشكل اليوم جزءاً من الديون العراقية: ٨٠ مليار دولار لإمارات الخليج (منها ٣٠ مليار دولار للعربية السعودية فقط) و ٤٠ مليار دولار لدول أعضاء نادي باريس. في نهاية الحرب وجد صدام حسين نفسه على رأس جيش تعداده مليون رجل فكان تسريحهم يعني إثارة مشاكل من الصعب معالجتها...

في إيران، الخسائر البشرية للحرب أصابت الشريحة العمرية الأكثر إنتاجاً - الشباب الذين تبلغ أعمارهم بين ١٨ و ٣٠ سنة - حيث قُدرت نسبة المصابين بينهم من ١٥ إلى ٢٠ ٪. وأثر النقص في الأيدي العاملة الناجمة عن التعبئة المنتظمة لمئات الآلاف من

الباسيخ على سياسة التنمية الاقتصادية. إنخفض الإنتاج الصناعي بشكل كبير جداً مما أدى إلى ظهور السوق السوداء وسيادة الفساد . عاش المواطنون وبالأخص الشريحة الأكثر فقراً الذين كانت الجمهورية الإسلامية تدافع عنهم على الدوام أزمة اقتصادية قاسية.

مواصلة الحرب كانت تثير معارضة قوية في المجتمع الإيراني حيث ظهر بسرعة تياران يتعارضان: من جهة، الطبقة الواعية للكلفة الاقتصادية والاجتماعية والبشرية للحرب الذين تمنوا إيقافها وخاصة بعدما تم طرد العراقيين من الأراضي الإيرانية (صيف ١٩٨٢) ؛ ومن جهة أخرى طبقة - الملالي وأيديولوجيي الثورة الإسلامية - الذين اعتبروا الحرب بأنها أداة تمنح الشرعية للنظام. لا يزال النقاش والجدال يدور لحدّ هذا اليوم بين التيار الذي أيدّ الخميني في استمرار الحرب إلى النهاية وبين من إنتقده وهم يؤكّدون بأنّ ضحايا الحرب المفروضة فرضوا الحرب بدورهم... إرتفع هذا النقاش من جديد بسبب نجاح الحرب الأمريكية (٢٠٠٣): يتساءل العديد من المثقفين الإيرانيين عن سبب تمكّن الأمريكان في تدمير نظام صدام حسين في عدّة أيام ما لم تقدر إيران على تحقيقه لمدة ثماني سنوات !

بعد مرور ٢٥ سنة من بداية المعارك فالبلدان لم يوقعا لحدّ الآن على إتفاقية سلام نهائي، لأنّ الإيرانيين يصرّون بإلقاء مسؤولية شنّ الحرب على صدام حسين ويطالبون بدفع تعويضات الحرب لكل ما أصابهم من خسائر مادية وبشرية خلال السنوات الثمانية من «الحرب المفروضة».

٢

شهادات ضحايا الأسلحة الكيماوية من الإيرانيين

شهادات جمعها كريس كوتشيرا في إيران عام ٢٠٠٤

- شهادة أبو بكر ملكري.

«بتاريخ ٢٨ حزيران من عام ١٩٨٧، في الساعة الرابعة بعد الظهر، شاهدنا طائرات عراقية تقصف مدينة (سردشت)، إعتقدنا في البداية بأنّ الهجمة عادية ولكننا لم نسمع أصوات انفجارات قوية.

«كنت في السوق فرجعت إلى بيت نسيبي. بعد مرور عشرين دقيقة، إحمّر جلد بنت أختي، البالغة سنة واحدة من العمر، وشعرت أخت زوجتي بالغثيان فبدأنا نتساءل.

«قال لنا أخ زوجتي الذي كان قد تابع تدريباً ضدّ الأسلحة الكيماوية: ،، ما حصل هو هجمة كيماوية .،،

«شعرنا بأنّ حدثاً خاصاً قد وقع ولكننا لم نعلم ماذا كان. إستخدمنا مناديل مبلّلة وطلبنا من العائلة بالتوجّه نحو قمّة تل قرب المدينة.

«قمت بنفسي بمساعدة أهالي المدينة وأمام دائرة البلدية رأيت بعض جرحى القنابل. مات الكثيرون تحت أنقاض البيوت المدمّرة.

«توجّهت إلى قرية فساءني أهاليها: ،، ما هذا الإحمرار على جلدك؟» فذهبت أمام مرآة ورأيت بأنّ ما يقولونه صحيح. أحسست بالغثيان.

رششت الماء على جسدي وبدأت أتقيأ. شربت الحليب فتقيأت على الفور وفقدت وعيي. أعادوني إلى سردشت حيث أقاموا فيها مستشفى

للأسعافات الأولية داخل الملعب الرياضي. كنت بجانب (ره حمه ت) البالغ من العمر ١٨ عاماً ورأيت الأطباء يشخصونه فتبيّن بأنّه مصاب

بالإلتهابات في الرئة، فارق الحياة بجنبي.

«حولوني إلى تبريز ومن ثم نقلوني بالروحية إلى إصفهان وبالصدفة وجدت فيها زوجتي وأمها. لم يكن ممكناً رؤية بعضنا البعض...»

- شهادة برفين، زوجة أبو بكر.

«كنت في الحمام حينما وقعت القنابل. بفعل الضربة، على الأقل عشرة أشخاص من الذين كانوا معي في البيت فقدوا الحياة: والدتي عائشة وزوجة عمي التي كانت تدعى عائشة أيضاً وأخي الكبير مصطفى (توفى قبل ثلاث سنوات) وحמיד، ابن أخي ذو السبع سنوات وأخي الآخر قادر ٢٨ سنة، وابنه ادريس، عمره ١١ شهراً، وأخي رحمة وأختي شاهين ١٤ عاماً، وبنت عمي أرزو ١٥ عاماً وابن عمي صلاح الدين ٩ سنوات وبعضاً من مدعويينا؛ قدمنا كلنا من طهران للإحتفال بعيد ميلاد أحد أطفال العائلة.

«كنت إذاً في الحمام وحاولت الذهاب إلى السرداب فكان مكتضاً بالناس. أخذت الثياب من باحة المنزل وبللتها. بعد مضي عشرين دقيقة أوّل من ظهرت عليه الأعراض كان طفلاً حيث إحمراً وبعد ذلك شعرت بالإحتكاك في جلدي.

«كنّا سعداء بالبقاء على قيد الحياة رغم قصف الطائرات للمنزل لكن رحمة ته أذرننا: "ربّما كان القصف بالأسلحة الكيماوية وغداً سوف نموت."

«ذهبنا بسيّارتي إلى مستشفى مهّاباد، عمي وأختي كانوا لا يقدرّون على القيادة ولكننا كنّا من أوائل من وصلوا إلى مهّاباد التي لم تكن على إطلاع بالهجمة التي حصلت.

«غسلونا على الفور وفقدت وعيي. بقيت لمدة شهرين بين الصحو وفقدان الوعي. إستيقظت في بروكسيل وبالكاد أتذكّر بأنّ الأطباء قد قاموا بإسعافي. أمضيت ٢٩ يوماً في بروكسيل. كنت أعاني كثيراً، معزولاً في غرفة خاصّة. أعلمني الأطباء بأنّ ٨٥ ٪ من جلدي كان محروقاً، خرجت حياً بالمعجزة... وحينما عدت إلى إيران بقيت ثلاثة أشهر أخرى في المستشفى.

«أختي شاهين وأخي ره حمه توفّوا في تبريز وماتت والدتي في أصفهان. أنا حزين جداً لأنّ والدتي توفيت بجنبي وأنا لا أدرك ذلك.

«بعد مرور ١٨ يوماً أرسلوا خمسة من مجموعتنا إلى بروكسيل. بقينا كلنا على قيد الحياة. أرسلوا آخرين إلى مدريد وإلى فيينا. مات أخي قادر في مدريد. أتذكّره حينما ساعدني في إرتداء ملابسني بعد الهجمة وبعد ذلك لا أتذكّر شيئاً. كل الضحايا الذين تم إرسالهم إلى الخارج كانوا يعطون إنطباعاً بأنهم مطبوخين في مياه فائرة.»

عرضت برفين صورة هويّة مأخوذة في المستشفى لإصاقها في جواز السفر كي تذهب إلى بلجيكا فترى عليها وجهاً مليئاً بالتجاعيد.

«بعد الخروج من المستشفى رجعت إليها ولفترة سنتين مراراً للإستشارة في مشاكل التنفّس. إنتهت مشاكلني خلال ثلاث سنوات ومن ثمّ إضطرت دخول المستشفى والبقاء فيها لفترة. وبسبب مراجعتني لمستشفى طهران بصورة دائمة قرّرنا المجيء والسكن في العاصمة.

«عمري الآن ٣٧ عاماً ولا زلت أعاني من مشاكل التنفّس ومن مشاكل جلدية في الشديين ومن مشاكل المناعة. ينبغي عليّ إستعمال قنيّة الأوكسجين غالباً وأحياناً في كل الليالي. لكنني أستعمل يومياً قنيّة وأبلع الأدوية وقد تعبت من مراجعاتي للمستشفى.»

- شهادة إسماعيل رزايي، بسيجي قديم، عولج في مستشفى ساسان بطهران.

«ولدت في عام ١٩٦٥ في عراق. كنت متطوعاً (بسيج) خلال ١٦ شهراً وفي عام ١٩٨٣ جُرّحت أثناء هجوم كربلاء ٤ في الشلامجة. عند الفجر هاجمنا العراقيون بقنابل الموتر. كنت ضمن مجموعة مكونة من أربعين شخصاً قُتل منهم ٣٥ فوراً. ربّما جراء غاز أعصاب. كانت عينايني تدمعان ولعابي يسيل بلا توقّف.

«بعد مضي أربعة أيّام عدت إلى الجبهة فجُرّحت للمرّة الثانية أثناء هجوم كربلاء ٥ قصفتنا الطائرات العراقية هذه المرّة وبعد مرور ساعة شعرت بوجع في العيون وبمشاكل في التنفّس وبإحتكاك الجلد. أخلونني

نحو ديزفول وطهران. مشكلتي الرئيسية اليوم هي الضيق في التنفس. ومن ثمّ ظهرت لي مشاكل قلبية فأجريت عملية القلب المفتوح الجراحية... «كما أنّني أعاني من مشاكل نفسية. حاولت الإنتحار. طلبت زوجتي الطلاق فأصبحت حياتي عالة. أضع القرآن على راسي وأتوسّل الموت من الباري تعالى حيث لم أعد أطيق الحياة. أضطر على البقاء في البيت قرب قنينة الأوكسجين ولا أقدر أن أعمل... يتصوّر الناس البسطاء بأنّ هذا المرض معدي وهذا الأمر يدمر العائلة.»

٢

الستائة المختفون من الكويت

كريس كوتشيرا

أثناء إحتلال الكويت من ٢ آب ١٩٩٠ وإلى ٢٦ شباط ١٩٩٢، ارتكب الجيش العراقي ودوائر المخابرات العراقية جرائمًا لا تُحصى تحت إشراف علي حسن المجيد الذي عينه صدام حسين حاكماً على «المحافظة العراقية التاسعة عشر»: إعدامات عرفية وتعذيب سجناء مدنيين وعسكريين، تدمير وحرق ونهب وتخريب منشآت نفطية سببت خسائرًا بيئية فادحة و - ربّما أقل ممّا عُرف من بين جرائم صدام حسين هو خطف ٦٠٠ رهينة، بالضبط ٦٠٥ كويتيين من بينهم سبع نساء وإختفائهم.

بالنسبة للكويت هذا الرقم يمثّل واحد من ألف تقريباً وهذا ضخم: لنتصوّر رد فعل الفرنسيين فيما لو (بكل بساطة) إختفى ٥٠٠٠٠ سجين - تبخروا - خلال الحرب العالمية الثانية. لأنّ الكويتيين المفقودين فيها لم يُفقدوا أثناء المعارك: حيث أنّهم ليسوا مفقودين العمليات الحربية missing In action كما حصل للأمريكان في حرب فيتنام وللعراقيين في عملية عاصفة الصحراء وإنّما أناسا تم توقيفهم وغالباً أمام شهود وتم رؤيتهم في السجون العراقية في الكويت والذين نُقلوا بعد ذلك خرقاً لكل الإتفاقيات الدولية إلى العراق وهناك تم مشاهدة البعض منهم أيضاً من قبل عدد من الشهود أُطلق سراحهم لاحقاً.

بعد نهاية حرب الخليج، نفى العراقيون في البداية خلال أشهر بأنّه لم يسجن أبداً «مفقودين» قبل الإعتراف بأنّه قام فعلاً بحجز ١٢٦ منهم ولكن هؤلاء الكويتيون «فُقدوا» خلال «أحداث» آذار ١٩٩١ .

خلال هذه السنوات الإثنتا عشر الطويلة التي مرّت بين تحرير الكويت وسقوط صدام كان آباء وأمّهات المفقودين يتساءلون: هل أنّ مفقوديهم لا يزالوا أحياء أم أنّهم ماتوا منذ زمن؟

شهادات

نواف، الناجي من المعسكرات العراقية

يعمل نواف عبدالعزيز الجهمة اليوم في لجنة برلمانية كويتية وهو شاب سعيد: ولد في عام ١٩٦٦ ، ينتمي إلى عائلة كويتية مقتدرة مالياً ودرس في المغرب. قدمت له الحكومة وظيفة يُحسد عليها في البرلمان... ومع ذلك كادت حياته أن تنتهي يوم ٢٥ تشرين الأول من عام ١٩٩٠: في حوالي الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم كان نواف نائماً في غرفة بالطابق الثاني للمنزل العائلي حينما ولج بيتهم فريق من عملاء المخابرات العراقية: أوقفوه كما أوقفوا أخاه نوري الذي كان قائداً من قواد الجيش الكويتي العامل في وزارة الدفاع وأربعة من أبناء أعمامه. في اليوم التالي جاء نبيل وهو أخ آخر لنواف ونقيب في القوة الجوية ليرى ما حصل..فوقع في المصيدة. بعد مرور بضعة أيام أعاد العراقيون نوري إلى الدار وأجبروه على مناداة أصدقائه: أكثر من أربعين شخصاً لا يشكون بأي شيء وزاروا البيت الذي تحول إلى مصيدة للفئران فأوقفوهم. عاد نواف بأعجوبة ليروي مآثرته ولكن نبيل ونوري وأحد أبناء العمومة، محمد، لم يُعرف لهم أثر.

«بعد توقيفنا، يروي نواف، تم إقتيادنا إلى قصر نايف (المكان الذي تقع فيه مكاتب أمير الكويت ويعمل فيه مجلس الوزراء).

«بعد إنتهاء الأسبوع الأول فرّقونا حيث وضعوا إخوتي مع العسكريين الآخرين وتركوني مع المدنيين. أمضينا شهراً ونصف الشهر في هذا السجن. كان واضحاً بأن أخي نوري هو الذي يهتمهم ويبحثون عن المعلومات حول مجموعتين للمقاومة وقالوا لنوري: ، إن لم تتكلم فسوف نشنق أخاك نواف...»

«فعلوا المستحيل كي يجبروا الأخوة الثلاثة وابن عمهم بالكلام: كانوا يجمعونهم في غرفة ويضربونهم بالقضبان والمسدس مسلط على رقبة أحدهم ويلوحون بأنهم سوف ينقذون حكم الإعدام به. يقومون بتعذيب نوري ويحرسون أخاه نواف في المرر ويتركون الباب مفتوحاً كي يسمع صراخه.

وقام القادة الكويتيون بإتصالات متعدّدة محاولين الحصول على المعلومات حول مصير المفقودين وقد طلبوا من بعض الشخصيات العربية كأمير قطر ورئيس السودان حسن الترابي ويسر عرفات للتدخل لدى صدام حسين. وتوسّل الكويتيون من الروس أيضاً الذين أسّسوا بنفسهم «لجنة للمفقودين في أفغانستان» وكانوا يملكون علاقات متميّزة مع العراقيين وبالأخص مع دوائرهم الأمنية.

أغرب الشائعات كانت تتسرّب من حين إلى آخر فقد أكد معارضون عراقيون أُطلق سراحهم بأنهم شاهدوا كويتيين في معسكرات أو في سجون سرّية و كذلك أكد أجنب قضاة فترة زمنية في السجون العراقية ومن ثم أُخلي سبيلهم مؤخراً بأنهم لاحظوا ناساً تشير ملامحهم على أنهم كويتيين. هذه الشائعات كانت تشجّع عوائل المفقودين للمواصلة في تكريم المخبرين الذين إبتزوا مبالغاً هائلة وهم يعدون بتقديم معلومات لتلك العوائل المتشبّته بأي بارقة أمل حول المفقودين.

سقوط صدام حسين وضع حداً للشكوك والتردد حيث تفتّحت السجون الرسمية والسريّة وتحرّر كل السجناء ولم يكن بينهم أي مفقود كويتي وحينذاك إقتنعت العوائل بالنتيجة المشؤومة: أُعدم جميعهم. خلال التنقيب في المقابر الجماعية المتعدّدة المكتشفة منذ إنهيار النظام البعثي تم العثور على بقايا البعض من هؤلاء الضحايا ممّا أباح للعوائل بإقامة التعزية بعد مرور إثننا عشر عاماً على الحزن والكره القاتل.

أسىء تقدير تأثير صدمة سبعة أشهر من الإحتلال العراقي على مجمل الشعب الكويتي. أنجز الدكتور عبدالله الحمادي، مدير «مركز إعادة الإعتبار والبحث من أجل ضحايا التعذيب» دراسة خاصة حول قلق وإرهاق ما بعد الصدمة على ٦٠٠ عائلة فكانت إستنتاجاته مخيفة: أكثر من ٢٠ ٪ من البالغين الكويتيين يعانون من إضطرابات ما بعد الصدمة وهذه العلامة بادية بشكل أكبر لدى عوائل المفقودين. ما يقارب ٤٠ ٪ من أفراد هذه العوائل يعانون من علامات الإنفعال العصبي والإضطراب الذهني.

ثمّة موضوع يتم نادراً التطرق إليه - مسألة إغتصاب الكويتيات من قبل الجنود العراقيين - حيث لا أحد يدري بعددهم الصحيح «لأن ذلك مخفي ومن الأفضل أن يبقى الأمر مخفياً لحماية تلك الفتيات وإذا جرى كشفهن فسوف تتحطّم حياتهن الإجتماعية ولهذا لا نقدر على معالجة هذه الشريحة ...»

بالكاد تكفي لثلاثة أشخاص. قطعة صغيرة صلبة من الخبز وقصعة رز وسخة. كنا نتقاتل فيما بيننا وكذا الحال في المساء. كنا نتشبث بقليل من الأمل وفي أعماقنا كنا جمعينا مقتنعين بأننا سوف نموت. وبين حين وآخر يفقد أحدنا أعصابه ويبدأ بالصراخ فكنا نحاول تهدئته لمنع الحراس من القدوم والقيام بضربنا جميعاً»

بدأت الضربات الجوية للحلفاء فأصيبت بسرعة المحطات المركزية الكهربائية ومصافي المياه فلم يعد الماء باقياً ولا الكهرباء. أنشأ الحراس محطات توليد كهربائية يشغلونها خلال ساعتين يومياً للتحقيق مع مناضلي حزب الدعوة:

«كنا نشاهدهم يسيرون في المر، وكان عددهم كبيراً جداً والدار تمتليء بهم؛ إنتهكوا عرض البعض منهم وإغتصبوهم حيث ترى الدماء على ثيابهم. أما بالنسبة لنا، الكويتيون، فقد كان الحراس، لطيفون، معنا نسبياً.»

«في صباح أحد الأيام، قام الجنود العراقيون بشد أيدينا وعصب أعيننا؛ وغادرنا، الكويتيون، كلنا المكان إلى وجهة غير معلومة؛ في لحظة ما رفعت العصب عن أعيني ولاحظت بأننا قرب الكوت (مدينة واقعة على طريق بغداد - البصرة). وفجأة غير الحراس رأيهم و...رجعنا إلى سجننا في الناصرية!»

في اليوم التالي أي في ٨ آذار أدركت «الثورة» (إنتفاضة الشيعة العراقيين في جنوب العراق بعد إنهيار جيش صدام حسين) الناصرية.

«سمعنا فجأة صوت طلقات نارية كثيفة قادماً من جهتين مختلفتين: المقاومة العراقية هاجمت سجننا. في وقت ما أدركنا بأن حراسنا توقفوا عن القتال وتمكنا من الخروج. المقاتلون الشيعة أصعدونا في أوتوبيس وهم يأمرونا بالإنبطاح على الأرض وقادونا حتى بيت أحد قادة الإنتفاضة. ملامحنا كانت مرعبة وأجسادنا هزيلة جداً فأصبحنا هياكل عظمية وطال شعرنا وبعضنا بالكاد يقدر على المشي... ذبح لنا مضيفنا غمماً فإلتهمناه كالمجانين. كان القتال لا يزال مستمراً في المدينة؛ خشية

«في أحد الأيام أظهروا لي نوري وقد ضربوه وأصابوا إحدى عينيه، أثر الضربات كان بادياً في كل مكان على جسده والدماء تنزف من أنفه...أمروني: ،، إذا إمتنعت عن الكلام فسوف نقتلك ،، ولكنني لم أكن أملك أية معلومات. إترافات السجناء الآخرين أعطتهم معلومات كثيرة وإستناداً إلى ذلك عرفوا بأن نوري ينتمي إلى شبكة وأن نبيل كان بريئاً من كل هذا ولكنهم إحتفظوا به لكونه ضابط عسكري.»

كان نوري، الأخ الكبير لنواف، عضواً في أحد الفصائل الرئيسية للمقاومة الكويتية، في فصيل يوسف الميثاري ولكن نواف كان يجهل كل نشاطاته قبل توقيفه...

في نهاية تشرين الثاني، بعد إنتهاء التحقيقات حول نواف وإخوته إلى سجن الشباب في الكويت وإستطاع نواف فيه أن يحصل على موافقة بزيارة والدته لهم. في يوم ١٤ كانون الثاني، قبل ساعات من بداية الهجوم الجوي للحلفاء نقلوا نواف وابن عمه خالد وقسم من مجموعة يوسف الميثاري بحافلة إلى الناصرية في العراق.

«كانت الحافلة، يروي نواف، مقسمة إلى مقصورات على كل جانب من المر المركزي لكي لا يتمكن السجناء من رؤية بعضهم البعض أو من التحدث فيما بينهم. وضعوني أنا وخالد في المر وعيوننا معصوبة. خلال ساعات سارت بنا الحافلة ببطء شديد. في لحظة ما تمكنت من إنزال قطعة القماش وشاهدت لوحة كتب عليها: ،، محافظة الناصرية ،،. فعرفت أين أتواجد في العراق... وأخيراً وصلنا أمام منزل ذو طابقين، قاعدة سرية لحزب البعث تم تحويلها إلى سجن وحبسونا، أنا وخالد، في غرفة طولها ستة أمتار وعرضها خمسة مع عشرين سجيناً آخرين من الكويتيين. في غرفة أخرى حجزوا مؤيدي حزب الدعوة الإسلامي العراقي الذين حكموا عليهم بالشنق؛ ونسمعهم يصرخون في الليل...»

أمضى نواف وخالد ٤٨ يوماً في هذا السجن؛ في ظلام دامس بعد قصف المحطات الكهربائية المركزية العراقية من قبل طائرات الحلفاء. وحينما طلبنا منهم كيف تم إطعامهم رد علينا ضاحكاً خالد الشاب الذي يمتلك جسداً رياضياً:

«الأكل...؟ للفطور كانوا يقدمون لحم وعشرين سجيناً كمية من الأكل

من أن يكتشفنا جنود صدام إقتادنا الشيخ إلى معسكر بريطاني:
فأصبحتنا أحراراً ! وبعد أربعة أيام كنا في الكويت..»

في وقت مناسب بحيث نتمكن من حضور ولادة طفل لنوري سميناها عبدالعزيز تخليداً
لإسم جدّه. بعد هذا التاريخ بعدة أسابيع أي في شهر أيار عاد بدوره من العراق
سجين كويتي آخر فأخبر العائلة بأنه لمح الأخوين نوري ونبيل في سجن. ومنذ هذا
اليوم لم نعد نسمع خبراً جديداً. نوّاف ووالديه يؤمنون بالله و «يتركون الأمر لمشيئة
الباري تعالى»... فهل يعني هذا بأنهم إستسلموا وإقتنعوا بأنّ المفقودين قد ماتوا منذ
وقت طويل؟

سميرة مرافي: فُقدت وعمرها خمس وعشرين سنة..

في ١٠ تشرين الثاني ١٩٩٠ مرّت سميرة مرافي، الشابة الكويتية الرائعة، لرؤية
والدتها قبل الذهاب إلى مستشفى مبارك ؛ منذ غزو الكويت كانت تعمل محل ممرضة
أجنبية سافرت بعد إحتلال الإمارة من قبل العراقيين. لتطمين والدتها فقد وعدت
بمكالمتها هاتفياً قبل غروب الشمس ؛ لكن الأم إنتظرت مكالمتها عبثاً ولشدة قلقها
هاتفت إبنتها في بيتها مساءً - جاء الرد من رجل بلكنة عراقية. أدركت بهجه مرافي
السبب: تم توقيف إبنتها.

منتمية إلى أقدم العوائل الإيرانية للكويت كانت عائلة المرافي وبضمنها والدّة سميرة
تشعر بإستهدافها بشكل خاص من قبل العراقيين ؛ خشية ورعباً من قيام العراقيين
بتوقيف ولديها وإبنتيها الأخرتين فلم تقم بأي بادرة لإيجاد سميرة بل أنها تخدعت
في منزلها. لم تحصل على أي معلومات حتى يوم ٢٣ كانون الأول. في هذا اليوم أي
بعد مرور شهر ونصف الشهر على إختفاء إبنتها تلقّت مكالمتين متتابعتين: إمراة كويتية
متزوجة من عراقي هاتفتها من قبل سميرة قائلة: «سجنت مع إبتنتك وهي بحالة جيّدة
وتقبل يديك ؛ تأمل بأنهم سوف يطلقون سراحها بعد ٤٨ ساعة...». في وقت متأخر من
الليل جاءت مكالمة هاتفية أخرى من مصرية هذه المرّة وتعطيها نفس الخبر. ذهب فوراً
خالد، أحد إخوة سميرة والبالغ عمره ٣٠ عاماً، لرؤية هذه المرأة في بيتها والإستفسار
عن مزيد من المعلومات لديها وعاد بعد حين قائلاً لوالدته بأنّ كل شيء على ما يرام
وبأنّها تأمل إطلاق سراحها بسرعة.

«في الواقع، والرواية لبهجه مرافي، كانت سميرة قد بعثت برسالة ولكن
لم يقل لي إبنني شيئاً إلا بعد تحريرها. كانت سميرة موقوفة في المشاتل.
فلو كنت أعرف بذلك لسعيت في إطلاق سراحها...»

بعد مرور يومين جاءت مكالمة جديدة: هاتف رجل أوقفوا شقيقته مع سميرة ليعلن
بأنّه يحمل أيضاً رسالة منها... في الإجمال بعثت سميرة بسبع رسائل إلى والدتها بين
٢٥ كانون الأول و ٤ كانون الثاني. كانت تقول فيها بأنّها محجوزة مع ست شابات
أخريات وتطلب الملابس والأكل. أتلقت الوالدة هذه الرسائل بعد قراعتها وإدعى الأبناء
بأنّه خوفاً من توقيفهم فيما لو كان قد وقع العراقيون عليها... في ٤ كانون الثاني
١٩٩١، أي قبل أيام من بداية قصف التحالف خابرت عراقية متزوجة من كويتي: «لدي
رسالة مكتوبة لكم مع ساعة سميرة. سميرة تطلب المأكولات.» ذهبت بهجه مرافي مع
أحد أبنائها وهذه المرأة إلى سجن الشباب حيث أوقفوا إبنتها. تمكّنت المرأة من دخول
السجن ومن تسليم علبة لسميرة والإتيان برسالة كتبت فيها سميرة لوالدتها قائلة:
«هذه رسالتي الأخيرة. أنهم ينوون نقلنا إلى البصرة.» وبعد ذلك بأيام تمكّنت بهجه
مرافي من رؤية إبنتها من بعيد وهي مطوّقة بجنود عراقيين وتصعد في سيّارة مع
إمراة شابة أخرى.

«لوّحت إبنتي بإشارة للوداع، تقول بهجه. لم اتقرّب من السيّارة كنت
أخاف بأن يوقفوا إبنني.»

هاتفّت نفس الإمراة لأُم سميرة مساءً وقالت لها: «إبتنتك موجودة في مركز شرطة
صليبخات، على الحدود، وترغب في معكرونا !» في اليوم التالي ذهبت أم سميرة إلى
مركز الشرطة حاملة معها علبة - وإستطاعت سماع صوت إبنتها التي كانت في الطابق
الأول ولكن الجنود العراقيون منعوها من رؤية إبنتها ومنذ هذا اليوم لم تسمع بخبر
عنها.

بعد التحرير ردّ أكثر من خمسة عشر شخصاً بأنهم قد شاهدوا إبنتها..ولرّتين
تلقت بهجه مرافي أخباراً جادة من الخارج: خابرها طبيب أسنان مصري في حزيران
من عام ١٩٩١ قائلاً بأنّه قد شاهدها في سجن بالعراق. وقد طلبت منه سميرة: «كلم
والدتي وقل لها بأنني لا زلت على قيد الحياة...» في عام ١٩٩٣ تلقت بهجه مكالمة جديدة

من لبناني أُطلق سراحه بفضل تدخل الصليب الأحمر الدولي فمرَّ على الكويت وتعرّف على سميرة في الصور التي عرضتها والدتها عليه.

«أكد لي بأنّه شاهدتها ثلاث مرّات في الباص أثناء الإنتقال إلى سجن جديد... كان وجه سميرة هزياً ومصفرّاً...وقد قضوا في إحدى المرّات ثماني ساعات معاً في أوتوبيس برفقة خمسة كويتيين، ثلاثة رجال وإمرأتين.»

ومنذ هذا الوقت هنالك سكون مطبق.

«أنا على يقين بأنّ سميرة لازالت حيّة، صرّحت والدتها. أحياناً في الليل أسمع صوتها فأستيقظ و...لا أجد أحداً ! هنالك أناس يزوروني فيتحدّ أمني ومن ثمّ يغادرون و...»

تحاول إمساك دموعها. وثمة عضو آخر من عائلة مرافي وهو ابن عم لسميرة، عبدالمهدي قد غاب في نفس اليوم: لم يُسمع مطلقاً أي خبر عنه...
بدر، الإبن الوحيد

وُلد في ١٣ حزيران من عام ١٩٧٠، بدر الكندري ولم يكن عمره بأكثر من عشرين عاماً حينما تم توقيفه في ٤ آب ١٩٩٠ أي بعد يومين من غزو الكويت.وتعاني عائلته مصاعب كبيرة لتجاوز المحنة لأنّه كان الإبن الوحيد في بيت تعيش فيه النساء فقط: الوالد كان قد توفّي في عام ١٩٧٤ وبقية والدته إكرام مع إبنتيها، ماشائيل (المولودة في عام ١٩٧٢) ونجود (المولودة في عام ١٩٧٣). العمّة عائشة وإبنتها تشكّل حلقة عائلية مكوّنة من نساء لا تتوقّف عن البكاء على فقدان بدر.

بعد إنتهاء دراسته في المرحلة المتوسطة بدأ بدر يعمل كمتطوع في جمعية تعاونية. وفي ٤ آب وهو في طريق العودة إلى المنزل أوقفته سيطرة للجيش العراقي.

«قدم أصدقاء إلى المنزل يخبروننا بأنهم أوقفوه مع زميل وآخر تم قتله من قبل الجيش العراقي عند محاولته الفرار. إستطاع ثلاثة منهم النجاة بحياتهم وهؤلاء هم الذين جاؤوا إلينا لإعلامنا بالخبر» روت ماشائيل.

ذهبت ماشائيل مع عمّتها إلى مركز شرطة خيفان فإستقبلهن جنود عراقيون يسلّطون على رؤوسهن فوهات بنادقهم ويطلبون من هن: «ماذا جيّتم تفعلون هنا؟». في

تلك الفترة كانت المناوشات مستمرّة بين الجيش العراقي والمقاومة الكويتية في هذه المحلّة الخطيرة من مدينة الكويت. وفي أعقاب ثلاثة أيّام من البحث عن المعلومات إتجهوا إلى مركز شرطة آخر ولكنهم لم يحصلوا على نتيجة. ولم تعرف عائلة بدر إلاّ بعد مرور شهر ونصف الشهر على توقيفه بواسطة كويتي تم إطلاق سراحه وصرّح بأنّه قد شاهدته في مخزن للطرق والجسور حولّ العراقيين إلى سجن وقتي في جهرة. في منتصف شهر تشرين الثاني تلقت عائلة بدر مكالمة أخرى من كويتي آخر، بدر القطّان، الذي حجزه مع بدر في سجن أمني كبير بالبصرة.

«كانا يحملان نفس الإسم الأوّل وينامان جنباً على جنب، تروي ماشائيل، وكرّر أخي رقم تلفوننا عليه لعدّة أيّام كي يحفظه ويتمكّن من إعلامنا فيما إذا أطلقوا سراحه. وكان يردّد له بأنّه سوف يأخذ والدته وعمّته إلى مكّة حال تحرّره...»

يُعتبّر خلاص بدر القطّان الذي ألقوا القبض عليه مع شاب لم يبلغ عمره الرابعة عشر، أسامة المفقود، معجزة: فلحت عائلته في إنقاذه عبر شرائه من العراقيين: بجهاز تلفزيوني وسيّارة ومبلغ نقدي...

كشف بدر القطّان لعائلته أيضاً بأنّ العراقيين قد أعادوا بدر إلى الكويت لإطلاق سراحه ربّما لأنّهم لم يعثروا في ملفه على أمر ضده. ولكن لسوء الحظ فقد كان هنالك ضابط عراقي حينما سمع بإسمه يعرف بأنّ له إبن عم رتبته عقيد في سلاح القوّة الجوية وإسمه إبراهيم مراد الكندري فقال لبدر: «فيما إذا أخبرتنا بمكان وجود إبن عمك فسوف نطلق سراحك.» بدر لم يكن يعرف شيئاً عنه فإحتفظوا به في السجن وأخذوه إلى العراق. يئس المسكين بدر ولم يتوقّف عن البكاء مردداً: «أنا حقّاً سيء الحظ...»

إستطاع بدر القطّان أن يسرد أيضاً لماشائيل ووالدتها عن ظروف السجن في البصرة، في غرفة مغلقة تحت الأرض طولها خمسة أمتار وعرضها أربعة وتكدّس فيها بين عشرين إلى ثلاثين سجيناً قادمين من عدّة دول، من الكويت ومن لبنان. وقد روى لهم كيف كانوا «يطعمون» ويقدمون لهم شوربة عدس سيّئة يومياً مع رغيف خبز جاف وصلب كالصخر... وروى كيف تمّ ضرب المسكين بدر من قبل أحد الحراس، الرهيب

غيدون الذي كان يقول له: « أين يتواجد العقيد الكندري؟ »

ذهب ابن عم ماشائيل إلى البصرة محاولاً إطلاق سراح بدر مقابل أموال ولكنه لم يفلح في مسعاه. كما كان حال كل العوائل الكويتية التي خُطف أحد أفرادها فعائلة بدر لم تتوانى في دق كل الأبواب وأبدت إستعدادها لتقديم أي شيء من أجل الحصول على معلومات: توجّهت أم بدر بين ما توجّهت إليه نحو حلاق أردني - أيد الأردن بغداد ولذا كنت ترى مواطنوه يدخلون إلى العراق بسهولة...ذهب الحلاق إلى البصرة وحاول شراء حراس السجن ولكن عبثاً.

في آذار من عام ١٩٩١ ، بعد تحرير الكويت والانتفاضة في جنوب العراق تحرر عدّة آلاف من السجناء الكويتيين وعادوا إلى الكويت. وفي كل يوم ذهبت إكرام مع ماشائيل إلى المكان الذي تصل إليه الأوتوبيسات مع المحررين متوسّلة بأن بدر بينهم وعارضة صورته على كل الناس وهي تردّد: «هل رأيتم بدر؟» ولكن كل سعيها كان هباءً.

في عام ١٩٩٣ ، أي بعد مرور ثلاث سنوات على توقيف الرجل الشاب هانفت عراقية كانت قد عاشت في الكويت وخرجت بعدها لتعيش في الأردن عائلة ماشائيل وقالت لها بأنّها تعرف جندياً عراقياً من الحرس الجمهوري كان قد شاهد بدر في البصرة !

«لم تختلق شيئاً، روت ماشائيل، لأنّها أعطتنا إسمه الثلاثي الكامل واللقب، بدر حسين مراد الكندري. قلنا لها بأننا مستعدون لإعطائها ما تطلب ولكنها أجابت بأنّ ذلك مستحيل لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً.»

ومنذ هذا التاريخ إنقطعت الأخبار ولم نسمع عن أي شيء جديد.

كل نساء العائلة يأسات ويرفضن المشاركة في إحتفالات عيد الفطر مع الجيران.

«أحلم ببدر، تقول بنت عمّة منى. أحلم بأنّه هنا وهو عائد يعيش بيننا ؛ وحينما أستيقظ من الحلم صباحاً أنظر فلا أجده. الأمر فظيع. إستشرت كتاب الأحلام: ذلك يعني بأنّه يحب العودة ليعيش معنا. أنا متأكّدة بأنّه سوف يعود إلينا يوماً ما.»

الجزء الخامس

الشبكات القريبة من العراق

الولايات المتحدة الأمريكية - العراق علاقات مبهمة

جوناثان راندل

صحفي، مراسل سابق للواشنطن بوست،

إختصاصي في الشرق الأوسط

مؤلف: Osama, the making of a terrorist (New York, Knopf, 2004)

After such Knowledge What Forgiveness?

My encounters with Kurdistan (New York, Farar, Straus Giroux, USA, 1997)

Going All the way, Israeli Adventurers, American Bunglers and the war in Lebanon, New York, Viking, 1983.

في فجر القرن الواحد والعشرين، يبدو غريباً وعرضياً أن تعلن أمة على وزن الولايات المتحدة وبفارق إثنتي عشر عاماً حربين متواليتين على بلد صغير كالعراق. ويلاحظ ذلك لأن الولايات المتحدة كانت تنظر أصلاً إلى هذه المنطقة الأكثر غنى من الإمبراطورية العثمانية القديمة باهتمام خاص.

خلال القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين كان التأثير الذي تمارسه الولايات المتحدة على ما سميت في حينها بوادي الرافدين Mesopotamia عادياً جداً. كانت المنطقة غنية وغير معروفة تقريباً وأمريكا الشمالية دولة فتية فباستثناء بعض الإضطرابات مع الجارة المكسيكية لم يكن لها طموحات إمبريالية أو إستعمارية. وإذا عثرنا اليوم في مقبرة الموصل على رفات المبعوثين الأمريكيين الذين جاؤا إليها في حدود عام ١٨٥٠ مع عوائلهم فلأنهم كانوا ضحايا لتعاطفهم مع النسطوريين، آخر الأحياء المندثرين والممارسين لطقس مسيحي قديم، أمريكيان تعاطفوا معهم لمعتقداتهم الدينية وليس بسبب جنسيتهم.

في نهاية الحرب العالمية الأولى، ومباشرة بعد تفتيت الإمبراطورية العثمانية قام شارل كران Charles Crane و هاري شيرشل كينغ ببعثة مفوضة من واشنطن هدفها

إستقصاء رغبة المواطنين العثمانيين السابقين الذين كانوا في سبيل توزيعهم بين بريطانيا العظمى وفرنسا وحلفائهم المنتصرين في الحرب. لم يكن موضوع الأستقلال مطروحاً بعد. ولأن الولايات المتحدة كانت تتمتع بسمعة قوة غير إمبريالية في الشرق الأوسط فالكثير منهم تمنى الإنتداب الأمريكي برعاية جمعية الأمم الشابة. فشهرة الرئيس وودرو ويلسون Woodrow wilson كانت واسعة جداً (ولكنها هبطت حينما صوت مجلس الشيوخ ضد الإنتماء إلى جمعية الأمم SDN).

كان الجيل الأول من الدبلوماسيين الأمريكيين المعينين في الشرق الأوسط ينحدرون غالباً من عوائل المبعوثين الذين نظروا إلى الطموحات الإستعمارية الأوروبية في المنطقة بعين الحذر والريبة. بعد مرور ثمانين سنة يتذكر المحافظون الجدد الذين فعلوا الكثير لتشجيع غزو ٢٠٠٣ أفكار ويلسون المثالية ولكن بالطبع تغير الزمن كثيراً منذ ذلك التاريخ.

ترجم مراقبون مؤيدون للغزو الإعلان الشهير للرئيس ويلسون على طريقتهم حيث تغيرت عبارة " جعل العالم أكثر أماناً للديموقراطية " لتصبح " جعل الشرق الأوسط أكثر أماناً لإسرائيل "، والسيطرة على المنطقة وبناء قواعد عسكرية أمريكية ثابتة في العراق أو تحقيق الأهداف الثلاثة في آن واحد.

مع ذلك، فمن الصعب الإنكار بأن رغبات الولايات المتحدة الأمريكية كانت مثالية جداً في بداية القرن وأصبحت عملية بمرور الزمن. وفي ذات الوقت لا يمكن الإنكار بأن القرن العشرين قد مرّ بمراحل عنيفة من الإضطرابات الشديدة في الشرق الأوسط وبأن الولايات المتحدة لعبت مباشرة أو عن طريق غير مباشر دوراً رئيسياً فيها.. بالرغم من أن الكثير من الأمريكيين " العاديين " لم يستوعبوا بعد أهمية اللعبة المرتبطة بهذه المنطقة.

بعد تقسيم الإمبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى اجتمعت ثلاث ولايات بسرعة (أقاليم الإمبراطورية العثمانية) فتشكلت منها دولة شابة، وضعوا على رأسها ملك مستورد صنعته الإمبريالية البريطانية الظافرة. وبعد أقل من أربعين عاماً، أي في ١٩٥٨، قامت مجموعة إنقلابية بإطاحة الملكية وزعزعة التأثير البريطاني وفتحت الطريق لعقد من الإضطرابات والحكومات الإنتقالية.

بريطانيين من قبرص إلى عمّان لمساعدة الملك الأردني الشاب حسين، عاهل المملكة الهاشمية الأخرى التي إصطنعتها بريطانيا العظمى بعد الحرب العالمية الأولى. لم تتنازل واشنطن عن فكرة إرسال الجيش إلى العراق إلا بعد تأكّد المخبرات المركزية الأمريكية CIA عبر إستماعها للإذاعة الثورية بعدم بقاء أي فرد من العائلة الملكية على قيد الحياة.

طبعت الثورة ختمها على نهاية هيمنة بريطانيا لبغداد (رغم بقاء الفكرة التي تقول بأنّ السفراء الإنكليز والفرنسيين يستوعبون واقع البلد وينتمون إليه أكثر من غيرهم). مع ذلك فالحرب الباردة كانت على أوجها والولايات المتحدة بدأت تقلق أكثر فأكثر على التداخلات السوفياتية في منطقة الشرق الأوسط الأمر الذي دفعها إلى زيادة إهتمامها ودورها تدريجياً في السياسة الغربية تجاه المنطقة. لم تتنازل الولايات المتحدة قيد أنملة عن حذرها تجاه الحزب الشيوعي العراقي القوي، المنظم بشكل جيد والقادر على إنزال ٤٠٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠٠ شخص في شوارع بغداد لمساندة الزعيم قاسم. فالبنسبة لواشنطن أصبح عراق ما بعد ١٩٥٨ كوكباً يدور في مدار الإتحاد السوفياتي Urss تقريباً. إقتنع آلن دولس Allen Doles، مدير المخبرات المركزية الأمريكية بإنحياز عبدالكريم قاسم للسوفيات إلى درجة أنه أعلن أمام الكونكرس بأنّ العراق أصبح " أخطر منطقة على الأرض في العالم ". لم تكتفي الولايات المتحدة الأمريكية بالكلمات فقط. فقد وصلت قناعة إدارة الرئيس كندي بأنّ قاسم كان في طريقه إلى تسليح الشيوعيين العراقيين. كان البلد بالنسبة لواشنطن على وشك " الإنحراف نحو الشيوعية " لذا ساهمت في طبخ الانقلاب الدموي الذي وقع في ٨ شباط من عام ١٩٦٣ الانقلاب الذي بادر حزب البعث من خلاله بقتل قاسم وحلفاءه الشيوعيين وقد نفت أمريكا رسمياً في حينه وإدّعت عدم مشاركتها في الأحداث.

أمّا البريطانيون الذين كانوا تحت تأثير نتائج كارثة " الإعتداء الثلاثي " على مصر في عام ١٩٥٦ بجانب إسرائيل وفرنسا فقد رأوا في عبدالناصر سبباً لزوال بريق عظمتهم في الشرق الأوسط وبعكس الأمريكان لم يشغل عبدالكريم قاسم بالهم ويثير إهتمامهم.

لم تقر للمخبرات المركزية الأمريكية عين قبل الضغط على الزناد حيث قامت

في عام ١٩٦٨ حلت دكتاتورية على الطريقة " الستالينية " مصنوعة محلياً مكان الفوضى فأصبح يستحيل على الأجنبي الإحتكاك بالعراقيين العاديين. وبعد خمس وثلاثين عاماً إنتهت الهزيمة الصدامية بالإحتلال الأمريكي الذي يتحمّله الشعب العراقي بصعوبة. فالحقيقة ألتى لا يمكن إنكارها هي أنّ " إحتلال قوآت التحالف " يحل المسألة القومية العراقية " على حساب الشعب العراقي.

في سنوات العشرينيات قدّمت بريطانيا العظمى لجمعية الأمم SDN مطالب مشبوهة حول ولاية الموصل الغنية بالنفط (خلال فترة وجيزة وعدت حكومة صاحبة الجلالة هذه الولاية للكورد بشكل أو آخر لتصنع منها دولة مستقلة قادرة على مشاكسة تركيا).

قبل أن تؤيد هذه المطالب إنتظرت الولايات المتحدة أن تأخذ شركة النفط العراقية (IPC) المسيطرة من البريطانيين شركاء أمريكيان. خلال العقد التالي إكتفت واشنطن بالسماح لبريطانيا السيطرة على العراق الذي حصل على إستقلال شكلي وإنتمى إلى جمعية الأمم في عام ١٩٣٢.

ولكن حينما تعمقت جذورت شركات النفط الأمريكية في المنطقة لم تعد واشنطن تعارض البريطانيين الذين رفضوا زيادة إنتاج النفط الخام، هذه السياسة التي ترجمها الوطنيون العراقيون بأنّها إرادة مخططة لإبقاء بلادهم في الفقر.

فرضت الولايات المتحدة في سنوات الخمسينيات حلف بغداد على النظام الملكي وهو حلف يغطّي منطقة تمتد من باكستان إلى تركيا مروراً بإيران والعراق. لم يجد هذا الحلف شعبية لدى الجماهير العربية لأنّها لم تتفق مع الأمريكان في هوسهم المعارض للشيوعية ولأنّها إقتنعت بمساندة الغرب لعدوهم اللدود إسرائيل. وخسر الحلف جزءاً كبيراً من أهميته المحدودة بعد السقوط العنيف للمملكة الهاشمية في تموز عام ١٩٥٨ الذي أنهى دور الحماية البريطانية للعراق.

الإنتقال الجمهوري لعبدالكريم قاسم كان دمويّاً جداً فتبعه عقد كامل من عدم الإستقرار المصحوب بالإنتقالات حيث تم إغتيال الملك فيصل مع حاشيته. عند ذلك فكّر الرئيس أيزنهاور بإرسال قوآت أمريكية إلى بغداد لحماية العائلة الملكية والباقيين منهم على قيد الحياة وكذلك لإستعادة العرش. فتحقق إنزال فعلي للبحرية الأمريكية في بيروت بحجة وجود خطر لإندلاع الحرب الأهلية في لبنان وتمّ كذلك نقل جنود

واشنطن بشراء قائمة تظهر فيها أسماء مئات الأعضاء المنتمين للحزب الشيوعي العراقي القوي من المساعد الأسبق للأمن في وزارة الداخلية الذي كان معروفاً بعداوته للشيوعية. هذا الرجل الذي أنجد بنفسه من أزام قاسم في عام ١٩٥٨ كان يعيش في المنفى وقبل كل شيء كان يتمنى المفايضة بالمعلومات التي كانت بحوزته: لم يهّمه كيفية إستخدامها ولا نعرف كم وكيف تمّت مكافأته لهذه "المعلومات".

العلامة التي تشير على أهميّة إنقلاب بغداد للولايات المتحدة هي إرسال المخابرات المركزية الأمريكية للمبعوث أرشي روزفلت Archie Roosevelt أحد أهم خبراءه في الشرق الأوسط إلى بيروت. وقد بقي فيها خلال شهر قبل وبعد سقوط عبدالكريم قاسم. أعطت المخابرات المركزية الأمريكية هذه القائمة للقنصل البعثيين؛ لم تكن القائمة دقيقة بالطبع لأنّ ممونّ المعلومات كان قد ترك العراق بعد إنقلاب قاسم مباشرة أي قبل خمس سنوات. فلا الولايات المتحدة ولا البعثيون أجهدوا أنفسهم أو أقاموا الإعتبار بأنّ القائمة إحتوت على أسماء لأشخاص تركوا الحزب الشيوعي منذ سقوط الملكية وبأنّها خلت من المجنّدين الجدد غير المعروفة هويّاتهم. " لم نتلقّى غير أمر واحد: أبدو الشيوعيين " صرّح بعثي قديم وهو يصف أشكال التعذيب التي تحمّلتها الضحايا قبل موتهم.

بعد مرور تسعة أشهر إنقلبوا على البعثيين بدورهم ولم تندم الولايات المتحدة على الحدث. وإستناداً الى أحد المؤرخين " إعتبرت الولايات المتحدة البعثيين ناساً يمكن بيعهم وشراءهم. " ومع ذلك عاد البعثيون إلى السلطة في عام ١٩٦٨ ولكن في هذا الوقت كان قد نجح صدام حسين ورجاله التكرّاة، أبناء مدينته، في التخلّص من الجيل الأوّل للبعثيين البورجوازيين. قام تكرّاة صدام في هذه المرّة بتصفيّة المعارضة كلياً ليبقوا في الحكم لمدة خمس وثلاثين عاماً. ولكن رغم السقوط الأوّل والمستحق للبعثيين فقد إستمرت الولايات المتحدة في تدخّلها بالشؤون العراقية. تفاوضت الحكومة البعثية مع الملحق العسكري الأمريكي في بغداد لشراء ٥٠٠٠ قنبلة يستخدمها الجيش في صراعه المستمر خلال الستينيات ضدّ المقاتلين الكورد الذين يقودهم الجنرال مصطفى البارزاني فمنحتها الولايات المتحدة ١٠٠٠ قنبلة نابالم مجاناً لتحرق قرى كوردية وقطيع حيوانات كاملة.

ما يثير المتعة بالنسبة للولايات المتحدة هو إقتناع الكورد بأنّ مصدر القنابل هو

الإتحاد السوفياتي وذلك بفضل بعض المناورات التقليدية مثل عملية رفع الأعلام والنفي التي إعتاد عليها العملاء السريّون. وهذا الحدث كان الأوّل في سلسلة طويلة من المقالب التي لعبتها الولايات المتحدة الأمريكية بالكورد العراقيين خلال العقود التالية.

ولكن في عام ١٩٧٢ غيرت الولايات المتحدة سياستها عند موافقتها على برنامج إيراني لإضعاف النظام العراقي من خلال مساندة التمرد الكوردي. فبالنسبة للأمريكان إقترفت بغداد خطأً لا يُغتفَر عند توقيعها على إتفاقية للصدّاقة مع الإتحاد السوفياتي.

لا يمكن بالطبع تفسير قرار نيكسون بالعداوة للشيوعية. فخيار مساعدة كورد العراق كان تغييراً كبيراً في السياسة الأمريكية التي عارضتها الإدارة الأمريكية بشكل دائم. فخلال مرور نيكسون ومستشاره في شؤون الأمن القومي، هنري كيسنجر بطهران وافقوا على أمنيات وتوسّلات الشاه محمّد رضا بهلوي المتكرّرة بمساعدة الجنرال بارزاني في حرب جديدة مع بغداد. دفعت واشنطن للكورد المبلغ الضئيل ١٦ مليون دولار كهديّة للشاه. يبدو بأن البارزاني كان سعيداً بما حصل عليه ولكن الخطأ كان في عدم حصوله على ضمان أمريكي قوي. لم يثق أكبر قائد قومي كوردي في القرن العشرين بشاه إيران مطلقاً. ففي فترة شبابه حاول الطاغية الإيراني إلقاء القبض على البارزاني وتنفيذ حكم الإعدام به أثناء المراحل الأولى للحرب الباردة أي حين تشكيل جمهورية مهاباد الكوردية في إيران التي أيّدها الكرملين بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة.

ولكن البارزاني صدّق الولايات المتحدة وأعتقد بأنّها سوف تساند طموحات الكورد بالحصول على دولتهم الخاصّة. لذا رفض الإستماع إلى مستشاريه - ومسؤولين أمريكيان - ردّوا بأنّ الإدارة تفعل ذلك من أجل تقديم هدية للشاه وليس أكثر. فالإدارة الأمريكية تجنّبت لوقت طويل الإقتراب من الكورد و ترددت قبل الإستماع إلى إقتراح إسرائيلي وشاه إيران بمساندتهم لإضعاف العراق.

وفي جملة شهيرة يعترف كيسنجر بأنّه منح موافقته على برنامج الشاه " لأننا لم نكن نعرف الشيء الكثير عن الكورد - كنا نتصور بأنهم يشبهون قبيلة جبليّة ".

وبعد ذلك بعقدين خانت الولايات المتحدة الكورد من جديد فإضطرّ كيسنجر الإعتذار

على الطريقة الهمجية التي تملصت بها إيران من إلتزاماتها تجاه البارزاني في آذارعام ١٩٧٥ . لحد هذا اليوم لم يكن الصراع أبداً لصالح الكورد. فقد أودع الشاه الفوائد على حسابه وحصل واقعيّاً من العراق على كل ما رغب: مراجعة إتفاقية تفاوضٍ عليها البريطانيون خلال ما بين الحربين والتي بموجبها حصلت طهران على ضمان السيطرة المتساوية على شط العرب وبالنتيجة الوصول بسهولة إلى المصفاة الكبيرة لعبادان.

رغم نداءات البارزاني وقنوات ربط المراسلين الأميركيين في إيران الصارخين في وجه العالم هذا اليأس الكوردي فلم يتحرك كيسنجر. عشرات الآلاف من مؤيدي البارزاني واجهوا خياراً صعباً: بين الإستمرار في الكفاح والقتال دون المساندة الأساسية للمدفعية وصواريخ ضدّ الجو الإيرانية وبين خيار اللجوء والنفي. إختار معظمهم إجتياز الممرّات الثلجية التي تقود إلى إيران. أمضى البارزاني بقية حياته في الغربية ومات في واشنطن، عاصمة الدولة التي خانته. لم يسלטوا الضوء على وجوده فيها وقد سرّه كثيراً إستبعاد كيسنجر في عام ١٩٧٦ وقد عاش ما يكفيه لرؤية شاه إيران مخلوعاً من عرشه في عام ١٩٧٩ بواسطة الثورة الإسلامية لآية الله الخميني.

لعبت الولايات المتحدة الأمريكية دوراً مركزياً خلال الفترة التي إزدهر فيها البعثيون إعتباراً من عام ١٩٧٥ بفضل إرتفاع أسعار البترول ويفضل السلم المدني الذي تبع إنهيار الثورة الكوردية. أصبح الإتحاد السوفياتي ومن ثمّ فرنسا رويداً رويداً الشركاء التجاريين الرئيسيين ومجهزي أسلحته.

كمعظم الدول العربية فالعلاقات الدبلوماسية بين بغداد وواشنطن كانت مقطوعة لإحتجاج على ما تم فهمه خلال حرب الأيام الستة في حزيران ١٩٦٧ بالتحيز الأمريكي لصالح إسرائيل. لكن الطمع في الأموال المقدّسة أثارت لعاب عدد من الشركات الأمريكية ومنها على الأقل شركة أمريكية واحدة بفاولدر دي روشستر Pfaulder de Rochester في ولاية نيويورك التي جهّزت العراق بمعمل كيمياوي له " إستخدام مزدوج " (يعني بأنّه قادر على إنتاج مواد مسموحة في الميدان المدني وكذلك في إنتاج الأسلحة الكيماوية) إنطلاقاً من عام ١٩٧٦ . سلّمته بفاولدر مجموعة من الخطط قبل أن يغيّر أحد موظفي الحكومة رأيه ويأمر الشركة بالإمتناع عن ذلك.

في سنوات السبعينيات تباعدت الولايات المتحدة عن العراق لخلافاتها معه أكثر فأكثر. الحرب الفيتنامية أقنعت الولايات المتحدة بضرورة مساندة حلفائها الاقليميين في المناطق الحساسة وفي الخليج (الفارسي) إختارت شاه إيران لهذا السبب. وقد رغبت الولايات المتحدة في جعل إيران بوليسها المحليّ أملاً بأن يكون هذا البلد قادراً على ملء فراغ إنسحاب القوّات البريطانية في عام ١٩٧١ بعد تواجدها لقرن ونصف تقريباً لأنّ الأخيرة تركت " شريط " الإمارات العربية الواقعة على الساحل الغربي للخليج.

ولتحقيق هذا الهدف ساعدت الولايات المتحدة شاه إيران في بناء قواعد عسكرية على كلّ الأراضي الإيرانية وعلى الأخصّ في مواجهة العراق.

باعت واشنطن لإيران أسلحة بمليارات الدولارات بينها أعداد كبيرة من الطائرات المقاتلة ومثلها طائرات لنقل الجنود وكذلك الهليكوبترات. وبدورها زوّدت الإتحاد السوفياتي وفرنسا اسلحة للعراق ولكن بدرجة أقل. ولتحقيق طموحه أرسل شاه إيران قوّة إلى عمان فاستولت على ثلاث جزر، أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى. وإستعرض العراق أثناء ذلك قوّته من خلال إبتزاز - وأحياناً قتل - موظفي إمارات الخليج البترولية الصغيرة.

وقد بدا منطقياً أن تدخل إيران والعراق المسلّحتين من القوّتين العظمتين المتنافستين في نزاع لحسم مشاكلهما كما فعل أبأوهما وأجداهما سابقاً في التاريخ. وأكثر من ذلك فالأسباب المباشرة للصراع ينبغي بحثها في إيران حيث في الأساس هناك إنتصار للثورة الإسلامية في شباط ١٩٧٩ في البداية لم يغيّر هذا الأمر شيئاً للولايات المتحدة ولكن وقع حدثان دفعا واشنطن لمراجعة نظرتها تجاه النظام البعثي. بالنسبة للولايات المتحدة فالأشهر الأولى للجمهورية الإسلامية تركت إنطباعاً أمريكياً إيجابياً على الخميني ولكن قرار أمريكا بالسماح للشاه في دخول مستشفى نيويورك لمعالجة المراحل النهائية لمرضه، السرطان، هيّج الطلبة الإسلاميين في تشرين الثاني ١٩٧٩ إلى حد دفعتهم على التهجّم على السفارة الأمريكية في طهران وأخذ الدبلوماسيين كرهائن. بقي ٥٤ منهم مسجوناً إلى يوم تحريرهم في السفارة بعد ١٤٤ يوماً والذي صادف يوم إستلام رونالد ريغان للرئاسة في شهر كانون الثاني من عام ١٩٨١

أصبحت مسألة رهائن السفارة حقة اسطورية تؤثر لحد هذا اليوم على السياسة الشرق - أوسطية للولايات المتحدة.

إنطلاقاً من هذه اللحظة أصبحت العلاقات مع إيران موضوعاً سياسياً في الولايات المتحدة فالقواعد الدبلوماسية التقليدية الهادفة إلى تهدئة العداوات بين الأمم لم يعد لها أي اعتبار.

وبالعودة إلى الوراء يسهل علينا الفهم بأن واشنطن قد تأثرت بالمثل الشرقي: " عدو عدوي صديقي ". لكن ظاهرياً ردت الولايات المتحدة بتأيي أكبر من الدول النفطية الخليجية وفرنسا - ودون أدنى شك دول أوروبية أخرى - التي هبتت لمساعدة صدام حسين حينما غزا إيران في أيلول ١٩٨٠ .

وبالرغم من كل ذلك فقد شجعت الولايات المتحدة العراق وراء الكواليس بحماس. القائد الأسبق لجيوش الشاه غلام علي أوفيسي كان يتواجد في بغداد خلال الصيف الذي سبق الغزو. إستناداً إلى وثيقة تم كشفها بعد سنوات: " أعطى الرئيس كارتر ضوءاً أخضر للعراق بإعلان الحرب على إيران."

في بداية الصراع الذي إستمر لثماني سنوات لم تمتعض الولايات المتحدة ولم تحزن لمشهد تذابح الجيشين الذين أعادوا لعبة حرب الخنادق لعام ١٩١٤ - ١٩١٨ ووصلا إلى إستخدام الأسلحة الكيميائية بينهما. لكن مسألة رهائن السفارة التي طالت أفقدت الأمريكان كل أمل بإيجاد تسوية مع الخميني. كمعظم الدول الغربية والعربية بدأت واشنطن تقلق حينما تم إيقاف القوات العراقية بعد غزوها لإيران ومن ثم تقهقرها وإضطرارها بالتراجع نحو الأراضي العراقية وقوات الخميني المصرة على قلب النظام البعثي وعلى نشر الثورة الإسلامية في كل الشرق الأوسط تطاردها.

إعتبرت واشنطن مسألة بقاء النظام أمراً جوهرياً إلى درجة أنها أقفلت عينها ولم تحسب الأرقام القياسية لتجاوزات صدام حسين على حقوق الإنسان وتجاهلت إستخدامه للسلاح الكيميائي والبايولوجي ضد القطعات الإيرانية وضد الكورد و جهوده الميؤوسة لإمتلاك السلاح النووي. وكإشارة على نيته وإرادته الودية أرسل رونالد ريغان مبعوثه الشخصي دونالد رامسفيلد لمصافحة صدام في كانون الأول ١٩٨٣ . كان رامسفيلد، الوزير السابق واللاحق للدفاع هو أكبر شخصية حكومية

يزور بغداد بعد ١٦ عاماً من إنقطاع العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين. وعاد إلى العراق في الربيع التالي فأعيدت على إثرها العلاقات الرسمية خلال هذه السنة.

ولكن مع ذلك فالحق يجب أن يقال حيث أن الولايات المتحدة تباطأت في الإلتحاق بالدول التي تساند العراق علنياً: فرنسا، العالم العربي (عدا سوريا بشكل صريح) والإتحاد السوفياتي. جهّزته فرنسا بصواريخ الإكزوسيت جو - بحر وبميراج f1 - وعلى الأخص بطائرات السوبر - ايتاندار Super Etandard - لضرب الناقلات النفطية الإيرانية أملاً إجبار الخميني على إيقاف حربه المقدسة. وهب العرب عشرات المليارات من الدولار لتتمكّن بغداد من شراء المزيد من الأسلحة ولتموين العراق بالغذاء والسيارات والمنتجات الإستيرادية الهادفة إلى منع إستياء الجماهير الخلفية والإمتناع عن معارضة صدام وحربه التي لا يقدر على الإنتصار فيها. وقد برزت هنا واحدة من أغرب حلقات الحرب الباردة: فالولايات المتحدة وعدوها اللود الإتحاد السوفياتي تواجدا في نفس المعسكر وعبرا عن نفس الإرادة بوضع حد لتوسع وانتشار الثورة الإيرانية.

ساعدت أمريكا العراق بعدة أشكال. البداية كانت بالمواد الغذائية: إستيراد القمح والرز الأمريكي بسعر منخفض أمام المنافسة الأسترالية والكندية القوية. سمحت هذه الإستيرادات لصدام حسين بتجاهل التمرد في كوردستان، مخزن القمح الخصب في العراق وكذلك عدم الإهتمام بالتأثير الإيراني على هذه المنطقة وجعلته يركّز إهتمامه على الساحة الرئيسية للعمليات العسكرية في الجنوب والأماكن القريبة من بغداد، في البصرة وفي المراكز الكبيرة لتجمع السكّان.

هذه الحبوب المباعة والممولة من الحكومة الأمريكية كانت مصدراً لفضيحة شملت فرع أتلاننا (بنك لافورو الإيطالية) La Banco di lavoro Italiane التي تحمّلت مسؤولية التفاوض في المسألة. لكن، في الواقع، إفتخر الأمريكان في كونهم مدفوعين قبل الدائنين الآخرين وإستناداً إلى دبلوماسي أمريكي، " كنّا أول المدفوعين وإلى آخر سنت " في حين ينتظر الآخرون عبثاً.

من السهولة فهم هكذا تعامل أفضلني. يبدو واضحاً بأن صدام حسين ولأسباب سياسية كان يعلّق أهمية كبرى على عملية بيع الحبوب الأمريكية. كان في إستطاعته الحصول على حبوب أجنبية - وبسعر أقلّ حتماً - ولكن توقيع العقد مع الحكومة

الأمريكية يعني توقُّع وصول أنواع أُخرى من المساعدات.

إحتاج صدام حسين كل مساعدة يمكن الحصول عليها ففي ١٩٨٢ تم طرد القوَّات العراقية من إيران وكان عليه مواصلة القتال داخل بلده. بدأت الولايات المتحدة بإعطاء العراقيين معلومات دقيقة إعتياداً على صور الأقمار الصناعية التي تتيح للعراقيين ضرب البنى التحتية النفطية الإيرانية وكذلك أهدافاً أُخرى جوهرية سوف تجبر الخميني، كما كانت تتصور، على إيقاف الحرب.

أظهر الأمريكيان أنفسهم وكأَنَّهُم حياديون حينما رفضوا إعطاء صور الأقمار الصناعية السريَّة كما هي وإنما قدّموا لهم نسخاً مطبوعة تسمح لهم بإمكانية النفي في حالة إكتشاف السر وإفتضاحه.

الإدارة الأمريكية والبنتاغون كانا غالباً على خلاف فالمخابرات السريَّة الأمريكية كانت تتمنى مساعدة العراق والإدارة تلج على إمكانية النفي الرسمي. وإفترض بعض الموظَّفين الأمريكيان بأنَّ المعلومات المقدَّمة بذاتها غير ذات أهميَّة بالنسبة للعراقيين. فقد قدروا بأنَّ الكاميرات المتطورة المركَّبة على طائرات الإستطلاع الفرنسية تستطيع إعطاء نفس المعلومات تقريباً (وبضمنها تحديد الأهداف بالنسبة لـ " حرب المدن ": الضرب في نهاية الصراع بإستخدام صواريخ سكود عشوائياً حطَّم معنويات إيران). الأمريكيان كانوا مقتنعين بأنَّ المشكلة الرئيسيَّة للقوَّات الجويَّة العراقية هي في تردُّد الطيارين العراقيين في التحليق بمستوى واطيء - وبالنتيجة القدرة في إصابة وتدمير الأهداف - أكثر ممَّا هي معرفة موقع الهدف بالضبط. فعلى سبيل المثال نذكر بأنَّ الشركات الأمريكية التي ساعدت إيران في بناء الميناء البحري لجزيرة خرج جهَّزت العراق الخريطة بالتفاصيل؛ ولكن إستمرَّ الطيارون العراقيون بضرب نفس المصافي ومحطَّات الضخِّ بلا حدود دون أن يصيبوا الهدف بشكل حاسم. وعلَّق واحد من الموظَّفين الأمريكيان على ذلك بسخرية قائلاً: " لم يخلِّق الطيارون العراقيون تحت مستوى واحد وثلاثين ألف قدم على الإطلاق فكيف يمكنهم إصابة الهدف؟ "

سلَّمت الولايات المتحدة للعراق كذلك عربات مقطورة وهيليوكوبترات. وبعد سنوات أقرَّت الإدارة الأمريكية بعلمها حول إستخدام هذه الطائرات لأهداف عسكرية رغم تصريحات العراقيين بأنَّها سوف تستخدم مدنياً فقط. كان الهدف الحقيقي في المساعدة الأمريكية هو إعلام العرب وبغداد وبشكل خاص طهران بأنَّ الولايات المتحدة

تساند حرب صدام. جهدت الدبلوماسية الأمريكية على إظهار نفسها حيادياً بانتظام رغم ميلها أكثر فأكثر نحو العراق. بفضل FREEDOM FOR INFORMATION ACT الحرِّيَّة من أجل الإعلام تمَّ نشر وثائق أمريكية تشير بوضوح إلى أي مدى كانت واشنطن مستعدة بالذهاب إليه في مجلس أمن الأمم المتحدة لإجبار إيران على إيقاف الحرب ولفسح المجال للعراق بالإستفادة في الحدود القصوى.

وسبب عدم إدانة العراق لإستخدامه السلاح الكيميائي ضدَّ مواطنيه الكورد والجيش الإيراني يعود الى نيَّة الدبلوماسية الأمريكية في تحميل الدولتين المتعاديتين هذه المسؤولية على ذات القدر من المستوى.

في آذار من عام ١٩٨٨ مات خمسة آلاف كوردي من حلبجة بخليط من مواد الأعصاب والأسلحة الكيميائية. خرج تقرير مدوي صادر عن ArmyWar College de Carlisle في بنسلفانيا - مدفوعاً من واشنطن على الأرجح - يؤكِّد بأنَّ الإيرانيين هم الذين ارتكبوا مذبحه حلبجة. في تلك الفترة أرسلت الحكومة الأمريكية فاكس تعليمات لمختلف سفاراتها تنصحهم بإصرار على القول بأنَّ إيران هي التي كانت مسؤولة عن أحداث حلبجة. كان التوجيه بوضوح هو صرف الإنتقادات عن العراق ولكن ذلك لم يكن له إلاَّ وقعاً ضئيلاً على الرأي العام. فالبراهين كانت دامغة: صور تلفزيونية، أفلام وصور أنتجها مراسلون غربيون نقلهم الإيرانيون إلى حلبجة. بسبب هذه الاحداث إنطلقت عاصفة من الإحتجاجات إلى درجة أنَّه تمَّ تنظيم مؤتمر في باريس في كانون الثاني من عام ١٩٨٩ تطبيقاً لنصوص معاهدة ١٩٢٥ التي تحرم إستخدام الأسلحة الكيميائية.

تعاونت فرنسا والولايات المتحدة يداً بيد لإبعاد المتظاهرين الكورد عن أماكن إنعقاد المؤتمر الذي تمَّ فيه تجديد الإلتزامات بعدم إستخدام هكذا أسلحة. وبغرابة لم تنص الإتفاقيه الأصلية على تحريم الحكومة من إستخدام هذا السلاح ضدَّ مواطنيه ووافق المؤتمر على المطالب العراقية بعدم تسميته في القرارات والمقرَّرات النهائية. وثمة وثائق أمريكية غير ممنوعة للنشر تشير بوضوح بأنَّ الولايات المتحدة كانت تعلم بدقَّة ومنذ بداية الحرب بخبر إستخدام العراق في الأوَّل للسلاح الكيميائي أكثر بكثير ممَّا إستخدمته إيران.

من روسيا والبرازيل وأفريقيا الجنوبية. وليس بعيداً أن تكون هي التي سلّمتها القنابل المنفلقة وأسلحة أخرى أيضاً. متجنّبة عن سبق إصرار وترصد إنتقاد العراق على تجاوزاته المختلفة مليئة في ذلك رغبات نزار حمدون، المبعوث الحاذق والمطلع لبغداد في الولايات المتحدة. وبهذه المناسبة نقول لقد قاموا بتنفيذ إقتراحاته حرفياً.

وفي النهاية، نسّقت الولايات المتحدة مع حلفائها التقليديين في مجلس الأمن، بريطانيا وفرنسا وحتّى الإتحاد السوفياتي، الأمر النادر حصوله فنجحت في إيقاف الحرب لصالح العراق. في شهر تمّوز من عام ١٩٨٨ صرّح الخميني بأنّه " يشرب الكأس المرّ ويتذوّق العلقم " ووافق على قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار الذي رفضه باستمرار. بعد هذا بأقل من سنة توقّى الخميني وذهب معه الجزء الأعظم من النشاط والحيوية الإيرانية لتصدير الثورة الإسلامية.

كُشفت المساعدة الأمريكية تدريجياً وقلّلت واشنطن لوقت طويل من أهميّة مساعدتها لإنتاج الأسلحة الكيميائية والبايولوجية. الشركات الأوروبية وبالأخص الألمانية سلّمت إلى العراق أكثرية المعامل المنتجة لأسلحة الدمار الشامل ويبدو أن المختبرات الأمريكية أرسلت، بكل براءة، إلى العراق مجموعة مختلفة من المواد السامة دون أن تتصوّر ما يفعل بها صدام حسين أو كيفية إستعمالها.

منذ سنوات يؤكّد السيّد مسعود بارزاني تجميعه لكمية هائلة من المعلومات المعطيات الدقيقة حول الشركات الغربية التي ساعدت صدام حسين في إنتاج أسلحة الدمار الشامل ولكنّه لم ينشر شيئاً منها أبداً. والأمم المتحدة التي تملك بدورها أرشيفها الخاص لم تنشر شيئاً كذلك. في كانون الثاني ٢٠٠٢ وقعت الولايات المتحدة بطريقة غير مشروعة على ١٢٠٠٠ صفحة من المعطيات والمعلومات المرسلّة من قبل صدام حسين إلى الأمم المتحدة غرضه الإثبات لها بأنّه يلبي الطلبات الملحة للمراقبين الدوليين الذين فرضوا على بغداد تدمير مخازن أسلحتها للدمار الشامل. نُقلت هذه المعطيات إلى الأمم المتحدة بسرعة ولكن ما تم تسليمه لم يذكر شمول الأمريكيان بتجهيز العراق بوسائل إنتاج الأسلحة المدمرة.

ومع هذا يجب الإعتراف بحقيقة أنّ الولايات المتحدة كانت القوة الوحيدة من بين القوى الغربية التي رفعت صوتها بخصوص إستخدام صدام حسين لأسلحة الدمار

وبالعكس ممّا صرّح به دونالد رامسفيلد في مقابلة تلفزيونية مع الـ CNN في عام ٢٠٠٢ فإنّه لم يتطرق إلى إستخدام السلاح الكيميائي أثناء مقابلته مع صدام حسين وإنّما خلال زيارته الأولى لبغداد مع طارق عزيز. ولم يعد هذا الإستخدام خافياً على أحد منذ إعلان القوّات المسلّحة العراقية قبل بدء الإيرانيين بهجوم هام وكبير: " على الغزاة أن يعلموا بأنّ لكل حشرة ضارّة دواء قادر على تدميره ومهما كان العدد؛ يملك العراق هذا الدواء المدمر."

مرّت الأيام والسنين والولايات المتحدة تحصل على معلومات أكثر فأكثر حول إستخدام صدام للسلاح الكيميائي ورغم هذا فقد بقيت الإحتجاجات نادرة جداً. أفشى مؤخراً دبلوماسي أمريكي بأنّه في عام ١٩٨٧ - ١٩٨٨ وخلال حملة الأنفال وفي اللحظة التي تعدّدت فيها الهجمات بالسلاح الكيميائي ضدّ الكورد، " كنّا نعلم بما يجري وبالزمن الحقيقي تقريباً. لم يكن في حوزتنا كلّ التفاصيل المريعة ولكن لم يصعب علينا إدراك الحقيقة."

وبالرغم من ذلك لم تصل سياسة الصمت إلى ذلك المستوى الذي يسمح لرجال الأعمال الأمريكيان الجشعين والراغبين بالمساهمة في بناء الصناعة الكيميائية العسكرية لصدام حسين بالإستمرار في تعاملهم معه.

خلال الشهر الذي تلى الزيارة الأولى لرامسفيلد إلى بغداد منعت الإدارة الكمركية الأمريكية شركة كانت تنوي تصدير ٢٢٠٠٠ باوند من مادة فلورات الفسفور إلى العراق عن طريق شركة وهمية وأعلنت لوزير العراق في الشؤون الخارجية: " نحن نعارض بشدّة سعي العراق بالحصول من الولايات المتحدة على المواد الأولية والتجهيزات وعلى الأدوات الضرورية لصناعة الأسلحة الكيميائية. حينما يعلموننا بتلك المحاولات فسوف نسعى بكل جهدنا منع ذلك. " هذا الإعلان يدلّ بأنّ رامسفيلد كان أقلّ إستعداداً للتفاهم حينما عاد إلى العراق في الربيع التالي.

تبنيّ الأمريكيان خلال Operation staunch عملية ستاونج " تكتيك الحيادية الشككية. والهدف النظري لهذه المبادرة الدبلوماسية كان منع الطرفين المعاديين من الحصول على أسلحة أجنبية ولكن المبادرة إستهدفت في الواقع إيران لوحدها. غصّت الولايات المتحدة نظرها حينما تلقّى العراق أسلحة من فرنسا (ودول أوروبية أخرى)،

الشامل ففي أيلول من عام ١٩٨٨ طلبت الولايات المتحدة من شخصية مهمة - سكرتير الدولة جورج شولتز - بمحاسبة العراق.

في الأيام التي تلت وصول الأحياء الكورد إلى تركيا، الكورد الذين فروا بجلدهم والذين تعرّضوا لغازات صدام بعد وقف إطلاق النار بشهر قام شولتز بتوبيخ العراق بوضوح ودون لف أو دوران.

في بغداد حصلت السفارة الأمريكية أبريل كلاسبي من وزير الشؤون الخارجية العراقية على إجازة من النادر الموافقة عليها لزيارة كوردستان. بالطبع لا يمكن التشجيع على هكذا نوع من الطلعات الدبلوماسية. أبريل كلاسبي هي المبعوثة الغربية الوحيدة التي طلبت الذهاب إلى كوردستان وقد حققت هدفها من خلال تحذيرها بتحديد حركة عملاء المخابرات العراقية الموهين بثياب الدبلوماسية وهم يراقبون الطلبة العراقيين في الولايات المتحدة. وحال عودتها أشارت إلى وجود مجموعات نسائية وأطفال كورد يأسين يجوبون الطرق الرئيسية بلا رجال.

وفي واشنطن نجح بسرعة السيناتور كليربورن بيل Clair Borne Peel رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ في إقناع زملائه بسرعة على تأييد العقوبات الاقتصادية ضد العراق وبمفعول مباشر مما وضع حداً لبيع الحبوب الأمريكية فثار صدام حسين والأمر الذي كان يثير غضبه هو أنه لم يبقى في البنك المركزي العراقي أي احتياطي تقريباً.

وقد كانت بغداد محظوظة حينما تمكنت الإدارة الأمريكية، خلال بضعة أشهر، كسب تأييد الأكثرية في مجلس الشيوخ لرفع العقوبات. وحققت في ذلك لوبيات القمح والزيت في هذا التصويت نصراً محترماً على أصدقاء إسرائيل في الكونكرس. أيد موظفون في الإدارة الأمريكية بلا أبالية واضحة بأنه إذا انسحبت الولايات المتحدة من السوق العراقية فسوف تحل محلها أمم أخرى في أوروبا وبقية العالم: فسحقاً لحقوق الإنسان.

وبالرغم من أرتياح الأمريكان على مصير الحرب الإيرانية العراقية فإن أي مختص في شؤون الشرق الأوسط لم يعتقد بأن تحقيق الأهداف الصعبة سيؤدي إلى نتائج بعيدة المدى. سجل خبير كان من أحد معرّبي الإدارة الأمريكية هذه الملاحظة وبمرارة:

" لا وجود لنصر في الخارج إذا لم يحتوي في نواته على عنصر الهزيمة. " وفي ما يتعلّق بالسياسة الأمريكية في العراق توضّح للمقرّرين السياسيين بأن المشكلة هي في: البارانويا (هذيان فكري وإحساس بالإضطهاد) المتزايدة لصدّام.

وسبب ذلك كان بسيطاً: سعي الولايات المتحدة غير الحكيم بتحرير الرهائن الأميركيين مقابل تسليم إسرائيل أسلحة لطهران. نشرت إيران قضية إيران غيت (Iran gate) فبدأ صدام حسين يشك بقوة وعناد بنوايا الولايات المتحدة الأمريكية. " رغم كل ما قدمناه له لمساعدته فصدّام كان مقتنعاً بأننا نحاول أزاحته عن الحكم "، صرّح به دبلوماسي أمريكي الذي تطرّق إلى كلّ المحاولات الأمريكية لمساعدة بغداد خلال أعوام الثمانينيات. وعلّق في تلك الفترة بأسلوب ساخر قائلاً، " فكّر القليلون في واشنطن بأن صدام حسين كان عنصراً سيئاً وقذراً ".

الحرب ضدّ إيران لم تهديء صدام حسين ولم تدفعه إلى التفكير بعمق فالدكتاتور العراقي ربّما بسبب بارانويته لم يلحظ بأنه كان محظوظاً بالخروج حياً من الجنون الذي شكّله غزو جارتة الشرقية. وقد ردّ على حكومات الخليج العربية بعدوانية وشراسة حينما تجرّأت الأخيرة بمطالبته إيفاء الديون المستحقة والتي تجاوزت المئة مليار دولار. هذه الأموال هي التي أتاحت للعراق الإستمرار في تحمّل سنوات الصراع. صدام كان يدعي بأنه غير مطلوب منهم بل بالعكس هم المطلوبين له بعروشهم.

دون نضال وموت مئات الآلاف من العراقيين لجرفتهم ثورة الخميني ورمتهم في مزبلة التاريخ. خلال صيف ١٩٩٠، إستخدم صدام كلمات عدوانية وهدّد بحرق نصف إسرائيل. لم تمر هذه الخطابات المعادية لإسرائيل دون رد فعل من واشنطن.

ولكن زار السيناتور بوب دول Bop Dole بغداد في نفس الفترة وأنحني أمام صدام الذي كان غاضباً وهائجاً بسبب مسّه بانتقاد صغير في إذاعة صوت أمريكا. كانت إدارة بوش تحمل قفازات أمام الدكاتور لإقتناعها بإمكانية وضعه داخل حدود معقولة ولأنّه قادر على مساعدة الشركات الأمريكية في تحقيق الفوائد وإستمر الحال هكذا الى بداية صيف ١٩٩٠ حينما انفجر خلاف عنيف بين صدام والكويتيين داخل أوبيك، OPEP . إشتكت الكويت وطالبت بالديون غير المدفوعة من العراق : وإتهم صدام

الكويتيين بالتنقيب والحفر خلافاً للقوانين في الجانب العراقي وأتهمهم بنيتهم في إيذاء العراق من خلال تجاوز نسبة الإنتاج وخفض أسعار النفط الخام.

في ٢ آب ١٩٩٠ غزا صدام الكويت بحجة أن الإمارة البترولية الصغيرة والغنية سرقت النفط العراقي لأنها في كل الأحوال تشكّل ومنذ الأبد جزءاً من الوطن العراقي. كان هذا الغزو يشكّل في عيون الأميركيين تهديداً لأكبر دولة خليجية منتجة للبترو، العربية السعودية وكذلك لكل الإمارات العربية النفطية الصغيرة الواقعة على الساحل العربي للخليج لاحقاً. أخذ صدام حسين الأميركيين على حين غرة: فسكربتير الدولة جيمس بيكر كان غارقاً في مفاوضات تضع حداً للحرب الباردة مع موسكو.

قررت واشنطن وبالأخص الإدارة الأمريكية بأنّ المدام السفيرة كلاسي تمثّل كبش الفداء المثالي فقبل اسبوع من الغزو استدعاها صدام حسين لإجراء مقابلة - كانت اللقاءات نادرة مع القائد العراقي لأنه يكره الإلتقاء بالدبلوماسيين. لم تملك أبريل كلاسي الوقت الكافي لطلب التعليمات من إدارة الدولة فاستندت على المباديء العامة وصرّحت بأنّ واشنطن لم تستلم تفويضاً بالتدخل في نزاعات بين دولتين عربيتين.

إعتمد صدام حسين لاحقاً على هذا التوضيح، الصحيح فنياً لتبرير الغزو ولكن اللحظة التي إختارها لمقابلة السيّدة أبريل كلاسي تفترض بأنّ صدام توقع غياب التعليمات للسفيرة وبأنّه كان قد قرّر غزو الكويت مهما كانت أقوال كلاسي. وبدأت مجريات الإحتلال الكويتي تسير بصورة سيّئة فالولايات المتحدة كانت قد شكّلت تحالفاً من ثلاثين دولة لإجبار الجيش العراقي على ترك الكويت وإعادة حالها كما كانت في السابق.

وأثناء بذل الجهود الحامية لكسب مساندة المجتمع الدولي إكتشفت الولايات المتحدة فجأة بأنّ صدام حسين كان دكتاتوراً دموياً وبأنّه من صنف " هتلر " كما وصفه يوماً الرئيس بوش الأوّل وبدا لواشنطن في النهاية بأنّه من المفيد فضح سيّئات صدام حسين بعد أن تناست في السابق بشكل كليّ تقريباً التقارير المفصلة عن جرائم الدكتاتور العراقي.

لم يكن خبراء الحرب النفسية بحاجة إلى إختراع الكثير: فالوثائق كانت جاهزة للقراءة وبدأ الرئيس بوش بعرض صور قتلى حلبجة كبرهان على وحشية صدام

حسين. في المساء الذي سبق توقيت الهجوم البرّي للحلفاء نادى العراقيين بالإنتفاضة لإطاحة صدام وأعلن خلال بث لإذاعة صوت أمريكا أعادته إذاعات سرّية للمخابرات المركزية الأمريكية في السعودية وكذلك في منشورات نثرت بالطائرة: " على الجيش والشعب العراقي تحمّل مسؤولية مصيرهم وجبر صدام، هذا الدكتاتور، على الإستقالة. " كانت النتائج فضيعة بالنسبة لآلاف الشيعة الذين سمعوا هذا النداء في جنوب العراق والذين سحقوا وأبيدوا حينما سمحت الولايات المتحدة للجزء الباقي من الجيش العراقي بمعاينة المنتفضين الذين لم يترجموا بشكل صحيح السياسة الأمريكية الواقعية Realpolitic . نتذكّر أيضاً وعلى نفس المنوال كيف أنّ أكثر من مليون كوردي هرب نحو الحدود الجبلية مع إيران وتركيا خوفاً من موجة إضافية للإسلة الكيميائية. مات الآلاف بالبرد خلال الاسبوعين التاليين ولكن لم يمر هذا الموت دون أن تتفصح الخبائث الأمريكية " الإمتناع عن التدخل «Non - Intervention».

أمام كاميرات العالم بأجمعها. وأخيراً قامت بريطانيا العظمى وفرنسا ودول أوروبية أخرى بإجبار بوش من خلال إحراجه على إرسال قوّة من التحالف لنجدة الكورد وإنزالهم من جبالهم.

أعلن بوش نهاية العمليات الحربية عند إنسحاب القوّات العراقية المنحدرة وبعد ١٠٠ ساعة فقط من بدايتها وبرّر قراره في ذلك اليوم لأسباب إنسانية. في ضوء القمع الذي تحمّله الأغلبية الشيعية العراقية نفترض بأنّ واشنطن وحلفاءها العرب خافوا من سقوط صدام الذي سوف يفتح السبيل لإقامة جمهورية إسلامية على الطريقة الإيرانية. لهذا فضّلت الولايات المتحدة عدم تغيير نظام بغداد . ولا يخفى بأنّ شعور واشنطن وحلفائها العرب بمعادة إيران لعب دوراً في إيقاف الهجمات البرية حيث أنّ المسؤولين الأميركيين كانوا يلحّون على حقيقة أنّ التحالف تم تشكيله إستناداً لقرار مجلس أمن الأمم المتحدة والقاضي بإستخدام القوّة لتحرير الكويت وليس للإطاحة بصدام حسين.

وبعد مرور سنوات إترف الرئيس بوش بنفسه بأنّه لم يكن يتوقّع بقاء صدام حسين بعد الهزيمة. مع ذلك فعبر تجنيد الفرق الرئيسية للحرس الجمهوري التي وضعها صدام حسين في عنايته حيث لم يرسلها مطلقاً إلى جبهة المواجهة وكذلك من خلال

قادراً على إستيعاب المنطق الذي يحرم عليهم الحصول على أساسيات الحياة كالكودر الضروري لتتقية المياه بحجة إمكانية إستخدامه في صناعة أسلحة الدمار الشامل. ردّ صدام حسين على الحصار بإزدراء من خلال إستمراره في بناء القصور وقد ساهم الشعور بالظلم في نهوض العراقي العادي ومقاومته للجيش الأمريكي أثناء حرب ٢٠٠٣. وعبر هذه السنوات إستقال وبشكل مرحج إثنان من كبار موظفي الأمم المتحدة المسؤولين عن المساعدة الإنسانية إحتجاجاً على الحصار الذي إعتبروه مسؤولاً عن الموت غير المفيد لمئات الآلاف من العراقيين وبضمنهم الكثير من الأطفال.

في عام ١٩٩٥ وأثناء مقابلة ندمت على إجرائها لاحقاً سألوا مادلين أولبرايت السفيرة في حينها في الأمم المتحدة ووزيرة الدولة للشؤون الخارجية بعدها عما إذا كان الحصار يستحق حياة خمسمائة ألف إلى مليون طفل ماتوا وفقاً للمصادر العراقية نتيجة لسوء الحالة الصحية التي سببها الحصار. " الخيار كان صعباً جداً، أجابت، نعتقد بأنّ الثمن المدفوع يستحق ذلك، نعم. "

إعتباراً من عام ١٩٩١، أي بعد الحرب الأولى للخليج مباشرة، حدّد تقرير سريّ للبنتاغون بأنّ القصف المقرّر من قبل قوآت التحالف لمعامل تصفية المياه وللمولّدات الكهربائية، للمجاري وللقنوات يمكن أن تسبّب أمراضاً معدية كالتيفوئيد والأطباء الأمريكيان الذي زاروا العراق بعد إنتهاء العمليات الحربية إستنتجوا ذات الشيء في تقاريرهم.

في البداية تمنّى الأمريكيان ظاهرياً بأنّ العوز والحاجة سوف يثير الناس ويدفعهم إلى التمردّ والإنتفاضة، وهو تقييم أفضله قمع صدام حسين الفظيع ضدّ الكودر والشيعية تلبيةً لنداء بوش ولكن كما لاحظ دونيس هوليداي أحد الدبلوماسيين الإثنيين للأمم المتحدة الذين إستقالا: " الشعب العراقي أدان الولايات المتحدة والأمم المتحدة على مسؤوليتهم في العذاب والآلام التي سببها الحصار بدلاً عن إنتقاد ولوم صدام حسين على العقوبات المفروضة عليهم. "

كان هذا الرفض حاضراً بشكل دائم حينما غزا الرئيس بوش الثاني العراق. هذا التمردّ القاتل الذي خلقه الغزو جعل من الوعود الأمريكية في بناء المستشفيات وقنوات المجاري أمراً عبثياً...فالثماني عشرة مليار دولار التي منحها الكونكرس لإعادة بناء

إعطاء الضوء الأخضر للجيش بإستخدام الطائرات السمتية لإرهاب الكودر والشيعية فقد ساعد بوش صدام حسين في الصمود وعدم إنهيار وسقوط النظام. صرّح الجنرال نورمان شوارزكوف بأنّ زملاءه العراقيّون كانوا قد غشّوه: وعدوه بعدم إستخدام طائرات الهيليكوبتر إلاّ كوسيلة نقل في بلدهم الذي دمّرتة الحرب ولكن بقيت واشنطن خرساء أمام الإحتجاجات التي إنفجرت حينما لم تتحرّك القوآت الأمريكية ولم تمنع إستخدام الهيليكوبترات لقمع الإنتفاضة الكوردية والشيعية.

بعد إستعادة صدام حسين لسلطته المطلقة مجدداً قرّرت الولايات المتحدة إختيار ما سمّته إستراتيجية الإدارة الأمريكية بـ " الحصار المزدوج " وهي سياسة هدفت إلى إحتواء إيران والعراق داخل حدودها وإحتفظت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى وفرنسا خلال فترة معيّنة بـ " غطاء جويّ " ساعد الكودر في طرد الجنود العراقيين من مدن السليمانية وأربيل الكبيرتين ومن ثمّ في إدارة الإقليم الكوردي المستقل. وفي النهاية وسّعت الولايات المتحدة المنطقة المحمية جواً لتشمل الجزء الأعظم من جنوب البلاد ذات الأغلبية الشيعية لتبقي بهذه الصورة السيادة على المجال الجويّ العراقي في شريط ضيق يمر فوق بغداد ومركز العراق.

خلال السنوات التالية ألحّت الولايات المتحدة على حقيقة أنّ صدام حسين أصبح " تحت الرقابة "، رغم بعض النجاحات المحقّقة بعد تجاوزه للخطوط المحدّدة في عام ١٩٩١. وقدنحج صدام حسين بشكل خاص في إضعاف حصار الأمم المتحدة المفروض عليه لمعاقبته على غزو الكويت، هذا الحصار الذي إستمر بعد ذلك.

خلال خمس سنوات رفض صدام حسين مقترحات الغرب حول البرنامج الذي أصبح فيما بعد معروفاً بأسم " النفط مقابل الغذاء " المدار من قبل الأمم المتحدة.

ولكن في نهاية عام ١٩٩٦ تنازل صدام حسين ووضع مجلس الأمن لجنة لمراقبة إستيرادات المواد الغذائية والطبيّة وكذلك المواد الأخرى الضرورية لتمشية الأمور في العراق. فتمكّن العراقيّون من تحمّل أعباء الحياة بشكل أفضل رغم إنتقادهم المستمر للجنة العقوبات بسبب قراراتها التافهة - أعتبروها مسيطرة من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى .

شددت اللجنة من ضغط الحصار على العراقي العادي تدريجياً حيث أنّه لم يعد

العراق لم تصرف لعدم جرأة المفاولين في المفاطرة بحياتهم وسط الجو إنعدام الأمني الذي يسود البلد.

رغم التفسير الخاطيء في الخارج فإن السمعة السيئة التي تعاني منها منظمة الأمم المتحدة تولدت نتيجة للدور الذي لعبته هذه المنظمة في مراقبة برنامج " النفط مقابل الغذاء ". فالكورد لحد هذا اليوم لم يقدروا على ابتلاع المرارة من قبل ممثلي هذه المنظمة، العدوانيين والمدققين في أنفه الأمور، والمنتمين بغالبيتهم إلى الدول العربية المؤيدة لصدّام حسين. وتقوم الأمم المتحدة بتحقيق آخر أيضاً حول ممارسات الفساد مشككة بعملية " النفط مقابل الغذاء " التي خطط لها صدّام حسين لخدمة مصالحه السياسية ولزيادة ممتلكاته. ودون أدنى شك أكبر إنتقام يقوم به صدّام حسين هو عدد الشخصيات الأجنبية المعروفة التي أغناها من خلال منحها نسب معينة من الأرباح عند بيع النفط.

نظراً لمهارة صدّام حسين في إضعاف الحصار سعى المحافظون الجدد بالطبع إلى إقناع الرئيس بوش بمشروعهم الذي تحدّد في الإطاحة بصدّام حسين وفي فرض الديموقراطية على بلد لم يعرف في تاريخه الطويل غير الأنظمة الشمولية وكذلك لمساعدة أصدقائهم الإسرائيليين.

لم يخفوا هذا البرنامج (المشروع) ومنذ سنوات وأخيراً بفضل أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ نجحوا في كسب الرئيس مدعين بأن صدّام حسين شارك أسامة بن لادن في تدمير برج نيويورك (مركز التجارة العالمي World Trade Center) لم يتم تقديم أي برهان على صحة هذا الإدعاء ولكن إقتنع به أكثر من نصف الأمريكيين.

قدّم المحافظون الجدد حججاً أيديولوجية للقيام بحرب أيديولوجية في بلد كان قد رفض هذا النوع من الصراع بعد التجربة الفيتنامية المريعة في الستينيات والسبعينيات ولكنهم بلغوا هدفهم من خلال عزلهم لبعض الأمريكيين المعريين والمطلعين على العراق بعمق. حرر هؤلاء الخبراء جملة تقارير مفصلة برعاية الإدارة الأمريكية (State Departement) وصفوا فيها التعقيدات المختلفة التي يمكن مواجهتها في حالة القيام بحرب ضدّ العراق وبعدها.

مع هذا فقد عمل المحافظون الجدد في داخل وفي خارج البنتاغون كل ما يلزم لكي

لا تُقرأ هذه الوثائق وبحيث يبقى هؤلاء الكتاب الخبراء بعيدون عن السلطة السياسية في واشنطن والعراق بعد إنتهاء العمليات الحربية.

إختاروا تسمية بول بريمر، الدبلوماسي الذي لا يملك أي تجربة في العالم العربي والذي لا يحمل العرب في قلبه محاطاً بشبان ميّزتهم الأساسية هي ولاؤهم لعقيدة المحافظين الجدد.

أدت العقلية السياسية غير المنطقية لإدارة بوش إلى التعامل بسوء مع مفتشي الأمم المتحدة المرسلين إلى العراق للبحث عن أسلحة الدمار الشامل التي ألحت واشنطن بوجودها والتي لوحدها كانت تكفي كحجة للإطاحة بصدّام حسين ومع ذلك لم يعثروا عليها أبداً. لم يبقى عندئذ لدى الإدارة غير التمعّن بالعادات الشرقية العجيبة وبالديكتاتور وقد تمتّ ولزمن طويل بأن يعتقد الناس بوجودها في الوقت الذي كان قد دمرها مفتشوا الأمم المتحدة في السنوات التي تلت صراع عام ١٩٩١. أكّد صدّام حسين ذلك ولكن لم تقتنع واشنطن بأقواله فصدّام إستخدم الشك لترجيع جيرانه وبالأخص إيران التي تملك برنامجها الخاص لصناعة أسلحة الدمار الشامل.

لم يكذب صدّام حسين لوحده فإدارة بوش بدأت إعتباراً من ١٢ أيلول ٢٠٠١ بالكذب لتبرير توسيع " حربها ضدّ الإرهاب " لتشمل النظام العراقي رغم ضالة خطورته. معلومات خاطئة وأكاذيب ملفقة هزّت ثقة بقية العالم في الولايات المتحدة لتكون اللعبة في النهاية لصالح أسامة بن لادن ومجاهديه.

قصداً، لم ترسل واشنطن بالعدد الكافي من القوّات لإعادة النظام في العراق بعد الحرب (رغم تحذيرات القيادة العامة للقوّات البرية التي قدرتها بوضع مئات من الآلاف). الجنود الأمريكيين عذبوا وتعاملوا مع السجناء العراقيين (وكذلك مع المسلمين الآخرين) بسوء. يبدو أن المخابرات السرية الأمريكية لم تجد وسيلة لسحق المقاومة العراقية أو لفهم المسلمة التي تؤكد أن الإحتلال العسكري الأجنبي وبالأخص الغربي للعالم الإسلامي ينتهي دائماً بالدموع.

لنرى بأي طريقة تنجح الولايات المتحدة بالخروج من الفوضى العراقية التي خلقتها بنفسها... ومنطقياً كيف لا نشك . خلقت فيتنام صدمة في المجتمع الأمريكي ووجّهت صفة قوية للكرامة الأمريكية وساهمت في إعتبار سنوات السبعينيات كمرحلة قام

خلالها عدد كبير من الأميركيان بإعادة تقييم ذاتهم. ولكن فيتنام كانت دولة غير محورية ومعدومة المصادر الطبيعية في حينها والعراق يقع في قلب الشرق الأوسط، في الهلال الخصيب ويملك ليس فقط الإحتياطي النفطي الثاني الأهم في المنطقة وإنما يملك الماء بكثرة في منطقة تعاني من الجفاف.

نظراً لعدد القتلى الأميركيين والعراقيين والكلفة المتصاعدة للإحتلال بالنسبة لدافعي الضرائب الأميركيين والتأثير الكارثي الكامن على دول الشرق الأوسط والعالم الإسلامي بسبب وجود الولايات المتحدة في العراق فربما كانت إدارة كلينتون متزنة حينما حدت سياستها بإحتواء صدام حسين.

العشق والهيام بين فرنسا والعراق

كريس كوتشيرا

صحفي وكاتب متخصص في شؤون الشرق الأوسط والكورد، كتب في النوفيل اوبسيرفاتور، اللوموند، كاييه دو لوريان، ومجلتي الوسط والشرق الأوسط، صدر له: الحركة القومية الكوردية ١٩٧٩ (يُعتبر مصدراً رئيسياً في اللغة الفرنسية عن هذا الشعب). التحدي الكوردي أو الحلم المجنون للإستقلال ، ١٩٩٧ ، الدليل الأدبي (لوزان فافر ١٩٩٨)

كانت الحكاية في البداية:

تحرّش فرنسي لعذراء عقدوا قرانها مع بريطانيا، يوم الإنتداب، في عام ١٩٢٢ . لم تعد لفرنسا علاقات دبلوماسية مع العراق منذ إشتراكها في حملة السويس عام ١٩٥٦ ولكن بعد ثورة تموز ١٩٥٨ مدّ عبدالكريم قاسم يده إلى فرنسا ولكن تردّد الأخيرة دفع الرئيس العراقي إلى التوجّه نحو الإتحاد السوفياتي والإنسحاب من حلف بغداد في عام ١٩٥٩. إنتهاء حرب الجزائر وإستقلالها خففاً من حدة الخلافات القائمة وشجّع قاسم على إعادة العلاقات الدبلوماسية بين باريس وبغداد والذي أعلن: "بيننا وبين الشعب الفرنسي أواصر صداقة لا ينبغي لطاريء أن يؤثّر عليها" وبعد أيام من ذلك تم توقيع إتفاقية ثقافية وفنية بين البلدين. تطورت العلاقات بعد ذلك سريعاً فبعدما احتلت فرنسا المرتبة ٢٣ في عام ١٩٦٣ أصبحت في الموقع ١٣ في العام ١٩٦٦ وبعد إستقبال قسرا لإليزيه لعدينان الباجي وزير خارجية العراق آنذاك ارتفع التبادل التجاري بينهما لتأخذ المرتبة الخامسة في عام ١٩٦٨. في الواقع، الإنطلاقة الحقيقية للعلاقات بدأت تظهر علناً بعد حرب حزيران ١٩٦٧ وموقف ديغول منها إذ حذّر الجنرال الفرنسي(ديغول) آنذاك الإسرائيليين ونبّههم بعدم إستئناف القتال وفرض حظراً على تصدير السلاح الفرنسي إلى أطراف النزاع وإلى إسرائيل بوجه خاص.

شجّع هذا الموقف الحكومة العراقية على مراجعة سياستها تجاه فرنسا ودفعها إلى الموافقة على عودتها في استخدام خط انابيب النفط العراقية للتسويق في حين إلترمت بحظرها وإمتنعت عن تزويد بريطانيا والولايات المتحدة وجمهورية المانيا الإتحادية بالنفط العراقي. في تموز من عام ١٩٦٧ قرّر العراق تسليم فرنسا المصالح البريطانية والامريكية في العراق فوقّع معها على إتفاقية اقتصادية بتاريخ ١٩ أيلول ١٩٦٧.

رغب عبدالرحمن عارف منح شركة النفط الفرنسية حق تطوير وإنتاج حقول نفط الرميطة في جنوب العراق ولكن ترددّ الشركة الفرنسية واستسلامها للضغوط الامريكية دفعت الحكومة العراقية إلى تسليم الحقل المذكور للإتحاد السوفياتي بإستثناء مساحة صغيرة خصّصت لشركة الف- ايراب (ERAB-ELF)

في ٣ شباط ١٩٦٨ تم توقيع عقد بين الشركة الفرنسية ايراب و(شركة النفط الوطنية العراقية) ينص على إعتبار الشركة الفرنسية «متعاقدة عمومية -Contractuel Gen-eral) ويسمح لها المباشرة بإستكشاف النفط في أربعة قواطع بمساحات تقدّر بـ ١٠٨٠٠ كلم^٢ ولكن بشروط صعبة وقاسية: حيث كان على الشركة إعادة ٥٥ بالمئة منها بعد ثلاث سنوات وحدد لها فترة ست سنوات للإحتفاظ فقط بحقل الإنتاج. ومع ذلك فعند أي إكتشاف جديد يتم توقيع عقد لعشرين سنة. وفرض العراق على ايراب (وفقاً لشروط العقد) تمويل إنتاج الحقل وإستقطاع الديون بعد تسويق النفط وبيعه. وينصّ العقد أيضاً على إعفاء العراق من أي إلتزام بتسديد المبلغ نقداً ولكن بالمقابل يمنح العقد حقاً للشركة الفرنسية بشراء ٣٠ بالمئة من النفط المستخرج.

قام الرئيس العراقي عبدالرحمن عارف بزيارة رسمية إلى فرنسا في الفترة ٧-١٠ شباط ١٩٦٨ وأبدى خلالها رغبته في شراء عدد من طائرات الميراج ولكن مساعيه ذهبت أدراج الرياح، فبعد شهور قلائل من هذه الزيارة أي في تموز ١٩٦٨ أطاح البعث بهذه الشخصية الضعيفة لتتطور العلاقات الثنائية بعدها بشكل غير معهود. إشركت فرنسا لأول مرة في معرض بغداد الدولي عام ١٩٦٩ وحضرته في عام ١٩٧١ لجنة إقتصادية فرنسية برئاسة السيد كورس (Corse). ولم يعكر جو العلاقات بين الطرفين سوى مشاكل شركة ايراب وشكاويها بسبب فقدان النفط لبريقه "الثوري" على الصعيد العالمي: فبعد إستثمار ايراب لمبلغ ٣٠ مليون دولار في حقول النفط إستنتجت الشركة بأن ما يكلفها يفوق ما تجنيها من أرباح إقتصادية فرغبت التخلّص من

إلتزاماتها إلى أن توصل الطرفان بعد سنوات مضية من المفاوضات إلى إتفاق "بالإنفصال ودياً" في عام ١٩٧٧

أمّا العامل الرئيسي الثاني الذي شجّع على تطوير العلاقات الثنائية يعود لإتخاذ فرنسا موقفاً مرناً خلال الشهور التي سبقت تأميم شركة النفط الوطنية العراقية في الأول من حزيران عام ١٩٧٢ ولتفهمها لقرار شركة النفط العراقية بتخفيض ٤٠ بالمئة من كمية النفط المرفوعة، إثر توقيع الإتفاقية العراقية السوفيتية في أواسط نيسان بسخ نفط الرميطة في السوق التجارية، كإجراء إنتقامي صريح ضد بريطانيا وامريكا. وفي أعقاب الإنذار العراقي الموجه للشركات الأجنبية جهدت فرنسا بكل وسعها إلى تهدئة الأمور وتشجيع الأطراف المعنية لإيجاد ارضية للتوافق والمساومة. بعد التأميم، مكافأة لموقف فرنسا إقترحت بغداد على حكومتها بفتح مفاوضات "للحفاظ على مصالحها" ولكن الأخيرة وجدت نفسها في موقف صعب جداً لأن رفض الإقتراح كان يعني "إتفاقها سراً" مع "معسكر" الامبرياليين". إعتمدت فرنسا في ثلث مستورداتها النفطية على الشركة الفرنسية في حين لم يكن يمثل هذا النفط عشرأ أو واحداً من عشرين من مصادر إستيراد بريطانيا والأعضاء الآخرين .

هل كانت فرنسا قادرة على إتخاذ القرار والسير لوحدها؟ بعد التمعّن يتبيّن جلياً بأن الطريق في وجهها كان مسدوداً تقريباً لأن شركة النفط الفرنسية تشترك مع الأعضاء الآخرين وتعمل معها في دول عديدة كالإمارات العربية مثلاً وأنداك لم يخف السيد (Rene Granier de liliac) أسفه ولم يدخّر جهداً للوصول إلى حل للجميع "له ولشركائه" من جهة وللدفاع من جهة ثانية عن مصالح فرنسا(مصالح شركة النفط الفرنسية بوجه خاص).

بعد تأميم شركة النفط العراقية، زار بغداد وفد من مدراء البنوك الفرنسية العربية لدراسة الوسائل الممكنة لمساعدة الحكومة العراقية مالياً ومن بين تلك البنوك نذكر مصرف UBAF الذي يمتلك فيه لوكريدي (Le Credir Lyonnais) ٤٠ بالمئة من رأسماله ومصرف Bank FRAB - (الذي يمتلك فيه السوسيتي -societe Gene-rale ربيع الرأسمال).

ترجمت بغداد هذه الزيارة على أنّها موافقة ضمنية لباريس على مقترحاتها ممّا

دفعت الصحافة البريطانية إلى التتديد بالموقف الفرنسي "غيّرت فرنسا معسكرها" العبارة هذه برزت على صدرالصفحات الأولى لجرائد لندن.

هلّل النظام العراقي وارتفعت بين جماهيره درجة سخونة العواطف الإيجابية لنظام الرئيس بومبيدو الذي يسير على خطى ديغول.

بعد فشل المفاوضات في شباط ١٩٧٢ مع شركة النفط العراقية قام صدام حسين بزيارة سرّية إلى موسكو أدت إلى توقيع إتفاقية صداقة وتعاون مع الإتحاد السوفييتي في ٩ نيسان ١٩٧٢ ونجح من لم يكن آنذاك إلا "ذنباً شاباً" ورجلاً ثانياً في النظام في تهشيم جبهة الغرب النفطية من جهة وتجنّب الوقوع في فخ الإعتماد كلياً على المعسكر الإشتراكي من الجهة الثانية.

كان للحدث السعيد أوالمأساوي في السياسة العراقية الداخلية تأثير كبير على مستقبل ومستوى العلاقات بين باريس وبغداد.

إنحصرت نظرة نائب الرئيس العراقي صالح مهدي عمّاش لفرنسا في كونها جسراً أو سُلماً يرتقيه للعبور إلى بريطانيا والمانيا الإتحادية ممّا حدا بالآخرين إلى تنحيته من المنصب وتعيينه سفيراً في الإتحاد السوفييتي.

أثبت صدام من خلال هذه الحادثة كفايته وقدرته في التخلّص من منافسيه والذي كان يرى في فرنسا "قطباً" يشد نحوه البلدان الأخرى من المجموعة الأوروبية ويقودهم لبناء علاقات خاصة - وأكثر عدالة - تجاه العالم العربي.

لعب السيد بيير سيرل (Pierre Cerles) السفير الفرنسي في بغداد والمتخصّص في الشؤون السوفياتية دوراً كبيراً لدفع العلاقات الفرنسية العراقية نحو الأمام فهو الذي سلّم في كانون الأوّل ١٩٧٢ دعوة رسمية إلى صدام لزيارة فرنسا.

تم أثناء هذه الزيارة التي جرت في أواسط حزيران ١٩٧٢ توضيح وتحديد للمواقف فقد صرّح صدام حسين حين وصوله في ١٤ حزيران: "لم نأتي إلى هنا لطلب السلاح وإنما جنناكم لتثبيت أركان العلاقات الفرنسية العربية على أسس متينة" وردّ عليه شابان ديلماس رئيس وزراء فرنسا مشدداً على الجانب اللغوي والثقافي للعلاقة فأجابته صدام: "الصداقة لاتقبل القسمة على نفسها ويجب ترجمتها ليس على الصعيد الثقافي فحسب وإنما لتشمل كل المجالات: الاقتصادية والسياسية بشكل خاص..."

وبعد هجومه الشديد على أمريكا وإنكلترا والمانيا الإتحادية وسعي هذه الدول إلى فرض حلول غير منصفة أضاف: "سنفتح بابنا لفرنسا وندعوها للإستفادة من الفرصة التي نقدّمها لمصلحتها ولمصلحتنا على السواء."

ما الذي قصده بالإفتتاح؟ هل إقترح على فرنسا إتفاقية مماثلة لتلك التي وقّعها مع الإتحاد السوفييتي؟

تحفّظت الحكومة لأن ثمة أشياء تتداخل وتعتمد أساساً على القرارات التي ستتخذها فرنسا تجاه تجمّع (كارتل) الشركات النفطية.

في ١٥ حزيران قابل صدام حسين الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو في قصر الإليزيه ووقّعت شركة النفط العراقية اثناء إقامته في باريس لحد ١٨ حزيران إتفاقية تفضيلية لفرنسا يسمح لها بموجبها رفع ١٢ مليون طن من النفط خلال عشر سنوات وهي بالضبط ذات الكمية التي كانت مخصّصة لها قبل التأميم وبسعر تفضيلي ومنخفض نسبياً مقابل مساعدة فرنسا للعراق في "تحقيق مشاريع صناعية وإبراز أهمية المصادر الطبيعية الأخرى."

في النهاية غادر صدام حسين باريس ولم يوقّع على معاهدة.

وفي السنة التالية أي في عام ١٩٧٣ توصل العراق إلى إتفاق مع الشركاء الآخرين لشركة النفط الوطنية العراقية بشأن التعويضات عن حصصهم المؤممة.

إقتربت فرنسا من العراق أكثر حينما تقلّد ميشيل جوبير منصب وزير الخارجية في حكومة بومبيدو عام ١٩٧٣ وكان قد سبقه موريس شومان وزير خارجية حكومة جورج بومبيدو ١٩٦٩-١٩٧٣ في تطوير العلاقات الفرنسية - العربية وتعميقها.

قفزت العلاقات الثنائية قفزة نوعية في عهد وزير خارجية فرنسا ميشيل جوبير وحكومة السيد بيير ميسمير.

جوبير الذي زار بغداد في ٩ شباط ١٩٧٤ بعد قيامه بجولة في دول الشرق الأوسط الرئيسية كتب مؤخراً يقول: " تحدّد دوري بالمبادرة إلى تطويرعلاقات سياسية طويلة الأمد وفتح أبواب بلدان الشرق الأوسط المتجهة تقليدياً نحو ثقافة وإقتصاد الدول الأنكلو- ساكسونية أمام صناعيينا ، وتجارنا وأساتذتنا. كان علينا البدء ببناء أساس للحوار ومن ثمّ الحضور على الساحة مباشرة لكسب ثقة الآخرين. العمل على إنجاح

السياسة التي واصلتها فرنسا منذ عام ١٩٦٧ وفتح أفق صناعية وثقافية كانت مسدودة في وجهها سابقاً.

أعلن صدام حسين لميشيل جوبير لدى إستقباله في بغداد: " فرنسا هي الشريكة المثالية للعراق لأنها بأي حال من الأحوال لا تهددنا ولا تهدد أيّاً من محيط الجوار." وتناولوا في اللقاء موضوع الأسلحة لأول مرة رغم التصريح الرسمي بعدم التطرق الى هذا الموضوع إلا في العموميات.

تحدّثوا أيضاً وبصورة تفصيلية عن الجانب المدني من العلاقات حيث كان للفرنسيين خطط طموحة في ميدان: الصناعات الثقيلة، البتروكيمياويات، الاسمنت، معامل النسيج والورق ومد أنابيب النفط.

إضافة إلى ماسبق فقد كان جوبير يحمل معه مشاريعاً سياسية لذا فقد اقترح على بغداد بإطلاق مبادرة لعقد مؤتمر عالمي حول الطاقة يجتمع فيه المنتجون والمستهلكون وطرح كذلك على صدام وبتركيز خاص مشروع " الحوار الاوروبي- العربي" كانت ردة الفعل الإسرائيلية على هذه الزيارة عنيفة بحيث كتبت الصحيفة دافار (Darvar) تقول: " قامت فرنسا بتصفية سياستها المستقلة بشكل تام مقابل النفط العربي".

زار العراق، بعد مغادرة جوبير بفترة قصيرة، وفد إقتصادي مؤلف من ٤٥ من رجال الأعمال يتقدمهم حبيب دولونكل رئيس غرفة التجارة الفرنسية العربية لمدة ٥ أيام. وفي ١٤ آذار ١٩٧٤ تم توقيع إتفاقية للتعاون الإقتصادي والفني بين البلدين وقرراً تشكيل لجنة مشتركة تجتمع مرة واحدة على الأقل سنوياً.

وفي ٢٨ أيار غادر ميشيل جوبير وزارة الخارجية على أعقاب وفاة الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو في ٢ نيسان عام ١٩٧٤ .

وقّعت الشركة الفرنسية (Greusot le loire) عقداً مع العراق لإنشاء معمل للصلب في خور الزبير قرب البصرة بقيمة ٦٠٠ مليون فرنك فرنسي وفي تشرين الأول ١٩٧٤ حصلت هذه الشركة على عقود جديدة بينها:

- بناء شبكة لمجاري المياه بطول ٤٠ كيلومتراً؛

- إنشاء وحدتين لفرز وتصفية خرده الحديد؛

- معدّات وأجهزة للموانيء

على أن تكون الوحدة الإنتاجية الاولى بطاقة ٤٠٠٠٠٠ طن سنوياً من المعدن المركّز للحديد لتجهيز مجمع الحديد والصلب في خور الزبير والوحدة الثانية بطاقة إنتاجية تتجاوز ٧٥٠٠٠٠ طن سنوياً موجّهة للتصدير.

بعد التوقيع على عقد - يتجاوز مليار فرنك لأول مرة - فتح شيراك عهداً جديداً من العلاقات الثنائية المترجمة بالتوقيع على عقود " ضخمة "

كان هناك إنسجام وتوافق في سلوك شيراك رئيس وزراء حكومة الرئيس الفرنسي الجديد فاليري جيسكار ديستان مع سلوك صدام حسين الذي لم يكن عهد ذاك غير الرجل الثاني في العراق.

رأى شيراك في صدام حسين القومي الهائج الذي يسعى لبناء بلده وصياغة أمة فأعجبه.

ونداءاته بالسير في خط إستقلالي بعيداً عن الكتلتين الأمريكية والسوفياتية قربت منه الديغولي العنيد.

"أخرج جاك شيراك صدام حسين من عزلته " حديث يتردد اليوم على لسان دبلوماسيين فرنسيين يميلون إلى نسيان جهود الذين سبقوه في الحكم.

فمجريات الأحداث - حرب اكتوبر ١٩٧٣ ومضاعفة سعر البترول أربع مرّات - ساهمت أيضاً بدور في تطوير العلاقات الفرنسية العراقية: في عام ١٩٧٥ عندما كانت صادرات فرنسا تغطّي بالكاد ١٠ بالمئة من مستورداتها النفطية كشفت الصحافة الفرنسية بأنّ العراق خصّص ٣ مليارات دولار للإستثمار في قطاعه الصناعي وكتبت: " يمثل هذا المبلغ تقريباً مقدار العجز في ميزانية فرنسا لعام ١٩٧٤ " إنطلاقاً من هذا التاريخ أصبح العراق قطعة شطرنج أساسية في الدبلوماسية الفرنسية.

في تشرين الثاني ١٩٧٤ توجه كريستيان بونيه وزير الزراعة الفرنسي إلى بغداد ووقع هناك على إتفاقية للتعاون الزراعي وتبعه جاك شيراك في كانون الأول ١٩٧٤ ليسجل اسمه في تاريخ العلاقات بين البلدين بكونه أول رئيس وزراء فرنسي يزور العراق رسمياً.

للعبرة هي تأمين وتوفير رزق البيت والعائلة _ المترجم !
والأغرب من كل هذا هو إحساس صدام وما أصبح يكنه في الأعماق من صداقة حقيقية لجاك شيراك بحيث لم يعد يتردد في مكالمته هاتفياً وبشكل مبالغ (فتتراخض حاشية شيراك يميناً ويسرى للبحث عن مترجم في الجوار القريب) كلما احتاج لمشاورته في قضاياها المتعددة.

لم تمر أسابيع وإذا باتفاقية للتعاون النووي يتم التوقيع عليها بين الدولتين.
في شهر آذار من عام ١٩٧٥ مرّ صدام سريعاً على باريس وهو في طريقه إلى الجزائر لإجتماع منظمة الأوبك وتصالح أثناءه مع شاه إيران بطريقة إستعراضية مذهلة فدعاه شيراك على الغداء.

وصلت العلاقات الفرنسية العراقية إلى درجة متقدمة من التطور، والروابط بين الشخصيتين متينة وإستثنائية. ورغم هذا، فأتثناء الزيارة الرسمية الثانية لصدام حسين إلى فرنسا وخلال قضائه لعطلة نهاية الاسبوع مع جاك شيراك في الريف، بدأ التساؤل والشك في باريس حول الرقم (١٥) مليار فرنك الذي أوحى به شيراك خلال زيارته لبغداد مبالغاً فيه:

أ لا يكون ما تم إعلانه هو، بالأحرى، تحصيل حاصل لثلاثة احتمالات " مؤكّد ومحتمل ومفترض "؟

وتساءلت باريس إن لم تكن تلك العقود "الهائلة" إلا حلماً وسراباً؟
وأخيراً لم تتجاوز العقود الموقعة عام ١٩٧٥ ، في الواقع، الرقم (٢) مليار فرنك فرنسي.

ويعود التفسير في ذلك إلى الإمكانيات المحدودة لقطاع النفط العراقي وهزالة بناها التحتية من جهة وإلى التنافس الأجنبي الحاد والمضطرد على السوق العراقية من جهة ثانية. فالالمان بعد عودة علاقاتهم الدبلوماسية مع بغداد دخلوا بقوة وأصبحوا يحتلون المرتبة الأولى في صادراتهم للعراق والتي تقدر بمليار ونصف المليار فرنك فرنسي. ولكن هذه الحقيقة لم تمنع شيراك بإستقبال صدام حسين في مطار أورلي في ٥ أيلول ١٩٧٥ " كصديق شخصي " يكنّ له " الإحترام " وينظر إليه بعين " العطف " ويذهب إلى أكثر من هذا عندما يقول: " سياسة فرنسا لا تحدده المصالح فقط وإنما تعتمد

ولعبت الصدفة دورها في أن يقع الخيار على شخص شيراك لأنّ زيارته كانت ردّاً للدعوة التي وجهها صدام قبل هذا التاريخ بسنتين لجاك شابان ديلماس. أعلنت حاشية شيراك آنذاك بأنّ الزيارة "إقتصادية بالدرجة الأولى"

بعد العودة إلى باريس سرّب مكتب رئيس الوزراء أرقاماً هائلة تجاوزت ال(١٥) مليار فرنك فرنسي لعقود مفترضة سيتم التوقيع عليها في المستقبل القريب منها:

- بناء شركة بيشينييه (Pechiney) لمعمل النيوم بكلفة (٤٠٠ مليون فرنك)؛

- بناء مستشفى عسكري بسعة ١٦٠٠ سرير وبكلفة (٨٠٠ مليون فرنك)؛

- بناء مجمع بتروكيمياوي في البصرة بكلفة (٣,٥ مليار فرنك)

إضافة إلى هذا، تأسيس شبكة إتصالات سلكية وبناء معملين أحدهما لتكريب سيارات (بيجو) وثانيهما لتكريب حافلات (سافيم) وعدة مشاريع أخرى مشتركة والأهم من كل هذا هو نيّة العراق الحصول على عدد من طائرات الایربيس (Airbus) سيتم توقيع عقد شرائها على الأرجح أثناء زيارة نوربير سيگار (Norbert segard) سكرتير الدولة للتجارة الخارجية في شهر شباط ١٩٧٥ . وأضاف المصدر أيضاً أن العراق كان على « وشك تبني نظام التلفزة الألمانية (pal) ولكن غير رأيه وإختار النظام الفرنسي (Secam) ليكون ذلك بمثابة " هدية " قدمها صدام حسين لضيفه شيراك.

ولماذا لا يسمح لنفسه بذلك !

ألم تبع فرنسا للعراق _ رغم تكتم الصحافة _ أسلحة وبالأخص ٤٠ طائرة هيلوكوبتر (Alouettes) إستخدمها مباشرة بعد الحصول عليها ضد الشعب الكوردي؟!!

يبدو بوضوح كم كان صدام حسين جذاباً لشيراك (بسبب حالته الصحية السيئة، لم يستطع أحمد حسن البكر إستقباله) وإلا كيف يمكن تفسير إطرائه العجيب للنظام العراقي: "القومية بأروع معانيها والإشتراكية كوسيلة لتعبئة الطاقات وتنظيم مجتمع الغد هما شعوران قريبان من قلب الشعب الفرنسي."؟

عبارات أثارت الكاتب الفرنسي كلود لوروا ودفعته إلى الكتابة في عمود صحافي حر مستهزأً وساخراً " ولع شيراك المفاجيء لنمط خاص من (إشتراكية) تعمل على تسخين الطبخة (وفوران القدر) - يلعب الكاتب بالعبارة ويقطعها إلى كلمات والترجمة الشائعة

أيضاً على النبضات النابعة من القلب."

وفي ٩ أيلول ١٩٧٥ خلال زيارته لمركز كاراداش (Caradache) الذري وقّع نائب الرئيس العراقي على إتفاقية للتعاون النووي بين البلدين. إتفاقية تنص على إنشاء مركز للأبحاث النووية بقيمة ١,٥ مليار فرنك مجهّز بمفاعل ذريّ تجريبي من نوع اوزيريس (Osiris) يعمل على اليورانيوم المرّكّز. وفتحت هذه الإتفاقية الطريق لبناء مركز " تمّوز " للأبحاث النووية لتهيئة وإعداد مئات الكوادر الفنية.

ولكن في ٧ حزيران من عام ١٩٨١ وأثناء الحرب العراقية الإيرانية قصف الطيران الإسرائيلي المفاعلات النووية العراقية ودمرها قبل تحميلها مباشرة بالوقود النووي. وإستمر التعاون النووي بين البلدين الذي أعتبر سراً من أسرار الدولة _ رغم تحفّظات وزير خارجية فرنسا جان سوفانيار Jean Sauvagnard آنذاك _ وتشير كل الدلائل بأنّ الأمر قد وصل حدّاً لم يعد مقبولاً ومسموحاً به. الجنرال (Galois) وهو إختصاصي في الموضوع يتذكّر تصريحاً لصدّام حسين بعد خروجه من قصر الإليزيه ومباشرة بعد مقابلته للرئيس الفرنسي بأنّ العراق سيصبح " أولّ قوّة نووية في الهلال الخصيب " وقد أكّدت الإتفاقية الموقعة مع فراماتوم (Framatome) صحة ما ذهب إليه الجنرال الفرنسي.

يبدو أنّ فرنسا رغبت في أن يكون العراق قوّة نووية (لا يزال القول للجنرال كالوا) حيث ذهبت إلى بغداد لإلقاء محاضرات عن الاستراتيجية النووية وكان من بين تلاميذي صدّام حسين نفسه " ويفضح " الجنرال " اللاأخلاقية " في موقف فرنسا التي شاركت الولايات المتحدة الأمريكية بقصف العراق عام ١٩٩١ .

بعد زيارة صدّام حسين لباريس عادت الصحافة الفرنسية من جديد بالكتابة عن العقود العراقية التي لم تكن في المحصلة إلا حلماً وسراباً (Mirages) حيث لم يتحدّثوا مطلقاً عن الإيربيس ولا عن المستشفى ولم يُسمّع خبر عن مصنع الألمنيوم ولم يتم توقيع عقد بشأن سدّ الموصل وفيما يخص مجمع البتروكيمياويات في البصرة فقد قدّمت مجموعة من الشركات الفرنسية وعلى رأسها كروزو لولو Creusot le loire مناقصة بـ ٨ مليارات فرنك فكان الجواب العراقي " غالي جداً ". لأنّ الصادرات الفرنسية أخذت في الواقع مساراً جديداً وتوجّهت آخر _ التركيز على المواد والأجهزة

العسكرية _ فحضرت إلى فرنسا لهذا الشأن لجنة عسكرية عراقية في كانون الأوّل ١٩٧٥ لشراء معدّات للقوّة الجوية العراقية.

وفي الشهر الذي تلاه أي في ٢٧ كانون الثاني ١٩٧٦ حطّت طائرة شيراك في مطار بغداد وكان في طريقه إلى الهند برفقة وزير التجارة الخارجية ريمون بار (Raymond Barre) فدعاهم صدّام للغذاء وأثناء تناولهم للطعام تابع الرجلان المناقشات إلى وقت متأخر من الليل وعادوا إليها عند تناول الفطور. أهدى شيراك لصدّام حسين خلال اللقاء طقمماً كاملاً للصيد يعود إلى القرن الثامن عشر وفي المقابل أهدى الأخير لشيراك نخلة مصنوعة من الذهب الخالص ورفض الناطقون الرسميون التعليق على أي شيء دار بينهما.

هل تناولا موضوع الأسلحة؟

سكون وسكوت مطبق.

في منتصف آذار ١٩٧٦ وصل العراق الجنرال كريكو Grigout رئيس أركان السلاح الجوي وفي نهاية أيار ١٩٧٦ عاد ريمون بار إلى العراق في زيارة رسمية إستغرقت ٣ أيام وكانت تلك آخر زيارة له كوزير للتجارة الخارجية وفي أيلول من عام ١٩٧٦ جاء عدنان حسين وزير التخطيط العراقي (أُعدم في ١٩٧٩) إلى فرنسا للتفاوض _ رسمياً - على شراء طائرات الميراج.

إستمرّت المفاوضات عاماً كاملاً قبل الوصول إلى نتيجة. عاد ريمون بار إلى بغداد يومي ٢٥-٢٦ حزيران ١٩٧٧ بثياب رئيس الحكومة هذه المرّة.

وأراد القدر أن يقطف غريم شيراك ثمرة علاقات الأخير الشخصية مع صديقه صدّام حسين. على الصعيد السياسي، مغادرة شيراك لقصر الماتينيون أقلقت المسؤولين العراقيين وتوجسّوا تغيير فرنسا لسياستها الخارجية وتوجيهها " أطلسياً " تقريباً لأمريكا من قبل فاليري جيسكار ديستان.

ففي بداية السنة، إختار كيرنكو (Griningaud) وزير خارجية فرنسا الجديد سوريا كأولّ محطة للزيارة وليس العراق. وكانت العلاقات العراقية السورية خلال هذه الفترة في أسوأ الأحوال. أنزعج العراقيّون من تقربّ الوزير الفرنسي لسوريا ومن زيارته الرسمية إلى إسرائيل.

فطمأن ريمون بار صدام حسين وأبعد قلقه. وفي ٧ تموز ١٩٧٧ تم الإعلان عن نية العراق في شراء أسلحة فرنسية بقيمة ٧ مليار فرنك فرنسي من بينها على الأخص ٧٢ طائرة ميراج F1 مجهزة بصواريخ ماجيك تم التوقيع مباشرة على شراء ٣٦ طائرة (ميراج) وطائرات هيليكوبتر بوما (Puma) ومدركات AMX وشراء منظومة للتغطية الجوية بقيمة (مليار فرنك كمرحلة أولية) من تومسون (Thomson).

تعددت زيارات عدنان خيرالله لباريس للتفاوض على هذه العقود. ولكن المفاوضون الحقيقيون كانوا في الواقع عدنان حسين وعسكريون أقل شهرة كالجنرال شنشل رئيس أركان الجيش العراقي والجنرال (حميد شعبان...) التكريتي رئيس أركان السلاح الجوي والعقيد قحطان العزاوي الذي طالب، وفقاً لبعض المصادر، بعمولة ٣٠٪ بالمئة من قيمة عقد طائرات الميراج F1 .

وصل إيفون بوج Yvon Borges بغداد في شهر حزيران من عام ١٩٧٨ في زيارة رسمية (حزيران ٢٢ وفي نهاية إقامته صرّح: " لم تسجل زيارتي توقيعاً على عقود جديدة وإنما أتاحت لي تحديد حاجة الجيش العراقي وتقديم المقترحات".

فاذاً خلافاً للتوقعات لم تؤثر مغادرة شيراك لرئاسة الحكومة على العلاقات بين الدولتين لأن ريمون بار نجح بدوره واستوعب كيف يرتب ويمد علاقات شخصية ممتازة مع نائب الرئيس العراقي.

أعرب ريمون بار، رئيس الوزراء الفرنسي، الذي كان لوقت طويل أستاذاً في كلية الحقوق لدبلوماسي فرنسي عن حبه في صدام " شغفه للمعرفة " وإعجابه " بنجاحاته ". لم يكن ريمون بار في بداية تعارفهما إلا وزيراً للتجارة الخارجية والآن حينما يجلس بوضعيته المفضلة مشابكاً يديه على فخذه يتحدث إلى صدام حسين كرئيس للحكومة ويعرب له عن سعادته بالإجابة على تساؤلاته حول علاقات الشرق والغرب والسياسة النفطية... إلخ

وفي تموز ١٩٧٩ حينما أصبح صدام حسين رئيساً للجمهورية غمرته الفرحة على نجاح " تلميذه ".

إهتزت العلاقات الفرنسية العراقية في ٢١ تموز ١٩٧٨ إثر حادثة خطيرة: بعد عملية حجز رهائن داخل السفارة العراقية في باريس أطلق رجال أمن السفارة النار

على... الشرطة الفرنسية فقتلوا واحداً منهم. مرت عدة شهور قبل أن يحاول صدام حسين " تهدئة الأمور " فوجه في تشرين الأول ١٩٧٨ دعوة لأربعين صحفياً فرنسياً إلى العراق وأعلن لهم: " ينبغي أن تكون علاقاتنا مع فرنسا ممتازة وبشكل آخر " وحذّهم قائلاً: " يجب على فرنسا تمويلنا بمستوى معقول من السلاح وإذا رفضت تلبية حاجتنا ووضعت القيود (الفيتو) سنقوم بمراجعة موقفنا ".

بعد أيام قليلة من هذا اللقاء، يظهر أن فرنسا ردت على طلبه من خلال إعلان بيعها للعراق صواريخ جو-بحر AM٣٩ - مركبة على طائرات هيليكوبتر ثقيلة سوبر فريلون Super Frelon. في العام التالي، أي في ١٩٧٩، تعددت وتنوعت زيارات الوفود الفرنسية للعراق بحيث علقت الصحافة، " أعضاء الحكومة يعرفون طريق بغداد " زار جان فرانسوا دونيو (Jean Francois Deniau) الذي أصبح وزيراً للتجارة الخارجية محل ريمون بار العراق مرتين. الأولى في شباط ١٩٧٩ (١٧-٢٠) والثانية في ٧ تشرين الأول ١٩٧٩ كما سافر إليه فوشيه Fouchier سكرتير الدولة للزراعة في نيسان من نفس العام وأخيراً قام ريمون بار، رئيس الحكومة، " بزيارة عمل " لبغداد (٧-٩ تموز) ١٩٧٩ وفي الجانب الآخر لم يتوقف زهاب وإياب الوزراء العراقيين إلى فرنسا، ففي كانون الثاني ١٩٧٩ وصل طه محي الدين معروف، نائب رئيس الجمهورية، إلى باريس يرافقه وفد كبير بينهم على الأخص حسن علي وزير التجارة الخارجية وسعدون حمادي وزير العلاقات الخارجية وسعد قاسم حمودي وزير الإعلام ولطيف نصيف جاسم وزير الزراعة.

وفي أيار ١٩٧٩ وصل فرنسا عدنان خيرالله وزير الدفاع لتلبية دعوة زميله الفرنسي إيفون بوج.

رغم تعدد الزيارات التي أكدت عمق العلاقات الثنائية ورغم نجاح فرنسا في القطاع العسكري فأنها لم تفلح في وضع حد لإنحسار الساحة أمام شركاتها في القطاع المدني - باستثناء العقد الكبير الموقع في أواسط أيار ١٩٧٩ بقيمة ٣,٧ مليار فرنك فرنسي لبناء مطار جديد في بغداد -

ففي عام ١٩٧٨ لم تحتل فرنسا إلا المرتبة الثالثة في العراق ٥٤٠ مليون دولار بعد اليابان في المرتبة الأولى ١ مليار دولار وألمانيا الغربية في المرتبة الثانية ٨٠٠ مليون

دولار. فالعلاقات السياسية التفضيلية لفرنسا وكونها المشتري الأولى لنفط الخام العراقي لم يعطيهام امتيازاً في المناقصات.

ولم يسمح لها العامل السياسي بالتقدم على الآخرين بأكثر من ٣-٤ بالمئة في أفضل الأحوال. أصبحت فرنسا المشتري الأولى لنفط الخام العراقي (٢٠ مليون طن في ١٩٧٨ و ٢٥ مليون طن في ١٩٧٩) وتلقت من العراق تطمينات و ضمانات قاطعة بالتواصل.

" لا ننسى أبداً موقفكم الإيجابي تجاهنا في اللحظات الصعبة من تاريخنا، صرح صدام حسين لريمون بار، كنتم الوحيدون من بين القوى الغربية التي اعترفت بشرعية قرارنا بخصوص تأميم الشركات النفطية قبل سنوات " وبعد التأكيد والضمان لريمون بار على " المواصلة " في تمويل فرنسا بالنفط العراقي أضاف صدام حسين:

" كلما إعتزتكم مشكلة بهذا الخصوص سنقوم بمساعدتكم في حلها ."

كان لهذا الضمان أهميته الخاصة لأنّ التمويل من نفط الخام الإيراني كان قد تراجع من ١٦ مليون طن في ١٩٧٥ إلى ٦ ملايين في ١٩٧٩ .

تعددت العلاقات على الصعيد السياسي وأثمرت فخلال لقائه مع صدام حسين تحدت ريمون بار بالتسلسل عن علاقات الشرق والغرب ومفاوضات سالت (Salt) وقمة طوكيو ومشاكل الطاقة وموقف فرنسا من القضية الفلسطينية... إلخ وإقنع المسؤولان بضرورة تنشيط الحوار الأوروبي- العربي.

أمّا على الصعيد العسكري فالعام ١٩٧٩ تميّز عن غيرها من السنوات بأزدياد رغبة صدام حسين- الذي أصبح رئيساً للجمهورية- في " كسر الإحتكار السوفييتي في مجال التسليح " وفي مواجهة المسؤوليات الجديدة في الخليج (الفارسي- العراقي) بعد سقوط شاه إيران.

كما دخل العراق خلال هذه السنة في مفاوضات مع فرنسا لشراء معدات عسكرية بحرية هائلة وعلى الأخص صواريخ أرض- أرض وطائرات هليكوبتر و رادارات وسفن حربية وطلب تدريب ١٢٠٠ كادر فني. وتحقيق كل هذا كان سيكلف العراق بين ٦- ١٠ مليار فرنك.

وأخيراً، خلال شهر كانون الأول ١٩٧٩ إشتري العراق نقداً (Cash) نوعاً جديداً من

طائرات ميراج F1 وتمنى تبديل ٣٦ طائرة من التي تم إقتراح شرائها في تموز ١٩٧٧ بطائرات ميراج ٢٠٠٠ لاحقاً). كما يتضح، إتجه سير العلاقات الفرنسية _ العراقية نحو تبادل السلاح مقابل النفط.

في هذا التاريخ كان أحد دبلوماسيي الخارجية الفرنسية، المكلف بمراقبة العلاقات الفرنسية العراقية، يؤكد بأن ما يجري لا يستند على إعتبرات " تجارية بحتة " ولكن يعترف احد زملائه، بصراحة أكثر " لو إنقطع سيلان النفط العراقي نحو فرنسا سيسقط فاليري جيسكار ديستان في الإنتخابات الرئاسية لعام ١٩٨١ " حتماً والغريب في أقواله أنّها كانت تتطابق مع تصريح عدنان القصاب، الرئيس السابق لشركة النفط الوطنية العراقية في الأول من حزيران ١٩٧٢ يوم التأميم بجزائر العاصمة: " للنفط العراقي قيمة إستراتيجية لفرنسا ."

سقط فاليري جيسكار ديستان في إنتخابات ١٩٨١ رغم عدم إنقطاع شريان النفط نحو فرنسا .

الهروب الخطير الى أمام

بعد إنتخاب فرانسوا ميتران للرئاسة في ١٠ أيار ١٩٨١ وخلافاً للتوقعات، لم يجري أي تقييم جديد لعلاقات فرنسا بالعراق الذي دخل حرباً دامت ثماني سنوات (١٩٨٠- ١٩٨٨) ضدّ إيران. أثناء سفره إلى مصر في تشرين الثاني ١٩٨٢ صرح الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران وبلا أي إلتباس: " نحن لا نريد الهزيمة للعراق " ولإثبات ما ذهب إليه قامت فرنسا ببيع اسلحة للعراق تتجاوز قيمتها ١٤ مليار فرنك لتأخذ المرتبة الثانية بعد الإتحاد السوفياتي في ميدان التسليح.

في شباط ١٩٨٣ وفي النهار السابق لجولة قام بها كلود شيسون ، الوزير الجديد للعلاقات الخارجية الفرنسية، إلى العراق والاردن وسوريا أطلق تصريحاً يركّز فيه على " ثبات " السياسة الفرنسية تجاه العراق لأنّها تستند على " مباديء كبيرة " وعلى " إرادتها في البقاء قريباً من العرب " وتطرق إلى الصعوبات المالية للنظام العراقي قائلاً " لن نغيّر سياستنا تجاه العراق لأنّه كغيره من بلدان كثيرة بحاجة إلى مساعدات و لمدى قصير".

ولكن رغم ذلك كان وضع العراق ينبيء بخطر مالي كبير على فرنسا: ذكرت وثيقة

سرية للغاية في وزارة الخارجية تقديرها لديون العراق بين ٣-٥ مليار دولار في بداية الرئاسة الأولى لفرانسوا ميتران.

بعد زيارة طارق عزيز، الذي أصبح وزيراً للخارجية لباريس في آب ١٩٩٨- الثالثة في غضون ستة أشهر- وافقت فرنسا على جدولة الجزء الأكبر من ديون عام ١٩٨٣ مليار دولار تقريباً- واشترت فرنسا ٤ ملايين طن من النفط العراقي للتعويض عن ثلثي الديون العسكرية لعام ١٩٨٣ أي ما يعادل ١ مليار دولار أو أكثر بقليل: نصف هذا الدين مصدره تسديد مقدّمة ٣ مليار فرنك التي وجب على العراق دفعها مقابل القائمة الأخيرة لطلبياته في شراء ٢٥ طائرة ميراج F1 المتوقّعة تسليمها خلال عام ١٩٨٤ أو ١٩٨٥ .

وأصرّ العراقيون بخصوص ذلك بأنّ تأجيل الدفع لبضائع لم يتم تسليمها إليهم لا يمكن تسجيلها في خانة " المساعدات المالية " .

إقنتع المسؤولون الفرنسيون، على ما يبدو، بتبرير طارق عزيز بأنّ العراق يمر: " بصعوبات مالية مؤقتة " نابعة بالأساس من إغلاق الانبوب المار عبر سوريا الذي يكلف العراق خسارة مليار دولار شهرياً بسبب تحالفها مع إيران. وعندما أعلن طارق عزيز بأنّ الحرب ستدوم لأكثر من سنتين أخريتين علّق أحد دبلوماسيي فرنسا، " موقفه عقلاني، فلو سمعناه يقول بأنّ الحرب تنتهي بعد شهرين لما صدّقه أحد ولو قال ستستمر لمئة عام أخرى لما سمحت فرنسا لنفسها بتقديم المساعدة للعراق، توقّعاته كانت إذاً منطقية جداً " .

وأعلن طارق عزيز أيضاً: " نحن نجتاز مرحلة صعبة وعلى الأصدقاء مساعدتنا: فحينما تنتهي الحرب سيكون مستقبل الشرق الأوسط في العراق. سيكون البلد مفتوحاً لمن ساعدنا ونضع الآخرين على القائمة السوداء " .

صعب على الكثير من الفرنسيين إستيعاب موقف فرنسا الإشتراكية تجاه العراق وإلتزامها به.

لمّح أحد خبراء الحزب الإشتراكي الفرنسي تحت الإلحاح والضغط ، في معرض تفسيره للسياسة الفرنسية تجاه العراق، إلى الشعور " بفشل " السياسة العربية للرئيس ميتران لإختياره إسرائيل بعد وصوله إلى قصر الإليزيه كمحطّة أولى للزيارة،

ويضيف بأنّه لم تكن للحكومة سياسة عربية خلال الأشهر الستة الأولى وأنّ " العراق كان إستثناءً؛ للتاريخ الطويل من العلاقات، للمصالح الكبيرة ولضرورة الموازنة في المبادلات التجارية " .

ورغم إعتراف الخبير بأنّ صدّام حسين هو " أخطر دكتاتور في المنطقة " وأنّ على كلود شيسون تخفيف وتشذيب كلماته يضيف قائلاً، " كل من إلتقى بشيسون بدءاً بالملك الأردني حسين وإنتهاءً بالرئيس حسني مبارك ومروراً بأمراء الخليج يعلنون له بالإجماع عدم التخلّي عن صدّام حسين وإلاّ فسوف يهتز أمن المنطقة " . وحين التذكير بسياسة العراق الداخلية _ العنف المبرمج والدموي ضدّ المعارضة _ يجيبون بأنّ الحزب الإشتراكي لا يقيم العلاقات مع نظام معين ولكنّه يدافع عن مبدأ إستقرار الحدود الدولية ويقولون، " من يتمنّى إنتصار إيران؟ حتّى المعارضة العراقية لا تتمنّى إستبدال صدّام حسين بأية الله " . ولكن لأحد دبلوماسيي فرنسا الذي أمضى جزءاً كبيراً من حياته الوظيفية في الشرق الأوسط تحليلاً آخر حيث يقول: " أنّ السياسة هي الوسيلة الشائعة للوصول إلى ترضية معظم الدول العربية، أنّها وسيلة لجعلهم ينسون «تردد السياسة الفرنسية في الشرق الأوسط» .

يبدو بأنّ " اللجنة المشرفة على قضايا التسليح " قد نجحت يقيناً في إيقاع إشتراكي (وشيوعي) الحكومة الفرنسية في " الكمين " من خلال إقناعهم بأنّ رفض بيع الأسلحة سيخلق بطالة في قطاع صناعة الأسلحة. ووفقاً للدبلوماسي نفسه أنّ " اللوبي القوي، القريب من العراق " فرض على فرنسا السياسة التي نراها في الخليج.

" الحساسيّة الإشتراكية " تجاه العلمانية هي التي تحدّد نظرة الإشتراكيين إلى نظام الملالي وتقرّر سياستهم ويجهد أعضاء هذا اللوبي إلى تقديم صورة عن النظام الإيراني بأنّه " متهرّيء ودموي " لا يترك لفرنسا خياراً آخرأ لسياستها تجاهه.

أيدّ الرئيس ميتران في نهاية عام ١٩٨٣ شخصياً القرار الإستثنائي ب" إعارة " خمس طائرات سوپر إتاندارد Supper Etandard مرفوعة من سلاح القوّة الجويّة الفرنسية وضمن إطار إتفاقية تحدّد الفترة لثلاث سنوات، مجهزة بصواريخ أكروسيت 39-AM-Exocet بكلفة ١٠مليون فرنك للوحدة. طائرات لعبت دوراً حاسماً في الصراع ضدّ إيران بعد تسليمها للعراق.

يعني هذا بأنّ علاقات فرنسا مع نظام صدام حسين قد وصلت إلى المستوى الذي لا يمكن التراجع عنه ولم يبقى أمامه غير "الهروب إلى أمام" في الوقت الذي بدأت فيه دول الخليج تعيد تقييم مستوى مساندتها للعراق.

فوز شيراك في الإنتخابات التشريعية لعام ١٩٨٦ وعودته إلى ماتينيون (رئاسة الحكومة) زاد في تعميق وترسيخ إتجاه هذه السياسة.

ساندت وساعدت فرنسا العراق إلى النهاية، إلى يوم وقف إطلاق النار في آب ١٩٨٨ الذي وضع حداً للحرب. هذا الإلتزام العميق والوقوف جنب العراق _ بحجة النضال المشترك ضدّ التعصبّ الديني وبذريعة الحفاظ على التوازن التاريخي بين القوى العثمانية والعربية والفارسية وهذا إن لم يكن الموقف نابعاً في الأساس من إعتبرات تجارية وضيعة _ وحينما نظمت فرنسا المؤتمر العالمي في كانون الثاني ١٩٨٩ بخصوص منع إستخدام الأسلحة الكيماوية إلتزمت الخارجية الفرنسية أمام طارق عزيز نائب رئيس الحكومة العراقية بعدم ذكر اسم العراق في البيان الختامي.

التناقض... إلى متى؟

إحتلال صدام للكوييت في ٢ آب ١٩٩٠ أجبر فرنسا وكل الدول الغربية بإعادة تقييم علاقاتها مع العراق: في ليلة وضحاها أصبح أعز أصدقاء فرنسا رجلاً وضيعاً. لم يتردد الرئيس ميتران لحظة واحدة في إتخاذ قراره بإنضمام فرنسا إلى التحالف العسكري لطرد العراق من الكوييت _ رغم معارضة وزير دفاعه جان بيير شوفينمه الذي وصف هذه الحرب " بالحرب الإستعمارية ".

اعتمد ميتران منطقاً بسيطاً في تحليله: على فرنسا المشاركة للدفاع عن مركزها وعن مقعدها في مجلس أمن المنظمة الدولية.

ورغم ذلك، أعلن ميتران _ هل كان ذلك تنازلاً لوزير دفاعه؟ _ مبادرة الساعة الأخيرة لإعادة صدام حسين إلى عقله.

تلخّصت "خطّته" بتقديم مشروع قرار إلى مجلس الأمن كآخر مبادرة من الرئيس لمنع الحرب في اليوم السابق لإنتهاء مهلة الإنذار المحددة في ١٥ كانون الثاني ١٩٩١ .

أثار هذا التصرف غضب الأميركيين. تمنّى ميتران فتح الأبواب أمام صدام حسين

لينفذ منها تجنّباً للحرب والكوارث التي تفقد توازن الشرق الأوسط وتصيب على الأخصّ العربية السعودية والأردن _ التي يُنظر إليها كعود ثقاب المنطقة _ وإسرائيل.

فرنسا الرسمية كانت غارقة كعادتها في التفكير بالصراع الأزلي:

إذا تمّ سحق صدام حسين كيف يمكن بناء توازن مع إيران؟

"إذا خلقنا فراغاً في الوسط هل نمك حلاً لإدارته؟" يتساءل دبلوماسي فرنسي ويضيف: " تثبيت هدف للحرب بمغادرة صدام للحكم قرار لا يمكن معالجته لا في الأمم المتحدة ولا على الصعيد السياسي".

ولكن يرفض الرئيس الفرنسي بالمقابل أن يتلاعب الدكتاتور معه ويغشه قد نفض يده من صدام حسين ولكنه لم يذهب إلى حد مقارنته بهتلر. في النهاية، إستسلم ميتران لقرار الحرب والمشاركة فيها بفعالية.

كانت القوّة الفرنسية في عملية (Daguet) مؤلفة من ١٠٠٠٠ مقاتل مع كامل المعدات.

واشتركت فرنسا بعد ذلك في عملية بروفايد كومفورت Provide comfort لمساعدة مئات الآلاف من النازحين الكورد على حدود تركيا وكانت الحركة الرئيسية لإصدار القرار ٦٨٨ (٥ نيسان ١٩٩١) عن حق التدخل الذي نادى به لوقت طويل السيد برنار كوشنير.

وسجّل مؤتمر المصالحة بين الحزبين الكورديين (الديموقراطي الكوردستاني والإتحاد الوطني الكوردستاني) في قصر الرامبوييه (Rambouillet) تموز ١٩٩٤ قمة إلتزام فرانسوا ميتران (شجّعته في ذلك السيدة دانييل ميتران) لمساعدة الكورد العراقيين ولكن رفض القادة الكورد تنفيذ مشروع الإلتفاق المُعدّ نصّه في رامبوييه قاد الرئيس الفرنسي إلى الحل عن إلتزامه السياسي. إلتزام طالما تحفّظ عنها دبلوماسيو الخارجية الفرنسية _ وازدادت درجة تحفّظ الخارجية الفرنسية عند وصول إدوارد بالادور (Edouaed Baladur) إلى قصر الماتينيون وتقلّد آلان جوييه (Alain Jupe) لمنصب وزير الخارجية ١٩٩٣-١٩٩٥ .

" لا تملك فرنسا أجندة مخفية، أعلن أحد دبلوماسيي الخارجية الفرنسية، المسؤول عن ملفّ العراق في بداية عام ١٩٩٤، كل ماتسعى إليه فرنسا هو تطبيق قرارات الأمم

المتحدة لا أكثر ولا أقل " ومن ثم بدأ يعدد النقاط الأربعة التي تستند عليها الدبلوماسية الفرنسية:

- تطبيق كل قرارات الأمم المتحدة،
- إقرار العراق بالحدود الدولية بين العراق والكويت،
- إقرار حقوق الإنسان والأقليات،
- رغبة إرادة الدول الغربية بعدم إضافة شروط جديدة.

وحين تنفيذ النقاط المذكورة يمكن التفكير برفع العقوبات في أعقاب فترة تجريبية تمتد لستة أشهر.

رفضت فرنسا التعامل مع صدام وكأنه "الشیطان" كما يتصرف معه الأمريكان وإنما إتجهت نحو إعادة نوع من التوازن في سياستها:

" بعد أن كنا قريبين من العراق، إنتقلنا إلى الجبهة المغيرة لمواجهة فضر بناه ولفظناه...علينا الآن إخراجهم من بكمه وتشجيع من ينادي بتطبيق قرارات الأمم المتحدة وإقناعه بأنّ النور ينتظره في نهاية النفق " .

وجد هذا المنطق صدقاً له حتى في لندن التي إقررت بأنه من الواجب الحفاظ على هيئة مجلس الأمن وإحترام قراراته " يبدو وكأننا نبعث بإشارة إلى دول مثل ليبيا ويوغوسلافيا فندعوها بعدم التعاون مع الأمم المتحدة لأننا في كل الأحوال لن نزيح العقوبات عنهم " ردّد دبلوماسي إنكليزي مسؤول عن الملف.

إنقسم مجلس الأمن إذاً بين طرف يؤيد تشجيع العراقيين وطرف ثاني يرفض أي تنازل وإنقسم أيضاً بين من هم في جانب فرنسا ويتصورون بأنه يجب رفع العقوبات إلا إذا قرّر المجلس الرفض بالإجماع وبين من هم بجانب "الولايات المتحدة" ويقولون بوجود إستمرار العقوبات إلا إذا تمّ التصويت بالإجماع لإزاحتها. حصلت إتصالات بين فرنسا والعراق في أعلى المستويات ففي ٦ أيلول ١٩٩٤ إتقى آلان جوييه Alan Jupe في الأمم المتحدة بنيويورك مع طارق عزيز وإتخذ قراراً مبدئياً بفتح شعبة مصالح في بغداد وتم تأكيد ذلك في لقاء جديد بين طارق عزيز وآلان جوييه في ٦ كانون الثاني ١٩٩٥ بباريس. وبرر آلان جوييه خياره برغبة فرنسا في إيجاد قناة مباشرة للإتصال مع بغداد ولبعث الرسائل من خلالها إلى صدام حسين، ولكن

الدبلوماسي العراقي الذي كان يدير المصالح العراقية في السفارة المغربية لم يكن كفوءاً على الإطلاق.

إضافة إلى هذا لاحظت فرنسا بأنّ كثيراً من البلدان وبضمنها الولايات المتحدة كانت قد وجدت موطيء قدم لها على الساحة وفتحت فيه شعب مصالح منذ زمن.

فتحت فرنسا إذاً شعبة للمصالح مع مركز ثقافي بتاريخ ١ أيار ١٩٩٥ تحت العلم الروماني في بغداد. ونتيجة لعدم وجود مركز تجاري فرنسي (لم يفتح إلا بعد تبني قرار مجلس الأمن ٩٨٦) بعثت الخارجية الفرنسية بتعليماتها لرجال الأعمال الفرنسيين الراغبين بالعودة إلى بغداد:

" يمكنكم مفاتحة العراقيين ولكن لا توقعوا على أي شيء. عليكم الإستعداد وتهيئة مذكرات للتفاهم وانتظروا قرار رفع الحصار الاقتصادي لتنفيذها. شملت التعليمات شركات النفط الفرنسية - توتال وإلف - أيضاً

" حصلت إتصالات ومناقشات وبدأت مفاوضات ولكن لم يتم التوقيع على أي عقد " صرح دبلوماسي فرنسي كان يتابع الملف عن قرب في تلك الفترة.

وفي حينه وجه البعض من زملائه إنتقاداً شديداً لسياسة فرنسا الرسمية وعودتها إلى " العقلية التجارية " .

فبرر الآخرون بأنّ ذلك يعود إلى الضغط الشديد الذي تمارسه أوساط الأعمال التي كانت تنتظر فتح أبواب العربية السعودية والكويت لها بعد مشاركة فرنسا في الحرب مع قوات التحالف ١٩٩٠-١٩٩١ ولكن لم تحصل الشركات الفرنسية على أي عقد منها لا في عام ١٩٩٢ ولا في ١٩٩٣ .

حصدت زيارة إدوارد بلاور للخليج " فشلاً ذريعاً " على الصعيد التجاري لهذا لاتحجل أوساط رجال الأعمال بترديد قول " الطرف الآخر كان الأفضل " .

كان لخروج حسين كامل في عام ١٩٩٥ تأثيراً سلبياً على العلاقات الثنائية فقد أدى إلى توقّف إتجاه تطويرها لشهور عديدة: إقراراته بمعلومات عن إستمرار العراق سراً بتطوير أسلحة الدمار الشامل (البكتريولوجية والبايولوجية) أثرت بعمق وأبعدت عن النظام أكثر الدبلوماسيين تسامحاً معه .

وما أثار الدبلوماسيين هو الكذب الذي مرره عليهم طارق عزيز وغيره من المسؤولين

العراقيين خلال لقاءاتهم معهم بهذا الخصوص.

ولكن رغم الحقيقة التي أعلنها حسين كامل فبعد مرور عدة أشهر توصلت الدبلوماسية الفرنسية إلى قناة والتي عبر عنها أحدهم بالقول

" سيبقى صدام حسين في موقعه ولوقت طويل، علينا التعامل إذاً مع هذا الواقع " أو " بعد خمس سنوات لإنهاء الحرب حان الوقت الذي نضع فيه حداً لنذ العراق " .

فوز شيراك في إنتخابات الرئاسة في ٧ أيار ١٩٩٥ وتعيين ألان جوبيه رئيساً للحكومة أسرعاً من وتيرة تطوير العلاقات. وقد أوجز رئيس الحكومة الفرنسية الجديد سياسته العراقية في جملتين: الإبقاء على قناة الإتصال مع صدام حسين وإحترام قرارات الأمم المتحدة.

وحينما فاز ليونيل جوسبان Lionel Jospan بالإنتخابات التشريعية في أيار-حزيران وعاد اليسار إلى الحكم لم يتم إجراء تعديل أو تغيير عميق في هذه المعادلة: لأن وزير الخارجية هيوبير فيدرين Huber Vedrine إعترف بأسبقية رئيس الدولة في توجيه السياسة الخارجية.

عرض جاك شيراك في خطاب ألقاه بتاريخ ٨ نيسان ١٩٩٦ في جامعة القاهرة "أساس" سياسته العربية وفيما يتعلّق بالعراق أوضح: " عندما إحتل العراق إمارة الكويت حاولت فرنسا مع الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ومصر والعربية السعودية تجنب الحرب ولكنها خاضتها في النهاية لتحرير الإمارة ودفاعاً عن حق. بعدها بخمس سنوات يمكن للعراق إستعادة الموقع الذي يستحقّه في المجتمع الدولي. وثمة طريق وحيد للوصول إلى ذلك ينبغي على السلطات العراقية إدراكه: طريق قرارات مجلس الأمن التي تحدّد إطار الشرعية الدولية. على العراق ومجلس الأمن والمجتمع الدولي وضع هذه القرارات في موضع التنفيذ. أعلن لكم بوضوح: إذا نفذ العراق كلّ القرارات الخاصة به يجب رفع العقوبات وحيث لا يمكن للمجتمع الدولي السكوت عن تدهور الوضع الإنساني في هذا البلد. ولمواكبة هذه العودة يجب استعادة الثقة بين العراق وجيرانه في مجلس تعاون دول الخليج التي ترتبط معها فرنسا، كما تعلمون، بأوثق العلاقات " .

إبتعدت فرنسا عن حلفائها الأمريكيين والبريطانيين يوماً بعد يوم إلى أن سحبت عام

١٩٩٨ طائراتها من القوّات الجوّية المشتركة لحماية المنطقة المحمية من كردستان شمال خط العرض ٣٦ وإبتعدت عن حلفائها التقليديين في مجلس الأمن لتقترب من روسيا والصين من خلال تقديمها لمقترح بغلق بعض الملفات الخاصة بتجريد الأسلحة (النوية والباليستكية) عن العراق وبالدخول إلى مرحلة الرقابة على المدى البعيد وكذلك المباشرة بتوقيت رفع العقوبات.

تمنّت فرنسا، في الواقع، مناقشة إمكانية فصل تطبيق القرارات ٦٦١، ٦٨٧ و ٦٨٨ وشروطها الرئيسية:

- تطبيق الفقرة ٢٢ من القرار ٦٨٧ بإعادة السيادة للعراق في صدارته النفطية؛
- الإحتفاظ بالقرار ٦٦١ وإستمرار لجنة العقوبات في منح بغداد موافقاتها على الإستيراد؛
- تطبيق الفقرة ٢١ من القرار ٦٨٧ الخاصة بمفقودي الكويت وإعادة الأموال المسروقة ودفع التعويضات؛
- تطبيق الفقرة ٢٦ من القرار ٦٨٨ الخاصة بعدد من المسائل السياسية (مصير الكورد، الخ).

كانت للحكومة الفرنسية سياسة تجاه العراق ولكنها، خلافاً للحزب الاشتراكي، لم تملك سياسة تجاه الكورد وظهرت السياسة الكوردية للحزب الاشتراكي الفرنسي في عدة مناسبات (اجتماعات الاشتراكية الدولية، الخ) وأعلنوا بأنّه، رغم الأخطاء، فإنّ الكورد يمثلون " قطباً " للمعارضة العراقية ويلعبون دوراً رئيسياً في ديمقراطية العراق وبأنّ الحزب الاشتراكي " لا يتعاطف مطلقاً مع صدام حسين " .

في الكيه دورسيه (مبنى الخارجية الفرنسية) يدعى دبلوماسي فرنسي يتابع هذا الملف بأنّ الحكومة الفرنسية "تشجّع الأحزاب الكوردية لمتابعة الحوار بين (الحزب الديموقراطي الكوردستاني والإتحاد الوطني الكوردستاني) وبين بغداد " ويضيف "لا وجود لحل آخر، سيكون بطيئاً، خطوة بعد خطوة ونحن نساعدكم بالضغط على بغداد ولكن للأسف الشديد لا تعي بغداد الأهمية الرمزية لمسألة مفقودي الكويت ولصير الكورد بالنسبة للمجتمع الدولي...مشكلتنا الآن هي كيف ندمج العراق ونعيده إلى المجتمع الدولي وعلى رأس السلطة صدام حسين: للأسف لا نملك خاتمي آخر

للعراق... " ويعلن دبلوماسي آخر لا يتمنى التعريف بهويته وبصورة قاطعة " لا وجود للمعارضة...لن يتحرك الوضع في العراق إلا بعد زمن طويل. إذا اختفى صدام حسين فالنظام كله ينهار والفوضى تعم العراق بأجمله "

هذا الاعتقاد، هذه القناعة حدّت موقف فرنسا وذلك عارضت بشدّة المشاريع الأمريكية و " الحرب الأمريكية " .

بحجّة المشاركة الجماعية، باسم الاستقرار في الشرق الأوسط، بذريعة سياستها العربية عارضت فرنسا للنهاية المشاريع الأمريكية وخططها في التدخّل لإزاحة صدام حسين عن العراق ودون أن تعلن، ولو لمرة واحدة...مرة واحدة فقط، إدانتها للنظام الدكتاتوري في بغداد.

الإتحاد السوفياتي / روسيا - العراق: علاقات معقدة

أوليس إم وبيتي إم سمولانسكي
أستاذ العلاقات الدولية في جامعة لاهاي، بيت
لحم وبنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية.
إختصاصي الإتحاد السوفياتي في شؤون السياسة
العربية السوفياتية

صدام حسين والإتحاد السوفياتي

بعد مرورها بمراحل مختلفة أعيدت العلاقات الدبلوماسية بين الإتحاد السوفياتي والعراق عقب الانقلاب العسكري في عام ١٩٥٨ الذي حرّض عليه عبدالكريم قاسم ضدّ النظام الملكي القريب من الغرب والذي أدّى بالنتيجة إلى إنسحاب العراق من حلف بغداد. بعكس ستالين فقد أدرك خروتشوف أهميّة حركات التحرّر الوطنية للدول الناشئة بوقوفها ضدّ الغرب فاقترح عليها المساعدة السوفياتية - الماديّة والفنية والإقتصادية - وكذلك التجهيز العسكري العصري لقوّاتها المسلّحة. واجه المشرق العربي منافسة بين عبدالكريم قاسم والرئيس المصري جمال عبدالناصر فاخترت موسكو في البداية الوقوف بجانب بغداد. إعتمد خروتشوف في قراره جزئياً على حقيقة أنّ عبدالناصر يضطهد الشيوعيين المحليين وأنّ قاسم في البداية فسح المجال للنشاطات التنظيمية والدعائية للحزب الشيوعي العراقي. فقرار قاسم بفصل العراق رسمياً عن القوى الغربية أسعد الكرملين.

وقّعت على عدّة إتفاقيات للتعاون في المجال الإقتصادي والعسكري في نهاية الخمسينيات ولكن في عام ١٩٦٠ تقليداً لعبدالناصر إتخذ قاسم عدّة قرارات ضدّ الحزب الشيوعي العراقي فإتجهت علاقات بغداد وموسكو نحو البرودة بشكل محسوس ولكن بالرغم من ذلك لم يوقّف الإتحاد السوفياتي تعاونه الإقتصادي والعسكري مع العراق.

إنقطعت العلاقات بين الدولتين في عام ١٩٦٣ حينما إستلم السلطة الفرع العراقي

لحزب البعث العربي (حزب البعث العربي الاشتراكي) وحاول إبادة الشيوعيين. لم تُدْم سلطه النظام البعثي الأول لأكثر من بضعة شهور: أطاح بهم إنقلاب عسكري آخر قاده العقيد عبدالسلام عارف الذي قرر إعادة التعاون مع الإتحاد السوفياتي والتخفيف من ضغطه على الحزب الشيوعي العراقي. أعادت موسكو تعاونها الإقتصادي والعسكري مع بغداد في عام ١٩٦٤ وبعد هذا التاريخ بثلاث سنوات أعلن الإتحاد السوفياتي مساندته للعراق ومساعدته في تأمين المصادر النفطية والمساهمة في تطويرها.

أسباب

إستلم حزب البعث السلطه في العراق بقيادة الجنرال أحمد حسن البكر في عام ١٩٦٨ معلناً وقوفه ضدّ الغرب وكان يقوده العسكر في البداية ويظهر بأنّه تعلم من أخطائه السابقة. توصل إلى إتفاق مع الحزب الشيوعي العراقي والتزم بعدم التجاوز في تصرفاته التي تركت بصمة سوداء في علاقاته الماضية معه. وسبب هذا التحضّر كان واضحاً: واجه البعث مشاكل مهمّة عديدة ولكي يتمكن من حلّها فقد كان يحتاج إلى مساندة وتعاون الإتحاد السوفياتي. برزت من بين هذه المسائل الصعبة المشكلة الكوردية وبالأخص مسألة تأمين الصناعة النفطية العراقية، الهدف الذي سانده الإتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي العراقي بشدّة.

إضافة إلى ذلك فقد كان حزب البعث العراقي في سنوات السبعينات بحاجة إلى الحماية السوفياتية سواءً على الصعيد الاقليمي أو على الصعيد العالمي.

نتيجة لأيديولوجيته النضالية، المستندة على العمودين الأساسيين القومية والإشتراكية العربية فقد تم عزل بغداد عن جيرانها العرب المحافظين في الخليج (الفارسي - العربي...!!!) ووجد العراق نفسه أمام عدو إقليمي قوي، إيران الشاهنشاهية. التنافس مع طهران - حليفة الولايات المتحدة - والعلاقات المتشنجة مع سوريا ومصر جعلت المساندة الخارجية لها ضرورياً جداً: كان الإتحاد السوفياتي هو القوّة التي تفي بهذا الغرض. في عام ١٩٧٢ وقّعت بغداد وموسكو على إتفاقية صداقة وتعاون لمدة خمسة عشر عاماً إتفاقية تنص على " التعاون المتبادل " في الميادين السياسية والإقتصادية والثقافية والعسكرية. بغداد هي التي بادرت بعقد هذه الإتفاقية والتعاون الذي تلى التوقيع بين الدولتين أتاح للبعث تحقيق أهدافه المركزية: باشرت

بغداد في تأمين صناعتها النفطية وتطوير قوّاتها المسلّحة التي حولت العراق الى قوّة كبيرة في منطقة الخليج العربي - الفارسي.

تمنّت موسكو بشدّة تطوير علاقاتها مع العراق ولكن على الصعيد الأيديولوجي فمساندة البعث كانت تثير تساؤلات في الكرملين بسبب العدائية السابقة لهذا الحزب تجاه الحزب الشيوعي العراقي القريب من السوفيات. ولكن العداءة المعلنة للبعث تجاه القوى الغربية " الامبريالية والاستعمارية " عوّضت عن تلك الإعتبارات السلبية بالإضافة إلى أنّه كان للبلدين أهداف متكاملة في دول العالم الثالث الغارقة في أتون الحرب الباردة.

هذا التكامل الجزئي في وجهات النظر السياسية والأيديولوجية الأساسية مهد الطريق ليكون أساساً للتعاون السوفياتي - العراقي خلال سنوات السبعينات.

وثمة أسباب عسكرية أيضاً شجّعت موسكو على نسج علاقات عميقة مع العراق وكذلك مع الجمهورية الشعبية الديموقراطية اليمينية، الزبونة الأخرى للإتحاد السوفياتي في شبه الجزيرة العربية حيث كان لابد من الأخذ بنظر الإعتبار التهديد الذي شكّته الغوّاصات النووية الاستراتيجية الأمريكية من نوع بوسايدون Poseidon المتجولة في البحر العربي على الأمن السوفياتي. نجح الإتحاد السوفياتي في الحصول على القواعد البحرية والجوية في اليمن وفي القرن الأفريقي ولكنه فشل في العراق لأنّ البعث تذكّر التدخّل الأجنبي - أي البريطاني - في هذا البلد. ورغم هذا الفشل الكبير في رفض بغداد التنازل فإنّ علاقات الكرملين لم تهتز ولم تضعف مع بغداد.

وسبب تساهل موسكو يعود إلى العامل الإقتصادي. كان البعث قد قرّر منذ زمن تأمين الصناعة النفطية العراقية والإتحاد السوفياتي كان يساند هذا الهدف بشدّة. " إضافة إلى الفوائد السياسية الواضحة فالقرار المتخذ ضدّ المصالح النفطية (الغربية) العليا يفسح المجال للإستفادة إقتصادياً بشكل هام وكبير. فمقابل المواد والخدمات السوفياتية المطلوبة لإدامة الصناعة النفطية كان الإتحاد السوفياتي ينتظر بأن يدفع له بالعملة الصعبة أوبالبترول. " وقد حقّق ما كان يأمله في السبعينات والثمانينات.

العلاقات السوفياتية - العراقية خلال السبعينيات والثمانينيات تعطينا مثلاً على الصعود والهبوط الحتمي الذي يمكن وقوعه في علاقات الزبون - بحاميه حيث غالباً ما يبحث الزبون عن المساندة العسكرية أو الإقتصادية أو السياسية لتحقيق أهدافه ضد أعداء قوميين أو أجانب ويسعى الإحتفاظ بإستقلاليته وحرية تحركاته تجاه الحامي في الحالات التي لاتتوافق فيها مصالحهما. في الواقع، تقرب حزب البعث من الحزب الشيوعي العراقي ومن الإتحاد السوفياتي بهدف تسهيل مهمته في " حل " المشكلة الكوردية وحال بلوغ هدفه تغيرت سياستهم فطاردوا الشيوعيين من جديد ورفضوا محاولات تدخل موسكو لصالحهم.

ثبت البعث أركان حكمه في العراق بفضل نجاح عملية تأمين صناعته النفطية والإرتفاع الكبير لأسعار البرميل في أعقاب الحرب الإسرائيلية - العربية في تشرين الأول ١٩٧٣ . وبعد ترويض الكورد والحزب الشيوعي العراقي لم تتردد بغداد بفرض نفسها إقليمياً وقد شرعت في إنتقاد الإتحاد السوفياتي لغزوه أفغانستان (١٩٧٩) وفي التهجم على الجمهورية الإسلامية الإيرانية (١٩٨٠). كل هذه القرارات اتخذها صدام حسين الذي باشر إنطلاقاً من عام ١٩٧٩ بنسج شبكته الخاصة داخل حزب البعث وأصبح بعدها رئيساً للجمهورية حيث أستلم السلطة من أحمد حسن البكر والفرع العسكري للحزب.

رفض الإتحاد السوفياتي قيام العراق بإنتقاد سياسته بسبب غزوه لإيران في أيلول ١٩٨٠ وبدون إستشارته في الوقت الذي كان مفروضاً عليه أن يفعل ذلك وفقاً لنصوص إتفاقية عام ١٩٧٢ ولم تعود العلاقات إلى حالتها الأولى ويعاد برنامج المساعدات العسكرية إلى النظام البعثي المنتقد من كل الأطراف إلا بعد سير الحرب لصالح إيران والخوف من هزيمة العراق وبالنتيجة إحتمال ظهور جمهورية إسلامية أخرى فيه تهيمن عليها الأغلبية الشيعية. ولأن إنتصار آية الله ونتائجه الإقليمية كانت ترعب الإتحاد السوفياتي وعرضياً الولايات المتحدة.

بمختصر الكلام، أن المصالح السوفياتية في العراق وفي عدة دول أخرى من بلدان العالم الثالث تتكيف وفقاً لضرورات الحرب الباردة رغم أن الإلتزام السوفياتي تجاه

العراق كان خاصاً لأنه بالإضافة إلى الإعتبارات السياسية والعسكرية - الاستراتيجية فقد كان يحصل منه على أرباح إقتصادية هائلة. حين سقوط الإتحاد السوفياتي عام ١٩٩١ كان العراق قد أصبح الشريك التجاري الأول لموسكو في الشرق الأوسط وكذلك أكبر مشتري أجنبي للذات العسكرية السوفياتية الى درجة إرتفعت المشتريات إلى عدة مليارات دولار. إستمر العراق في دفع بعض مشترياته بالعملة الصعبة والقسم الآخر بالبترول الذي تبيعه موسكو بدورها في السوق العالمية. وأصبح الإتحاد السوفياتي أيضاً من أكبر المستكشفين والمنتجين الأجانب للبترول في العراق وساهم في تطوير ميادين الطاقة والزراعة والري ومشاريع أخرى عديدة. من المستحيل إنكار أرباح موسكو الهائلة بسبب تقربها من بغداد وفوائدها في المجالات السياسية والإقتصادية ولكنها تحمّلت بالمقابل عدة مقالب سياسية حيث أصبحت في النهاية في المرتبة الأولى من الدول الدائنة لدولة منتجة للنفط ومالكة لإحتياطيات نفطية مهمة، دولة لم تعد قادرة بسبب الحرب المدمرة في الثمانينيات على دفع ديون دول ساندها. وبعد سقوط الإتحاد السوفياتي أصبحت الفيدرالية الروسية هي الخليفة الشرعية لإستيفاء الديون المستحقة.

عاصفة الصحراء (١٩٩٠-١٩٩١) و " النظام العالمي الجديد "

في عام ١٩٩٠ كانت للسوفيات إلتزامات في العراق . حين إحتلال جيش صدام حسين للكويت وحين إعلان إرادة المجتمع الدولي برعاية الولايات المتحدة بإيقاف العدوان لم يكن مستغرباً أبداً أن تجد موسكو نفسها أمام خيار العمل بفعالية لتسوية هذه الأزمة ومع ذلك يجب أن لا يغيب عن البال بأن تغييراً جذرياً قد حصل نتيجة لإستلام ميكائيل غورباتشيف، السكرتير الاقليمي الديناميكي الشاب لجنوب روسيا لمقاليد السلطة في الكرملين.

حين وصول غورباتشيف الى السلطة كان واعياً بالافول المستمر لبريق الإقتصاد السوفياتي - المنفوخ بالإحصاءات الكاذبة - والفوارق التكنولوجية المتزايدة بين الإتحاد السوفياتي والغرب والهدر الواسع للموارد السوفياتية نتيجة لإرادة موسكو بعدم قطع إرتباطها بمعسكر أوروبا الشرقية وبزبائنها الأجانب ولذا قررّ غورباتشيف وضع برنامج للإصلاحات المحلية الجذرية، البيريسترويكا. الشروع في تطبيق البرنامج أثار على السياسة السوفياتية الخارجية والداخلية وإقتنع غورباتشيف بأن المنافسة

العسكرية التي تقودها بلاده مع الولايات المتحدة هي السبب في تدهور الإقتصاد السوفياتي المستمر. ولتغيير هذا الواقع إعتقد بأنّ على الإتحاد السوفياتي التخلّص من عقلية الحرب الباردة وتطبيع علاقاته مع القوى الغربية وهذا يعني المباشرة بوضع حد لسباق التسلّح بين القوى العظمى وتطبيع العلاقات الإقتصادية مع الغرب " الرأسمالي ". هذا كان جوهر فكرة غورباتشيف الجديدة " التي ساهمت في إنتهاء الحرب الباردة وقادت الإتحاد السوفيتي الى الإنهيار.

ضمن هذه الظروف والعالم في قمة التحول عبرت القوّات العراقية حدود الكويت في ٢ آب ١٩٩٠ وإحتلت الإمارة الكويتية الصغيرة. هذا الحيز الصغير لا يتيح لي الفسحة الكافية لكتابة تقرير مفصّل عن التحرّكات الدبلوماسية السوفياتية خلال أزمة الكويت فأوجز كلماتي بأنّ سياسة موسكو تطوّرت في البداية في إتجاهين متوازيين حيث أنّها تنفذاً لسياستها الهادفة الى التقربّ من الغرب أدانت العدوان العراقي أولاً وساندت سياسياً ومعنوياً الجهود المبذولة لتخفيف نتائجها ثانياً. في الحقيقة، إلتحق الإتحاد السوفياتي بالأعضاء الآخرين لمجلس أمن الأمم المتحدة بالتصويت على القرار ٦٧٨ القاضي بفرض عقوبات إقتصادية صارمة على بغداد وهو يفعل ذلك فقد كان الأمر يعني قطع موسكو لعلاقاتها الإقتصادية الواسعة مع العراق. وبهذا الخصوص تطابقت السياسة السوفياتية مع السياسة الأمريكية ومع سياسة أغلبية الدول العربية والمجتمع الدولي بأكمله.

هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد بذل الكرملين جهوداً كبيرة لضمان حل الأزمة سلمياً ولتتمكّن الأمم المتحدة من لعب دور رئيسي فيها. أن سبب التفضيل السوفياتي لدور الأمم المتحدة المركزي كان واضحاً. فرغم الإستمرار بإعتباره قوّة عظمى فالإتحاد السوفياتي لم يعد قادراً على تحديّ الولايات المتحدة عسكرياً أو سياسياً وأمله الوحيد بممارسة تأثير جدّي على الشؤون العالمية تمثّل في العودة إلى الأمم المتحدة - وبالأخص إلى مجلس أمنها الذي يمنحه، لكونه عضواً دائماً فيه، حق الفيتو -، الأمم المتحدة، هذه المؤسّسة المعترف بها لمعالجة الأزمات الدولية. كان وزير الشؤون الخارجية إدوارد شفردينازه هو الناطق الرسمي للكرملين ، وبخصوص الأزمة الكويتية فقد صرّح بأنّ العمل العسكري ضدّ العراق - فيما إذا أصبح ضرورياً كآخر حل -

وأنّ الأمم المتحدة هي الجهة المخولة بتنسيقه. ووعده شفردينازه بإرسال قوّات سوفياتية ضمن قوّات عسكرية تقودها الأمم المتحدة في الخليج (الفارسي - العربي).

وحيثما توضّح بأنّ واشنطن لا تنوي ترك المبادرة للأمم المتحدة حاولت موسكو إستخدام " علاقاتها الخاصة " مع بغداد للفصل في الصراع الدائر فبقي هدفها كما كان. إرادة الكرملين بالوصول إلى حل سلمي للأزمة يعود سببها إلى حماية مصالح الإتحاد السوفياتي في العراق وإلى منع الولايات المتحدة بتثبيت موقعها كقوّة خارجية مهيمنة في الخليج. خشيت موسكو من النجاح الأمريكي الذي سيؤلّد مردودات سلبية على المصالح السوفياتية السياسية وبالأخص الاقتصادية في العراق. على أيّة حال واجهت موسكو خصمين يرفضان الإحتكام لعقلية غورباتشوف ولم تستغرب عدم إستعداد صدام حسين للمساومة - حيث كان زبوناً يصعب على الآخرين مطاوعته سابقاً - وأمّا واشنطن فإدارة بوش كانت مصرّة على طرد العراق من الكويت - بالقوّة إذا إستدعت الضرورة - وفي الوقت نفسه على إنهاء قدرات بغداد في تحديّ جيرانها وتحديّ المصالح الغربية في الخليج (الفارسي - العربي) لكل هذه الأسباب بقيت بغداد وواشنطن صمّاء لتوسّلات غورباتشوف. وبسرعة أصبح لدى الكل واضحاً بأنّ الكرملين والبيت الأبيض يتبنّيان مواقفاً متعارضة جزئياً بخصوص الحل النهائي للأزمة الكويت فالأول يفعل كل ما يستطيع لتجنّب الحرب والثاني يصرّ على الذهاب إلى النهاية. فشلت الجهود الروسية في وضع مسؤولية حل الأزمة على عاتق الأمم المتحدة وفشلت محاولات التحكيم المتعدّدة وأخيراً شكّلت عملية عاصفة الصحراء ذاتها ضربة وصفعة قوية للدبلوماسية السوفياتية. لم تقدر موسكو على إيقاف واشنطن فإستسلمت لإرادتها.

ومع ذلك يجب أن لا ننسى بأنّ الجهود الدبلوماسية للكرملين - وبالأخص أهدافه الإستراتيجية الأولى خلال أزمة الكويت - تركزت في ضمان بقاء صدام حسين على الحكم وعدم إستبدال البعث بنظام قريب من الغرب. ولهذا عملت موسكو بكل طاقتها لمنع إستخدام القوّة ضدّ العراق. ولأنّ صدام حسين خرج حياً من عملية عاصفة الصحراء حتّى ولو أنّ جيشه ذاق مرارة الهزيمة السريعة والإهانة فإنّ موسكو حقّقت أهدافها الإستراتيجية. ويا للسخرية ! لم يكن للدبلوماسية السوفياتية دور في بقائه

على قيد الحياة ففرار واشنطن بإيقاف العمليات العسكرية دون الإطاحة بصدّام حسين كان يستند على قناعة واشنطن بأنّ الرئيس العراقي لن يخرج سالماً بعد إندحار قوّاته المسلّحة وكذلك بسبب إنشغال بوش بالحفاظ على التحالف وخاصة الدول العربية وإبقائها بعيداً عن الإنشقاق والتصدّع. ويمكن تسجيل ملاحظة أخرى ألا وهي أنّ الإتحاد السوفياتي قد حصل على فوائد اقتصادية من أزمة الخليج فكلا الطرفين سواءً واشنطن أو أعضاء مجلس تعاون دول الخليج - قد رغبا وسعيًا الى ضمان التعاون السوفياتي - قدّمًا مساعدات اقتصادية ومالية إلى موسكو يمكن تقديرها بعدة مليارات دولار وعلامةً على ذلك أعادت العربية السعودية والبحرين علاقاتها الدبلوماسية مع الإتحاد السوفياتي.

وصفت سياسة الكرملين خلال أزمة الكويت بأنّها لم تكن متجانسة، متردّدة في التعاون مع الولايات المتحدة أو في معارضتها وهذا الإنتقاد غير مُبرّر إطلاقاً. الإتجاه الجديد لفكرة ورغبة غورباتشوف بالمساهمة في خلق نظام دولي جديد هو السبب الذي دفعه الى أن يتعاون مع الولايات المتحدة وحلفائها لإعادة الأمور إلى نصابها. أيّ بعبارة أخرى كان على القوّات العراقية الإنسحاب من الكويت وإعادة الإستقلال والسيادة إليها. وافق الإتحاد السوفياتي على وجهة النظر هذه دون تردد والخلافات بين موسكو وواشنطن لم تظهر إلاّ حول وسائل تحقيق هذا الهدف. فالحلفاء كانوا يركّزون جهودهم على إنسحاب القوّات العراقية من الكويت وعلى إضعاف قدرات صدّام حسين في تهديد أمن الدول المجاورة للعراق مستقبلاً والسوفيات كانوا يلحّون على إنتهاج حل سلمي للأزمة ويعملون ما في قدرتهم لمنع إستخدام القوّة ضدّ زبونهم العنيد والثمين. من السهولة إتّهام الكرملين بالرخاوة أو الوقوع في خطأ التقدير أو أنّه كان بإستطاعته تحاشي الحرب والجواب على ذلك لا هذا ولا ذاك: حيث لم تكن موسكو متردّدة أبداً في قرارها بضمان بقاء صدّام حسين ونظامه.

ومن المناسب هنا تسجيل ملاحظة حول إنطباع التناقض في سياسة موسكو خلال أزمة الخليج فالسبب في ذلك يعود جزئياً إلى إعتبرات السياسة الداخلية - ظاهرة جديدة في السياسة الخارجية السوفياتية . كما أكّده بشكل مقنع إسحاق كلاين في عام ١٩٩٠ - ١٩٩١، فقد ظهرت ثلاث مجموعات يتبنّى كلّ منها حلاً للأزمة. كان

الليبراليون " بقيادة شيفرنادزة يؤكّدون بأنّه من مصلحة الإتحاد السوفياتي التعاون مع الغرب لبناء " نظام دولي ديموقراطي يرفض العنف ويستند على القانون ". وبالنتيجة فالليبراليون فضّلوا تعاوناً وثيقاً مع الولايات المتحدة - في مجلس أمن الأمم المتحدة بالأخص - لإنهاء نتائج العدوان العراقي وكانوا ينادون أيضاً بحل سلمي للأزمة، حل يلعب فيه الإتحاد السوفياتي دوراً مهماً والذي سوف يفوّت الفرصة على واشنطن لتصبح القوّة المهيمنة في الخليج (الفارسي - العربي). وإذا فشلت في النهاية جميع المحاولات لحل سلمي إستنتج الليبراليون بأنّه لا ينبغي على موسكو تحديّ واشنطن علناً فبنظرهم العلاقات الأمريكية - السوفياتية أهم من أيّ مسألة أخرى في السياسة الخارجية .

عارض " المحافظون " بشدّة هؤلاء الليبراليين وهم يتألّفون من مجموعة قوية ومؤثّرة من الضبّاط العسكريين وبيروقراطيي الحزب تشاركهم عناصر من الKGB وقطّاع الصناعات الثقيلة في الإقتصاد السوفياتي وقد عارضت بحوية " خيانة " حليف ثمين ولامتهم على منحهم البطاقة البيضاء لواشنطن في العراق وفي الخليج. تكوينات هذه المجموعة كانت تحمل تصوّرات متنوعة عن صدّام حسين ولكن تتفق فيما بينها جميعاً حول واجب موسكو بمعارضة واشنطن لمهاجمة العراق. أصبحت هذه المجموعة (المحافظون) التي لم يكن لها تأثير يُذكر في بداية البيريسترويكا في الواجهة الأمامية للمسرح حينما إتّسع حجم الأزمة الكويتية مثلما رأينا الإستقالة الجبرية لشيفرنادزة وما تبعها من تصلّب في الموقف السوفياتي والإنتقاد العلني المتصاعد للقرار الأمريكي بخوض الحرب في العراق.

وبين هاتين المجموعتين على رقعة الشطرنج السياسية السوفياتية تواجدت مجموعة أخرى " الوسطيون " أو " العمليون " Pragmatists التي كانت بدورها تنادي بتسوية أزمة الكويت سلمياً وتطالب بنهاية سريعة للعمليات الحربية حالما تنطلق الحرب. إضطرت موسكو تحمّل مسؤولية إدارة الأزمة بفعالية وقدّمت نفسها وسيطاً بين العراق والتحالف الذي تقوده الولايات المتحدة. إحتلت " العلاقة " بين أزمة الكويت وبين الصراع الإسرائيلي - العربي موقعاً مهماً في موقفها: إقترحت بأن الحل المتفاوض عليه يجب إلحاقه، وبسرعة، بمؤتمر دولي لتسوية الخلافات بين إسرائيل والدول العربية.

في هذا المحفل الدولي يجب على الإتحاد السوفياتي أن يلعب دوراً هاماً. فضل عدد كبير من الوسطاء بقيادة إيفغيني بريماكوف - الجامعي المعروف والمستعرب والعضو في المجلس الرئاسي - في الواقع إنعقاد قمة عربية لمعالجة هذه المشاكل بدلاً عن الأمم المتحدة. وقد أكدوا بأنه وفقاً لهذا المشروع سيكون صدام حسين موافقاً في هذه القمة على سحب قواته من الكويت مقابل إتفاق ينص على إنعقاد مؤتمر دولي يناقش المشاكل الإسرائيلية - العربية وبقليل من الحظ يمكن تسويتها. بالرغم من أن هذه المحاولات لم تكن مثمرة فحركات الوسطاء التي نسّقها بريماكوف كمبعوث خاص لغورباتشيف في الشرق الأوسط خلقت إنطباعاً يمكن وصفه بالتردد والتذبذب في السياسة الخارجية السوفياتية. وبالنتيجة يمكننا القول بأن واشنطن نجحت في تحييد موسكو. خرج صدام حسين من الحرب وهو على قيد الحياة ولكن فشلت الفكرة الجديدة وكذلك محاولات بناء النظام العالمي الجديد ونضيف على ذلك الفشل الذريع في الجبهة الداخلية، أن كل هذه العوامل أدت الى تشويه سمعة غورباتشوف بين أوساط الطليعة السوفياتية المثقفة. وواقعياً فإن أحداث عام ١٩٩٠ - ١٩٩١ في الخليج (الفارسي - العربي) ساهمت في سقوط غورباتشوف وبعد ذلك في إنفجار الإتحاد السوفياتي وتفقيته.

صدام حسين والفيدرالية الروسية

قبل أن تفرض الأمم المتحدة عقوباتها كان قد تم بناء علاقات إقتصادية وفنية وعسكرية وثيقة بين الإتحاد السوفياتي والعراق ففي عام ١٩٨٩ تجاوزت المبادلات التجارية بين البلدين ٢ مليار دولار والعقود الثنائية قاربت ٤,٥ مليار دولار. أكثر من ٩٠٪ من الصادرات السوفياتية إلى العراق تكونت من الأجهزة العسكرية المدفوعة بصادرات النفط العراقي وعلى هذا الشكل تكدّست ديون موسكو على العراق ليصل الرقم وفقاً للمصادر بين ٣,٥ و ١٦ مليار دولار. إضافة إلى هذا إشتراك الإتحاد السوفياتي في برنامج رابع يقدم فيه مساعدات فنية وإقتصادية تساهم في تطوير الصناعة النفطية العراقية وفي ميادين إقتصادية أخرى. إنقطع كل هذا فجأة حال تنفيذ العقوبات المصدّقة من قبل الأمم المتحدة على العراق ولم يباشر الحكم الجديد للكرملين بقيادة بوريس يلتسين في عملية إعادة بناء مواقف موسكو تجاه بغداد إلا بعد سقوط الإتحاد

السوفياتي وفترة التقرب الساذج من الغرب وحينذاك تبين بأن الأمر صعب جداً. حاولت موسكو إلغاء - أو على الأقل تسهيل أو ترتيب - العقوبات الإقتصادية التي أصبحت هدفاً كبيراً للدبلوماسية الروسية خلال سنوات التسعينيات وبعدها. والهدف الثاني للسوفيات كان المحافظة على نظام صدام حسين من خلال منع استخدام القوة للإطاحة به لأن موسكو إستمرت في قناعتها بأن إستبداله بشخص مقبول في عيون الأميركيين سيؤدي بالضرورة إلى تقليص وجودها وإنحسار تأثيرها على بغداد. ولكي يتمكن الكرملين على مواصلة أهدافه في العراق فقد كان عليه مواجهة مشاكل كثيرة من ضمنها التوافق بين مصالحه مع بغداد وضرورة الإحتفاظ بعلاقات طيبة مع الولايات المتحدة لكن إصرار موسكو بتدمير أسلحة الدمار الشامل من الترسانة العراقية (ADM) كان يشكل عقبة كبيرة. ففي الوقت الذي كانت روسيا تمارس ضغطها لكي تعلن بغداد الحقيقة عن هذه الأسلحة كان صدام حسين يتردد بين فترات عدم التعاون كلياً أو جزئياً مع مفتشي الأمم المتحدة الأمر الذي كان يعقد مهمة موسكو في تخفيف الضغط الغربي عليه بشكل كبير.

عهد يلتسين (١٩٩١-٢٠٠٠)

تمّ عرض موقف كرملين ما بعد الإتحاد السوفياتي تجاه بغداد بوضوح في آذار ١٩٩٢. الفيدرالية الروسية إختارت " صيانة إستقلال العراق وسيادته الوطنية " وأصرت على إحترام بغداد " للقرارات الصادرة من مجلس أمن الأمم المتحدة مع كل محتوياتها " ووجوب مصاحبة كل ذلك " بالتخفيف المتدرج للعقوبات " وأعلنت الفيدرالية الروسية بأن للعراقيين، وحدهم حق " تحديد المسيرة السياسية والإقتصادية والإجتماعية لحياتهم ". وحول المشاكل الخاصة الناتجة من عملية عاصفة الصحراء فقد أيّدت موسكو في البداية السياسة الغربية: وبالإضافة لوجوب تعاون بغداد مع المفتشين الدوليين فعليها أيضاً الإعتراف بإستقلال الكويت وقبول الحدود الدولية وتعويض الخسائر الناتجة من الإحتلال وإعادة المدنيين وسجناء الحرب الكويتيين المرحلين إلى العراق ولكن في عام ١٩٩٣ أكتشف الكرملين من جديد مصالحه الإقتصادية في العراق مما أدى إلى تغيير السياسة الروسية.

تبيّنت ملامح هذا التغيير بعد وصول وفد روسي في عام ١٩٩٣ يقوده أوليغ دافيدوف، وكيل وزير ومسؤول عن العلاقات الاقتصادية الخارجية. إتفق الطرفان بأن إعادة التعاون سيخدم مصالح البلدين وعليهما تشجيع إتجاه " العلاقات الدولية المستندة على القانون الدولي وعلى المساواة والإحترام والمصالح المتبادلة ". ولكن خارج الإعتبارات العامة فقد فسّرت الأطراف صيغة التعاون المستقبلي بشكل مختلف.

وهكذا فقد إستخدم طارق عزيز، نائب رئيس الوزراء هذه الزيارة ليصرح بأنّ " رفع الحصار الظالم " هو " الهدف السياسي الأول " لبغداد وأن حكومته ملتزمة بالتعاون مع الأمم المتحدة لكي " تحل كل المشاكل العالقة " وأضاف بأنّ التوقيع على إتفاقيات إقتصادية يعني بوضوح ضمان مساندة موسكو لتحقيق هذا الغرض. حاولت بغداد إقناع موسكو بإنتهاج سياسة أعمق و " أكّدت من جديد رغبتها ونفاذ صبرها لتوسيع وتوطيد " العلاقات الثنائية. ولإعطاء حافز إضافي فقد أكّد محمد مهدي صالح وزير التجارة في موسكو بأنّ رفع الحصار " سيوفّر فرصة كبيرة للشركات الروسية في تنفيذ عدّة مشاريع في العراق ".

أيد دافيدوف كلياً رفع العقوبات التي أضرت إقتصادياً بروسيا - كان العمل معلّقاً في مشاريع العراق وكذلك الحال بالنسبة لتسليم النفط إلى روسيا التي تصدره بدورها إلى الهند وبلغاريا. لم يكن العراق قادراً على الوفاء بديونه هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن عدم إصرار موسكو على رفع العقوبات يشكل " خطراً حقيقياً " بطرد روسيا من السوق العراقية وخاصةً إذا " علّقت كلياً تعاونها مع بغداد ". أوضح دافيدوف بأنّه عكس الشركات الروسية " لا زالت هنالك عدّة شركات غربية تعمل في العراق رغم العقوبات وبالنتيجة حين إلغاء العقوبات فللمنافسين الغربيين أفضلية على الشركات الروسية وذلك غير جائز أبداً ". وثمة إشارة واضحة على أنّ تغييراً قد حصل في موقف موسكو في آذار من عام ١٩٩٤ حينما ذكر يولي فورونتزوف -Yuli Vorontsov، الممثل الروسي الأول في الأمم المتحدة، أمام مجلس الأمن " بعض التغييرات الإيجابية " في موقف بغداد حول نزع السلاح ومارس ضغطاً على الأمم المتحدة بتشجيع هذا التوجه. ونصح بتبني خطة تمتد لسنة أشهر للإختبار فيما إذا كان

العراق يحترم قرارات الأمم المتحدة وبعد مرور هذه الفترة يجب على مجلس الأمن إعادة النظر في مسألة العقوبات. وأضاف فورونتزوف بأن بغداد يمكن أن تساند قضيتها من خلال " الإعتراف مباشرة بالسيادة والحدود الكويتية ".

من خلال تقييمه لهذا التغيير أوضح خبير روسي لم يود الإفصاح عن هويته بأنّ عقل الكرملين لا يزال مشغولاً بالسلام والإستقرار في الخليج (الفارسي- العربي). موسكو تصرّ على بغداد " بإحترام وتطبيق جميع القرارات المتخذة من المجتمع الدولي حرفياً " وأن مجلس أمن الأمم المتحدة يقوم " بالرد المناسب على كل القرارات الإيجابية " المتخذة من قبل العراق. وقد إقتنع الخبير بأنّ الموقف الروسي محشو " بالمصالح المباشرة للدولة " وأضاف بأنّ عدم قدرة الأمم المتحدة على التسامح يمكن أن يؤدي إلى تأجيج الصراع في منطقة الخليج غير المستقرّة. وقد كان فياشيسلاف كوستيكوف Viacheslav Kostikov، الناطق الرسمي لإلتسين أكثر دقّة فيما يخص موقف موسكو حينما صرّح دون لف أو دوران وبلهجة بعيدة عن الدبلوماسية بأنّه " قد إنتهى العناق الرومانسي السوفياتي - الغربي ". وأشار بأنّه في بداية فترة ما بعد السوفياتية مرّت روسيا وأوروبا وأمريكا " بالمرحلة الرومانسيه حيث يتعانق خلالها الطرفان بقوة إلى درجة أنّهما يضعان مصالحهما الأمنية الوطنية على صفحة ". ها قد إنتهى شهر العسل، إستنتج كوستيكوف وكمحصلة فروسيا تفكّر من الآن فصاعداً بمصالحها الخاصة في العراق.

وأثناء هذه المراجعة الفكرية وصل طارق عزيز إلى موسكو في آب من عام ١٩٩٤ وهي أول زيارة عراقية هامة إلى روسيا منذ عملية عاصفة الصحراء، وكان الغرض منها هو تشجيع الكرملين على مواصلة عمله لإلغاء الحصار مقابل توقيع بغداد على إتفاقية تجارية تقدّر بعشرة مليارات دولار لصالح موسكو. في الحقيقة تمّ التوقيع على العقد أثناء إقامة طارق عزيز في العاصمة الروسية ووعده العراق أيضاً خلاله بتعويض الديون السوفياتية وقدم عقوداً رابحة جداً للشركات الروسية لإنهاء كلّ المشاريع التي سبق وأن وقعت الشركات [السوفياتية] قبل عام ١٩٩١ إضافة إلى منح عقود جديدة وبشروط أفضل.

رغم أنّ الزيارة بدت ناجحة وجيدة غير أنّ بعض المصادر الروسية ذكرت بأنّه أثناء المفاوضات " قدّم " أندريه كوزيروف، وزير الشؤون الخارجية " وجهة نظر موسكو

طارق عزيز مستخدماً عبارةً قاسية جداً " . وأخبر بغداد بأنّ العقوبات ستبقى فعلياً " إلى أن يعترف العراق بإستقلال الكويت ويقبل بترسيم الحدود " . وإضطرّ أيضاً توضيح مصير المفقودين الكويتيين وبالأخص الإستمرار في التعاون مع مفتّشي الأمم المتحدة. ولكن، في العلن، بقي الكرملين على موقفه وقدّر بأنّ الوقت قد حان للأمم المتحدة أيضاً " لبدء عملية رفع العقوبات ضدّ العراق " . لم تقدر بغداد على هضم موقف كوزيروف ففي لقاءٍ معه عبّر طارق عزيز عن أسفه " لإصرار موسكو بإستمرار الحصار على العراق " . وقد صعب فهم موقفه لأنّ العقوبات وجّهت " ضربة جديّة...لمصالح روسيا " . ومع ذلك، في تشرين الثاني من عام ١٩٩٤ و بممارسة ضغط مستمر من روسيا إعترفت بغداد بإستقلال الكويت فعبرت روسيا عن سعادتها لهذا الخبر ولكنها أعلنت بأنها تنتظر من بغداد أكثر من هذامما أجبر العراق على التطرق الى مشاكل «المفقودين الكويتيين والأموال الكويتية المحجوزة».

القرار ٩٨٦

في نيسان عام ١٩٩٥، لمواجهة التردّي في مستوى معيشة المواطنين العراقيين صوّتت الأمم المتحدة على القرار ٩٨٦ المعروف بقرار " النفط مقابل الغذاء " . وقد نصّ بأنّ لبغداد الحق في بيع البترول بقيمة مليار دولار لكل ثلاثة أشهر لشراء الأغذية والأدوية. رغم سيطرة الحكومة العراقية على مبيعات النفط فالأموال كانت تحوّل إلى حساب تشرف عليه الأمم المتحدة. يخصّص ثلث المبلغ ويوضع في مصرف يدير تعويضات خسائر الكويت والقسم الباقي يخصص لمساعدة الشعب العراقي. كان البرنامج مقرراً أن يدوم لفترة ستة أشهر ولكنّه إستمر فعلياً إلى بداية الحرب الثالثة للخليج ٢٠٠٣ نتيجة للعوز الدائم الذي كان يعانيه المواطن العراقي. قرّرت الأمم المتحدة في كانون الثاني ١٩٩٨ زيادة المبلغ من ٢ إلى ٥,٢ مليار دولار لكل ستة أشهر وتم بالنتيجة تطوير البرنامج فبالإضافة للغذاء أصبح العراق يملك حق إستيراد المكنائ والأدوات اللازمة لمعالجة وتطوير صناعته النفطية المهمة. ساندت روسيا برنامج " النفط مقابل الغذاء " لزيادة إمكانية العراق في تصدير النفط وللمشاركة فيه . وهكذا وجدت موسكو نفسها تشتري النفط من العراق وتبيعه المواد الغذائية والطبية والصناعية في آن واحد. ومع هذا فقد أصر الكرملين على أن لا يكون القرار ٩٨٦ " أكثر من مرحلة مؤقتة

ينتهي مفعوله مع إلغاء العقوبات على العراق " وحافظ على هذا الموقف طوال الفترة الفاصلة بين الحربين. أيّدت موسكو إصدار القرار ٩٨٦ رغم أنّ العراق عارضه خوفاً من إطالة أمد الحصار طالب العراق بأن يتم تعديل النص بحيث يسمح على الأقل لبغداد بمراقبة العمليات التجارية والمالية فيه. ولكن حينما شعرت موسكو " بفقدان الأمل " في تعديل القرار ضغبت بالإشتراك مع فرنسا على بغداد لقبولها بالشكل المعروض وإنتهى الأمر برضوخ صدّام حسين. ووفقاً لدبلوماسي عراقي فقد وافق العراق على تبنيّ القرار ٩٨٦ في شهر أيار من عام ١٩٩٦ " مقابل وعد قطعه فرنسا وروسيا ... بالعمل على الرفع الكامل للعقوبات الإقتصادية " . في عام ١٩٩٦ عينّ الرئيس الروسي بوريس يلتسين، ، يفغيني بريماكوف وزيراً لشؤون خارجية روسيا. إعتبر بعض المحلّين الروس هذا التعيين المتأخّر بأنّه " تقارب ساذج نحو أمريكا...كنموذج لبدايات عهد كوزيريف "، إعتقدت موسكو في البداية بأنّ هذا التعيين " سيمنحها حرّية أكبر في العمل " من خلال القبول بتنازلات مهمة لواشنطن " وقد فشلت هذه السياسة لأنّ الغرب رفض ترك مشاريع توسيع حلف الشمال الأطلسي OTAN ولم تتلقّى روسيا بطاقة بيضاء للدخول إقتصادياً إلى إيران وإلى الإمارات النفطية الغنية. وثمة أمر مهم في التحليل حيث أنه لم يأخذ بنظر الإعتبار البرودة أو قطع العلاقات مع الغرب وإتّما طالب بتبنيّ سياسة خارجية عقلانية مستندة على المصالح القومية الروسية المصيّغة بدقة ووضوح وكان على بريماكوف تحقيق هذا الهدف حين إستلامه لوزارة الشؤون الخارجية.

بعد تعيين بريماكوف تعقّدت العلاقات الأمريكية الروسية تدريجياً فالتوسّع المنتظر في حلف شمال الأطلسي ليشمل دول أوروبا الشرقية وكذلك النشاطات الغربية في دول البلقان أقلقّت روسيا بشكل كبير. موسكو وواشنطن كانتا على خلاف دائمٍ بخصوص حصار العراق ولم تنجح روسيا في تخفيف احتمالية إستخدام القوّة ضدّ صدّام حسين لجبره على التعاون مع مفتّشي الأمم المتحدة. ومع ذلك إستمر الكرملين في تأييد " الطريق نحو إتفاقيه قوية في الخليج (الفارسي - العربي) يعتمد على تنفيذ بغداد للقرارات الصادرة من مجلس أمن الأمم المتحدة " . ومن المناسب أن نلاحظ بأنّ هذا الموقف لم يتغيّر رغم سعادة العراق بتعيين بريماكوف وتجديد ضغطه على روسيا وعلى فرنسا والصين لإلغاء الحصار.

خلال خريف عام ١٩٩٧ أعلنت بغداد بأن واشنطن ولندن قد قرّرتا الإطاحة بالحكومة العراقية وتستخدمان الحصار كما اللجنة الخاصة للأمم المتحدة المكلفة بنزع السلاح العراقي (Unscm) لزعرعتها. إتهمت بغداد اللجنة بالتجسس لحساب الولايات المتحدة الأمريكية وقامت بطرد أعضائها الأمريكيين. قرار صدام حسين أزجج ظاهرياً الروس والفرنسيين في آن واحد ففي تصريح مشترك بين بريماكوف وهيوبر فيدرين، الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية أعلن بأن تقييد حركة عمل اليونسكوم " غير مقبول " وانذرا العراق بالعودة عن قراره وبالرغم من ذلك فقد حذرت موسكو واشنطن بأنها " سوف تتخذ موقفاً سلبياً للغاية تجاه أي لجوء إلى القوة في العراق " .

وتبع ذلك نشاط دبلوماسي محموم تميّز بتكرار الكرملين لمطالبه من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى بتحاشي اللجوء إلى القوة ومطالبة بغداد بإيجاد " حل دبلوماسي " للأزمة " فعاد صدام حسين وألغى قراره. في شباط ١٩٩٨ أعلن كوفي عنان، السكرتير العام للأمم المتحدة بأن لليونسكوم حق إستعادة نشاطها دون أي تدخل من جانب السلطات العراقية ممّا أسعد موسكو - الإتصال الشخصي بين بوريس يلتسين وصدام حسين كان يشكّل " العامل الحاسم والضامن " لنجاح المفاوضات بين كوفي عنان والحكومة العراقية " . ومع هذا لم يدم الإستقرار طويلاً ففي آب ١٩٩٨ رفضت بغداد من جديد التعاون مع مفتشي الأمم المتحدة إذا لم يوافق مجلس الأمن على تقييم ودراسة تطبيق العراق للنصوص الخاصة بنزع السلاح في القرار ٦٧٨، القرار الذي نصّ على إمكانية رفع الحصار ولكن المجلس رفض وفي تشرين الأول أوقفت بغداد التعاون مع اليونسكوم مرّة أخرى .

وبالعودة إلى الوراء يبدو أنّ صدام حسين إعتد على مساندة المؤيدين - روسيا وفرنسا والصين - وإذا كان الأمر كذلك فقد أخطأ صدام حسين التقدير لأن وزارة الخارجية الروسية عبّرت عن " عميق قلقها " أمام القرار العراقي الذي وصفته بأنه " يحمل في جوهره بذور فشل الجهود القادمة لحل المشكلة العراقية " . تبنت باريس وبكين ذات الموقف دون أن يتركوا لصدام حسين أي خيار آخر غير مراجعة موقفه والعودة منه. السلام كان قصيراً جداً ففي كانون الأول من عام ١٩٩٨ إستناداً للإعتراض

الدائمى لبغداد على نشاطات اليونسكوم أطلقت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى سلسلة من الهجمات الجوية على الأهداف العسكرية العراقية وعلى المواقع المشبوهة بإنتاج أسلحة الدمار الشامل. وقد تم، قبل بداية الهجمة، تسفير أعضاء اليونسكوم الذين رفضت بغداد عودتهم. كان رد فعل الكرملين على القصف المركّز للحلفاء عنيفاً ووصفه يلتسين " بخرق ميثاق الأمم المتحدة " وبريماكوف " بالفضيحة " .

مجريات أحداث نهاية عام ١٩٩٨ في العراق سجّلت فشلاً ذريعاً لجهود موسكو على الجبهتين الهادفتين إلى تهدئة الأزمة من خلال إقناع العراق بالعودة عن رفضه التعاون مع اليونسكوم من جهة وإقناع واشنطن ولندن بتجنّب اللجوء إلى القوة ضدّ العراق من جهة ثانية. عبارات الإحتجاج والغضب في البرلمان الذي طالب بمراجعة علاقات روسيا مع حلف شمال الأطلسي أكّدت الشعور بالإحباط في ذات الوقت تجاه واشنطن وتجاه بغداد وبالجمل من عدم قدرة موسكو على تغيير مسار الأحداث. الإقتراح الوحيد الذي كان بإستطاعة الوزير الجديد للشؤون الخارجية، إيغور إيفانوف تقديمه - شغل بريماكوف وظيفته رئيس الحكومة - هو تركيز جهوده حول نهاية الهجمات الجوية ومواصلة البحث عن حل سلمي للأزمة.

إستسلمت بغداد لليأس حينما رأت موسكو ترفض مواجهة قوى التحالف. رغم صمت الموظّفين وسكوت الإعلام الرسمي المرتبط بالنظام. ففي صحيفة بابل كتب محلّل بارز بأن لروسيا وكذلك للصين مصلحة في مساندة العراق وفي رفع العقوبات ومع هذا لم يقرّر أيّ منهما التدخل في الأزمة بفعالية لحساب بغداد. وعلاوة على ذلك هدّدت موسكو العراق وعدّة مرّات " بقبول تنازلات " ... [والتي فعلناها] بعدمشقة كبيرة ولكننا لم نقطف أي ثمرة يمكن ذكرها للجهد الذي بذلناه ؛ في الحقيقة لا ينبغي علينا الإعتماد كثيراً على موقف روسيا " .

وبالمقابل فالأمر كانت تسير بشكل أفضل في الميدان الإقتصادي وكما لاحظنا فقد إستفادت روسيا كثيراً من برنامج المساعدة " النفط مقابل الغذاء " حيث وجّهت بغداد جزءاً كبيراً منها نحو موسكو ففي عام ١٩٩٩ وقّعت روسيا على أكثر من ٤٠٪ من العقود بقيمة ١,٦ مليار دولار. وإجمالاً فإنطلاقاً من عام ١٩٩٦ قدّمت روسيا مواداً وخدمات بمبلغ ٣,٢ مليار دولار للعراق وبالإضافة إلى هذا فقد كان الطرفان

يتفاوضان حول عدّة مشاريع تتجاوز تكاليفها ٦,٥ مليار دولار وأهمّها - المخزون النفطي الهائل لغرب القرنة - الذي قُدِّر إنتاجه بحدود ٧٠٠ مليون طن من النفط سنوياً ويحتاج إلى استثمار ٤ مليارات دولار. و سبب تسامح بغداد كان واضحاً، لأنه نظراً لعزلتها الكلية تقريباً على الساحة العالمية فقد إعتمدت بشكل كبير على المساندة السياسية لموسكو. ورغم عدم إقتناع صدام حسين الكامل بها فقد كان عليه تشجيعها الى يوم رفع الحصار ووصول العراق إلى موقع يتمكّن فيه على تطبيع علاقاته مع العالم الخارجي.

لا يزال الطريق مسدوداً

بينما إستمرت قوَّات التحالف في هجماتها على الأهداف العراقية بقي مجلس أمن الأمم المتحدة في طريق مسدود حول مصير اليونسكوم. في عام ١٩٩٩ تمّ تقديم ثلاثة مشاريع قرارات لمجلس الأمن. إستهدف مشروع القرار الهولندي - الانكليزي تشكيل مجموعة رقابة جديدة وتعليق - وليس رفع - الحصار مقابل تسليم معلومات إضافية حول أسلحة الدمار الشامل. رفضت فرنسا مشروع القرار ووصفته بغير المقبول للعراق وإقترحت رفع الحصار بشرط أن تسمح بغداد بتواجد المفتشين داخل حدودها الأمر الذي ربما سوف يمنع صدام حسين من إعادة بناء ترسانته من أسلحة الدمار الشامل. قدّمت روسيا أيضاً مشروعها الخاص مقترحة تشكيل مجموعة تفتيش جديدة تُرسَل إلى العراق وعند مباشرة بغداد بالتعاون معها سوف يُرفع الحصار. وليس فقط تعليقه - فرفضت الولايات المتحدة مشروعها فرنسا وروسيا لأنها إعتقدت بأنّ تبني أيّ منهما سيتيح للعراق " بالتملص من الرقابة " حينما يستعيد صلاحيته في تصدير القسم الأكبر من نفطه.

رفض محمد سعيد الصحّاف، وزير الشؤون الخارجية الإفتراض الذي يقول بأنّ العراق لم يلبيّ كل إلتزاماته في مسألة نزع السلاح ورفض كذلك مشاريع القرار الثلاثة بحجّة أن أيّ منها لم يُناقش مع العراق وصرّح الصحّاف دون مواربة: " لن تقبل حكومتني، مبدئياً، بأي مشروع قرار مقدّم إلى مجلس الأمن دون مشاورات أولية مع العراق ونحن لا نقبل كذلك بأي مشروع لا يبدأ برفع العقوبات " .

مرّ زمن لا بأس به قبل أن تؤثّر هذه الإعتبارات السياسية على العلاقات الإقتصادية

ففي منتصف عام ١٩٩٩ يبدو أنّ الكرملين كان راضياً بإضافةً إلى الفوائد الإقتصادية المباشرة أعتبر مشاركته في برنامج " النفط مقابل الغذاء " كفرصة " للدخول بسرعة في السوق النفطية العراقية " عندما يُرفع الحصار مباشرة. إعتبرت موسكو نفسها بأنّها قد " ربحت المعركة الأولى للنفط العراقي " لأنّ العراق رفض التعامل مع شركات غربية منافسة وإعتبر روسيا " الأمة المفضّلة في التعاون والتعامل التجاري معها " وقد منحها إمتيازات في القطّاع النفطي وفتح بذلك المجال لتسديد ديون بغداد تجاه موسكو.

ولكن ظهرت مشاكل في الأفق فالتقييدات المفروضة من لجنة العقوبات التي شكّلها مجلس الأمن لمراقبة تجارة العراق الخارجية أزجعت موسكو وبغداد وأصبحت عائقاً أساسياً ولكن العقبة الأخرى هي نفاذ صبر العراق بخصوص رفع الحصار وضغطه المتزايد على الكرملين للتحرك. وعدت موسكو بممارسة الضغط لإزالة العقوبات ولكنّها لم تصل الى نتائج مثمرة. في خريف عام ١٩٩٩ وبينما كان مزاج العراق سيئاً فأتاح المجال لحديث يدور في الأروقة يذكر بأنّه بسبب التباطؤ الدائم في العمل التمهيدي لحقل غرب القرنة النفطي فإذا تجد بغداد نفسها مجبرة على إلغاء العقد مع لوك أويل Lukoil إحدى أضخم الشركات النفطية في روسيا. وبينما كان الرسميون في لوك أويل يحملون حصار الأمم المتحدة مسؤولية التأخّر في أعمال حقل غرب القرنة وحين وصول الخبر الى الكرملين قدر الأخير بأنّ الوضع أصبح خطيراً فأرسل فيكتور كاليزنييه Victor Kaliouznyi وزير الوقود والطاقة إلى بغداد.

أكّد الوزير لمضيفيه بأنّ العراق سيبقى " الشريك الإستراتيجي لروسيا لإنجاز المشاريع النفطية والكيميائية المشتركة " وأضاف بأنّ على موسكو مراجعة موقفها تجاه العقوبات. ومن غير الجائز أن تترك الأمور على حالها ولا تفعل شيئاً في الوقت الذي تخسر روسيا بسبب الحصار ما يبلغ ٩ مليارات دولار وتربح الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى رغماً عن ذلك ١٣ مليار دولار. وبخصوص المشاريع المشتركة أوضح كاليزنييه: " تتحدّد مهمّتنا في منع إزاحة لوك أويل عن السوق العراقية ونعمل كل ما يستوجب من أجل أن تبقى المواقع الروسية في العراق قوية. " وكوسيلة لتأمين النجاح يجب دفع الشركات النفطية الروسية إلى " العمل في العراق رغم عدم رفع عقوبات

الأمم المتحدة فيه . من الصعوبة ترجمة تصريحات كاليوزنييه بغير دعوته إلى خرق الحصار بشكل فردي وكما كان متوقّعا لم يكن في نيّة الكرملين مطلقاً تحديّ واشنطن على هذه الجبهة.

في كانون الأوّل ١٩٩٩ وبعد أشهر من المناقشات المضنية وتحركات ما وراء الكواليس تبنيّ مجلس الأمن نسخة معدّلة من المشروع الهولندي - الانكليزي فإمتنعت روسيا وفرنسا والصين عن التصويت. القرار رقم ١٢٨٤ نصّ على تعليق - وليس رفع - العقوبات على المواد المدنية المستوردة وكذلك على كمّية النفط التي يتمكّن العراق تصديرها - لاغياً بهذه المناسبة برنامج " النفط مقابل الغذاء " - بشرط أن يتعاون العراق كلياً مع لجنة جديدة لنزع السلاح التي يتم تشكيلها برعاية مجلس الأمن وتحمل تسمية يونموفيك (United Nations Monitoring, Verification and inspection canmission)

رفض العراق هذا القرار الجديد بحجّة أنّه " لا يرد على الطلب الشرعي لرفع العقوبات عن العراق ". لم يستجب القرار كذلك على رغبة بغداد في إلغاء منطقة " الحظر الجوي " وفي وضع حد لغارات التحالف الجوية. ومن المؤكّد فشلت الزيارة التي قام بها طارق عزيز إلى موسكو في شهر تشرين الثاني ومطالباً الروس بمعارضة القرار عبر استخدام الفيتو Veto.

أنّ أحد أسباب الرفض العراقي الدائم في التعاون مع مجلس الأمن هو قابليته في خدع العقوبات. في الواقع، حينما سمحوا لبغداد في عام ٢٠٠٠ تصدير النفط بقيمة ١٠ مليارات دولار سنوياً تمكّن العراقيون، رغم الرقابة الشديدة للأمم المتحدة، من تحويل بعض هذه الأموال لكي يستخدمها النظام وفضلاً عن ذلك فقد قامت بغداد بتهرب النفط على نطاق واسع - اسطول ناقلات للبترول بعضها روسية يحمل النفط إلى السوق العالمية عبر المياه الاقليمية الإيرانية في الخليج ممّا خلق شائعات بأنّ صدام حسين يشتري الآلات والتجهيزات العسكرية الروسية الآتية مباشرة من موسكو والحلقات المرتبطة بها.

أعلنت موسكو عن تحفظها الشديد تجاه القرار ١٢٨٤ ولكنّها قرّرت عدم استخدام الفيتو ضدّه لكي تحافظ على درجة من الوحدة داخل مجلس الأمن وأكدت من جديد

تأييدها " للدور الأساسي الذي يلعبه المجلس..في حل المشاكل الكبيرة سياسياً ومن ضمنها مشكلة العراق ". لهذا المعنى حاولت موسكو إقناع بغداد بقبول القرار ١٢٨٤ وفي بداية عام ٢٠٠٠ بعثت روسيا نيكولا كارتوزوف، الدبلوماسي الروسي الرفيع، إلى بغداد للضغط على صدام حسين كي يوافق على القرار ولكن الزيارة فشلت لأن طارق عزيز ونائب الرئيس طه ياسين رمضان أعلنوا للمبعوث الروسي بأنهم لا يسمحون بعودة مفتشي الأمم المتحدة إلى العراق.

عهد بوتين - آذار ٢٠٠٠

إستمرت العلاقات بين بغداد وموسكو على نفس المنوال بعد إنتخاب فلاديمير بوتين رئيساً للفيدرالية الروسية ففي الوقت الذي دافعت روسيا عن موافقها عاد طارق عزيز إلى موسكو في صيف عام ٢٠٠٠ وأخبروه بأنّ إدارة بوتين تتمنّى رفع الحصار بأسرع وقت ممكن ولكن بشرط إعطاء اليونموفيك ورقة بيضاء لممارسة عملها. وطالبت موسكو أيضاً وفقاً فورياً لغارات التحالف الجوية - عمليات غير مشروعة وفقاً للقانون الدولي - وبدعم التدخّل في الشؤون الداخلية العراقية: إستند هذا العنصر الجديد في سياسة الكرملين على الجهود الأمريكية تجاه المغتربين العراقيين بهدف زعزعة نظام صدام حسين. في الوقت الذي إعتمدت موسكو وجهة النظر هذه فقد بقيت بغداد على موقفها السابق حيث أعلن الصحاف، وزير الشؤون الخارجية بأنّ القرار ١٢٨٤ " خدعة مقصودة " وهدفه ليس أقل من إستمرار الحصار. مهما يكن فقد توطدت العلاقات بين روسيا والعراق حيث وصل بغداد إيفانوف، وزير الشؤون الخارجية، في نهاية عام ٢٠٠٠ وعاد طارق عزيز من جديد إلى موسكو ولكن يظهر بأنّه لم يتحقّق شيء ملموس وإستناداً الى المصادر الروسية كانت المناقشات " صعبة " وتم إلغاء المؤتمر الصحفي لطارق عزيز في آخر لحظة بلا تفسيرات.

في نهاية ٢٠٠٠ نتيجة لموقف موسكو قرّرت بغداد لعب أوراقها الإقتصادية فعلقت تنفيذ عقد بيع النفط إلى لوك أويل الموقع في إطار برنامج " النفط مقابل الغذاء ". إتّهم عامر محمّد رشيد بمرارة هذه الشركة بخرق إتفاقيّة عام ١٩٩٧ - لم تعمل الشركة " أيّ شيء فعلياً " لتطوير حقل غرب القرنة - ورفض تبرير حصار الأمم المتحدة الذي يحرم عليها إستيراد الأجهزة الثقيلة المطلوبة إلى العراق. ردّت لوك أويل بأنّ ليس لديها

نية في ترك العراق وبقية الأمور على حالها لمدة سنتين إلى أن تحدت بغداد عن الموضوع من جديد.

" الصفقة الشاملة " و " العقوبات الذكية "

تواصلت التحركات الدبلوماسية فأطلقت موسكو فكرة جديدة في شهر آذار من عام ٢٠٠١ حيث نص مشروع الصفقة الشاملة على " التعليق المتدرج والرفع (المحتمل) للعقوبات...مقابل تأسيس نظام رقابة دولية في العراق. وفي حالة عدم وجود برهان يؤكد بأن العراق يبذل جهوداً لتطوير أسلحة دمار شامل بعد مرور فترة زمنية محددة سيقوم مجلس الأمن برفع العقوبات " .

رفضت بغداد مشروع الصفقة الشاملة وكذلك مقترح " العقوبات الذكية " الأمريكي - البريطاني الذي كان ينص على رفع القيود حول مستوردات المواد المدنية وعلى تشديد الرقابة على المستوردات ذات " الإستخدام المزدوج " يُحتمل الإستفادة منها للأغراض المدنية أو العسكرية في أن واحد. وقد كان هدف هذا الإقتراح بشكل خاص هو إيقاف التهريب غير المشروع للنفط العراقي والضغط على جيران العراق وبالأخص على تركيا وإيران وسوريا كي تفرض قيوداً صارمة على مستوردات النفط. عبّر الكرملين عن تحفظه تجاه مشروع التحالف - لم تُوقع أي إتفاقية حول قائمة المنتجات " المراقبة " التي تحددها لجنة العقوبات لوحدها. (يجب أن نذكر بأن هذه الممارسات كانت تخلق مشاكل كبيرة لموسكو) . فضلاً عن ذلك فالعقوبات الذكية كانت تعني " تقليص التبادل التجاري بدرجة كبيرة [من روسيا] إلى العراق وبالنتيجة إستنتجت موسكو بأن تبني المشروع الأمريكي - البريطاني سوف يجعل " عمل الشركات الروسية في العراق... بلا قيمة " وهدد بإستخدام الفيتو فيما إذا طرح المشروع أمام مجلس الأمن. إرتاحت بغداد وصرح عامر محمد رشيد بمرارة بأن للعراق " نية في تقديم الشكر إلى روسيا لأنها...أفشلت المشروع الأمريكي - البريطاني حول العقوبات الذكية وسوف نعطيها الأفضلية حين توقيع العقود النفطية " وأضاف وزير التجارة، محمد مهدي صالح بأن بغداد سوف تعاود مشترياتها العسكرية من روسيا.

وقد كان مستغرباً أن يحتوي القرار الصادر من مجلس الأمن في تشرين الثاني ٢٠٠١ المتعلق بتمديد برنامج " النفط مقابل الغذاء " على نص حول دخول العقوبات

الذكية في أيار ٢٠٠٢ حيز التنفيذ وأن تصويت موسكو لصالح هذا القرار سجل تغييراً هاماً في موقفها ويعود ذلك إلى سببين رئيسيين.

أولهما الضغط الشديد من قبل واشنطن حيث إقترحت الولايات المتحدة قبل شهر تشرين الثاني على روسيا مزايا مادية فيما إذا غيرت رأيها ومن ضمن هذه المزايا قبولها في منظمة التجارة الدولية وكذلك قيام نادي باريس بإعادة جدول ديون روسيا تجاه دائئيتها الغربيين. ومرت أحداث أخرى في ربيع عام ٢٠٠٢ حيث إتفقت موسكو وواشنطن على " قائمة بالمواد التي يمكن تصديرها إلى العراق وفق النظام الجديد للعقوبات " وقد تضمنت عدة مواد منعتها لجنة العقوبات سابقاً وبعد مرور أيام «وافقت اللجنة على عقود هائلة وقعتها روسيا مع العراق بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار ضمن برنامج " النفط مقابل الغذاء "». وبعد ذلك بفترة قصيرة تم التوقيع على عقود جديدة بمبلغ ٥٥٠ مليون دولار كما حصلت موسكو من واشنطن على إتفاقية «بشأن تسوية مجمل مسألة العقوبات العراقية، وبضمنها توضيح عملية تعليق العقوبات». لم يخرج شي من هذه المبادرة إلى العلن.

والسبب الثاني هو ممارسة الشركات النفطية الروسية العاملة في العراق الضغط أيضاً على الكرملين وعلى رأسها لوك أويل التي كانت تتباهى بعلاقاتها الطويلة وتجربتها الكبيرة في بغداد ويعقودها الهائلة مع الحكومة العراقية ولكن في ربيع عام ٢٠٠٢ إقتنعت الشركات الروسية أيضاً بأن مستقبلها في العراق لم يعد مضموناً حيث من جهة لا تستطيع العودة إلى أعمالها في العراق طالما بقي الحصار ومن الجهة الثانية إشتدت عداوة واشنطن لصدّام حسين وإزدادت الحملة ضدّه بحيث لم يعد هناك مجال لتحاشي الحرب. على أية حال، حلّت الشركات الروسية بأنّها سوف تخسر وفي حالة إزاحة صدّام حسين فسوف تسيطر الشركات الأوروبية على إنتاج النفط العراقي ولكن في نهاية الأمر بسبب الضغط الأمريكي الداخلي أضطر الكرملين إلى تغيير موقفه من روسيا بخصوص العقوبات.

في بداية عام ٢٠٠٢ أحسّ العراق بخطورة الموقف فإلتزم بإحترام سيادة الكويت وحاول إقناع موسكو بإستخدام الفيتو ضدّ العقوبات الذكية وفي كانون الثاني عاد طارق عزيز مجدداً إلى موسكو فوعده ببذل الجهود المستمرة من أجل الوصول إلى

المتحدة وبريطانيا العظمى بعدم مهاجمة العراق. في تشرين الأول أعلن مسؤولون في شركات النفط الروسية بعقد إتفاق: موسكو «قد حصلت على ضمانات أمريكية بأنها لن تخسر مصالحها القيّمة في الحقول النفطية العراقية» وإزادات ثقتهم حينما أعلن الرئيس بوش في مقابلة للتلفزيون الروسي: «نحن نفهم بأن للروس مصالح... [في العراق] ودول أخرى و سوف يتم بالطبع أخذ هذا الأمر بنظر الإعتبار.»

ومع ذلك إتّضح بسرعة بأنّ تفاؤل الكرملين لم يكن في محله ففيما يتعلّق بالعقود السوفياتية - العراقية نفى المسؤولون الأمريكيون «بشدة» وجود «إتفاق خاص» بين موسكو وواشنطن وبالإضافة الى ذلك خاف الكرملين بأنّ رفع الحصار والعودة الكاملة لإنتاج النفط العراقي سوف يؤدي إلى هبوط سعر البترول وفي هذا الميدان أيضاً إقتنعت موسكو بإتفاقها مع واشنطن بالرغم من أن مسؤولاً رفيعاً في المستوى في وزارة الخارجية ذكر «إتفاق يستند على كلام شفهي»؛ وأنّ رسميون أمريكيون لا يحبذو الإفصاح عن هويتهم صرحوا بأنّ واشنطن لم تكن قادرة على ممارسة هكذا تأثير على السوق العالمية للنفط. وبالعودة إلى الوراء يتّضح بأنّ جهود روسيا للحصول على ضمان مؤكّد من واشنطن للمحافظة على مصالحها الإقتصادية ذهبت هباءً وأخطأت الهدف.

كان ردّ العراق على هذه الحقائق الجديدة هو إلغاء عقد غرب القرنة مع لوك أويل وقد أوضح وزير النفط عامر محمد رشيد بأنّه وفقاً لإتفاقية عام ١٩٩٧ تمّ تحديد ثلاث سنوات لشركاء لوك أويل ببدء العمل في هذا المشروع ولكنهم لم يفعلوا شيئاً ولذا لم يبقى أمام بغداد خيار آخر غير إتخاذ الإجراءات اللّزمة. ردّت موسكو بحذر على الخبر وعبرت عن «قلقها» وأشارت إلى أنّ لوك أويل لم تستطع أن المباشرة بغير العمل التمهيدي لكي لا تخرق العقوبات وإقترحت مفاوضات لتسوية المشكلة. مرّت أيام فطالبت بغداد - بعد إتخاذ قرارها - من موسكو بتحويل عقد القرنة الغربية من لوك أويل إلى شركة روسية أخرى ولكن لم يتم إتخاذ أي إجراء قبل بدء الحرب.

(.....)

فبينما بدأت عملية «حرية العراق» كانت روسيا وفقاً لمعطيات وزارة التجارة والتنمية الإقتصادية تتمتع بموقع تفضيلي في الإقتصاد العراقي. فالمبادلات التجارية ضمن

حل سلمي للآزمة وليس أكثر من ذلك. وحينما علمت بغداد بالمفاوضات الدائرة بين واشنطن وموسكو حول قائمة المواد التي يتم وضعها تحت تصرف العراق إنفجر طه ياسين رمضان غاضباً: " لقد حان وقت رفع العقوبات...كبدل للتفاوض حول القوائم الجديدة. وهذه القائمة إذا تمّت الموافقة عليها فسوف يكون رجال الأعمال الروس أوّل الخاسرين." وتبعه موظفون رسميون آخرون في إستخدام لعبة " العصي " و " الجزرة " وفي الوقت ذاته حذّر طارق عزيز مجموعة من نوّاب البرلمان ورجال الأعمال الروس بقليل من الدبلوماسية بأنّ على موسكو «مساندة العراق كلياً في مجلس الأمن وإلاّ فسوف تجازف بعقودها» وأطلق محمّد مهدي صالح تصريحاً يقول بأنّ التبادل التجاري بين البلدين يمكن أن يصل إلى المبلغ الخيالي ٤٠ مليون دولار بشرط أن «يجري ذلك خارج إطار برنامج الأمم المتحدة " النفط مقابل الغذاء "».

في ١٤ أيار تبنّى مجلس الأمن بالإجماع القرار المرقّم ١٤٠٩ بتمديد فترة برنامج " النفط مقابل الغذاء " ولكن بعد تعديله بإضافة قائمة مواد محظورة " ذات إستخدام مزدوج " قائمة طولها ٣٣٢ صفحة لا يحق للعراق إستيرادها ولكن تم إستثناء مكائن وأصناف مختلفة من الآلات تنوي روسيا تصديرها إلى العراق من القائمة. وهو يشرح تصويت موسكو (وصف) سيرج لافروف سفير روسيا في الأمم المتحدة ووزير الشؤون الخارجية لاحقاً، القرار ١٤٠٩ بـ «مرحلة إيجابية» سيجعل برنامج المساعدة الإنسانية «أكثر فعالية» ولكنّه أشار أيضاً بأنّه قد حان الوقت لمراجعة «جميع مشاكل العقوبات العراقية» وهو يلمح إلى واحد من نصوص الإتفاقية الأمريكية - الروسية المذكورة أعلاه. لم يقنع تبرير لافروف بغداد فقد صرّح سفير العراق في الأمم المتحدة مزهر الدوري بأنّ هذا القرار الجديد «لا يحل ولا يساعد في حل المشكلة العراقية بمجملها طالما أنه لم يرفع الحصار».

موسكو - واشنطن

مهما يكن فالقلق هو الذي كان سائداً بالنسبة للمصالح النفطية الروسية في العراق وكذلك بالنسبة لمشاكل الديون العراقية وسعر النفط ممّا دفع موسكو بالبحث عن ضمانات لدى واشنطن وقد تسارعت العملية في خريف عام ٢٠٠٢ في الفترة ذاتها حينما عملت روسيا بالتعاون مع فرنسا والصين كل ما في قدرتها لإقناع الولايات

برنامج «النفط مقابل الغذاء» كانت تصعد بشكل مستمر من ٨٩,٩ مليون دولار في عام ٢٠٠٠ إلى ٢٥٢,٣ في عام ٢٠٠٢ وقد شكّلت المكائن والأجهزة ٨٠٪ من الصادرات الروسية وأهم من ذلك فقد استطاعت الشركات الروسية من شراء ١٢٤ مليون برميل من النفط أي ما يعادل ٤٠٪ من صادرات العراق النفطية بقيمة ٢,٨ مليار دولار.

حجم التبادل التجاري بين روسيا والعراق خلال مرحلة «النفط مقابل الغذاء» والعقوبات والفوائد الحقيقية الناجمة عنها تدفع بعضهم إلى التساؤل: هل أن الكرملين بذلت فعلاً جهوداً حقيقية لإلغاء الحصار؟ إذا عدنا إلى الوراء سيكون الجواب إيجابياً ولكن الهدف الأول لروسيا كان إبقاء صدام حسين على السلطة - الموضوع الرئيسي للنقاش في هذا الفصل - وأعتبر رفع الحصار الوسيلة الرئيسية لتحقيق هذا الهدف الذي سوف سيساعد صدام حسين في تثبيت سلطته. ولكن روسيا كانت تخشى من تدفق النفط العراقي المتزايد في السوق العالمية مما يخفّض من سعر البترول والذي بدوره سوف يؤدي الى انخفاض سرعة النمو الإقتصادي في روسيا. هذه النقطة كانت مهمة ولكن إقتنع الكرملين بأنه مهما كانت تمثياته فالقرار النهائي يعود إلى واشنطن وليس إلى موسكو أو غيرها. فرغم إمتلاكه لحق استخدام الفيتو كانت روسيا تحت رحمة الأحداث التي لا تستطيع السيطرة عليها.

روسيا واللجوء إلى القوة

بدأت موسكو تقلق من الإرادة الواضحة للرئيس بوش في تنحية صدام حسين منذ خريف ٢٠٠١ وحذرت بأن «اللجوء إلى القوة ضد العراق ضمن إطار العمليات ضد الإرهاب سيكون سيئاً وخطيراً». وصرّح أليكساندر سلطانوف وكيل وزير الشؤون الخارجية بأنه لا يوجد دليل يسمح بربط بغداد بأحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ وبأن الأزمة العراقية لا يمكن حلها عسكرياً. وحذرت «بأن الإعتداء المجاني على العراق سيخلق نتائج وخيمة في الشرق الأوسط بشكل عام». وإعتمدت موسكو هذا الرأي أثناء المرحلة الدبلوماسية للأزمة (٢٠٠٢ - ٢٠٠٣) وكانت تضغط على بغداد باستمرار للبحث عن حل مع الأمم المتحدة. وفي مجلس الأمن التقت موسكو في وقت مبكر مع فرنسا والصين لمقاومة حملة واشنطن وسعيها لإصدار قرار جديد يفرض على العراق جملة

من الشروط الصارمة والمباشرة - غير مقبولة لبغداد على الإطلاق - فيما إذا أراد تحاشي مواجهة غزو للتحالف. أعلن سلطانوف بأنه ليس «بنّاءاً أبداً أن يوجه انذار نهائي إلى بغداد دون أن يكون لدى مجلس الأمن تقرير كامل وموضوعي» حول إمتلاكه المزعوم لأسلحة الدمار الشامل. كان ضرورياً بالأحرى «تأمين التفتيش والرقابة على نطاق مجلس أمن الأمم المتحدة» وأضاف سلطانوف بأن الهجوم على العراق سيدمر «المباديء الأساسية للقانون الدولي» وإذا حدث ذلك فسوف يؤثر سلبياً على مصالح روسيا.

في شهر تشرين الثاني من عام ٢٠٠٢ تبنى مجلس الأمن القرار ١٤٤١ بالإجماع حيث أنه لم يسمح باللجوء إلى القوة ولكنّه ضغط على بغداد بضرورة الإنصياع لمطالب المجلس والقبول بالتعاون الفوري مع الإنموفيك وفي حالة رفضه فعليه تحمّل تبعات، يعني نتائج الحرب. وبعد مرور خمسة أيام تبنى مجلس قيادة الثورة القرار رسمياً وردد بأنه لم يعد لديه أي سلاح للدمار الشامل وفي كانون الأول وصل فريق الإنموفيك إلى بغداد ووجد نفسه يتلقّى تقريراً يتكوّن من ١٢٠٠٠ صفحة حول أسلحة الدمار الشامل والمواد ذات الاستخدام المزدوج، «مجيئاً، بشكل فعلي، لمطالب القرار ١٤٤١». ولكن كل هذا لم يقنع واشنطن التي «أعلنت بأن العراق خرق مادياً القرار ١٤٤١».

في ١٠ آذار ٢٠٠٣ مرّرت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى مشروع قرار يحدّد يوم ١٧ آذار كتاريخ نهائي للقبول بالنزع الكامل للسلاح وبيح اللجوء إلى القوة في حالة عدم إنصياعه. قدّم هذا المشروع رغم التحذير المسبق لوزير الشؤون الخارجية، إيفانوف، صرح بأن موسكو سوف تستخدم الفيتو لإفشال أي مشروع قرار «يفتح طريق الحل العسكري مباشرة أو عن طريق غير مباشر» للمشكلة العراقية. لم يطل إنتظار الرد الأمريكي حينما نبّه السفير الأمريكي أليكساندر فيرشبوجي الكرملين بلا بروتوكولات بأن «المعارضة الدائمة لمشروع إصدار هذا القرار حول العراق يمكن أن يؤثر سلبياً على العلاقات الثنائية» وأصرّ على حقيقة بأن واشنطن سوف تتسامح مع عدم التصويت ولكن ليس مع الفيتو وعدّ فيرشبوجي «الإستثمارات والتعاون الأمني والتعاون في مجال بناء وسائل دفاعية ضد الصواريخ والتعاون ضد الإرهاب العالمي

وفي مجالات أخرى يمكن أن تؤثر على معارضة روسيا للقرار المقترح». فرد جيورجي مامدوف، نائب وزير الشؤون الخارجية بأن الإلحاح الأمريكي يمكن أن يفشل تصديق البرلمان الروسي في أيار ٢٠٠٢ لمعاهدة تقليص الأسلحة الاستراتيجية الهجومية وقدر نائب آخر للشؤون الخارجية، لوري فيديتوف، بأنه «غير مقبول» كل قرار «يحتوى على إنذار أو يفتح سبيل اللجوء إلى القوة العسكرية ضد العراق بشكل منظم» وأضاف بأن روسيا باقية على معارضتها لـ «تغيير النظام» في العراق لأن ذلك «سوف يخلق سابقة خطيرة للغاية».

بعد مرور اسبوع على هذه المناقشات وجّهت الولايات المتحدة إنذاراً إلى صدام حسين تعطيه مهلة ٧٢ ساعة للإستقالة وترك العراق. أكد «مصدر دبلوماسي» في موسكو بوداعة بأن «هكذا طلب وكذلك التهديد بإطاحة الحكومة الشرعية لدولة ذات سيادة عن طريق اللجوء إلى القوة العسكرية غير مبرر إطلاقاً» لأن ذلك «يسير بعكس إتجاه ميثاق الأمم المتحدة وبعكس المقاييس الشرعية الدولية» لم يذعن صدام حسين للإنذار فهاجمته قوات التحالف.

تقييم

خلال الشهور التي سبقت الهجوم وبينما الغيوم الداكنة تتجمع في الأفق العراقي يمكن تلخيص الموقف الروسي حول الأزمة كما يلي:

أ- فيما يتعلّق بالوضع في العراق أعلن بوتين بأنه يجب على بغداد في كل الأحوال «أن تقول الحقيقة حول برنامج أسلحته». ومع ذلك فرغم تأييده بأنه على بغداد أن تتعاون كلياً مع الأنموفيك ورغم تأكيده بأن روسيا «تمارس ضغطاً مستمراً» على صدام حسين من أجل تسهيل عمل المفتشين فقد بقي بوتين معارضاً لمسألة اللجوء إلى القوة لضمان إحترام العراق لمطالب الأمم المتحدة.

ب- معارضة اللجوء إلى القوة كانت مبررة بالشكل التالي: موسكو «لا تجد سبباً لإستخدام القوة العسكرية». فقد أشار بوتين بأن ضرب الولايات المتحدة إنفرادياً سوف يهدد بتقسيم مجلس أمن الأمم المتحدة وبتدمير «التحالف ضد الإرهاب» وهناك أيضاً خطورة في تفتيت العراق وظهور «تعقيدات» جديدة في الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني وظهور «راديكالية في العالم الإسلامي». لكل هذه الأسباب

عبر الرسيون الروس عن تفضيلهم للحل السياسي للأزمة.

ت- وكذلك أكد إيفانوف، وزير الشؤون الخارجية بأن «أي حملة عسكرية في العراق تتناقض مع المصالح القومية لروسيا» وبالنتيجة لا ينبغي على موسكو بأي حال من الأحوال الإلتحاق بالتحالف العسكري ضد بغداد وأضاف وزير الدفاع، سيرجيه إيفانوف الذي شكك بإمتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل ولكن أصرّ على إقتناع الأنموفيك من ذلك - كما كان رأي بوتين - بأن أي عمل عسكري ضد العراق لا يمكن الشروع فيه «بدون تأييد الأمم المتحدة» وإذا لم يحصل ذلك فأى هجمة يمكن إعتبارها غير مشروعاً وغير مبرراً».

ث- وأخيراً حينما تمّ قول وفعل كل شيء أعلن بوتين بوضوح في شهر كانون الأول ٢٠٠٢: «لا تسمح موسكو بظهور خلافات معينة حول العراق بحيث يمكن أن تؤثر على تطورات العلاقات الروسية - الأمريكية. وإستناداً لبعض المحللين فالأولوية المركزية للعلاقات الروسية - الأمريكية في سياسة موسكو الخارجية هي التي دفعت الكرملين إلى مساندة القرار ١٤٤١ وعندما صوتت روسيا بالإيجاب فقد حاولت موسكو الحصول على ضمان بأن أهمية مجلس الأمن سوف تبقى وبأن واشنطن لا تتصرف بشكل إنفرادي وبأن يقوم مجلس الأمن - بصورة أو بأخرى - بالحد من حرية عمل الأمريكان. وبالنتيجة فمعارضة المبادرة الأمريكية في هكذا حالة خاصة - ما كان يتمناه صدام حسين من بوتين - لم تكن في خدمة المصالح الروسية فإستعمال الفيتو ربّما كان يشجّع الأمريكان على التصرف خارج إطار الأمم المتحدة. ولكن أساس المشكلة بالنسبة للروس هو عدم وضع علاقات موسكو مع واشنطن في خطر بأي حال من الأحوال لأجل فقط إنقاذ صدام حسين.

إستنتاج

أعلن محللون لم يودوا الإعلان عن هويتهم في تلك الفترة بأن روسيا «كانت تلعب لعبة متوازنة ودقيقة في شأن العراق، حيث تساند من جهة معسكر معارضي الحرب الذي تقوده فرنسا وألمانيا وتجهد في نفس الوقت بأن لا تعارض الولايات المتحدة بصورة قطعية».

وفيما يخص إرادة بوتين بالحفاظ على علاقات متينة مع واشنطن بعيداً عن كل

نفس الوقت كان بوتين يُطمئن بوش بخصوص العراق ويؤكد له بأنه لا ينبغي على العلاقات الثنائية أن تتأثر سلبياً بسببه وقد كان بوتين وفيّاً لعهدِه فلم يحرك ساكناً حينما إنطلقت الحرب.

إذا اعتبرنا عملية عاصفة الصحراء فشلاً جدياً لسياسة موسكو الخارجية في تلك الفترة فيمكن اعتبار عملية حرية العراق كمهزلة تامة لها. ففي عام ١٩٩٠-١٩٩١ التزم غورباتشوف بالمساعدة في إنهاء غزو الكويت من قبل العراق ولكنه اضطر إلى أن يعمل كل ما بوسعه لمنع إزاحة صدام حسين من قبل التحالف ولأن حسين خرج حياً من المعركة فيمكن وصف السياسة السوفياتية بأنها كانت ناجحة جزئياً بعكس أزمة ٢٠٠٣ فمثلما جرى سابقاً حاول قادة الكرملين في الحرب الأخيرة منع اللجوء إلى القوة ولكنهم فشلوا للمرة الثانية. وإذا أبقت عاصفة الصحراء «زبونهُ» السابق على السلطة فعملية حرية العراق أدت إلى نهاية نظام صدام حسين ممّا هشّم «العلاقات الخاصة» التي كانت تربط موسكو بالعراق وسقوط النظام وضع حداً للعلاقات التجارية بين البلدين _ وبضمنها بيع الأسلحة _ ووضع حداً للعقود المربحة ولمشاركتها المستقبلية في تطوير الصناعة النفطية العراقية.

ومن جديد تجاوزت مجريات الأمور السياسة فثمة أحداث سلبية _ بوجهة نظر موسكو _ أدت إلى نتائج إيجابية بحيث يمكننا القول بأن سيناريو الحياة قدّمت للروس الليمون فصنعوا منه الحامض حيث فقدوا من جهة شريكاً تجارياً ثميناً ومن الجهة الثانية فالزيادة الهائلة في سعر النفط الناتجة من مشاكل الأزمة العراقية والتوقف في إنتاج النفط العراقي المواكب لها خلقت أرباحاً إستثنائية للصناعة النفطية الروسية. وهكذا تسابقت روسيا في اللحاق بدول نادي باريس الثمانية عشر في شهر تشرين الثاني من عام ٢٠٠٤. وقبلت بمحو ٨٠٪ من ديونها على العراق. أن أرباح روسيا النفطية الحالية وفي المستقبل المنظور بلغت حجماً لم تتوقعه وحتى قبل سنة من تاريخ تغيير النظام. سهلت مشاركتها في الإتفاقية بلا مساومة لمبلغ الديون فقرار المشاركة مع الدول الدائنة الأخرى وقبولها بنسبة الإعفاء من الديون _ وخاصة في ضوء غياب الأمل بتسديد الدين في وقت قريب _ عزّز من مكانة روسيا بين «القوى الدولية الكبرى» وهذا ما كان يتمناه بوتين فوق كل شيء.

الإعتبرات وحتى عن إعتبرات تخص مستقبل العراق - فالخبراء والمحللون أصابوا في رأيهم. فيلتسين وبالأخص فلاديمير بوتين أدركا بأن التوسع الإقتصادي لروسيا - الأولوية رقم واحد للكرملين - تعتمد بالدرجة الأولى على علاقات موسكو مع الغرب. فهؤلاء لوحدهم كانوا قادرين على جلب الأموال الأجنبية لإنقاذ الإقتصاد الروسي المنهار وكذلك توفير الأسواق لصرف موادهم الأولية وفولادهم. أي بإختصار الإندماج في الإقتصاد العالمي لم يكن بلوغه سهلاً دون تعاون ومساندة الدول الغربية الصناعية. وفي ذات الوقت إقتنع الكرملين تماماً فقداه لموقع القوة العظمى لأن بروز الولايات المتحدة كأقوى دولة عسكرية في العالم قلل من وزنه العسكري القديم الى درجة أنه لم يعد يتمكن كالسابق عن الدفاع عن مصالحه الإقتصادية والسياسية. ففي الواقع تقلصت كفاءة موسكو في تحديه لمنافسته القديمة بشكل كبير إنطلاقاً من أعوام التسعينيات مثلما دلت على ذلك أحداث يوغوسلافيا السابقة وتوسع حلف شمال الأطلسي وكذلك أزمة العراق. واعياً بمعادلة «ميزان القوى» ما بعد العهد السوفياتي فقد كان بوتين يبحث عن إنفتاح مناسب لتحسين علاقاته مع الولايات المتحدة ؛ وتلك الفرصة قدّمت إلى الكرملين بمناسبة أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ فإنتهزها بوتين مباشرة ليؤكد تعاضد روسيا مع الولايات المتحدة والتحق بالرئيس بوش في «حربه ضد الإرهاب» رغم أن ذلك لم يكن يعني زوال الخلافات الموجودة بينهم أو أنه ينبغي الإتفاق على كل شيء في علاقاتهما الثنائية وبهذا الخصوص - يمثل العراق نموذجاً واضحاً للخلاف على الرأي ولكن الأمر الأساسي هو عدم مشاركة موسكو لقرارات واشنطن المتخذة حول قضايا وأوضاع ذات أهمية قصوى.

ولكن فيما يتعلّق بالتأكيد الذي يقول بأنه في نهاية الحرب كان الكرملين «يمارس سياسة متوازنة بدقة بخصوص العراق» فلا بد من تقديم الإثباتات على ذلك. بل العكس هو الصحيح فمطالب وحجج موسكو كانت متناقضة وتشير إلى الغموض والتردد فروسيا أيدت بأنه ليس للعراق أي حق في إمتلاك أسلحة الدمار الشامل وعليه بالنتيجة الإمتثال والبحث عنها وتدميرها. ظهرت المشكلة حينما رفض العراق التعاون بشكل كامل مع مفتشي الأمم المتحدة وعندما أصرت لندن وواشنطن على مسألة اللجوء إلى القوة ردّت موسكو بأن الحرب تسير بعكس إتجاه المصالح القومية لروسيا ولكن بما أنه أستوجب الحصول على تأييد مجلس الأمن فما كان على موسكو أن تعارض وفي

لماذا إختار العرب صدام حسين! وهل حقاً إختاروه؟

أنطوان صفيير

رئيس تحرير مجلة (دفاتر الشرق Cahiers de L'Orient)

ومؤلف: المعجم العالمي للأحزاب الإسلامية Dictionnaire

Paris, Plon 2002 mondial de L'islamisme, و

(شبكات الخالق Les reseaux d'Allah, paris, plon 2001)

من بين الدول العربية التي تعيش في حالة مأساوية منذ أكثر من ثلاثين عاماً كان العراق يظهر كعمود ثابت وكمرکز بعيد عن الخلافات العربية-العربية ويُعتبر نموذجاً للدولة التي تتقدم إلى الأمام.

العراق والصحراء العربية

نعم، إعادة توزيع مردودات البركة النفطية كانت واقعاً وخاصةً في الميدان التربوي حيث إرتفعت نسبة المتعلمين مقارنة مع النسبة الموجودة في الدول العربية المجاورة وهكذا الحال مع عدد المهندسين والأطباء .

وكان الأمر كذلك في مجال الصحة فرغم الكارثة الإنسانية التي ولّدها الحصار كانت الأرقام تشير إلى واقع أفضل بكثير من الدول العربية الأخرى المجاورة ففي عام ١٩٩٧ مثلاً ٨٥ ٪ من المواطنين العراقيين كانوا يحصلون على الأدوية الأساسية وفي عام ٢٠٠٠ كان يصل ماء الشرب إلى ٨٥ ٪ من العراقيين والخدمات الصحية إلى ٧٩ ٪ منهم.

وعلى الصعيد الإقتصادي كان العراق يظهر كأول دولة عربية تسعى إلى تنويع إقتصادها ذات القطّاع الواحد فإذا كان النفط هو المورد الطاغي بالنسبة للعراق فقطّاعه الصناعي كان في أوج التوسّع وخاصةً في ميدان البناء وأماً في مجال القطّاع الوسطي الذي يشكّل ثلثي النشاط الإقتصادي فقد كان العراق بمستوى أي بلد غربي. كل هذا كان يترك إنطباعاً بأنّ روابط النسيج الإجتماعي كانت مصانة داخل المجتمع العراقي.

خرج نظام صدام حسين على شفا هاوية من حرب عام ١٩٩١ و ربّما هذا الذي دفعه إلى الإعتقاد بأنّه سيبقى دوماً أكثر ذكاءً وحيلةً من أعدائه وبالنتيجة فقد ذهب في أزمة عام ٢٠٠٣ بعيداً جداً في تحدّيه. ففي خلال فترة الحرب الباردة رغم تلاعبه الشديد بحماته السوفيات فقد كان يستطيع الإعتماد عليهم بالوقوف في الطرف الثاني من الميزان ويبدو بأنّه لم يستوعب كلياً التغيير الذي حصل في العالم وبأنّ حماته الروس لم يعودوا يقدرّون على إنقاذه بسبب أخطائه وهفواته. وحتّى في أزمة عام ١٩٩٠-١٩٩١ تصوّر بأنّه من المستحيل بناء تحالف فعّال يجبره على الإنسحاب من الكويت. خلال فترة ما بعد عاصفة الصحراء لم يكن صدام حسين قادراً على تحقيق كل طموحاته العسكرية والاستراتيجية ولكنّه تمكّن بالمقابل من إبقاء سيطرته القوية على العراق ؛ يبدو بأنّه أغنى نفسه وترك شعبه يعاني العوز والفقر.

على خشبة المسرح العالمي يبدو أنّ صدام حسين كان مهووساً « بلعبة القط والفأر » وقد كان ماهراً جداً في دوره ودام طويلاً . تصوّر بلا شك بأنّ نجاته في حرب الرئيس بوش الأوّل تسمح له بإعادة اللعبة والمراوغة مع الرئيس بوش الثاني وكانت النتيجة: الإطاحة بنظامه والقبض عليه ووضع في سجن عراقي تحت السيطرة الأمريكية. تفيض وتتوالى المهازل: في الظاهر يبدو بأنّه لا يملك أسلحة الدمار الشامل وربّما تعاونه بصورة وثيقة مع مفتّشي الأمم المتحدة كان ينقذه ويتيح له مرّة أخرى أن يسلم بجلده . ومع ذلك لم تكن له معرفة عميقة بالخارج _ وبالأخص بالغرب- فقد أحاط نفسه بحلقة من المتزلفين الذين لم يتجرّأوا يوماً مصارحته حول سياسته الخاطئة. والمهزلة الأخيرة هي أنّ صدام حسين الذي قاد بلده بيد من حديد خلال أكثر من ٢٥ عاماً هو الشخص الوحيد الذي لم يعد يملك الحق في إبداء رأي حول مستقبل العراق.

ومع ذلك لا يمكن لهذا الجدول المثالي الوقوف قائماً أمام التحليل فالنظام الذي أقامه صدام حسين وضع على الحاشية جزءاً واسعاً من المواطنين، دون الحديث عن الكورد _ ولكن أيضاً دون نسيانهم_ الذين تحملوا منذ السبعينيات الإضطهاد والقمع بشكل مستمر وكذا الحال بالنسبة لقسم كبير من الشيعة والشيوعيين والأحرار وكل من لا يؤمن بفكر القائد. ففي أحسن الأحوال كانوا يضعونهم على حاشية شبكات منسوجة من قبل النظام شبكات تشكّل « نخبة » مبشرة بالنعم والإمتيازات.

بالإضافة إلى إختفاء آلاف الأشخاص فقد إكتشفت منظمة العفو الدولية حالات منظمة من الإعتداء الجسدي كالتعذيب في السجن أو في مراكز الحجز وحالات قتل الكورد والشيعة غالباً. «أسلحة كيميائية، طوابير إعدامات، غرقى وأطرافهم مشدودة بالأتقال، مسمّمين و " حوادث " سير أو هيليكوبتر: فالوسائل كثيرة ومتعددة» ذكرها تقرير عام ٢٠٠٢ والذي صدر تحت عنوان «هموم ومشاكل منظمة العفو الدولية في العراق». وبالنسبة للنساء فقد ذكر التقرير نفسه بأنه في شهر تشرين الأول عام ٢٠٠٠ تمّ إعدام العشرات منهن دون أي دعوى قضائية، إتهموا بالدعارة وقد ظهر بين الأسماء الدكتور نجاة محمد حيدر المتهم لفضحه الفساد داخل دوائر الصحة.

طبعاً، وفي كل مرة ينفي النظام هذه الحقائق ويستمر في تأكيد إلتزاماته بإحترام حقوق الإنسان وهو يوقع على الإتفاقيات الدولية.

ولكن الرأي العام العراقي كان يردد في الثمانينيات بعدم إطلّاعه على الخبر ويعود السبب دون أدنى شك إلى النقص في المعلومات: فكل القنوات الإعلامية كانت تحت سيطرة رجال النظام والصحفيون لم يكونوا قادرين على ممارسة مهنتهم بحرية فحينما يكونوا عراقيين لن يتمكنوا من الإستمرار في العمل وإذا لم يأخذوا المعلومات من مصادر النظام ؛ وفيما يتعلّق بالمراسلين الأجانب لم يكن لهم حق الحصول على المعلومات إلاّ عبر الشبكات المنظمة للنظام.

أمّا الرأي العام العربي فمعاداتهم لأمريكا _ بدائية غالباً_ جعلتهم منذ الثمانينيات يؤيّدون صدام ضدّ إيران ويؤيّدون العراق في حرب الخليج الثانية ضدّ الشيطان

الأمريكي وضدّ حلفائه من الخدم العرب. وفي الواقع، إتفق توقيت حرب الخليج الثانية مع إنهيار الإتحاد السوفياتي فوجدت الدول نفسها تعيش إعتباراً من هذه اللحظة في عالم أحادي الجانب وظهرت على السطح شرطة كونية تتراكم نحوها الإنظمة العربية التي كانت تعادبها بالأمس وتبحث إرضاءها والرأي العام العربي رأى في صدام الشخص الذي يقاوم هذه الموجة فأعتبره الإعلام صلاح الدين الجديد ؛ وقارنه البعض بنبوخذ نصر العصر الحديث. شبّهت منظمة مراسلون بلا حدود Reporters Sans

Frontieres صدام حسين «بالمفترس لحرية الصحافة» كان عدد مالكي الصحافة الذين يأخذون طريق بغداد ويعودون منها مع حقائب مليئة بالأموال كبيراً جداً. ففي التقرير السنوي لعام ٢٠٠٢ وصفت المنظمة الوضع كما يلي: «منذ أكثر من عشرين سنة يقود صدام حسين الإعلام بيد من حديد ولم يحدّد له غير هدف واحد: نشر دعايته وعدي صدام حسين يتّأسس لجنة التحرير في العديد من الصحف وهو مسؤول أيضاً عن الإعلام السمعي والبصري الأكثر شعبية من بين القنوات التلفزيونية الثلاثة، قناة الشباب ومحطة راديو صوت العراق التي تبث في موجة الـ FM باللغة الإنكليزية ففي الداخل كما في الخارج يطارد النظام كل الأصوات المعارضة.»

وحثّى في زمن الحصار، بعد حرب الخليج الثانية نجح النظام في تسخير نتائج هذه الحرب لصالحه. ثلاثمائة ألف أو خمسمائة ألف طفل يموتون سنوياً؟ السبب يعود إلى الحصار ولكنهم لم يشيروا بأي حال من الأحوال إلى نتيجة توزيع الموارد النفطية المهرّبة إلى إيران ودبي أو الأردن. لم يتغيّر منذ عام ١٩٩١ المستوى المعيشي لمسؤولي النظام أبداً ولكن الوضع بالنسبة لعامة المواطنين كانت تسير من سيء الى أسوء وقد قدّموا الحصار للعالم بأنه تدخّل في الشؤون الداخلية وأنه ظلم يتحمّله الشعب. وتلاعب النظام بالتضامن العربي تجاه الحصار أيضاً فقدّمه وكأنّه لمناصرة النظام وفيما يتعلّق بعزلة صدام حسين في الساحة الدولية فقد مرّرت دعاية النظام الدكتاتور الشهير كضحية للقرارات المتخذة من الغرب.

في عام ٢٠٠٣ ولّد غزو العراق راية التضامن وسط شعوب العالم ولكن لم نرى أحدهم يرفع يوماً صورة بن لادن الذي هيمن شبحه على العواصم العربية خلال المظاهرات العديدة التي سارت في شوارعها والموقعين الوحيديين الذين ظهرت فيهما صورته هما موقع كايتا Keita في باكستان وباريس في فرنسا. أن المظاهرات العفوية

للتعبير عن الرأي خلقت إنطباعاتاً لفترة قليلة بالعيش مجدداً في تلك الأيام العربية السعيدة، أيام المناداة بالقومية ولكن الأنظمة الحكومية نجحت في إحتواءها الواحدة بعد الأخرى وتسخيرها لخدمتها. بينما كان «البلدوزر» العسكري الأمريكي ييسر سيطرته ويستعرض قوته، وبدأ الرأي العام يشعر رويداً رويداً بالصدمة أمام المقابر الجماعية المكتشفة بالتدريج فإنحلت أسنة الشهود حول طرق صدام وتجاوز حاشية الرئيس لكل المقاييس الإنسانية عند ارتكاب جرائمها ضد المدنيين. فأضحى صعباً على هذا الرأي العراقي والعربي الإستمرار في الإدعاء بأنه لم يعد عالماً بكل ما حصل بل شجعهم بمطالبة أنظمتهم السياسية الخاصة بهم ومحاسبتها.

حينما انفجرت فضيحة أبوغريب أطلقت تعليقات وارتفعت الأصوات تقول أنهم: «يفعلون مثل صدام» بالتأكيد لن تجد اليوم أحداً ينفي بأن البيت الأبيض قد زرع منذ عقود ما يحصده اليوم فالمعادة الحالية والمتصاعدة بإضطراب ضد أميركاجمت من تدخلاتها في شؤون المنطقة (على سبيل المثال نذكر فقط الانقلاب على مصدق في إيران بالأمس ومساندتها غير المشروطة اليوم لإسرائيل ضاربة عرض الحائط كل القوانين الدولية) ونتيجة للتهديدات التي أطلقتها إدارة بوش ضد العديد من الدول ومن خلالها ضد شعوبها ناهيك عن الحصار وتصريحات السيدة مادلين أولبرايت بحيث لم يعد هناك محل شك بأن واشنطن تحصد اليوم ثمار بعض ما بذرتها.

متهمة إن لم نقل مكروهة فالولايات المتحدة تبصر الهجوم على قوتها الطرية soft power. القيم الأمريكية تفضح يوماً بعد يوم وتفهم مبادئ مثل الديمقراطية وكأنها فكرة خاوية تستخدم كأداة لهيمنة الأمم العنصرية التي لا تفكر بغير مصالحها. وحتى الشعب السعودي، الحليف التقليدي للولايات المتحدة إجتاز إمتعاضه وتمرد مشاعر حلقة الأصوليين والمجاهرة بحقه ضد كل ما هو أمريكي في كل أطراف المملكة.

واليوم، الرأي العام العربي يبقى رغم كل المظاهر (الإنتفاخ في عدد القنوات التلفزيونية الإخبارية) حيث من الممكن التلاعب معه ولكنه مصاب في الصميم بالصدمة لإستسلام العرب لما ألم بهم ومصيرهم. ومظاهرات الرفض تأتي من الخارج وليس من الداخل هرباً من الواقع حيث تلاحظ النخبة المستسلمة تلتجئ ظاهرياً إلى التدين. ولكن بالرغم من الحقد على العم سام فلا يزال الشباب يطمون بالهجرة نحو ما تبقى من العالم الجديد المليء بالوعود للإبتعاد عن الواقع التافه الذي ينتظرهم يومياً في

أمصارهم فرفض الهيمنة الأمريكية ووسائل عملها لا تساوي ما تعرضه أمريكا من فرص على الأفراد بعكس ما تقترحه عليهم الأنظمة في المنطقة حيث هناك جامعات كبيرة ونجاح مادي منقطع النظير ومجتمع حر وليبرالي يثير أهواء الشباب البالغ وتطلعاتها. بعد الإستسلام إلى الواقع لم يعد الشارع العربي يتظاهر رغم إتاحة الولايات المتحدة للعرب ولأيام قليلة من شهر شباط ٢٠٠٣ فرصة الإجتماع تحت نفس الرايات وإطلاق ذات الصرخات والإحساس بذات المشاعر فمشكلتهم الأنية متأتية من رجال تجاوزهم العصر والزمن والذين لا يقبلون التنازل عن ذرة من سلطاتهم مثلما كان حال ياسر عرفات حتى رمقه الأخير. فالعرب هل إختاروا حقاً صدام حسين؟ تسألنا في البداية.

لا، إختاروا فقط رفض ما هو ممكن اليوم ونادوا بفضح القوة العظمى الأوحده. بين الإحباط والظلم، بين التأخر والإضطهاد لم يتبقى أمام عرب معظم دول المنطقة غير حيز ضيق النهوض والإنتفاضة ضد «نخبته». ويجب الإعراف بأن هؤلاء يعرفون كيفية إستغلال الأوضاع كما كان حال صدام المجرع لشعبه وهو يتهم الغرب الشيطاني، وكل طغاة المشرق والمغرب يقدمون على طبق من فضة القنوات التي تسمح لشعوبهم بالتعبير عن معاناتهم(...)

يتلاعبون بعواطفهم ويجبرونهم كيفما كان على معاداة الولايات المتحدة فالعرب اليوم يأسون وأصبحوا المنفرجين الأذليين على مصيرهم المساوي. ومثلما كان العراق في الماضي فإنه يبقى رغم كل شيء منبعاً لآلاف الوعود فهذه المنطقة، الشرق الأوسط، تحوي في كيانها ملايين الكنوز والصور والموارد والشعوب وحينما نستشير حاسباتنا نرى كم هي كبيرة إمكانياته وكم هي بأئسة وحقيقة نتائجها (...)

في الثلث الأخير من القرن العشرين صرف العالم العربي ١٥٥ مليار دولار تقريباً على القطاع العسكري أي بمعدل ٥ مليارات دولار في السنة دون أن يحصلوا على إمكانيات لحماية أنفسهم بقوة أو على إمكانيات الردع النووي ناهيك عن القدرة الفضائية فكل هذه المميزات تعوزهم ليصبحوا قوة عصرية حديثة.

خلال ربع قرن تقريباً، من ١٩٧٠ وإلى ١٩٩٤ أن الشرق الأوسط إمتص ٤٥ ٪ من الأسلحة المباعة في العالم الثالث: ٣٥ ٪ من مجمل المشتريات العالمية للأسلحة في الوقت الذي لا يمثل سكانه غير ٣ ٪ من الجنس البشري على الأرض الى درجة أن

المواطن العربي (بالنسبة للدبابات والمدافع) حصته أكبر مقارنة مع سگان ثلاثين دولة أوروبية وبضمنها دول حلف شمال الأطلسي ودول حلف وارشو السابق.

مؤشرات التنمية البشرية (IDH) في الدول العربية بأجمعها تجاوزت الخطوط الحمراء وهذه دلالة على غياب النظام السياسي- الثقافي فيها. وسوف يبقى معدل نسبة الجهل في العالم العربي رغم تراجع بمقدار ١٠ نقاط مقارنة مع عام ١٩٩٠ (٤٨,٧٪) عالياً جداً نسبةً الى المعدل العالمي (٣٨,١٪) وهو يأتي مباشرة بعد آسيا الوسطى وأفريقيا جنوب- الصحراوية (٤٠,٣٦٪) المنطقتان الجغرافيتان اللتان لا تملكان نفس غنى العالم العربي.

وسط هذه الحالة التي لا يمكن تسميتها يسرح ويمرح المتشددون الذين يحملون في جعبتهم خطابات جذابة قادرة على إنعاش ثقة من هم أكثر فقراً وبؤساً سواء كانوا جزائريين أو عراقيين أو فلسطينيين خطابات تزودهم بوسائل للتمرد على الواقع المزري ويتزايد عددهم يوماً بعد يوم لأن الدكتاتوريات العربية أغلقت في وجه المواطن كل منافذ التعبير ما عدا المساجد التي أصبحت مع مرور السنين أوكاراً للإسلاميين والمحرضين. حاول صدام حسين مثلما فعلت الأنظمة الشمولية الأخرى التأثير عليهم والإستفادة منهم ولكن يبدو بأن الرأي العام العربي قد نضج إلى حد ما. بعد كل هذه السنين من الظلام كما رأينا ذلك في فلسطين حينما تردّد هذا العدد الكبير من الناخبين إلى مراكز التصويت وفي العراق بأكثر مما كان متوقعاً وبدأ الناس يتظاهرون في شوارع بيروت منددين «بالمخابرات» التي طالما أرهبتهم بالأمس القريب. رغم البطء فثمة أمور تتحرك إذاً في الشرق الأوسط وحتى محاكمة صدام لم يتصورها الرأي العام العربي ممكن حصوله («سوف يُقتل قبل وصوله إلى المحكمة»، «لن يتركوه يتحدث أبداً»، «سوف يعطي الأسماء ويفضح الحكومة العراقية الجديدة»، إلى آخره... ولكن لم يحدث كل هذا بل ينتظر العراقيون والعرب محاكمته كل يوم.

وقد يتعلم العرب الآخرون من العراقيين الذين صوتوا للمرة الثالثة سواءاً للتصويت على الدستور أو لإنتخاب مجلس النواب أو المجلس التشريعي ويتعلم من الأسلوب النموذجي في المحاكمة التي اعتبروها فضيحة في البداية لمحاكمة قادتهم.

هذا هو التغيير المنتظر في عقلية وسلوك العرب وهذا هو بالتأكيد الدرس المستنتج من حرب العراق.

أسرار تقرير دويلفر DUELFER

كريس كوتشيرا

الأسلحة الكيماوية والبيولوجية

منذ بداية الستينيات وبعد ثورة عبدالكريم قاسم أرسل الأركان العراقي عدداً معيناً من الضباط العسكريين إلى الخارج وبالأخص إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإلى الإتحاد السوفياتي للتدريب على الحرب البيولوجية والكيماوية.

في عام ١٩٦٤ أسس الجنرال عبدالسلام عارف الذي لم يتردد في استخدام النابالم ضد المدنيين الكورد مع هؤلاء الضباط الوحدة الكيماوية العراقية (CCI) التي أصبحت النواة الأولى لبرنامج التسليح الكيماوي رغم «بدائيتها وعدم حرفيتها».

وفي وقت مبكر تأجج النقاش وسط هذا التنظيم بين الضباط الكبار الذين إهتموا بالبرنامج الدفاعي فقط وبين ضباط المراتب الأدنى، الشباب، الذين أرادوا أن يباشروا بلدهم بتطوير برنامج هجومي متوازي في الحرب الكيماوية.

إستلام البعث للسلطة في عام ١٩٦٨ رجح إنتصار فكرة الضباط الشباب الذين تبنوا إطلاق برنامج الأسلحة الكيماوية والبيولوجية الهجومية.

وفي عام ١٩٧١ قدمت كوادرات الوحدة العراقية طلباً بالسماح لهم في عمل تجارب وفي إنتاج كميات قليلة من العناصر الكيماوية (غاز الأعصاب والتابون وال CS فوافق الأركان وقام بتمويل بناء مختبر الرشاد قرب بغداد ولكن أعمال البحث لم تكن منسقة بشكل جيد ففشل.

في عام ١٩٧٤-١٩٧٥ حصلت محاولة جديدة لبناء مؤسسة الحسن ابن الهيثم (معهد الحسن) من قبل المخابرات العراقية التي كانت تعمل تحت واجهة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

في بداية تأسيسه كان يدير المعهد إثنان من الضباط الذين لعبوا دوراً مركزياً:

- النقيب غسان إبراهيم من الوحدة الكيماوية العراقية؛

- فائز عبدالله الشاهين وهو ضابط في المخابرات العراقية وأصبح نائباً لغسان إبراهيم فأشرف على برامج تطوير الأسلحة غير التقليدية أثناء حرب إيران-العراق.

واصل المعهد برنامج تدريب الخبراء في المراكز العلمية الأجنبية فأرسل بشكل خاص من عام ١٩٧٣ وإلى عام ١٩٧٩ «بعثات» للحصول على الدكتوراه في «أكاديمية الحرب الكيميائية» بموسكو ومن بينهم نشير إلى:

- عماد حسين عبدالله العاني (البحث والتنمية) الذي أصبح «الأب الراعي» لل VX،

- صلاح الدين عبدالله (خبير في الأسلحة والبحث عن المواد السامة)،

- حامد شاكر (خبير في إعداد وتهيئة الأسلحة).

ولكن في عام ١٩٧٨ ظهرت أزمة جديدة بعد إكتشاف الجنرال عامر السعدي سرقة أموال قام بسجن عدد معين من الكوادر وبعد تقييمه بأن هذا المركز لم يثمر النتائج المنتظرة قام بحله عن طريق مرسوم رئاسي صدر في ١٦ كانون الثاني عام ١٩٧٩ .

فحلّت محلّه الوحدة الكيميائية العراقية التي يديرها الجنرال نزار العطار.

قامت وزارة الدفاع بتمويل هذه الوحدة وأطلقت مشروع الأسلحة الكيميائية في مركز جديد قرب مدينة سامراء الذي وُلد أكبر برنامج للأسلحة الكيميائية في تاريخ العراق وبموازاة ذلك قام الجنرال نزار العطار ببناء برنامج لإنتاج الأسلحة البيولوجية ووجّه للدكتورة رحاب (الدكتورة «الجرثومة») كلامه قائلاً بأنّه لا ينوي «بحث الرفوف في المختبر وإنما بحثاً تطبيقياً يمكن وضعه في قنبلة».

تسارعت الأحداث مع إستلام صدام حسين للسلطة المطلقة في تموز عام ١٩٧٩ وخلال الحرب ضدّ إيران في عام ١٩٨٠ .

أن لجوء إيران إلى هجمات الموجات البشرية (انظر إلى موضوع كريس كوتشيرا حول حرب إيران-العراق) دفع العراق بالمباشرة فوراً في تطوير برنامج الأسلحة الكيميائية فتمّ نقل مركز الرشاد إلى سامراء وفي ٨ حزيران ١٩٨١ أطلقت وزارة الدفاع «البرنامج ٩٢٢» في المثني المكلف بإنتاج غاز الأعصاب والتابون والساارين وال VX بالمستوى الصناعي وإمكانية إستخدامها عسكرياً فتحوّل مركز المثني (MSE)

بعد مرور فترة وجيزة إلى معمل ضخم يشغل مساحة ١٠٠ كيلومتر مربع ولكنه إشتهر بين العراقيين على كونه معملاً «لصناعة مواد سامة لقتل الحشرات». يسرد خالد

صالح في الفصل الخاص والمعنون «تجّار الموت» ويذكر بأنّ الشركات الألمانية شاركت بحجم كبير في بناء هذا المركز الصناعي وأنها لم تكن جاهلة بغرضه.

ثمّة ثلاثة تواريخ ينبغي ذكرها:

- في عام ١٩٨٤ أنتج العراق لأول مرة غاز الأعصاب _ السارين والتابون _ ليصبح أول دولة في العالم يستخدم التابون في ساحة المعركة (ضدّ الإيرانيين):

- في عام ١٩٨٦ وضع العراق خطة خمسية لصناعة الأسلحة البيولوجية:

- في عام ١٩٨٨ صنع العراق ال VX.

إجمالاً تمّ إستخدام أكثر من ١٠٠٠٠٠ حشوة ضدّ الإيرانيين والكورد وفقاً لتقرير دويلفر.

في بداية هذا البرنامج قدّم الباحثون والخبراء المصريون مساعدة تكنولوجية تسمح للعراقيين بتسريع المراحل في كيفية إستخدام هذه العناصر الكيميائية عسكرياً.

- منذ عام ١٩٨١ ساعدت مصر العراق في إنتاج وفي تخزين العناصر الكيميائية (عقد بمبلغ ١٢ مليون دولار).

- في عام ١٩٨٣ عدّل الخبراء المصريون قاذفات الصواريخ المركّبة ١٢٢ ملمتر غراد GRAD بحيث يمكن تحميل قنابلها بالعناصر الكيميائية.

- في عام ١٩٨٤ صدرت مصر إلى العراق صواريخ غراد مجهزة بحاويات من البلاستيك قادرة على حمل العناصر الكيميائية.

- في أواسط أعوام الثمانينات إستقدم العراق باحثون مصريون لمساعدته تقنياً في إنتاج عبوات من السارين.

عرضت قناة BBC التلفزيونية في ٢٧ تشرين الأوّل من عام ١٩٨٦ الفيلم الوثائقي «أسرار سامراء» كشفت فيه وجود المركز السريّ للمثني...ولكن المخابرات الإيرانية لم تنتظر الأسرار التي كشفتها قناة ال BBC لتعرف نشاطات هذا المركز: ففي منتصف عام ١٩٨٥ قصفت طائرات-F4 الإيرانية البرنامج ٩٢٢ وقصفته من جديد في تشرين الأوّل من عام ١٩٨٦ وتم ضرب ال MSE كذلك بصواريخ سكود الإيرانية.

لم يكتفِ العراق فقط بإستخدام المواد الكيميائية في عملياته العسكرية ضدّ الكورد

والشيعة والإيرانيين وإنما قام العراقيون بإجراء تجارب «في المختبر» على الكائنات البشرية، على السجناء في نهاية التسعينيات.

- ضابط قديم من المخابرات العراقية (SRI) إتهم نعمان محمد التكريتي، مدير الـ M16 (أحد فروع المخابرات العراقية) بتقديم مادة الـ Dimenthrosoamine إلى مدير منظمة الصحة الخاصة (OSS) الذي جربها على أربعة سجناء كورد غير معروفين فأدى إلى إصابتهم بسرطان الرئة والكبد بعد مرور ثلاثة أشهر.
- ووفقاً لذات المصدر جرب عدنان عبدالرزاق العبيدي هذه المادة إعتباراً من عام ٢٠٠٠ على السجناء التابعين للـ M7 (إحدى دوائر المخابرات العراقية).
- تقرير دويلفر ينشر النص المريع التالي حول استخدام المواد السامة على السجناء تحت إشراف الباحث المصري الدكتور منعم الأسمرلي.

.....

السموم والمواد القاتلة: التجارب التي قام بها النظام العراقي ضد الكائنات البشرية

مسؤولية المخابرات العراقية (SSI) في التجارب «الطبية» على الكائنات البشرية. في سنوات السبعينات وربما أيضاً في الثمانينات جربت المخابرات العراقية منتجات كيميائية قاتلة على البشر تحت إشراف الدكتور عبدالمنعم الأسمرلي، رئيس قسم البحث في المخابرات العراقية في الحازن (al-hazen).

- إعترف الدكتور منعم بأنه إختبر منتجاتاً كيميائية عديدة على النماذج البشرية من عام ١٩٧٥ وإلى عام ١٩٨٠ وأعلن الدكتور منعم بأن مدير المخابرات العراقية برزان التكريتي أمره بتنفيذ البرنامج التجريبي بالتعاون مع نعمان محمد التكريتي (الذي أصبح رئيساً لدائرة الـ M16 في عام ١٩٩٦) ومع علي حسن جاسم (الذي حدد الجرعة القاتلة).

- أعلن عضو بارز في الحكومة العراقية الذي كان على إطلاع مباشر بالمعلومات بأن الدكتور منعم جرب السم والمواد القاتلة على أكثر من ١٠٠ سجين من بينهم الكورد والإيرانيين وسعودي وقد تم إعطائهم جرعات قاتلة مركبة من مواد مختلفة منها

لاسيكس Dimenthrosoamine Lasix - قدّم الدكتور منعم للسجناء السياسيين طعاماً مسمماً وإستعمل الحقن ضدّ أفراد آخرين وأضاف الضابط بأنّ الدكتور إختبر المواد المتفجرة ضدّ الكائنات البشرية وبأنّه كان «مجنوناً عقلياً».

- وفقاً لبعض التقارير «الحساسّة» جرب الدكتور منعم على خمسة عشر سجيناً بين عام ١٩٨٠ و١٩٨٩ مخدرات تؤثر على ذاكرتهم وعلى وظيفتهم الجنسية وأن كل من خرج من هذه التجارب حياً أُعدم لاحقاً.

جرت التجارب في دائرة M7 لسجن الحاكمية حيث السجناء مدانون بحكم الإعدام - ذكر الدكتور منعم بأنّ دائرة الـ M7 هي التي كانت توجه إليه الأفراد حيث كانت مسؤولية أعداء النظام على عاتقها في المخابرات العراقية وقد كانت مسؤولة أيضاً عن التحقيق والإستجواب وعن جريمة التعذيب.

- ينفي محمد نعمان التكريتي ممارسته الشخصية لهذه التجارب ولكنه يتذكّر بأنّ الدكتور منعم أعطى السموم للسجناء عشر مرّات خلال عام ١٩٨٣ في قسم M7 لسجن الحاكمية وأعلن التكريتي بأنّ السموم تضمّن الـ Acetate de Thalium، والـ Micro chlor de Methyle والـ cyanure. وكذلك الـ Fluoride de sodium والـ chlorure de methyle يتطابق ربّما مع الـ microchlorure de methyle السائل.

- يعترف الدكتور منعم بأنه إختبر منتجات كيميائية على عشرين فرداً وإستعمل الـ cyanure والـ digitaline والـ libirium والـ strichine، والـ acetate de thali-um.

الإختلافات الموجودة بين إعتراقات الدكتور منعم وبين إعتراقات نعمان التكريتي حول التجارب التي أُجريت على الكائنات البشرية تبين بأنّ أحدهما يكذب على الأقل إن لم نقل الإثنان معاً أو أنّ أحدهما لم يعد يتذكّر بالتفاصيل سعة حجم هذه الأفعال خلال اللقاء الذي أجراه ضباط مجموعة التحقيق حول العراق (GSI).

- تميل إعتراقات الدكتور منعم ونعمان التكريتي إلى التقليل من أهميّة التجارب المنجزة على البشر فقد أكد الدكتور منعم بأنّ العدد كان ضئيلاً وأشار النعمان إلى

أنه كان شاهداً وليس أكثر وبأنه لم يشترك في هذه التجارب.

- ثمة إختلافات في إقرارات الإثنين حول التواريخ والأدوات المستخدمة رغم قبول الإثنين بمعرفتهما المباشرة لهذه الأفعال.

- إقرارات هذين الشخصين لا تتطابق مع المعلومات الآتية من مصادر أخرى حول التجارب الطبية التي أجراها النظام العراقي.

.....

كإستنتاج إستناداً إلى تقرير دويلفر كانت «طريقة إستعمال الأسلحة الكيماوية» كالاتي: يسلم عملاء منظمة الصحة الخاصة OSS الحشوات إلى الحرس الجمهوري فيطلق الأخير الذخيرة على الأهداف التي يحددها عملاء الـ OSS .

لا يتحدث تقرير دويلفر بتاتاً عن «طريقة» إستعمال الأسلحة الكيماوية على شكل قنابل من قبل السلاح الجوي العراقي ضد الكورد خلال حملة الأنفال وضد حلبجة.

ولكن التقرير يحدد بأنه وفقاً للجنرال محمود فرج بلال السامرائي، «لو أن الحرب مع إيران إستمرت إلى ما بعد عام ١٩٨٨ فإن صدام حسين كان سيستخدم الأسلحة البايولوجية».

السلاح النووي

أن قصف السلاح الجوي الإسرائيلي في ٧ حزيران عام ١٩٨١ لمركز البحث النووي تموز ٢ أجبر صدام حسين على مواصلة طموحاته النووية بشكل سري.

أطلق صدام حسين برنامجاً حقيقياً للسلاح النووي حينما أنشأ أقسام البحث والتطوير النووي في الأثير تحت إشراف صهره حسين كامل مباشرة بعد الحرب مع إيران وقد قام المهندسون الألمان في هذه الفترة (آب ١٩٨٨) ببيع خطط الطوارد المركزية لتزويد العراقيين باليورانيوم ولكن رغم مساعدة هؤلاء المهندسين وخبراء أوروبيين آخرين فقد واجه هذا البرنامج تعقيدات فنية عديدة وسار ببطء شديد. بطيء جداً في نظر صدام حسين وحسين كامل وخاصة بعد غزو الكويت.

أصدر صدام حسين أذاً الأمر بإنجاز صناعة قنبلة ذرية مهما كان الثمن _ بإغناء كمية كافية من اليورانيوم لصناعة آلة نووية واحدة على الأقل وإن كانت بدائية ولكن خسر الفنيون العراقيون هذا السباق لأن حملة عاصفة الصحراء (شباط ١٩٩١) دمّرت

البنى التحتية النووية العراقية كلياً والقادة العراقيون الذين سألهم فريق شارل دويلفر لا زالوا يؤكدون لحد هذا اليوم بأن مسار التاريخ كان سيختلف فيما لو إنتظر صدام حسين إنتاج أول قنبلة ذرية من قبل الفنيين العراقيين قبل غزوه للكويت.

لم يصاب مركز الأثير للأبحاث النووية في الحرب ولم يتم إكتشافه إلا بعد وقوع مفتشي نزع الأسلحة على بعض الوثائق في أيلول عام ١٩٩١ وبعده تم تدميره في نيسان- حزيران ١٩٩٢ وإلى يوم خروج حسين كامل إلى الأردن رفض صدام حسين الكشف عن حجم البرنامج النووي العراقي.

سياسة النفاق العراقية؛ صدام حسين يوقع نفسه في المصيدة

بعد تبني مجلس أمن الأمم المتحدة في ٣ نيسان عام ١٩٩١ للقرار ٦٨٧ الذي أجبر فوراً العراق على كشف كل برامج ومخازن أسلحته قرّر صدام حسين الإعلان عن جزء من برامج أسلحته الكيماوية والبايستيقية ولكن إختار إخفاء وجود برامج النووية والبايولوجية كلياً. وحسب شارلز دويلفر كان صدام حسين مقتنعاً تماماً بأن هذه الأسلحة وإرادته المعلنة بإستخدامها ضد قوات التحالف فيما لو سارت نحو بغداد هي التي أنقذت نظامه. كما أنقذته من جديد حين إستخدامها في سحق الإنتفاضة الشيعية في الجنوب في آذار ١٩٩١ ولمح شارلز دويلفر بأن علي حسن المجيد وعزة الدوري قد إستخدما الأسلحة الكيماوية ضد الشيعة دون أن يثير الأمر أي رد فعل من جانب الحلفاء مثلما لاحظ ذلك حين إستعمالها ضد الكورد في عام ١٩٨٨ .

ووفقاً لشارلز دويلفر أيضاً فإن صدام حسين كان قد إقتنع بأن العقوبات لن تستمر طويلاً وبأن التفتيشات سوف تكون سطحية لذا قرّر إخفاء وجود برنامج النووية وترسانة أسلحته البايولوجية المكونة من ١٢٨ إلى ١٥٠ قنبلة R-400 و ٢٥ صاروخ من نوع الحسين وهي محملة بالجراثيم.

ولكن نشاط مفتشي الـ AIEA (المكتب الدولي للطاقة النووية) كان فعلاً جداً ففي حزيران عام ١٩٩١ أثاروا هزة وسط النظام العراقي وتخوف النظام من أن تكتشف أمريكا برنامج أسلحة الدمار الشامل وتعيد عليه حربها طلب صدام حسين من حسين كامل وطارق عزيز بإزالة كل الأسلحة غير التقليدية.

ومع ذلك فقد كان يريد الإستمرار في ردع الأمريكان والإسرائيليين والإيرانيين

ومنعمهم من مهاجمته فأمر بتدمير هذه الأسلحة والمنشآت المحرمة في سرية مطلقة _
محتفظاً بالوثائق والخطط _ وحاول عمداً إثارة الغموض حول وجود هذه البرامج
فأوقع صدام حسين نفسه في مصيدته. بعد خروج حسين كامل إلى الأردن في آب
١٩٩٥ فحينما أعلن حجم برامج أسلحة الدمار الشامل أملاً رفع العقوبات لم يكن
قادراً على تقديم الإثباتات بأنه قد تخلّص فعلياً من هذه الأسلحة في عام ١٩٩١ وهكذا
أصبح سهلاً فيما بعد الإدعاء بأنّها لا زالت موجودة بحوزة النظام العراقي.

الجزء السادس

أي عدالة لصدّام حسين؟

هل تسمح الوثائق السرية

للنظام العراقي بإدانة صدام حسين؟

كريس كوتشيرا

ملايين الوثائق السرية: وضع الكورد أياديهم على مخزن ثمين ورائع خلال إنتفاضتهم القصيرة في عام ١٩٩١ حيث إكتسحوا مكاتب حزب البعث ودوائر المخابرات والأمن العسكري في أربيل ودهوك والسليمانية وكركوك، العواصم الاقليمية لكوردستان ولكن أيضاً في مدن أقل أهمية كشقلاوة وعقرة وخانقين وكويسنجق.

إكتشف الكورد العجائب والغرائب: تحقّقوا بأن هنالك أبنية إدارية عادية جداً في وسط المدينة كانت في الحقيقة مراكزاً للتعذيب والحجز يقبع فيها السجناء الكورد «المفقودون» منذ سنين. وعثروا في هذه الأبنية على أطنان من الوثائق - الأرشيفات السرية للنظام - فحملوها إلى موقع آمن - ما عدا وثائق كركوك - التي نقلوها لحسن الحظ إلى جبال كوردستان لأنّ الإنتفاضة الكوردية إنهارت بعد ذلك بأيّام.

أنقذ التحالف الغربي الشعب الكوردي عبر خلق «مناطق محمية» مكّنت الكورد من العودة إلى بيوتهم وإدارة شؤونهم بأنفسهم (أنظر إلى " دولة ضدّ الكورد " لكريس كوتشيرا).

جاء إلى كوردستان في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٩١ قاصداً إنجاز فيلم وثائقي على طريق جهنّم لحساب البي بي سي BBC، كنعان مكّية المؤلّف الشهير لـ **جمهورية الخوف** وأوّل من جلب الإنتباه حول الأهمية التاريخية لهذه الوثائق وإقترح وضعها نهائياً في مكان آمن ولأنّ الكورد كانوا واعين بوضعهم غير المستقر فاستمعوا إليه وقرّروا نقل هذه الأرشيفات إلى خارج كوردستان، إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

أكثر من ١٨ طن من الوثائق - حوالي ٤ ملايين صفحة - تمّ تحويلها بالطائرة إلى الولايات المتحدة في زمنين. بتاريخ أيار ١٩٩٢. تلك التي إستولى عليها الإتحاد الوطني الكوردستاني لجلال الطالباني وبتاريخ آب ١٩٩٣ تلك التي كانت بحوزة الحزب الديموقراطي الكوردستاني لمسعود البارزاني.

الكل يتكوّن بالضبط من ١٨٤٢ كارتون من الأرشيف وتحتوي بشكل رئيسي على وثائق إدارية وبعض الكاسيتات السمعية والبصرية (فيديو) وعلى صور. سلّمت وزارة الدفاع الأمريكية التي تحمّلت مسؤولية نقل هذه الوثائق إلى لجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ في واشنطن DC التي صنّفتها كوثائق رسمية للكونكرس وقام في الحال فريقان للبحث يتبع أحدهما لوزارة الدفاع والثاني يعود لمنظمة غير حكومية Middle East watch (فرع حقوق الإنسان) بفحص هذه الملايين من الصفحات تحت إشراف جوست هيلترمان Joost Hiltermann من الميدل إيست ووج.

ويضاف إلى هذا الخزين حوالي ٧٢٥٠٠٠ صفحة من الوثائق التي إستولى عليها الأمريكيان في الكويت بعد الهزيمة الساحقة للقوّات العراقية في شباط ١٩٩١ ولكن لن يكون في وسع الميدل إيست ووج الإطلاع عليها.

وثمة كمية أخرى من الأرشيفات التي تتكوّن من الوثائق التي تمّ الإستيلاء عليها بعد التخلّل الأمريكي وسقوط نظام صدام حسين في آذار ٢٠٠٣: وقد وقع كنعان مكّية في بغداد على ٣ ملايين صفحة من الأرشيفات العائدة إلى القيادة القطرية (العراقية) للبعث في شهر تشرين الثاني ٢٠٠٣ داخل أقبية سرّية مخفية تحت قبر ميشيل علق مؤسس البعث.

وتوجد بالتأكيد أرشيفات أخرى للنظام البعثي: وفقاً لبعض المصادر يملك (الفريق الملّك بفحص العراق) Iraq Survey Group (ISG) لشارل دويلفر حوالي ٨ ملايين وثيقة إستولى عليها بعد إنهيار نظام صدام حسين ولكن الـ ISG يعمل بسرية مطلقة ولم يقرّر لحدّ الآن الكشف الكامل لفحوى هذه الأرشيفات للمأ ولا يشغل إهتمام هذا الفريق غير أسلحة الدمار الشامل.

بالإجمال تملك الحكومة الأمريكية قدراً هائلاً من الوثائق والمستمسكات وترغب بإستخدامها في محاكمة صدام حسين ودون أن تكون، وفقاً لبعض المصادر، قادرة على تحليلها. هنالك أيضاً بحوزة قادة الأحزاب المعارضة وكذلك بحوزة الناس العاديين وثائق رسمية عراقية «إستحوذت عليها» القوى العراقية السياسية أثناء فترة الفوضى التي تبعت تحرير بغداد.

سعيًا للحفاظ على ما يمكن تسميته بـ «ذاكرة العراق» فقد كان كنعان مكّيّة و «معارضون» عراقيون آخرون ينادون منذ عام ١٩٩٣ في مركز دراسات الشرق الأوسط لجامعة هارفارد بتأسيس «مشروع البحث والتوثيق عن العراق». في تموز ١٩٩٤ أعلن السيناتور كيربورن بيل Clirborne Pell رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ لكنعان مكّيّة بأن مشروع العراق سيتسلّم المجموعة الكاملة من الوثائق المؤكّلة إلى لجنة الشؤون الخارجية. في الواقع، أستوجب الإنتظار إلى عام ١٩٩٨ عند ذلك سلّمت لجنة مجلس الشيوخ إلى مشروع العراق ١٧٦ سي دي روم شملت محتويات ١٥٧٥ كارتون من الأرشيف. في عام ١٩٩٨ تحوّلت الأرشيفات إلى جامعة كولورادو في بولدر Boulder. في عام ٢٠٠٣، بعد تحرير العراق أنشأ كنعان مكّيّة «مؤسسة ذاكرة العراق» أملاً جمع كل أرشيفات النظام البعثي.

وثائق ومستندات إستثنائية حول كيفية عمل النظام البعثي

مقدّمًا هذا الكم الهائل من الوثائق في موقع IRDP، أشار فالج جبّار إلى الأهميّة الإستثنائية لهذه الوثائق التي قدمت «إمكانية رائعة لدراسة النظام الكلي المهوس بالسريّة من الداخل». يتكوّن الخزين من قسمين، معطيات شمال العراق (٤, ٢ مليون وثيقة) ومعطيات الكويت (١ مليون وثيقة). تمّ دراسة ٣٥٠٠٠٠ وثيقة علّق الميلد إيست ووج عليها وكتب الملاحظات وصنّفها. خلال مطالعتها أشار فالج جبّار بأنّها تغطّي كل جوانب النظام خلال فترة تمتد من بداية عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٩١ .

ولتسهيل البحث تمّ تصنيفها إلى أربع فئات:

- شخصيات ومؤسسات: صدام حسين، علي حسن المجيد، طارق عزيز، الخ و رئاسة الجمهورية، مجلس قيادة الثورة، الجيش، المخابرات السريّة، حزب البعث ؛
- مواضيع: الأنفال، حلبجة، التعذيب، الإعتقالات ؛
- أحزاب، تنظيمات، أحزاب المعارضة (الحزب الشيوعي العراقي، حزب الدعوة، الأحزاب الكوردية) ؛
- جماعات طائفية: الشيعة، المسيحيّون.

نظام مدان بوثائق خطّها بنفسه

أغلب هذه الوثائق مُصاغة بأسلوب إداري ممل وموجز، هذه الوثائق هي مذكّرات ومراسلات وأوامر إعتقالات وتقارير عن المشبوهين ومراسيم رسمية ومحضر جلسات ونتائج إحصائية وقوائم رواتب أو أسماء (المنتمين لحزب ما) ونصوص تحقيقية وتحاليل.

- عن علي حسن المجيد على سبيل المثال فأرشيّفات ال IRDP تحتوي على ٧٢ ملفاً تخص بدوره إضطهاد الكورد مع تعليمات موقّعة بيده تعطي أمراً بحجز أموال، تدمير قرى ترحيل سكّانها والقيام بإعدامات جماعية. في رسالة مؤرّخة في ١٩٨٧ عقب وقت قصير من تعيينه على رأس منطقة الشمال كتب علي حسن المجيد: «نحن لا نعارض قطع رقبة الخائن ولكن من المفضّل أن ترسلوه أولاً إلى الأمن للإستجواب والتحقيق.»

- الوثائق عن الجيش وعن قوآت الحزب (الجيش الشعبي) هامة جداً لأنها تسمح بإدانة الضبّاط الذين يدافعون عن أنفسهم حينما يدّعون بأنّ الجيش لم يهتم بغير الدفاع عن الأرض. بالتأكيد، في البداية تخصّصت قوآت الجيش النظامية نظرياً بالدفاع عن الوطن في حين إهتمّ الجيش الشعبي بالوضع الداخلي ولكن خلال حرب إيران - العراق (١٩٨٠ - ١٩٨٨) تطوّرت مهمّاتهم مع الزمن: كانت القوآت في البداية مكلفتان بمهمّة الدفاع عن الأرض ولكن في نهاية الحرب، أثناء حملة الأنفال تمّ تكليفهما بالمحافظة على النظام. وهذه الأرشيفات تحتوي على وثائق عن دور القوآت المسلّحة في تدمير القرى الكوردية والترحيل والحصار الإقتصادي وكذلك أيضاً عن دورها بخصوص قمع التركمان والآشوريين.

- هنالك أيضاً العديد من الوثائق التي تبرهن بصورة قاطعة على الإستخدام المكرّر للأسلحة الكيماوية ضدّ الكورد وقد تمّ فحص ١١٣ وثيقة تتعلّق بحملة الأنفال و ٣٦٣ تخص حلبجة و ٤٧ وثيقة تتعلّق بالأسلحة الكيماوية. هكذا نجد من بين الوثائق المؤرشفة رسالة من رئاسة المخابرات العسكرية للسليمانية بتاريخ ٢٧ آذار ١٩٨٨ (بعد ضرب حلبجة بأحد عشر يوماً) نقرأ فيها: «في أعقاب قصف طائراتنا ومدفيعتنا لمنطقة حلبجة وخورمال قُتل حوالي ٢٠٠٠ عنصر من القوآت المعادية

للفرس ومن عملاء إيران.. لا تجد في هذه الوثيقة كلمة «كيمياوي» مطلقاً ولا كلمة «خاص» التي تشكل جزءاً من العبارات الرمزية التي يتم إستخدامها شائعاً ولكنها تؤكّد القصف بصورة واضحة.

- القمع وعنف الدولة معروضان بالتفاصيل في آلاف الوثائق حول الإعتقالات والحجز والتعذيب وعمليات البتر وقطع الرؤوس.

- الإبعاد والنفي، ميّز البعث فأختار «التسفير» للشيعية و «الترحيل للكلورد» حيث هناك آلاف الوثائق حول هذا الموضوع وباحثو ال IRDP قد قاموا بفحص ٥٨٢ ملفاً أولاً ووجدوا بينها وثائق تصف العمليات العسكرية لتدمير القرى وترحيل الشيوخ وتوقيف الشباب وكل هذا تنفيذاً للتعليمات الرسمية الصادرة مباشرة من مكتب رئيس الجمهورية.

- تدمير أهوار جنوب العراق.

تحتوي أرشيفات ال IRDP بشكل خاص على الوثيقة الشهيرة الصادرة بتاريخ كانون الثاني ١٩٨٩ التي إكتشفها الميدل إيست ووج وتجد فيها عرضاً ل «خطة العمل للأهوار» وأمرأ بتسميم المياه وحرق المنازل وتطبيق الحصار على المنطقة.

- دور المخابرات السريّة.

وهي تشكل مع حزب البعث والجيش العمود الفقري الثالث للنظام وقد لعبت دوراً كبيراً خلال السنوات الخمس والثلاثين للدكتاتورية. تحتوي الأرشيفات على آلاف الوثائق التي تبرهن مسؤوليتهم

إصالة هذه الوثائق وتسمتها القانونية

خلال الأشهر التي تبعت الإنتفاضة الكوردية والإستيلاء على الوثائق إتّهمت سلطات بغداد ولعدة مرّات الكورد والتحالف بإختراع وثائق مزوّرة تدين السلطات العراقية إعتباراً من أوراق بيضاء مكتوب على رأس صفحاتها أسماء الدوائر العراقية سرقوها أثناء إنتفاضة آذار ١٩٩١.

بالتأكيد لا ينبغي إستثناء هذا الإحتمال ولكن مثلما شرحها جوست هيلترمان في تقرير أولي حرّرها في عام ١٩٩٤ للميدل إيست ووج فالوثائق السريّة العراقية تشكل

جزءاً من شبكة معقّدة جداً من الوثائق المرقّمة مع ذكر العديد من المستندات والمراجع التي سبق تحريرها بحيث ينبغي على المزور أن يكون خارقاً جداً في المهارة وصبوراً لكي يتمكّن من إنتاج هذا الكم الهائل وبمحتويات متجانسة. ومع هذا فهناك بلا شك وثائق مزوّرة ونضيف بأنّه هناك أيضاً وثائق معيّنة أخفاها القادة الكورد والأمريكان قصداً عن المحقّقين الدوليين: حيث من الممكن أن يرى القادة الكورد مصلحة بمنع نشر بعض الوثائق التي تبرهن على حجم مشاركة العديد من رؤساء العشائر (الجاهش) مع السلطات البعثية. ومن الممكن أن يمنع الأمريكيان نشر الوثائق التي تشير بوضوح إلى مسؤوليتهم في الأعمال المرتكبة من قبل النظام العراقي قبل غزوه للكويت عام ١٩٩٠

هل يمكن أن تبرهن هذه الوثائق على إدانة صدام حسين وشركائه بجرائم خطيرة وخصوصاً بجريمة الجينوسايد مثلما كانت تأمل منظمّة الهيومان رايتس ووج في منتصف التسعينيات بتسجيل دعوى ضدّهم أمام المحكمة الدولية في لاهاي؟

هل تسمح هذه الوثائق بإدانة صدام حسين أمام المحكمة العراقية الخاصة؟

لكي يكون الرد بالإيجاب ينبغي ان تكون هذه الوثائق مسنودة على الصعيد القانوني ب «براهين» أخرى وبشهادات (هل يتجرأ الشهود؟) وكذلك بإثباتات الطب العدلي (إخراج البقايا البشرية من المقابر الجماعية ومن ثمّ فحصها وتحليلها - أنظر إلى فصل المقابر الجماعية بقلم سينجي ستويكا).

لكن يجب بدايةً عدم الإعتراض على إصالة هذه الوثائق ويجب عدم إدعاء أحد بأنّها زوّرت أثناء مرورها بين كل هذه الأيادي والإثبات بأنّها كانت مودّعة في مكان أمين ومحافظ عليها منذ خروجها من خزائن الدوائر العراقية حتّى ختم المحكمة العراقية الخاصة عليها.

حقول وساحات الموت لصدّام حسين

سينجي كارين ستويكا

باحثة آثار من ألمانيا، درست الأركيولوجي والأسيريولوجي في لايبزيغ .

بدأت التنقيبات في الشرق الأوسط منذ عام ١٩٨٩ شاركت في تنقيب المقابر الجماعية لمدينة الحضر بالتنسيق مع مكتب اتصالات جرائم النظام (العراق). تعمل الآن مع الجمعية الكوردية للمقابر الجماعية والأنفال في أربيل.

رئيسة ال ONG آثاريو الحقوق الإنسانية.

المقابر الجماعية في العراق

لحد هذا اليوم تم إكتشاف ٢٨٨ مقبرة جماعية في العراق ؛ وعدد المفقودين يُقدّر بمليون كائن بشري.

الجرائم التي إرتكبتها صدّام حسين ضدّ الإنسانية لم تكن في يوم من الأيام سرّاً لأحد فوجود المقابر الجماعية والحقيقة عن مذابح المدنيين كانت دائماً معروفة من الحكومات الغربية. لم يكن صدّام حسين مضطراً لإخفاء نشاطاته ؛ كان مدعوماً في السرّ ومحمياً من قبل الغربيين لأنّه دافع، بمعارضته لإيران، عن مصالحهم .

والعراقيون يعرفون أيضاً حقيقة هذه المجازر فالقوافل العسكرية المليئة بالسجناء المدنيين التي مرّت بمدنهم عادت خالية. الأفراد الساكنين قرب مواقع تنفيذ الإعدامات سمعوا صرخات الرجال والنساء والأطفال وسمعوا أصوات الطلقات النارية التي تلاها الصمت والسكون. إستعملوا هذه المواقع لمرات عديدة ؛ أخلوا منها أعداداً هائلة من الضحايا .

بالقرب من السجون ومراكز الحجز تتواجد مواقع أخرى أقل أهمية وهناك أيضاً مقابر جماعية حفرها الأهالي الذين يسكنون في المناطق الكوردية حيث كان على

الأحياء إيواء ضحايا الهجمات الكيميائية تحت التراب وكذلك قام الناس في الشمال كما في الجنوب بإيواء جثث مجهولي الهوية قتلهم خلال الإنتفاضات المتعدّدة في قبور هنا أو هناك.

وثمة شهود أسعفهم الحظ بالهروب من المذابح سردوا حكايتهم لمنظمة هيومان رايتس ووج. التحقيقات الأولية عن مجازر الكورد قامت بها مجموعة «Physicians for Human Rights» (أطباء الحقوق الإنسانية) في كوريم عام ١٩٩٢ حيث قُتل فيها ٣٠ ضحية تقريباً وقام الجنود العراقيون بتنفيذ الإعدامات بعد فصلهم عن الآخرين وإختيارهم بنية الترحيل. منذ عام ٢٠٠٤ فتّشت بعثة طبية - شرعية كويتية مقابراً جماعية تحتوي على جثث ٦٠٠ مواطن كويتي سجنهم وقتلتهم القطعات العراقية بعد غزوها للكويت (مفقودي الكويت). بدأ مكتب اتصالات جرائم النظام BLCR، المُشرف عليه من قبل الأمريكان، والمكّلف بمعاونة المحكمة العراقية الخاصة في دعوى قادة النظام السابق بأول نبش رسمي عام ٢٠٠٤ في موقع الحضر ويهيء BLCR بعثة ثانية لإرسالها إلى مواقع في جنوب العراق.

الجينوسايد المرتكب ضدّ الكورد المعرّف تحت تسمية «حملة الأنفال» هو تحصيل حاصل لعمليات عسكرية تمّ تنظيمها علنياً وتطلّب لوجستيكاً بمستوى عالٍ سواءً على صعيد الأفراد أو على صعيد البنى التحتية. هذه العمليات التي جرت ضدّ المواطنين المدنيين ذكروها علنياً في البرامج الإعلامية للسلطات العراقية ؛ فإذا كانت بالنتيجة معروفة من القنصليات والسفارات العالمية في بغداد.

وثمة عمليات عسكرية أخرى كتتنفيذ الإعدامات بالشيعة بعد إنتفاضة عام ١٩٩١ شكّلت إجراءات عقابية كان الغرض منها تحذير الطائفة بأكملها. تمّ في الواقع تنفيذ الإعدامات بالمنتفضين الشيعة وواروهم تحت التراب في الساحات العامّة ولا يسع المجال هنا لذكر كل حالات التعذيب والإنتهاكات لكثرة عددها.

خلال عملي حول المقابر الجماعية في العراق إكتشفت بأنّ الأرقام فقدت كل معانيها: إغتيال ٢٠٠٠٠٠ كوردي وقتل عشرات الآلاف من الشيعة وآلاف الأسرى....

كم يجب أن يكون العدد في المقابر الجماعية للبرهان على أنّ صدّام حسين كان مجرماً؟

المكتشفة على الأجساد تمّ تصنيفها بقصد التعرف على الضحايا. عصابات الجبين، الحبال، الخيوط، الثقوب في الملابس والعظام، الثياب الملوّنة بالدماء، العبوات والحشوات الفارغة تمثّل دلائلاً تسمح بإعادة تركيب مشهد الجريمة وسبب الموت.

....

تعريف هويّة الضحايا هو الهدف الاسمي سواءً على الصعيد القانوني أو على الصعيد الإنساني. لن يتم غلق الإجراءات القانونية ضدّ صدّام حسين وعلي حسن المجيد المعروف بـ «علي الكيمياوي» والمسؤولون الأحد عشر الآخرون لحزب البعث إلاّ بعد إتصال المحققين بأشخاص يشهدون على وحشية النظام. يجب ربط تقارير الشهود الذين شهدوا في جرائم ضدّ الإنسانية مع الأوامر الموقّعة من قبل قادة النظام . هكذا، سمح تحقيق دقيق حول الهويات الشخصية المعثور عليها في المقابر الجماعية للحضر بالوصول إلى الشخص الوحيد الذي خرج سالماً من عائلة مفقودة خلال حملة الأنفال لعام ١٩٨٨ كان عبدالله محمد حسين مقاتل بيشمركة في الجبال حينما احتلّت القوّات العراقية قرية سيدار التي تقيم فيها عائلته فقامت، وفقاً للشهود، بترحيل ثلاثة أرباع سكّانها - بضمنهم عائشة، زوجة محمد وكذلك سبعة من أطفالها ووالدته - فقادوهم إلى طوبزاوة، وهي معسكر تجمّع يتواجد في منطقة كركوك. تم فصل العوائل فنقلوا بشكل عام شيوخها إلى سجن نكرة السلطان الواقع في منطقة معزولة من العراق ومن ثمّ كانوا يتركون من يفلح في السفر يعيش الإحتضار والموت من الإعياء والإرهاق.

لم تستقر عائلته في طوبزاوة لوقت طويل حيث نقلوها إلى مواقع تنفيذ الإعدامات غير البعيدة عن الموقع الأثري للحضر فأعدموهم. في حفرة جماعية، تم التعرف على عائشة وعلي ثلاثة من أطفالها ولا يوجد أي أثر يخصّ الأطفال الأربعة الآخرين وأمّه الذين ربّما أقتيدوا إلى نكرة السلطان. تلقّى عبدالله محمد حسين هذه المعلومات الكئيبة عن عائلته برحابة صدر لأنّه يعيش في حالة يمزج فيها الأمل باليأس ويتمنّى الموت وعدم الإستمرار في العيش.

النساء اللواتي فقدن كل ذكور العائلة كانوا يعيشون وضعاً محرّجاً فالمجتمع الإسلامي التقليدي لا يقدر المرأة التي تحيا وحيدة بلا زوج ولا قريب من الذكور حيث تتحول حياتها الى صراع يأس لأنّها تعاني وضعاً إجتماعياً مهزوزاً وسط مجتمع

التحقيقات حول المقابر الجماعية في العراق تجيب على ضرورة ملحة: يجب أن يعرف الشعب العراقي مصير المفقودين. التشريحات الطبيّة - العدلية التي تعمل من أجل جمع البراهين ضدّ النظام البعثي السابق تغطّي جزءاً ضئيلاً من المجازر. سوف يقوم خبراء مكتب إتصالات جرائم النظام BLCR بإستخراج عينات من ال ADN لضحايا حملة الأنفال والورد الفيليين والبارزانيين والشيعية والسنة، إلخ.. ويستخدمها أمام المحكمة العراقية الخاصة كبراهين ضدّ النظام البعثي.

لكن لهذه التحقيقات هدفاً إنسانياً أولاً: معرفة هويّة الضحايا ونقلهم . أن حكم صدّام حسين كان كابوساً على العوائل ولن تنتهي مأساتها الأخيرة قبل التأكّد من مصير مفقوديهما والأمل الذي تعشعش في قلوبهم بقاء أحبّتهم يوماً تهاوى بعد مرور فترة قصيرة على الحرب التي أسقطت صدّام حسين. المحاولات الأولى للبحث اليأس عن المفقودين بدأت حال سقوط النظام وسخرية القدر أرادت بأن تكون بعض العوائل هي المسبّبة في إتلاف الدلائل التي تسمح بالتعرف على الأقارب لأنها قامت بنفسها بنهب القبور باليد العارية أو بالبلدوزرات.

كل مجزرة هي لوحة جريمة تسرد حكاية اللحظات الأخيرة لحياة كائن بشري وكل واحدة من هذه الضحايا تستحق المنزلة والإحترام والإمتعاض. المعلومات المتعلّقة بالمقابر الجماعية هي قبل كلّ شيء إحصائية: عدد الضحايا، حالة التحلّل، سبب الموت، جنس الضحية، العمر، الأغراض الشخصية، إلخ. ومع هذا فليست الجثث لوحدها تروي هذه المأساة: الأدوات التي ترافقها تقرب المحقّقين عن الضحية - الملابس، الجواهر، الصور الفوتوغرافية، النظارات، القلادات، الهويّة الشخصية، بطاقة التغذية، الأدوية وحتىّ المصاصات المعلّقة بجماجم المولودين الجدد وكل شيء آخر يعود إلى كائن بشري كان حياً يوماً ما .

إكتشفنا في الحضر بأنّ الرجال والنساء تم فصلهم ومن ثمّ إعدموهم وواروهم التراب كل جنس على حدة. النساء والأطفال بطلقة نارية واحدة على الجمجمة وغطّوا عيون القليل منهم فقط بالقماش ولم يشدّوا أيادي أيّة منهم وأمّا الرجال فقد ربطوا الواحد بالآخر وعصبوا عيون البعض وكمّموا أفواه البعض الآخر. الثقوب الكثيرة في الملابس والعظام ومئات الحشوات الفارغة تدلّل على حصدتهم بالرشّاش. المواد

يهملها. لا تقدر المرأة، بعكس الرجال، على الزواج مرة ثانية ولا بداية حياة جديدة إلا إذا تأكّدت من موت زوجها وفي هذه الحالة ينبغي عليها الإتيان ببرهان. يتمنى عبدالله مقابلة صدام حسين أثناء محاكمته والشهادة ضده. وبأن في سيدار قبوراً لعائشة ولإبنة ناصر ولبنتيه شيلر وشيرين.

منذ سقوط نظام صدام حسين كانت التنقيبات المهنية الجارية في المقابر الجماعية قليلة جداً والبعثة الأولى من الخبراء باشرت العمل بتاريخ تشرين الثاني ٢٠٠٤ في الحضر، جنوب الموصل، تحت إشراف ال BLCR. البعثة الكويتية التي تم ذكرها سابقاً تعمل باستقلالية حيث أنها تعرف عدد وأسماء الكويتيين بالإضافة إلى المواقع التي إختفوا فيها وقد بذلت الحكومة الكويتية جهداً كبيراً لجمع عينات ال ADN من الأعضاء الأحياء للعائلة لكي تستطيع مقارنتها مع جثث المازر. هذه الوسيلة سمحت بالتعرّف على نسبة عالية من الضحايا.

ومع كل هذا فمُنظّمات ال ONG والحكومات غير متحمّسة أبداً خوفاً من تردّي أوضاعها الأمنية وتفضّل إعداد العراقيين خارج البلد في ميدان الطب - الشرعي والانتروبولوجي والسبيل هذا لا يمكن أن يكون الأمثل لحل مشكلة العدد الهائل من المازر التي تغطّي العراق. بدلاً من صرف الملايين من الدولارات لتنظيم المحاضرات النظرية فيإمكان هذه الأموال خلق بنى تحتية في العراق تسمح بتنقيب المقابر الجماعية وإعداد المختصّين على الأرض. البنى التحتية تتضمّن مكاتب ومختبرات وقاعات لتشريح الجثث وآلات للحفر وأجهزة المختبر وأدوات النقل. تدريب العراقيين على أجهزة موجودة في الخارج يفتقرها العراق ولا يمكن العثور عليها لا يفيد ولا يعني شيئاً فكيف يمكنهم تطبيق ما تعلّموه على البقايا البشرية المستخرجة من المقابر الجماعية حينما يفتقرون إلى المنشآت الضرورية لتحليل الأجساد والحفاظ عليها بشكل صحيح؟

وقد تم بذل جهود لبناء الأساسيات الأولية في المنطقة الكوردية فحكومة كوريا الجنوبية أهدت أجهزة بقيمة مليون دولار لوزارة حقوق الإنسان في أربيل وبالإضافة إلى هذا فقد تم إتخاذ الإجراءات لبناء مشتمل يتكوّن من قاعة تشريح ومخزن ومكاتب تُستخدم كقاعدة دائمية لإستخراج البقايا البشرية من المقابر الجماعية التي كشفت في كوردستان.

العمل على مقبرة جماعية هو تحديّ نفسي قبل يكون تحدياً جسدياً ؛ يستوجب على الكادر الذي يتعامل معها إمتلاكه للخبرات كي يتمكن من التسجيل بدقّة وفي ظروف صعبة جداً. لا بد من إعداد الكادر على الأرض وعلى الضرائح نفسها ومرافقة ذلك بمحاضرات في الأنتروبولوجيا وفي التوبوغرافيا لتحديد أماكن الأجساد بدقّة ومحاضرات في المعطيات الشرعية وفي الجوانب العملية المرتبطة بإستخراج الجثّة، إلخ.

ومع هذا فكل المتطلّبات المذكورة سابقاً لا تتعلّق بغير الجانب العملي من تنقيب المقابر: تعريف وإستخراج الجثّة، تحرير وثائق الإستشهاد، مساندة العوائل نفسياً ومواساتها، تعويضها مادياً وأخيراً الوعي بمشكلة هذه المقابر وتحليلات ال ADN وبطرق التعرّف على الهوية: وترتيب كل هذه الجوانب في إطار قانوني.

كإستنتاج لمؤتمر عُقد في عمّان من ١٤ وإلى ١٧ كانون الثاني ٢٠٠٥ حضره رسميّون عراقيّون وممثّلون عن الأمم المتحدة وعن منظمّات حكومية عالمية وعن المنظمّات الأهلية العراقية والدولية فقد أصدرت الحكومة العراقية مرسوماً في ٢٠ شباط ٢٠٠٥ أعلنت حاجتها الملحة لإنشاء «مركز وطني للأشخاص المفقودين والمختفين» في العراق وطالبت مساندة المجتمع الدولي لها.

توضيح مصير الأشخاص المفقودين وعرض السلوك الوحشي لصدام حسين أمام المحكمة هي الشروط الأولية التي تسمح للعراق بتجاوز هذه الصدمة والمأساة الوطنية وبنناء مستقبل سلمي وأمن.

ساعات صدام حسين للموت

القائمة التالية تعطي المعلومات الخاصة بالمقابر الجماعية المعروفة، معلومات تحقّقت منها أعداد كبيرة من المنظمّات والسلطات من بينها: وزارات حقوق الإنسان في أربيل وفي السليمانية، منظمّات أنفال السليمانية وأربيل، تحالف السلطات المؤقتة، قوآت المارين (البحرية الأمريكية)، مكتب إرتباط جرائم النظام، ال CID ومنظمّات عراقية وعالمية لحقوق الإنسان. سوف تكون هذه القائمة غير متكاملة وربما ستبقى بهذه الصورة بسبب العثور في كل يوم على مقابر جماعية جديدة موزّعة في جميع أطراف العراق.

شمال العراق (كوردستان العراقية)

– المنطقة الصناعية قرب مدينة كركوك

مقبرة جماعية تبعد عن المدينة بحدود ١٢ كيلومتراً على طريق تكريت، بالضبط خلف معسكر للجيش تحتوي على ٢٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ كومة ترابية وعلى حوالي إثنا عشر قبراً مبنياً بالاسمنت مجهولة الهوية والكل يغطي مساحة هكتارين تقريباً. وفقاً للإتحاد الوطني الكوردستاني من الممكن أن يتعلّق هذا الموقع بضحايا الحملة التي قادها صدّام حسين ضدّ الكورد في أنفال عام ١٩٨٨ التي قُتل فيها أكثر من ١٨٢٠٠٠ كوردي.

أعلن شاهد عيان بأنّ الجنود الأمريكيين قاموا بإستخراج بقايا امرأة ترتدي ثياباً مدنية ووجدوا امرأة ثانية ملفوفة بالبلاستيك ومغطاة بدماء مجفّفة وقبر ثالث يحتوي على رجل إرتدى ثياب المقاتلين الكورد. يبقى الرقم الصحيح لعدد الضحايا مجهولاً.

– مدينة كركوك

مقبرة على أطراف محطة صناعية بين معمل تغليب الكوكا كولا وبين دار واحد من أبناء أعمام صدّام حسين. تراصفت فيها ١٦٠٠ قبر مجهول تقريباً وشكّلت خطوطاً تمتد على مسافة ٧٠٠ متراً. لحد الآن لا يعلم أحد ما يحتويها. تم العثور على جثتين فقط في نيسان ٢٠٠٣ تعود إحداها لرجل مقطّع الأوصال ويرتدي زياً كوردياً والثانية تخص شخص يلبس سترة وينظفون رياضي ملطّخ بالدماء.

يعتقد البعض بأنهم مدنيون أوقفتهم القوّات العسكرية العراقية بالصدفة في شوارع كركوك حين إستعادتها للمدينة بعد إنتفاضة ١٩٩١ وفقاً لشهود عيان كان الجيش العراقي يلقي القبض على كل من كان يتواجد خارج منزله ولكن روى جنود للقوّات العراقية بأنهم تلقّوا أمراً بالعمل هناك في عام ١٩٨٨ فوصلت إليهم عربات محمّلة بالجثث وقد أعلموهم بأنّه تم شنق هؤلاء جميعاً.

– كركوك قرب مدرسة الشرطة

مقبرة جماعية تحتوي على إثنا عشرة جثة تقريباً. إستناداً إلى أقوال أهالي المحلّة تم إعدام الضحايا خلال إنتفاضة عام ١٩٩١.

– قرية البشير - طوزخورماتو - كركوك

تمّ العثور على ٢٨ جسد لرجال شباب كورد قُتلوا مباشرة قبل تحرير كركوك في عام ١٩٩٩.

– ٣ كيلومتر في شمال شرق مدينة حلبجة

خمس مقابر جماعية تحتوي على ٢٠٠ ضحية كوردية ماتوا أثناء القصف الكيماوي في ١٦ آذار ١٩٨٨. تم إستخراج الجثث من إحداها من قبل منظمة أنفال السليمانية وتم كشف أربعة مواقع أخرى سوف تُستخرج منها الجثث كما هو متوقّع.

– بالقرب من دبس، محافظة كركوك

مقبرة جماعية تحتوي على بقايا ٢٠٠ طفل كوردي إكتشفوها في أيار ٢٠٠٣ ترجع هذه الإعدامات إلى إنتفاضة عام ١٩٩١ ولا تحتوي، بعكس المقابر العشرة الأخرى، على غير الأطفال وقد ردموا عليهم الحفرة مع دمياتهم.

– بين تكريت وطوزخورماتو

مقبرتين جماعيتين على شكل خندق تحتوي ربّما على مئات الضحايا.

– سليمانية

مقبرة جماعية واقعة في القسم الشمالي للمدينة وتحتوي تقريباً على ٩٠٠ جثة لضحايا كورد تم إعدامهم خلال إنتفاضة عام ١٩٩١ وتم تحديد مواقع سبعة خنادق أخرى في المنطقة نفسها.

– محافظة ذي قار، منطقة معزولة قريبة من الحدود الإيرانية

تم إكتشاف مقبرة حين إنشاء قناة وعثروا على سبعة خنادق يمكن إحتماءها على آلاف الضحايا وبالإمكان تحديد أصولهم بفضل شال (قطعة قماش خفيفة لتغطية الرأس) مصدره مناطق كركوك وكرميان.

– كوريم، ٤ كيلومتر في شمال مانكيش، مركز تابع لمحافظة دهوك

مقبرة جماعية يعود تاريخها إلى زمن حملة الأنفال ضدّ المدنيين الكورد في عام

١٩٨٨ قام بتحليلها فريق من الهيومان رايتس في عام ١٩٩٢ وإكتشفوا ٢٧ جثة جميعهم من الرجال وقد قتلوهم بالسلاح الأبيض.

- قرية طويزاوة، قرب معسكر جيش طويزاوة

مقبرة جماعية تشمل سبعة قبور يعود تاريخها إلى عام ١٩٨٨ وكل قبر يحتوي على جسدتين أو ثلاثة أجساد لرجال ونساء وأطفال كورد.

- مقبرة جيزنيكان/ به حه ركه، خارج أربيل قرب معسكرات الجيش العراقي

ضرائح مجهولة الهوية على المنحدر الجنوبي والغربي لمقبرة قديمة تحتوي ربّما على بقايا مواطنين كورد تم نقلهم جبراً وماتوا في المعسكر. فعلى سبيل المثال في ٢٤ أيلول من عام ١٩٨٨ إستدعوا ٢٥٠ آشوري وإيزيدي إلى مركز شرطة به حه ركه فوضعوا من حضر منهم في عربة عسكرية ولم يظهروا بعد ذلك مطلقاً وكان بينهم نساء وأطفال. العدد الكلي للضحايا بقي مجهولاً. عام ١٩٩٢ قام فريق الهيومان رايتس بالتنقيب في ٨٥ قبر من جيزنيكان فأكتشفوا بأن ٧١ من الضحايا لم يكن قد بلغ عمر البلوغ.

- بالقرب من قرية غوب ته به، كوردستان العراقية

مقبرة جماعية يعود تاريخها إلى زمن الهجمات بالغاز السام ضدّ المواطنين الكورد في عام ١٩٨٨ إكتشفتها السلطات الكوردية خلال سنوات التسعينات.

- مدينة أربيل، كوردستان العراقية

مقبرة جماعية بالقرب من معمل الاسفلت أكتشفت من قبل السلطات الكوردية وعدد ضحاياها مجهول.

- كركوك، داخل شركة متوسط

التقدير: ٢٥٠٠ جسد وكل قبر يحتوي على جثة واحدة. هذا الموقع يشكّل جزءاً من مذابح عام ١٩٨٨.

- واحد حزيران - كركوك

مقبرة جماعية بالقرب من حي الصناعة في جنوب دار حسن علي المجيد. عدد الضحايا مجهول. المذبحة ترجع إلى عام ١٩٨٨ وكلّهم على الإطلاق أطفال.

- جبل حميرين / طريق دوز / قاطع الحدّادية

يحتوي هذا القاطع على ١٧ أو ١٨ قبر داخل أرض زراعية.

- طوزخورماتو - تازه شار، داخل معسكر جيش طوزخورماتو

أجساد ٢٢ بيشمركة للإتحاد الوطني الكوردستاني والحزب الشيوعي تم رميهم ووضعهم تحت التراب في عام ١٩٨٨.

- قرية سقزلي على طريق كركوك - طقطق

يقع الموقع على بعد ٢٠ متراً من الطريق أمام معسكر الجيش. ٢٤ جسد للرجال يرجع موتهم إلى فترة الإنتفاضة في عام ١٩٩١.

- قرية ساري ته به، على طريق كركوك - طوزخورماتو

تمّ إكتشاف ٢٠ جسداً لحدّ الآن ولكن إستناداً لتأكيدات أحد الشهود فالعدد أكبر من هذا الرقم بكثير وللمذبحة علاقة بأحداث عام ١٩٩١.

- كركوك - طوزخورماتو، غرب طوزخورماتو

أربعة أجساد لرجال ماتوا خلال أحداث عام ١٩٩١.

- كركوك - حيّ الصناعة، شركة متوسط ٢٥

وضعوا ٤٣ جسداً في قبور منفصلة وتمّ التعرف على هوية ثمانية منهم ؛ سلّمتمهم منظمّة الصليب الأحمر العراقية إلى عوائلهم والأجساد الخمس والثلاثين الباقية موجودة في مستشفى آزادي.

- قرية حصار / شوان ريدار

التقديرات: ١٤٠ جسداً لموتى في عام ١٩٩١.

- قناة الري / طريق كركوك - رياض

عدد الجثث غير معلوم ولكنهم يعودون إلى عام ١٩٩١.

- خانقين، شمال العراق (كوردستان)

مقبرة جماعية، العدد مجهول.

- قرية ملك شا - خانقين

إستناداً إلى تقرير شاهد، تحتوي على ١٥٠ جثة من الكورد المُدمين في عام ١٩٩١.

- خانقين

موقع يتكوّن من قبور، كلّ الضحايا من النساء ولا نملك معلومات أُخرى إضافية.

- خانقين

يحتوي على ٣ جثث وقد أعدموا الضحايا في ١٣ آذار من عام ١٩٩١.

- كركوك - مشروع القاعدة أمام معسكر جيش خالد

لا نملك أي معلومات أُخرى.

- إمام قاسم - كركوك

مقبرة طالبان تحتوي على ٦ أجساد أدموهم في عام ١٩٩١.

- كركوك، مقبرة شيخ محي الدين

تحتوي على ضحايا جيمن، خالوبازي، زنكنة وقواطع أُخرى، إختفوا في عام ١٩٨٧

- كركوك - ساحة طيران

يرتبطون بأحداث عام ١٩٧٥. بلا أي معلومات أُخرى.

- معسكر سه رداو للجيش، محافظة السليمانية

أكثر من أربع مقابر جماعية في معسكر عراقي قديم، ثلاثة منها كانت معروفة في سنوات التسعينيات ولكن الرابعة تم إكتشافها فقط في شهر شباط من عام ٢٠٠٣ وتحتوي على ستة أجساد لشباب كورد يرتدون الزي التقليدي الكوردي. أربعة منهم شباب صغار وعمر الإثنان الآخران عشرون سنة. هنالك دماء على ملابسهم وأثار طلقات نارية على جماجمهم. تم إعدامهم، وفقاً للسلطات الكوردية في عام ١٩٨٣ أثناء الهجوم على معسكر قوشته به في أربيل. ينتظر المواطنون العثور على مقابر جماعية أُخرى في المعسكر والتحقيقات جارية.

- الحضر، جنوب الموصل

تسع مقابر تحتوي على ما يقارب عن ١٥٠ ضحية لحملة الأنفال. فتح مكتب إرتباط جرائم النظام خندقين بين شهر آب وشهر تشرين الثاني لعام ٢٠٠٤ إستخرجوا منها ١٩٢ جسداً. أحد الخنادق كان يحتوي على النساء والأطفال والثاني على رجال ربطوا أدهم بالآخر وشدوا عيونهم. النساء والأطفال ماتوا بطلقة نارية على جماجمهم وأما الرجال فقد حصدهم بالرشاشات. تم إكتشاف مقابر جماعية أُخرى على بعد كيلومترات من هذا الموقع، قرب فندق الحضر.

مركز العراق

- محاويل، قرب الحلة، على مسافة ٩٠ كيلومتراً من جنوب بغداد

مقبرة جماعية تحتوي على ٣٠٠٠ ضحية نفترض بأنهم أعدموا في عام ١٩٩١ أثناء إنتفاضة الشيعة ضدّ صدام حسين وتُعتبر من أكبر المجازر المُكتشفة لحدّ الآن في العراق. أعلن واحد من أهالي المنطقة بأنّ إعدامات المحاويل إستمرت لمدة ٦ أسابيع، من آذار إلى نيسان ١٩٩١: قُتل بين ١٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ شخص أي بمعدل ٢٠٠٠ في اليوم الواحد. يبدو بأنهم واروا (البعض) التراب وهم أحياء. أهالي المحاويل يعرفون أين تتواجد المجازر وبدأوا مؤخراً بالنباش ولكن للأسف الشديد إستخدموا الجرّارات الزراعية وكشفوا غالباً الجثث بالعشرات في آنٍ واحد. ردموا الحفر على بعض الضحايا مع حافظات الأوراق والنقود وهوياتهم وتمّ كشف آخرين بفضل عويناتهم، مفاتيحهم أو أي أدوات شخصية أُخرى. تمّ التعرف على ٦٥ فرداً تقريباً يوم ١٤ أيار من عام ٢٠٠٣ .

- مناهل، ٩٠ كيلومتراً جنوب بغداد

مقبرة في ناحية مناهل تحتوي على أكثر من ٢٠٠٠ جثة في حالة تحلل معظمهم مدنيون ولكن يتواجد بينهم عسكريون أيضاً. كدّسوا الأجساد ورموا الواحد على الآخر فكان لأحدهم رجلاً إصطناعية وآخر يرتدي فانيلة مكتوب عليها Paradise Island «أي جزيرة عدن». الكثير منهم كانوا معصوبي العيون.

– محمد سكران، ٤٠ كيلومتراً شمال بغداد

وهو اسم لمجزرة سرّية مخفية تحت أرض مقبرة مدنية تحتوي على عدد كبير من الضرائح وأكثر من ١٠٠٠ ضحية من بينهم محمد سكران الذي عرفها بإسمه. كانوا قد أعلموا أهالي القرية بأنّ الجثث تعود إلى أشخاص بلا عوائل ولكن وثائق المخابرات العراقية كشفت بأنّ الحكومة العراقية أعدمتهم. إكتشف أحدهم وسط الضحايا ثلاثة من أبناء أعمامه وهناك بين من تمّ التعرف عليهم شيعة عراقيين وكورد، رجال ونساء. إستناداً إلى التحقيق الذي قامت به منظمة هيومان رايتس ووج لقد أعدمهم بين عام ١٩٧٩ و١٩٩٩ .

– سلمان باك، قرب المدائن، على مسافة ٣٠ كيلومتراً من جنوب بغداد

مقبرة جماعية في مكان مجمع عسكري متروك وتحتوي على أجساد سجناء سياسيين وجنود فروا من العسكرية. أربعة باصات مليئة بالركاب قدمت إلى هذا المكان وهؤلاء تم إعدامهم بتاريخ ٤ نيسان ٢٠٠٣ أعلن الأهالي بأنهم أروا أكثر من ١٠٠ جثة تحت التراب. الضحايا - رجال شباب - قُتلوا قبل خمسة أيام من سيطرة القوات الأمريكية على المنطقة. تُعتبر هذه المقبرة إذاً حدثها. معظم الضحايا كانوا يأتون من حي فقير في بغداد يسكنه الشيعة ومعروف تحت تسمية مدينة صدام. يرتدي معظمهم زياً عسكرياً وآخرون بجامات مقلّمة للسجناء. عيون بعضهم كانت معصوبة ووضعوا أكياساً على رؤوس البعض الآخر. أيادي الكل كانت مشدودة خلف الظهر وتم إعدامهم من وراء بطلقة نارية على الجمجمة. قام أعضاء من ال British Inforce Foundation بفحص هذا الموقع. عدد كبير من العوائل كانت قد قامت بإستخراج موتاهم.

– معسكر فدائيين في بغداد

مقبرة تحتوي على ما لا يقل عن ٢١ سجين سياسي قادمين من محلات الثورة (بغداد)، من العمارة والبصرة حيث تم إعدامهم في ٢ آذار من عام ٢٠٠٠ وواروا الجثث تحت التراب ليلاً داخل معسكر بغداد .

– الزاهدي، الضاحية الغربية من بغداد

مجزرة سرّية تقع بالقرب من مقبرة مدنية وضعوا فيها جثة ١٠٠٠ سجين سياسي.

إستناداً إلى شاهد عيان كانت الجثث تأتي بعدد عشرة إلى خمسة عشرة في كل مرّة من سجن أبوغريب ومن ثمّ تُشعل فيها النار من قبل السكنة المحليين. في ١٠ كانون الأوّل من عام ١٩٩٩ تم قتل ١٠١ سجين في أبوغريب خلال يوم واحد فقط وفي ٩ آذار من عام ٢٠٠٠ تم إعدام ٥٨ سجيناً في آن واحد. الجثة الأخيرة التي دفنوها كانت تحمل الرقم ٩٩٣ .

– صحراء الأنبار، غرب بغداد

مقبرة جماعية تحتوي على آلاف الضحايا. ذكر شاهد عيان بأن ٢٠٠ كوردي نقلوهم في عربات تسع ١٢ إلى ١٥ فرداً بلا ماء ولا نظام تهوية وقد أفهمهم بأنّ الأمر يتعلّق بنقل إجباري للمواطنين ولكن تم إغتيال من بقي حياً في السفارة. رموا في هذه المقابر آلاف الناس من الشيعة أيضاً ودموها بالتراب. البعض منهم كان مصطفاً حينما رموهم بالرشاشات ومن ثمّ وضعوهم تحت الرمال ودموا الحفر على البعض الآخر وهم أحياء. العدد الصحيح من الضحايا مجهول.

– معسكر المحيوير، شمال صحراء الأنبار

مقبرة. وفقاً لشاهد عيان صفّفوا السجناء على خط يمتد لأكثر من ٣ كيلومترات. كان هناك ضابط عسكري يطلب من كل واحد منهم اسمه وقبل أن يتمكّن الأخير من الإجابة عليه يُقتل بطلقة نارية في الجمجمة. العدد الصحيح من الضحايا غير معلوم.

– ثرثار، شمال غرب بغداد

مقبرة جماعية هائلة تقع على أطراف «القصر الأخضر» لصدام حسين تحتوي على ضحايا كورد وشيعة. تم إقتياد الآلاف منهم نحو الصحراء في إطار إدعاءات «نقل المواطنين». مات الكثير منهم في الطريق والأحياء منهم تم قتلهم أو رموهم في حفرات كبيرة ودموها بالتراب وهم لا زالوا أحياء.

– منطقة خان ضاري، غرب بغداد

مقبرة جماعية تحتوي على أجساد سجناء سياسيين من سجن أبوغريب في بغداد. في ٢٦ كانون الأوّل ١٩٨٨ أعدموا ١٥ ضحية ودفنوها ليلاً.

– جرف الصخر، مركز العراق

مقبرة جماعية تحتوي على ٤٣٠ ضحية.

– معسكر بالقرب من قرية المراجعة، على ضفاف بحيرة الحبانية

مقبرة جماعية هائلة على أرض قرية سنّية. خندق واسع يمتد لمئات الأمتار من الممكن إحتواءه، إستناداً إلى تقدير عنصر من المخابرات العراقية العامة، على أكثر من ٤٠٠٠ جسد. الموقع تمّ التنقيب فيه من قبل فرق طبيّة - عدلية تابعة للقوّات الأمريكية. في ١٢ أيّار من عام ٢٠٠٣ إستخرجوا ١٢ جسداً فإكتشفوا بأنّ ثمانية منهم قُتلوا بطلقات نارية في العنق.

– مدينة كربلاء

مقبرة شيعة بالقرب من الآثار المقدّسة للحسين، حفيد النبي محمد (ص). يقدر عدد الضحايا بـ ٥٠٠٠، تم إستخراج ٤٥ منهم في ١٦ أيّار ٢٠٠٣.

– في الجنوب من بابل، ١٠٠ كيلومتراً جنوب بغداد

مقبرة جماعية بالقرب من خرائب قديمة تعود إلى عام ١٩٩١. في أيّار ٢٠٠٣ تم إكتشاف ٣٥ جثة. وجدوا العظام مغلفاً بأغطية ملطّحة بالدماء وللجامح ثقوب مثنّثة الشكل. يعتقد المارينز الأمريكيان بأنّه ربّما تم إجراء تجارب على هؤلاء السجناء. وآخرون ماتوا بطلقات نارية. وجدوا بين الضحايا أطفال بعمر ١٠ إلى ١٢ سنة.

جنوب العراق

– الحبانية، ضاحية البصرة

جثث تم دفنها في دورة تقع على طريق ساحة سعد. عددها من ٤٠ إلى ٦٠ ضحية (مدنيون شيعة). رأى شهود عيان في عام ١٩٩١ بلدوزرات تدفن الأحياء والأموات في الفترة التي إنتفض فيها شيعة البصرة ضدّ نظام صدام حسين.

– أطراف المشراق الجديد، قرب ساحة سعد في البصرة

مقبرة جماعية تحتوي تقريباً على ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ضحية، مدنيون من المجتمع الشيعي دفنوا بعد إنتفاضة ١٩٩١. لم يتم بعد تحديد المكان بالضبط.

– ٣,٥ كيلومتر جنوب غرب مدينة خان الأحمد

تم العثور على مقبرة جماعية في منطقة صحراوية تحتوي على كورد عراقيين كانوا قد قُتلوا في منتصف الثمانينيات وعددهم غير معلوم. قام الناس بنهب الموقع وإستخرجوا ١٧ جثة. توقّفت التحقيقات لأنّ عدد الأجساد كان كبيراً جداً.

– الحيدرية، خان الناس/ كربلاء

جنوب كربلاء نحو النجف، عثروا على ١٢ جسداً داخل مساحة مترين مربعين. يُقدّر عدد الضحايا بـ ١٠٠٠ تقريباً.

– قرية داهر، محلة الفجر/ ذي قار (الناصرية)

تقع بين قرية زاهر والنهر الثالث للقائد، في الضفة الشرقية وهي على بعد ٣٥ كيلومتراً من محلة الفجر.

– أبو شكر، محافظة الديوانية

على بعد عشر كيلومترات من حدود محافظة النجف. دون أي معلومات أخرى.

– الحبانية

في محافظة الأنبار بالقرب من معسكر الطاش المخصّص للكورد الإيرانيين المُسفرّين، تقع خلف معسكر للحرس الجمهوري.

– تل صنعان

تقع في المثلث الحدودي بين العراق والسعودية والكويت. دون أي معلومات أخرى.

– رمادي

تقع هذه المقبرة على أطراف الرمادي وإستناداً إلى شهادات ثلاثة من الأحياء فالضحايا هم كورد عراقيين رحّلهم ومن ثمّ قتلهم خلال حملة الأنفال. عددهم غير معلوم.

– قرب مدينة العمارة، محافظة ميسان

وفقاً للشهود فقد حجزوا عدداً كبيراً من الكورد في السجن. السجناء الذين ماتوا تم

دفنهم بلا تحديد هوية في المقبرة الشهيرة للعمارة المعروفة باسم مقبرة ثورة ١٩٤١ .
من الممكن العثور على آلاف الضحايا فيها.

– منطقة معزولة بالقرب من الحدود مع الكويت

وفقاً لشهود هناك مقبرة تحتوي على ضحايا كورد ومن المحتمل وقوعها في منطقة صحراوية قرب الحدود الكويتية. عدد الضحايا مجهول.

– منطقة معزولة، قرب حدود العراق مع السعودية

إستناداً إلى شاهد من المحتمل العثور على مقبرة قرب مدينة العرّار، داخل أراضي المملكة العربية السعودية.

– المقابر الجماعية لشركة النفط العراقية قرب جامعة البصرة

مقبرة جماعية قرب الجامعة حيث زارها ممثلون من الأمنستي الدولي (المنظمة الدولية لحقوق الإنسان) في شهر أيار من عام ٢٠٠٣ . حسب بعض المعلومات جعلها علي حسن المجيد (علي الكيماوي) مكاناً لتنفيذ الإعدامات ووفقاً لشاهد عيان إغتالوا في هذا الموقع بين ٢٠ إلى ٢٥ رجلاً و ١٠ نساء في عام ١٩٩١ . يبقى العدد الكلي للضحايا مجهولاً.

– خارج مدينة البصرة

مقبرة جماعية تحتوي على ٣٥ جثة نُفِّذَ عليهم حكم الإعدام في عام ١٩٩١ . قام مدنيون عراقيون بنبش القبور وإستخراج الأجساد وعثروا فيها على هويّات شخصية.

– خارج مدينة البصرة

مقبرة جماعية تحتوي على ١٥٠ جثة من الشيعة أعدمهم صدّام حسين في عام ١٩٩٩ بعد المظاهرة التي تبعت إغتيال شخصية دينية شيعية. عيون العديد من الضحايا معصوبة وأيديهم مشدودة خلف الظهر.

– قرب معمل غاز الأندلس في شمال غرب البصرة

مقبرة جماعية فتحتها في نيسان ٢٠٠٣ عوائل تبحث عن أقاربها المفقودين. وفقاً لشاهد عيان تم إقتياد ١٧ شخصاً إلى هذا المكان في عام ١٩٩١ وأعدموهم ومن ثم ألقوا بجثثهم في حفرة. تمّ التعرف على هويات سبعة منهم لحدّ الآن.

– أرض معزولة في غرب الزبير، قرب البصرة

مقبرة جماعية مكتشفة منذ شهر نيسان من عام ١٩٩٩ وتحتوي على ما يقارب ٨٠ إلى ١٠٠ ضحية. ذكر شاهد عيان بأنّه تم حفر ثلاثة خنادق رموا فيها سجناء معصوبي العيون ومشدودي الأيدي وقام بعد ذلك رجال يرتدون الزي العسكري برميهم بالمسدّسات والرشاشات ومن ثمّ ردم بلدوزر الحفرات. زارت منظمة هيومن رايتس ووج الموقع في نيسان ٢٠٠٣ .

– ٤٠ كيلومتراً غرب البصرة

مقبرة جماعية تبعثت عليها قنابل الهاون وذخائر أخرى عسكرية غير منفجرة لذلك من الصعب التنقيب فيها. زارها فريق من الهيومان رايتس ووج. عدد الضحايا غير معلوم.

– الفضيلية قرب أبو الخصيب، جنوب البصرة

مقبرة جماعية تحتوي على مئات الأجساد، إستخرجوا منها ٤٠ جثة. فحصها ممثلون من الأمنستي الدولي (المنظمة الدولية لحقوق الإنسان) في أيار ٢٠٠٣ وحددوا بأنّ الإعدامات تعود إلى سنة ١٩٩١ ، تعرّف إثنان من المدنيين العراقيين على والديهم بفضل ملابسهم.

– قرب المدينة التاريخية - أور -

مقبرة جماعية تحتوي على ١٥٠ إلى ٢٠٠ ضحية تقريباً (من عرب الأهوار ربّما). تم إكتشافها من قبل السراق والمهربين الذين حفروها بحثاً عن الذهب والجواهر الأخرى فعثروا على جثث مع بقايا جلود وشعر وخرق لأزياء عربية. لكل ضحية ثقب في الجمجمة وكانّهم ماتوا إعداماً بالرصاص.

– قرب السماوة، ١٧٠ كيلومتراً جنوب بغداد

مقبرة جماعية مكتشفة منذ حزيران ٢٠٠٣ . يحقّق فيها خبراء كويتيون وأمريكان فيما إذا تواجد بينهم البعض من الستمئة الكويتيين، سجناء الحرب الذين إختفوا منذ عام ١٩٩١ .

٢٠ كيلومتراً في شمال مدينة النجف

مقبرة جماعية داخل مزرعة، تحتوي على ٧٢ جسداً للرجال والنساء إكتشفوها في شهر أيار من عام ٢٠٠٣. تم تنفيذ الإعدام بهم خلال إنتفاضة ١٩٩١ بعض الجثث أيديها مشدودة من الخلف وعيونها معصوبة. طلقات نارية وقطع نقود وأمشاط وساعات وهويّات شخصية كانت مدفونة معهم.

– الشنّافية، ديوانية

تقع المقبرة الجماعية على بعد ٧٠ كيلومتراً من جنوب غرب مركز المدينة. أُعدم فيها ١٠٠٠٠ شخص تقريباً.

– شرق نكرة السلطان

مقبرة جماعية تقع على أطراف سجن نكرة السلطان. تحتوي ربّما على ضحايا حملة الأنفال من الكورد. نهج عددهم. ثمّة منخفضات أخرى في شمال السجن وكذلك ثياب وممتلكات شخصية مبعثرة هنا وهناك.

– ٣٥ كيلومتراً في شمال شرق السلطان

مقبرة جماعية تحتوي على ١٠٠٠ جسد تقريباً. من المحتمل أن تكون الضحايا عوائل كوردية أعدموها خلال حملة الأنفال. أُجريت عليها تقييمات وتنقيبات محدودة من قبل منظمات مختلفة. كشفوا في هذا الموقع سلسلة من الحفر تبعثرت فيها الملابس والممتلكات.

– قرب مدينة البوصويا

حسب المعلومات التي قدّمها مركز أنفال السليمانية، تحتوي هذه المقبرة الجماعية على بقايا ٨٠٠٠ بارزاني إختفوا منذ عام ١٩٨٣ تم إكتشاف مقبرتين جماعيتين في المدينة. ذكر شهود بأن قافلتين عسكريتين عبرتا المدينة وهي تحمل مدنيين (٦ باصات في كل مرة). القافلة الأولى كانت تحمل رجالاً شباب والثانية تحمل النساء والأطفال. بعد مرور ساعتين مرّت القافلة في الإتجاه المعاكس فارغة من الركّاب.

لماذا ينبغي محاكمة صدام حسين من قبل العراقيين

أندريه بوبار

أستاذ شرف في القانون، جامعة مونتريال، كندا

إختصاصي في القانون المدني والدستوري

يتطوّر نظام العدالة بنفس الإيقاع وفي نفس الإتّجاه مع تطوّر مجمل القيم في المجتمع. بشكل عام، المجتمعات التي طوّرت وتبنّت النظام الديموقراطي هي نفسها التي وضّحت تدريباً شروط محاكمة عادلة ومنصفة.

المبادئ المُعتمَدة في الديموقراطية (سلطة سياسية) هي ذاتها المُعتمَدة خلال محاكمة (سلطة قضائية). يستند مفهوم المحاكمة العادلة والمنصفة على مجموعة من القيم التي تعتبر من أساسيات الديموقراطية: الكرامة الإنسانية التي تنهى العقوبات الوحشية والمسيئة، مساواة الأفراد بغضّ النظر عن جنسهم وعمرهم، الحرّية التي تُؤكّد فرضية البراءة التي لا يمكن إلغائها إلاّ عن طريق تطبيق إجراءات وقواعد البراهين المتناقضة التي تستثني الاعتباطية والإستبداد.

فعلى سبيل المثال، تجد، بصورة واضحة ودقيقة، هذه القواعد والقوانين الخاصّة بالمحاكمة العادلة والمنصفة، المستندة على حق أي فرد في الحياة وفي الحرّية وفي حماية نفسه داخل الدستور الكندي في فصل الحقوق والحرّيات:

١٠- يحق لكل فرد يتم توقيفه أو حجزه

أ- أن يُعلم في أقرب فرصة ممكنة بأسباب توقيفه أو حجزه ؛

ب- أن يتمكّن الإعتماد على مساعدة محامي وأن يُعلم بهذا الحق ؛

ت- أن يطلب تدقيق شرعية حجزه أو تحريره في حالة إنعدام سبب وجيه ؛

ث- أن يتم محاكمته في مهلة معقولة ؛

ج- أن لا يكون مُجبراً على الشهادة ضد نفسه في أي دعوى مقامة ضده بسبب

الإنتهاك الذي يلومونه عليه ؛

ح- أن يُعتبر بريئاً ما لم يتم إثبات ذنبه، طبقاً للقانون، من قِبَل محكمة مستقلة وغير متحيّزة في أعقاب محاكمة علنية ومنصفة ؛

خ- أن لا يُحرّم بدون سبب عادل من الحرّية بضمانة وكفالة معقولة ؛

و- باستثناء المخالفات الخاصة بالقضاء العسكري، أن يتم محاكمته من قِبَل قاضي حينما تكون العقوبة المتوقّعة للمخالفة المُدان بسببها سجنًا لخمس سنوات أو أكثر ؛

ي- أن لا يتم إعلان إدانته بسبب فعل أو سهو لم يكن يشكّل خرقاً حسب القانون الداخلي لكندا أو القانون الدولي ، في لحظة وقوعه، ولم يكن له صفة جنائية حسب المبادئ العامة للحقوق المُعترف بها من قِبَل جميع الأمم ؛

ع- عدم محاكمته من جديد لمخالفة تم إعلان براءته منها نهائياً، هذا من جهة ؛ ومن جهة ثانية أن لا يُحاكَم ولا يُعاقَب من جديد لمخالفة تم إعلان إدانته وعقوبته بصورة نهائية ؛

ق- أن يُدان بالعقوبة الأقل شدةً حينما يكون قد تمّ تعديل عقوبة مخالفته التي حوكم بسببها بين لحظة ارتكاب المخالفة ولحظة النطق بالحكم.

١٢- لكل فرد الحق في الحماية ضد أية معاملة أو عقوبة وحشية وغير اعتيادية.

جميع هذه الأحكام تشكّل، لأغراض قضائية، توضيحاً دقيقاً في الحقوق الأساسية المُعترف بها في الديمقراطية الليبرالية الدستورية.

تتطوّر الديمقراطية وحقوق كل مذهب (حتى إذا كانت المحكمة القضائية غير ديموقراطية) على نفس الوتيرة لأنّ الإثنان يعتمدان نفس الحقوق الأساسية المتّجهة نحو التكامل والوضوح. لن تكون حقوق المذنب إذاً محمية بحق إلا في مجتمع ديموقراطي وبالعكس، ومن الوهم التفكير في إمكانية تحقيق محاكمة عادلة ومنصفة داخل مجتمع يرفض الديمقراطية والقيم التي تساندها.

محاكمة صدام حسين التي سوف تبدأ بعد الانتخابات الوطنية بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ٢٠٠٥ من المحتمل جداً أن تؤثر عليها نتائج هذا الإستفتاء الشعبي. إختيار القضاة، صرامتهم وتراخيهم، فهمهم وتفسيرهم للحق يمكن أن يختلف. التأثير النسبي للقانون الوطني والقانون الدولي يمكن أن يتموَج ويتقلّب. الحق الإيجابي ذاته من الممكن أن يُغيّره المجلس الوطني.

لا يعدو الحق في كونه أكثر من عنصر في كيان أخلاقي يتطوّر باستمرار. كل مشكلة قضائية وكل قرار قضائي يدخل ضمن هذا الإطار. المحامون والقضاة ذوي المستويات الجيدة يحلّون هذه «الغشاوة الأخلاقية» ويستقرأون منها القيم الحقيقية لحل المسائل. كل محاكمة تسمح بتحديد الأهداف الأخلاقية لكل مرحلة ولكل مجتمع. محاكمة صدام حسين سوف تقدّم فرصة للعراقيين لتعريف قيمهم الجماعية من جديد.

في ١٤ نيسان ٢٠٠٣ نشرت منظمة حقوق الإنسان (Amnesty International) وثيقة هامة حول الإجراءات التي يجب إتباعها لكي يتم تسليم الأشخاص المسؤولين عن إنتهاك الحق الدولي الإنساني في العراق إلى العدالة.

تصر الوثيقة على عدد معيّن من الحقوق الأساسية التي يجب إحترامها:

- الإستقلالية وعدم تحييز المحكمة،

- غياب المعايير الإنتقائية،

- غياب حق التقادم (الزمني)،

- رفض أي صفح أو عفو،

- الإنصاف في المحاكمات،

- تحريم التعذيب وعقوبة الموت،

- التعويضات للضحايا.

في ظل هذه المبادئ يجب الحكم على القرار القاضي بتأسيس المحكمة الخاصة في العراق.

في ١٠ كانون الأول ٢٠٠٣ ، أي ثلاثة أيام قبل إلقاء القبض على صدام حسين، أنشأ الحاكم الإداري الأمريكي السابق بول بريمر المحكمة الخاصة العراقية المكلفة بمحاكمة الأشخاص والمواطنين العراقيين أو القائمين في العراق الذين ارتكبوا الجرائم بين تاريخ ١٧ تموز ١٩٦٨ وإلى ١ أيار ٢٠٠٣.

شرعية هذه المحكمة نفسها يمكن التساؤل بشأنها لأنّ سلطات الإحتلال لا تقدر على تبني قرارات دائمية. من الممكن بالتأكيد التحجج بأن هذا القانون لن يكون دائماً: أنّه (القانون أو التشريع) ينشئ محكمة بالضرورة مؤقتة لأنّها (المحكمة) تفقد صلاحيتها بعد إنتهاء فترة التوصية هذا من جهة ومن الجهة الثانية فكل كادر في المحكمة تم

تعيينه لفترة قصوى لا تتجاوز خمس سنوات. يمكن الإدعاء إذاً وبمشروعية بأن هذا القانون لا يملك غير الصفة المؤقتة.

كانت هناك عدة إمكانيات معروضة أمام السلطات لمحاكمة صدام حسين. لنلاحظ قبل كل شيء بأنه إستناداً لتقليد عراقي أصبح ثابتاً فرئيس الدولة بعد تنحيته كان يخضع عموماً إلى عدالة شكلية سريعة ومن الغرابة أن تُعرض على الدكاتور الأكثر دموية في تاريخ البلد محاكمة تجري وفقاً للمبادئ القانونية مهما كانت الإنتقادات الموجهة إليها في مجال إحترامها للقانون الدولي. أن واحد من المستفيدين الوقتيين للتواجد الأمريكي في العراق هو صدام حسين نفسه.

يمكن تنظيم محاكمته في العراق ومن قبل العراقيين. هذا الحل يمكن أن يسمح بتطهير حقيقي للمجتمع العراقي ولكن في المقابل سوف تكون هذه المحاكمة شبيهة جداً بمحاكمات نورنبيرغ التي رآها البعض فعلاً إنتقامياً وإعتبرها البعض الآخر تعبيراً عن عدالة المنتصرين. هذه العدالة في يومنا هذا غير مقبولة لأن المعايير والقيم الدولية تطوّرت. هذا الشكل من المحاكمات يلاقي معوقات مادية:

هل يوجد في العراق هيكل قانوني قادر على ترتيب هكذا محاكمة؟

أي نوع من الإستقلالية تتكفل به المحكمة؟

من الذي يجمع البراهين والإثباتات لطرفي القضية؟

لإعتبرات مبدئية ومادية فالمحاكمة العراقية المطلقة غير محبذة وبالأخص لأن للقضية أذرة دولية (الإعتداء على إيران والكويت) إضافة إلى جوانبها الإنسانية العراقية.

وفي الطرف الآخر من الشبح يمكن التفكير بتنظيم محاكمة دولية مئة بالمئة. لا يمكن التفكير بإنشاء محكمة جنائية دولية كخيار لأنها لا تستطيع محاكمة الأفعال السابقة لتأسيسها ولأنها غير مُعترف بها من قبل الولايات المتحدة ولا من قبل العراق. علاوة على الإعتبرات الخاصة بالقانون وبالإعتراف بالعراقيين لا يقبلون بتجريدتهم من مسؤولية محاكمة قادتهم السابقين. وأخيراً فبعض الدول أعطت لنفسها صلاحية كونية في مجال محاكمة جرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب. إذا طُلب منها فبإمكانية تلك المحاكم محاكمة صدام حسين وأعوانه ولكن أية دولة تقبل بتحمل هذه المسؤولية وتحمل النفقات والإلتزامات المرتبطة بهذه المحاكمة؟

وأخيراً فالحل الذي إختاره القانون حول المحكمة الخاصة العراقية نظراً للوضع الخاص في العراق هو أن يُحاكم صدام حسين في محكمة وطنية تساندها كفاءة وخبرة القانونيين والقضاة الدوليين. هذا الحل يحترم الكرامة المشروعة للعراقيين ويحدد بأقصى درجة إتهامات الإنتقام وعدالة المنتصر. حضور الإختصاصيين الأجانب يعطي للمحاكمة شرعية معينة في حالة كون التمثيل الدولي متنوعاً بصورة كافية. يمكننا الإفتراض بأنه على صعيد تنظيم المحاكمة سوف يكون الحضور الأمريكي حاسماً لأن الخبير القانوني الأمريكي الذي تبع القوات المسلحة قد باشر عمله منذ عدة أشهر. ولكن في المقابل لإعطاء المصدقية اللازمة لقرار المحكمة فعليها أن تكون مشكلة من قضاة يتمتعون بالإستقلالية أكثر من تميزها بالكفاءة.

المحكمة الخاصة للعراق لا تملك صلاحية على غير الشخص الجسدي وبالأخص على المواطنين العراقيين والقائمين في العراق (المادة ١ ، أ). بمفهوم القانون فمواطني الدول الأجنبية الذين إشتراكوا في العمليات الحربية أو النشاطات الإرهابية سوف يتم إعتبارهم كـ «قائمين في العراق». هذا التحديد القانوني يستثني من جهة أخرى الأميركيين والأعضاء الآخرين في التحالف. دونالد رامسفيلد على سبيل المثال لمساندته صدام حسين خلال حربه مع إيران. سوف ترفض المحكمة كل محاولة من محاميي الدفاع لإلقاء الجرم على مساندي ومجهزي صدام حسين بسبب عدم اهليتها تجاه هؤلاء الأشخاص.

في هذا الجانب يتشابه النص القانوني لمحكمة نورنبيرغ مع نص المحكمة الخاصة للعراق: لا يمكن محاسبة غير التصرفات التي قام بها الخاسرون في الحرب وتهتم العدالة بالجرائم أقل مما تهتم بالأشخاص الذين إرتكبوها وبهذا المعنى يمكن القول بأن هذه العدالة هي عدالة المنتصرين.

كان من الممكن تجنب هكذا نتائج. قرار مجلس أمن الأمم المتحدة المرقم ٢٢٧ والصادر في ٢٥ أيار ١٩٩٣ الذي خلق «المحكمة الدولية المكلفة بملاحقة الأشخاص الذين يُشك في كونهم مسؤولين عن مخالفات جدية للحقوق الإنسانية الدولية المرتكبة على أرض يوغوسلافيا السابقة منذ عام ١٩٩١»، يتجنب في تمييز المنتصرين عن الخاسرين. القرار ينشيء «محكمة دولية لغرض وحيد ألا وهو محاكمة الأشخاص

الذين يُشك في كونهم مسؤولين عن مخالفات جديّة للحقوق الإنسانية الدولية المرتكبة على أرض يوغوسلافيا السابقة...». تمتلك المحكمة الصلاحية إذاً تجاه كل الجرائم المرتكبة في يوغوسلافيا السابقة مهما كانت جنسية أو مواطنة المشتبه فيه. الصرب والكروات والبوسنيون والسلوفينيون أو أي شخص آخر يمكن أن يلاحقوا لإرتكابهم مخالفة جديّة في مجال الحقوق الإنسانية بمعزل عن إنتمائهم إلى تنظيم أو دولة فغياب تحديد عبارة «أشخاص يُشك في كونهم مسؤولين» يفتح باب الملاحقة ضد ممثلي الأمم المتحدة أو المجلس الأوروبي الذين يُشتبه بمسؤوليتهم في خرق الحقوق الإنسانية الدولية. فالقانون حول المحكمة الخاصة العراقية يسجل إذاً خطوة نحو الوراثة مقارنة مع القرارات المماثلة لمجلس أمن الأمم المتحدة بشأن يوغوسلافيا السابقة ورواندا لأنّ التمييز بين المنتصرين والخاسرين تمّ الإحتفاظ به وأي عضو في التحالف لا يمكن ملاحظته.

... توسّعت صلاحية المحكمة الخاصة العراقية لتشمل الجرائم المرتكبة في إيران والكويت بعد غزو هذين البلدين من قبل العراق.

المحرّض المُشتبه فيه لإرتكاب هذه الجرائم صدام حسين سوف يلاحق بسبع إتهامات:

- ضرب كورد حلبجة بالغاز الكيماوي (١٩٨٨).
 - سحق إنتفاضة الشيعة (١٩٩١).
 - إستخدام المقابر الجماعية.
 - الحرب ضدّ إيران (١٩٨٠-١٩٨٨).
 - غزو الكويت (١٩٩٠).
 - مذبحّة أعضاء العشيرة البارزانية في سنوات الثمانينات.
 - تنفيذ الإعدام بأصحاب الألقاب الرفيعة في المذهب الشيعي ١٩٨٠ و ١٩٩٩ .
- لا يكفي الإثبات بأنّ صدام حسين ارتكب، بوجهة نظر القانون الجنائي الداخلي، الجرائم المُلصّقة به لأنّ القانون الخاص لا يُحوّل المحكمة في الواقع بغير صلاحية محاكمة الجينوسايد وجرائم ضدّ الإنسانية وجرائم الحرب وجرائم أخرى منصوص عليها في القانون العراقي (المادة ١٠).

القانون يعرّف كل واحدة من هذه الجرائم بصورة واضحة فجريمة الجينوسايد ينطبق على المجموعات القومية، الإثنية، العنصرية والدينية وتشمل ليس فقط الجريمة لوحدها وإنّما أيضاً التأمّر، التحريض، المحاولة والمشاركة في ارتكاب الجينوسايد (المادة ١١)، وجريمة ضدّ الإنسانية تشمل سلسلة طويلة من الأفعال (القتل، الإبادة، الترحيل، التعذيب، الإغتصاب ومحرمات أخرى في القانون الدولي) أرتكبت ضمن إطار هجوم ماكر ومنظم، عن سبق اصرار وترصد، ضدّ مواطنين مدنيين (المادة ١٢).

تشكّل الخروقات الجديّة لمعاهدة جنيف لسنة ١٩٤٩ جرائم ضدّ الحرب؛ حيث يُذكر فيها بشكل خاص: القتل العمد، التعذيب والمعاملات غير الإنسانية، تدمير ممتلكات لا تبرّرها الضرورة الحربية، التعمّد في عدم إحترام حق أسير الحرب في محاكمة منصفة وكل إنتهاك آخر للعادات والعرف المطبّقة في النزاعات الدولية المسلّحة (المادة ١٣).

إدانة صدام حسين شخصياً بالجرائم المُلصّقة به إستناداً لنصوص قانون المحكمة الخاصة العراقية يمكن أن تؤدي إلى مفاجآت. يُعتبر المتهم بريئاً (المادة ٢٠ . ب) وله حق التمثيل من قبل محامين يختارهم وبضمنهم أجنب (المادة ٢٠، ٤). لبعض المحامين الذين من المحتمل ان يتم إختيارهم، تجارب كبيرة في هكذا محاكمات لذا يجب على القاضي ان يكون حازماً وحذراً لكي لا تتحوّل المحاكمة إلى مهرجان لصالح المتهم. من المتوقع أن يقوم محامو صدام حسين بإستجواب شهود القضيّة وأن يقدّموا بدورهم شهودهم ومن الممكن أيضاً ان يقدّم صدام حسين للمحكمة كل وسائل الإثبات والدفاع المُعترف بها (المادة ٢٠).

رغم التحديد القاطع لنصوص قانون المحكمة الخاصة بشأن الأشخاص المُتهمين ومواقع ارتكاب الجرائم وتعريفها فيجب الإنتظار بأنّ المحامون سوف يحاولون الإستفادة من علنية المحاكمة بالحد الأقصى. سوف يتم تسليم دلائل غير متوقّعة إلى المحكمة. اشار إيمانويل لودو في كتاب صدر مؤخراً عن وجود تقارير أمريكية مصنّفة تحاول الإثبات بأنّ أهالي حلبجة قد ماتوا بفعل غازات إيرانية.

هل هذه الوثائق موجودة حقاً؟

عند الرد بالإيجاب، هل يقولون الحقيقة أم أنّ الأمر يشكّل جزءاً من حرب دعائية

تغطّي كل قضية صدام حسين؟

هل نحن أمام مسألة شبيهة بقضية الأطفال الكويتيين الذين أخذتهم القوات العراقية من الحضانة عنوة؟

الضحايا الذين عاشوا معاناةً سوف يكتشفون في مجالات محدّدة كيفية اللجوء بمأساتهم ربّما. لن تقلّل الحقيقة من فضاة الجرائم التي وقعت فعلاً ولكن تضعها في أغلب الأحيان في أفق جديد أكثر يأساً.

غريب حقاً أن تكون الولايات المتحدة هي الجهة التي ترغب في فرض الديمقراطية وفي عقد محاكمة عادلة لصدام حسين في الوقت الذي غزت البلد بذرائع وحجج واهية دفعت كوفي عنان، السكرتير العام للأمم المتحدة إلى الإعلان بأنّ هذا الغزو لم يكن مشروعاً. فُرِضَت الحقيقة بالقوة وبذريعة كاذبة أو أقل ما يمكن قوله تبعاً لتأكيدات كانت قابلة للنقاش في حينها واليوم إترفوا بأنّها كانت غير صحيحة.

تقديم هكذا نوع من التبريرات لإستخدام القوة يلغم المسيرة الأمريكية منذ البداية. يجب الحذر من الوقوع في هكذا أكاذيب ومخالفات أثناء محاكمة صدام حسين. مسيرة صدام حسين، وحشيته وجرائمه كانت ربّما تبرّر شرعية تدخل المجتمع الدولي. لم يكن هنالك مبرر على الإطلاق لتمرير الكذب والخداع في مقر الأمم المتحدة نفسه وأمام كل المجتمع الدولي كان بالأحرى على الإمبراطورية المعتدى عليها في ١١ أيلول ٢٠٠١ بشكل إستعراضي أن تتحدّث عن صدماتها أن تقول بوضوح بأنّها كانت تفضّل مهاجمة العدو في بيتها، خارج أراضي الولايات المتحدة.

إستناداً إلى هذا التحليل فالشروط المحلية لتنظيم محاكمة صدام حسين وأعوانه يمكن أن تتنوّع وتخلق تحولات كبيرة بالنسبة لتطوّر وإنهاء المحاكمة.

سوف نقوم إذاً في البداية بتحليل النماذج والمقاييس الدولية لمحاكمات من هذا النوع قبل دراسة العوامل المحلية والمميزات الخاصة بمحاكمة بغداد.

مرّت محاكمات نورنبيرغ كمثال في التاريخ عن عدالة المنتصرين ضدّ المنحدرين ولكن أيضاً كمساهمة كبيرة في تقدّم القانون والقضاء الجنائي الدولي.

لم يتم تبني ميثاق محكمة نورنبيرغ من قبل المنتصرين الأربعة والتوقيع عليها ومن ثمّ من قبل ١٩ دولة أخرى إلا بعد مناقشات طويلة وصعبة. خلال مؤتمر كيوبك في

أيلول عام ١٩٤٢ تقرّر اللجوء إلى عدالة شكلية سريعة: تنفيذ إعدام عاجل بالقادة الرئيسيين للنازية ولكن الرأي العام تطوّر تدريجياً ففي ٨ آب ١٩٤٥ وقّعت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي وفرنسا على إتفاق لندن.

تم تحرير نصوص ميثاق نورنبيرغ بمبادرة من الحلفاء بهدف إنشاء محكمة خاصة لمحاكمة ومعاقبة القادة الكبار للنازية. لم تكن لهذه المحكمة صلاحية النظر إلى كل جرائم الحرب ولكن فقط تلك المرتكبة من قبل قوى الأوكس (ألمانيا وإيطاليا وهنغاريا ورومانيا واليابان).

القضاة الأربعة (ثلاثة منهم فقط كان يقرّر) كانوا من الدول المنتصرة وكل واحد منهم عين رئيساً للإدعاء.

بإختصار، القانون التأسيسي للمحكمة تم تبنيه من قبل الدول المنتصرة وهي التي عينت القضاة والمدّعين. ظهرت عدالة المنتصرين بهذه الصورة ولكن هذه العدالة لم يعد يقبلها المجتمع الدولي وإنّ ادّعى الحلفاء تمثيلهم للإرادة الدولية.

بالمقابل، هذه العدالة رغم مرور الزمن عليها ورغم توجّها المعروف فقد ثبتت بعض المبادئ الأساسية. لم يتم تصفية القادة الكبار للنازية؛ منحهم حقّ المحاكمة فأدين البعض منهم بعقوبات خفيفة أو تم تبرئتهم. قانون الإنتقام أو القصاص العاجل أصبح غير مقبولاً. رغم عدم كمال هذا القضاء فالعدالة السياسية لنورنبيرغ التي وضعت على أكتاف كائنات جسدية (قادة سياسيون وعسكريون كبار) مسؤولة كانت سابقاً على عاتق الدولة. لم تعد إطاعة الأوامر وسيلة للدفاع وحيث تم تحديد المسؤولية الفردية بوضوح. تخلّص الشعب الألماني من المسؤولية الجماعية في الجرائم المرتكبة من قبل النازية بهذه الصورة.

أنشأ مجلس أمن الأمم المتحدة في عام ١٩٩٣ بقراريه ٨٠٨ و ٨٢٧ محكمة جنائية دولية «من أجل محاكمة الأشخاص الذين يُشكّ في كونهم مسؤولين عن مخالفات جديّة للحقوق الإنسانية الدولية المرتكبة على أرض يوغوسلافيا السابقة منذ عام ١٩٩١».

تتكوّن هذه المحكمة من هيئتين: المحكمة البدائية ومحكمة التمييز وتضم في صفوفها ١١ قاضياً يجب أن يمثّلوا بشكل ما الأنظمة القضائية الرئيسية في العالم. على الصعيد الشخصي، «يجب أن يتحلّى القضاة بأخلاقية عالية، بالكمال وعدم التحيز

ويملكوا المؤهلات اللازمة داخل بلدانهم لتعيينهم في أعلى الوظائف القضائية. حين التشكيل الإجمالي للهيئتين تُؤخذ بنظر الاعتبار خبرة القضاة في ميدان القانون الجنائي والقانون الدولي وبشكل خاص في مجال القانون الدولي الإنساني وحقوق الإنسان» (المادة ١٣ من قانون محكمة يوغوسلافيا السابقة).

قبل دخوله في الوظيفة، كل قاضي يعلن بأنه يؤدي واجباته «بكل شرف وتواضع، بعيداً عن التحيز وبكل ضمير» (المادة ١٤ أ، نظام المحكمة في الإجراءات والإثبات). للمحكمة صلاحية «محاكمة أشخاص يُشك في كونهم مسؤولين عن مخالفات جديّة للحقوق الإنسانية الدولية المرتكبة على أرض يوغوسلافيا السابقة منذ عام ١٩٩١».

يتواجد مقر هذه المحكمة في لاهاي، في هولندا مما يقلل من أهمية المسائل الأمنية وخاصة بالنسبة للقضاة وكوادر المحكمة. ومع هذا فقواعد الإجراءات تحتوي على نصوص ل «تأمين حماية الضحايا والشهود» (المادة ٣٤ أ و ٦٩، ٧٥، قواعد إجراء المحكمة). يمكن ملاحظة أهمية هذا الإجراء عندما نتذكر بأنه حين توجيه الاتهامات إلى صدام حسين لم تلتقط الكاميرات التلفزيونية لأسباب أمنية وجه القاضي فتمّة شهود، حسب الصحافة، قد قُتلوا في رواندا.

يحضر المتهم أمام المحكمة بدون تأخير فتخبره الأخيرة بالإتهام رسمياً وعلى المحكمة أن تتأكد «من احترام حق المتهم في طلب الإستشارة» (المادة ٦٢ ب، نظام إجراء المحكمة). يجب أن نتذكر بأن هذا الحق لم يتم إحترامه حين مثول صدام حسين. وأخيراً فأقصى عقوبة يمكن أن يُدان بها المتهم لا تتجاوز الحكم عليه بالسجن مدى الحياة (المادة ١٠، قواعد إجراء المحكمة) مما يستثني عقوبة الموت بالطبع.

تشكيل المحاكم الخاصة لمحاكمة الفصائع المرتكبة خلال بعض النزاعات (يوغوسلافيا السابقة في عام ١٩٩٣ ورواندا في ١٩٩٤) جعل من إنشاء هيئة جنائية دولية دائمة ضرورياً.

في ١٧ تموز ١٩٩٨ تم تبني قانون روما الذي أسس المحكمة الجنائية الدولية ودخل حيز التنفيذ في الأول من تموز عام ٢٠٠٢.

لا يمكن أن يُحاكم صدام حسين من قبل المحكمة الجنائية الدولية لأنها لا تملك الصلاحية إلا بالنسبة للجرائم التي ارتكبت بعد تاريخ ١ تموز ٢٠٠٢ (المواد ١١، ٢٤

، قانون روما) وبالإضافة إلى رغبة العراقيين في محاكمة صدام حسين بأنفسهم فإنّ العراق والولايات المتحدة الأمريكية لم توقعاً على هذا القانون.

القانون حول المحكمة العراقية الخاصة يتعارض في بعض الأوجه الأساسية مع قانون الجناية الدولية لروما الذي لا يستثني أحداً وينظر إلى الكل بصورة متساوية (المادة ٢٧) ويحدد حق المتهم في الإعتماد على محامي وفقاً لخياره (المواد ٥٥، ٦١) وعقوبات السجن لا يمكن أن تتجاوز ٣٠ عاماً أو أبدية «إذا بررت العقوبة فظاعة الجرائم والوضع الشخصي للمدان» (المادة ٢٧). أتاح التاريخ الذي حدّده في ١ تموز ٢٠٠٢ لدخول القانون حيز التنفيذ بتسوية المسائل السياسية والقانونية الصعبة على أساس فني.

أمام عدو غير قابل للرؤية، أليس من السهل إعلان الحرب على صديق قديم يحمل في ذاته كل أنواع الشرور بالإعتماد على دعاية قويّة موجّهة إلى عقول مضطربة بعد صدمة ١١ أيلول ٢٠٠١؟

الدعاية التبريرية التي أُكتُشف بأنها حملة تمويلية غيرت بسرعة إتجاهها ضد مخترعيها فالمحررون أصبحوا محتلين وتحولت الديمقراطية إلى إعتداء، المحررون السعداء تحولوا إلى مقاومين شرسين. الفشل العسكري أصبح حقيقة (الحرب الثانية للخليج لم تدم لأكثر من ٧٢ ساعة) والفشل السياسي، ربما غير المؤكّد لحدّ الآن، لم يتحقّق إلا بفضل القوّة الهائلة للإمبراطورية.

في إطار هذا الجو الثقيل فإنعقاد محاكمة صدام حسين بعد الإنتخابات الوطنية ليوم ٣٠ كانون الثاني ٢٠٠٥ التي توصل الشيعة إلى السلطة على الأرجح يصبح أمراً مفروضاً لا يمكن الجدل فيه سواءً بالنسبة للعراق أو للولايات المتحدة. بالنسبة للأخيرة، يُعتبر تنظيم المحكمة بشكل دقيق حسب المعايير الكبرى للقانون الدولي فرصة أخيرة لها للإثبات بأنّ القيم التي تتبنّاها تحمل معنى كبيراً حتّى وإن لم يساندها أقوى جيش في العالم. ومع كل هذا فلا يمكنهم التدخل بشكل علني لأنه نظراً لماضيهم فحضورهم لوحده يهز القناعة حول شرعية العملية. أفضل ما يمكن أن تقدّمه الولايات المتحدة هو مساندة جهود العراقيين والمجتمع الدولي بلا تردد. نعم فإعداد محاكمة نموذجية، مثيرة للعواطف (ألم الضحايا، إعجاب المهووسين، الغموض في

العداوة تجاه صدام حسين أو تجاه الأمريكان) وللصعوبات حتّى في الظروف العادية يحتاج إلى تأييد غير قابل للمساومة لإجتناّب الوقوع في المهزلة أو تنفيذ الحكم المموّه والمقنّع.

هذه المحاكمة الإستثنائية تشكّل أهميّة حاسمة بالنسبة للعراقيين فأقل ما يمكن أن ينتظروا منها هو تسليط الضوء على سنوات طويلة من الدكتاتورية وتكوين الأسس لدولة ولنظام قضائي مبني على قاعدة الحق والقانون.

المراحل الأولى من تحرير العراق لم تؤديّ إلى النتائج المنتظرة ولذا فإنّ محاكمة صدام حسين تمثّل فرصة أخيرة ليس لتبرير التدخل العسكري وإنّما لوضع مبادئ العدالة المعلّنة أمام أنظار العالم . يشكّل تطوّر النظام القضائي الدولي المُعترف به كحاكم فصل في النزاعات، فائدة لا يمكن الإستغناء عنها سواءً بالنسبة إلى حقوق الأفراد أو إلى وظيفة المؤسسات السياسية الفيدرالية . بهذا المعنى تصبح محاكمة صدام حسين وأعوانه علامة فاصلة بين زمنين.

إنّ كان ضروريا الكشف عن قاعدة قانونية لإنجاح محاكمة مسؤولي النظام السابق فأنّني أشير إلى حق إجراء محاكمة علنية في العراق لأنّ ذلك سوف يعطي أكبر الضمانات لمحاكمة عادلة ومنصفة هذا من جهة ومن الجهة الثانية سوف يضع المسؤولين أمام متطلّبات هائلة وثقيلة. إنعقاد هذه المحاكمة بحضور المواطنين العراقيين وأمام كاميرات تلفزيون العالم بأجمعها يعبر عن القيم التي ينتمي إليها العراق الجديد. الصور وكل الصور بلا تقييد ولا رقابة تتحدّث بنفسها عن نفسها. لن يكون الصحفيون أثناءها «ملحقون» بالوحدات العسكرية فيتحمّلون عن قول بعض الحقائق حول سير العمليات الحربية ؛ حيث يمتلك المواطن العادي والصحافيون نفس المعلومات. سوف يكون التقييد صعباً وواضحاً لكل المشاهدين.

تبدو مسؤولية منظّمي المحاكمة بأنّها لا تُقاس في بلد مقسّم ودمرته الحرب.

كيف يتمكّنوا في هذه الظروف من إحترام كل حقوق المتّهم دون أن يمنحوه منبراً للدفاع عن فترة زمنية ساد فيها النظام؟

كيف يمكنهم الإستجابة الى كل المعايير الدولية حينما لا تكون هذه المقاييس مصانها في أي مجال آخر؟

حينما إقتادوا صدام حسين بعد مرور عدّة أسابيع على حجزه أمام المحكمة لإعلامه بالتهمة الموجهة ضده (المادّة ٢٠ ج. ١)، لم يكن المحامي حاضراً بجانبه رغم طلبه ولأسباب أمنية لم يكشف القاضي عن نفسه. هذه الشروط البادية للعيان تشرح بشكل أفضل من كل الخطب المصاعب الناجمة من تنظيم محاكمة في جو مضطرب كهذا: ينص القانون بأنّه يجب إعلام المتّهم بسرعة وبالتفاصيل بالتهمة الموجهة ضده (المادّة ٢٠ . ت. ١) وبأنّه يجب منح المتّهم ومحاميه المهلة الكافية والوسائل المناسبة لإعداد دفاعه (المادّة ٢٠ . ت. ٢) من خلال مقابلة علنية (المادّة ٢٠ ، ج) يؤدّي مهمتها قاضي يملك كل الصفات لتعيينه في أعلى وظيفة قضائية (المادّة ٥ ، أ).

هذه البداية المترنّحة لمحاكمة صدام حسين يجب أن لا تحجب أهميّة الحدث للعراقيين ويلهّيهم. يجب أن تقدّم هذه المحاكمة إلى كل عناصر المجتمع العراقي الفرصة لإكتشاف الحقيقة عن بعض الحقبات المأساوية لحكم صدام حسين. يجب أيضاً على عملية الحقيقة هذه، المفروضة من قبل ضحايا المعاملات السيئة وآباء القتلى والمفقودين، توعية قطاعات واسعة من المواطنين حول الجرائم المُرتكبة بإسمهم أو لمصالحهم المُفترضة حيث من خلال الإعراف بالحقيقة وليس غيرها يمكن إعادة بناء المجتمع العراقي على أسس جديدة.(...)

إذا كان عقد الإنتخابات في كل خمس سنوات يشكّل مطلباً أدنى لممارسة الديمقراطية فالإنتخابات الحرّة الجارية لفترات منتظمة وتناوب القوى السياسية على السلطة تسجّل تقدماً جوهرياً للإنسانية: يقبل الحاكم بالتنازل عن السلطة وفقاً للإرادة الشعبية لأنّه لا يخشى معاملة سيئة ولا بالتأكيد إعداماً عاجلاً . هذا التطوّر السياسي المبني على التسامح يفتح بنفسه باب ممارسة السلطة القضائية لعملها وفقاً للقانون والعدالة بدلاً عن بقائها تحت أوامر السلطة.

يمكن للبلد، الذي يعتنق معظم أفراداه الإسلام الذي يُقال بأنّه يؤكّد على المساواة والحرية ويحمي الحرمة الجسدية، تجسيد هذه القيم في الديمقراطية والإستقلال القضائي. بالتأكيد، سوف يكشف ميكانيزم المباشرة في ممارسة الديمقراطية خلفية ثقافية خاصّة ولكن الخيارات الأساسية سوف تسمح بحصول تغييرات باتجاه تعميق الحريات الأساسية، إرث الإنسانية.

يبقى الوقت، مع ذلك عاملاً لا يمكن التغاضي عنه. حينما يكون تأكيد القيم الجوهرية ثمرة لعملية إستمرت لأكثر من ثلاثة قرون فلا يمكنها الزوال بليلة وضحاها ...

مثلاً كتب روبرت بادنتر فمحاكمة صدام حسين تمثل مرحلة مهمة في هذا التطور: «مسألة محاكمة صدام حسين ومساعدته تشكل لعبة أساسية بالنسبة لمستقبل العراق.» نجاح هذه المحاكمة يسمح بإلقاء الضوء للشعب العراقي ومن ثم لمجموع العالم العربي حول الممارسات الإجرامية للنظام العراقي السابق. عرض الوقائع في إطار إجراءات التناقض تبرز الحقيقة بشكل أوضح وأدق.

نجاح المحاكمة وفي جو صعب يعني بشكل خاص رفض فكرة الثأر والانتقام والقبول بتبني دولة القانون.

وإذا نُقضت ميزة العدالة والإنصاف في محاكمة صدام حسين وأعوانه فسوف يتم إعتبار المتهمين كرمز لإذلال العراق المحتل والمدمر من قبل القوى الأجنبية. وعلى هذا المنوال سيكون عقد هذه المحاكمة، التي يجب أن تسجل بداية عصر جديد مبني على الديمقراطية والعدالة، قد حُرّف عن مسارها وهدفها ويعرّز في عيون البعض القناعة بعدم حصول أي تغيير جوهري في هذا البلد.

المثالية المفروضة على هكذا حدث مهم يتمكّن العراقيون من متابعتها في بيوتهم وبشكل مباشر بواسطة التلفزيون يجب أن تكون لينة أو نواة للمصالحة الوطنية.

سوف يدرك البعض نوعية القادة الذين ساندتهم ويحملون صورة عن الآلام التي تحملها مواطنوهم ويكتشف آخرون من خلال ما يتم عرضه في قاعة المحكمة سرّ التعذيبات غير المُعترف بها التي لم تنتهي لحدّ الآن في إقلاق الأحياء الذين تحملوا قسوتها. وإذا وجدت نوعاً من الفخر والإعتزاز المؤلم لدى كل من خرج حياً من هذا التعذيب فعلى الجلّادين وعلى كل من ساندتهم تحمل فضاعة وخيالية أنواع الجرائم المُبرّزة للعالم.

هذا التفيس، من خلال عرض المتناقضات من الوقائع، يقود إلى حكم وفرض عقوبات وعلى القضاة المعنيين بإتخاذ القرار أن يتميّزوا بالحيادية والإستقلالية.

ينبغي عليهم في كل يوم من أيام هذه المحاكمة الطويلة تجنّب الإنزلاق والحفاظ على كرامة المحكمة في كلّ الأحوال والظروف.

كما يقول المثل: لا يمكن الإكتفاء بإصدار الحكم وإنما ينبغي السعي لإبراز العدالة. يجب إقناع المواطنين العراقيين بأكملهم من خلال مجريات المحاكمة العلنية بضرورة وضع حد للممارسات القديمة ومعاقبتها.

قانون المحكمة العراقية الخاصة ينص بأن يكون قضاة المحكمة البدائية والتمييز «أشخاص ذوي مستويات أخلاقية عالية، يتميّزون بالحيادية والإستقامة ويملكون صفات ضرورية تؤهلهم للتوظيف في أعلى المستويات القضائية» (المادة ٥، أ). نظراً لندرة القضاة الذين يجيبون على هذه الشروط فبالإمكان تعيين محامين ذوي تجربة وكفاءة مماثلة في المحكمة البدائية (المادة ٥، ب). تسمية أشخاص يحملون هكذا مواصفات لن تكون سهلة أبداً بعد قضاء ثلاثين سنة من دكتاتورية كانت تُشخص هوية معاونيها ومعارضها سواءً في الداخل أو في الخارج. على أي حال، فنوعية الشخص زائداً إجتماع الإختلاف القومي والديني في أصوله يمكن أن يضمن لكل هيئة مشكلة من خمس قضاة للمحكمة البدائية أعلى مستويات المصادقية. وفي حالة الشك، «إذا بدا ذلك ضرورياً»، يمكن إختيار قضاة غير عراقيين (المادة ٤، ث). هكذا خيار، دون المس بمصادقية القضاة العراقيين، يمكن أن يعطي المحكمة تجربة في هكذا نوع من المحاكمات وضمناً دولياً يزيد من شرعية الحكم. بالطبع، لا يمكن أن يكون هؤلاء القضاة الأجانب، نظراً للمحتوى، أميركان أو انكليز. العالم العربي يضم في صفوفه عدداً كافياً من القانونيين الممتازين، قضاة ومحامين لماء بعض الوظائف؛ والباقي منها يمكن عرضها على قضاة البلدان الأخرى الذين قد عملوا في المحاكم العالمية سابقاً.

ورئيس المحكمة يمكنه أيضاً الإعتماد، بصفة مستشار أو مراقب، على أجنب إكتسبوا كفاءة مُعترف بها في القانون الدولي وتجربة لدى المحاكم الشبيهة. يترتب دورهم بالتأكيد على إحترام قواعد ومعايير القانون الدولي (المادة ٦، ب و ت). يجب أن تنطبق على هؤلاء المستشارين المعايير المطبّقة على القضاة، يعني أرفع مستويات الكفاءة في شخصهم ويشتترط بأن لا تكون دولهم قد دخلت في مجابهات عسكرية مباشرة مع هذه الدولة.

الفترة الوظيفية للقضاة محدّدة بخمس سنوات (المادة ٥، ج). هذه المدّة لا تمثل صعوبات بالنسبة للقضاة الأجانب الذين يتركون البلد في نهاية وظيفتهم ولذا فانهم لن

يعودوا خاضعين لضغط أو لأي شكل من المخاطر على حياتهم. وأما بخصوص القضاة العراقيين فهذا التفويض المحدد يشكل خطراً على حياته.

ماذا يصبح المستقبل الوظيفي لهؤلاء القضاة بعد خمس سنوات؟

الإندماج في السلك القضائي العراقي، العودة إلى ممارسة القانون أو النبذ؟

عند إنتهاء مهلة التفويض هل يستمرّون في التمتع بالحماية الممنوحة لهم نظراً «لإزدياد المخاطر الخاصة بوظيفة» قاضي صدام حسين (المادة ٥، ج)؟

رغم كل الإحتياطات، رغم حيادية المحاكمة وعدالة القرار فمن السهولة تصوّر الأسوأ بالنسبة لكل قاضي ولأفراد عائلته. من المفضل إذاً أن يقرّر القانون إندماجاً ألياً في نهاية التفويض للقضاة العراقيين في السلك القضائي والإحتفاظ بحمايتهم. وعلى نفس المنوال يجب على المحكمة تأمين حماية الضحايا والشهود وخاصة بعدم الكشف عن هويّتهم (المادة ٢٢). بالتأكيد، من غير المحبذ إدانة صدام حسين على أساس شهادات مجهولة ولكن مهما كانت قوّة الحماية المقرّرة فإنّ الأحقاد العميقة يمكن أن تخدمها.

وبعد ذلك من بين كل المبادئ الأساسية التي يجب توفرها في قلب محاكمة صدام حسين، الأكثر جدالاً، عدا مبدأ حيادية وإستقلالية القضاة فسوف يبقى مبدأ العقوبة، وبالأخص الإعدام. الحق الإنساني العالمي والتشريع في العديد من البلدان حرّم عقوبة الإعدام ولكن القانون العراقي يعترف بها. تم تعليقها من قبل السلطات المؤقتة (في الوقت الذي يتقاتل العسكريون والمدنيون فيما بينهم) قبل أن تعيدها الحكومة الحالية.

ينص قانون المحكمة الجنائية العراقية بأنّ الحكم سوف يكون مفروضاً وفقاً للقانون العراقي (المواد ٢٣ و ٢٤). يجب، طبعاً، عدم الإستغراب من هذا التحديد لأنّ القرار الذي ينبغي إتخاذه يستند على قانون المحكمة العراقية الخاصة (٢٠٠٣) وعلى قوانين الجرائم لبغداد في عام ١٩١٩ وتعديلاتها وقوانين الجرائم العراقية (١٩٦٩) بتجريدها من التعديلات والإضافات وعلى قوانين الإجراءات الجنائية العراقية (المادة ١٧). ثمّة تعارض واضح وصريح بين القانون العراقي والقانون الإنساني العالمي ومع هذا فهناك جملة قصيرة في القانون يبدو بأنّها تفتح مجالاً للتصالح والتوافق في وجهات النظر:

«عدا أنّه، لأغراض هذه المحكمة، الحكم بالسجن لدى الحياة يعني نسبةً إلى الباقي من الحياة الطبيعية» (المادة ٢٤).

هل تقصد هذه الجملة منع الحكومات المستقبلية فقط من إمكانية تخفيض العقوبة حتى إذا كان لدوافع إصلاحية أو صحيّة أو سلوكية جيّدة؟

لكن يمكن القراءة فيه أيضاً قبولاً ضمناً بإلغاء عقوبة الإعدام من خلال التنفيذ الكلي لعقوبة السجن لدى الحياة.

أن يرغب العراقيون في تطبيق قوانينهم وبضمنها عقوبة الإعدام على أكبر مجرم، دون أدنى شك، لبلدهم فذلك يمكن استيعابه. لماذا يستثنى صدام حسين من قاعدة تم تطبيقها على قاتل لفرد واحد؟ هذه هي إحدى مفارقات التطور السريع للتاريخ حيث يتداخل فيه القديم والجديد. يجب على الذين تمنّوا تدخلاً في العراق لكي يتم وضع حدّ للهجمات ضدّ حياة وحرمة الأشخاص أن يحرموا على أنفسهم تطبيق ذات المبدأ على صدام حسين نفسه. فقانون الإنتقام لم يعد مقبولاً وإن كان ألفاً مقابل واحد.

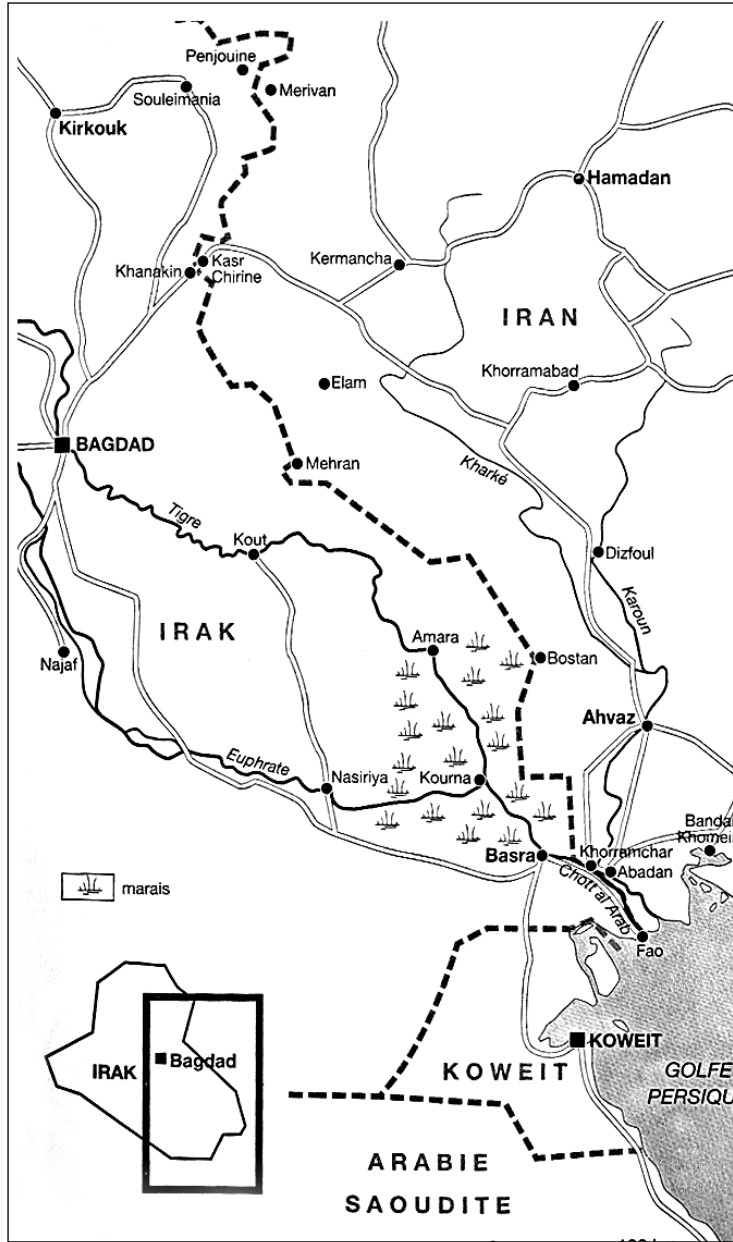
لن يخرج العراق إلاّ عظيماً حينما يريد الإحتفاظ بحياة رجل ضحّى وبشكل همجي بأرواح مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ولكن يجب الإعتراف بأنّ المسألة لا تتعلّق فقط بعقوبة الإعدام وإنّما أيضاً بخوف العراقيين من هروب المتّهم ومباشرته في قيادة حرب أهلية حقيقية. إذا كان تحاشي إعدام المتّهم صعباً بسبب الجروح العميقة للضحايا وإستمرار آلام أولياء أمور الأحياء الذين كابدوا وذاقوا المرّ بأيدي الجلاّد فهل يمكن التفكير بإستبدال عقوبته إلى السجن لدى الحياة؟ ولكن بما أنّ فرضية الهروب لازالت ممكنة بسبب عدم قدرة أو ضعف أداء قوآت الشرطة لمهامها لحدّ الآن فمن المفضل إيداعه في سجن دولي (ولماذا لا، في لاهاي / هولندا، مثلاً) تحت رقابة الأمم المتحدة.

أنّ حلّ كهذا سوف يوفّق بين المواقف المختلفة أي أنّ القانون العراقي والقانون الدولي الإنساني يتصالحان وفي ذات الوقت يسايران التطور الإجتماعي - الثقافي لشعوب العالم المختلفة. إذا سلمنا بأنّ الديمقراطية لا ينبغي أن تُفرض بالقوّة فالأمر هذا ينطبق أيضاً على مبادئ القانون الجنائي التي لم تحصل لحدّ اليوم على إتفاق بالإجماع. أن إستبدال عقوبة الموت التي نُطقت ضدّ المارشال بيتان (Petain) بالسجن المؤبّد يمكن إعتباره مرجعاً وسبقاً قانونياً بالإمكان تقليده ليكون ذلك ثمناً لتصالح الشرائع العراقية فيما بينها.

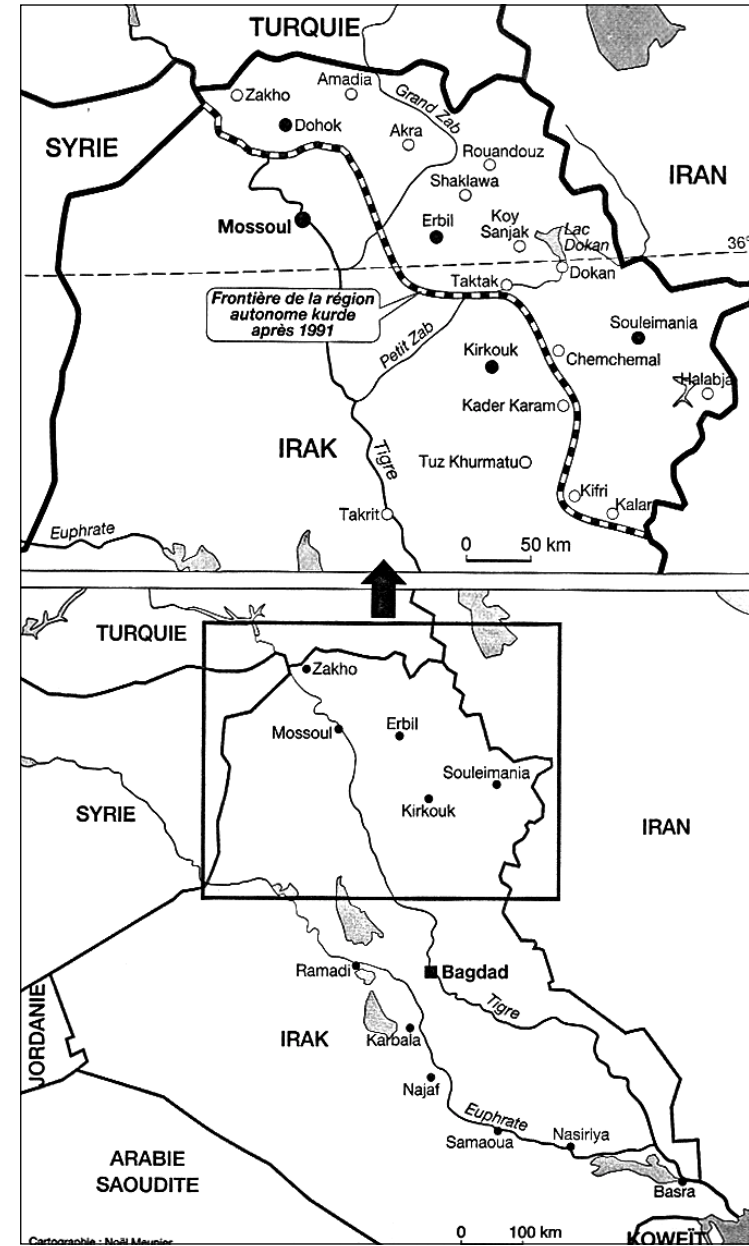
دون أدنى شك، قانون المحكمة العراقية الخاصة ليس مثالياً ولكن كأي تشريع فهو

إنعكاس للتساوم والتوافق بين رغبة العراقيين في إلقاء الضوء على ماضيهم الحديث بأنفسهم وإرادة الأميركيين بإزالة شخص إعتبروه عدواً عنيداً وجزّاراً لشعبه من الحياة السياسية وأخيراً يجيب على أمنية الأمم المتحدة في إنتصار المبادئ الأساسية للقانون والحفاظ على السلام والأمن. إذا إستدعى الأمر، يمكن تعديل نصوص أي قانون في أي وقت كان ولكن يجب أن لا يغيب أبداً عن البال بأنّ العدالة، في النهاية، ليست أعظم من الرجال والنساء الذين يخدمونها. سوف يكون إختيار القضاة حاسماً إذاً لإنجاح محاكمة صدام حسين والنجاح هذا يتواجد في شفافية المحاكمة ومساواة التعامل مع كل المتهمين وفي إحترام حقوق الدفاع أكثر ممّا في القرار النهائي للقضاة. السلطات العراقية وقوات التحالف مطالبة بهذا النجاح للشعب العراقي وإذا إنتهت هذه المحاكمة وكانت العدالة مهزلة فسوف يكون غزو العراق وعزل صدام حسين فشلاً مأساوياً من البداية إلى النهاية.

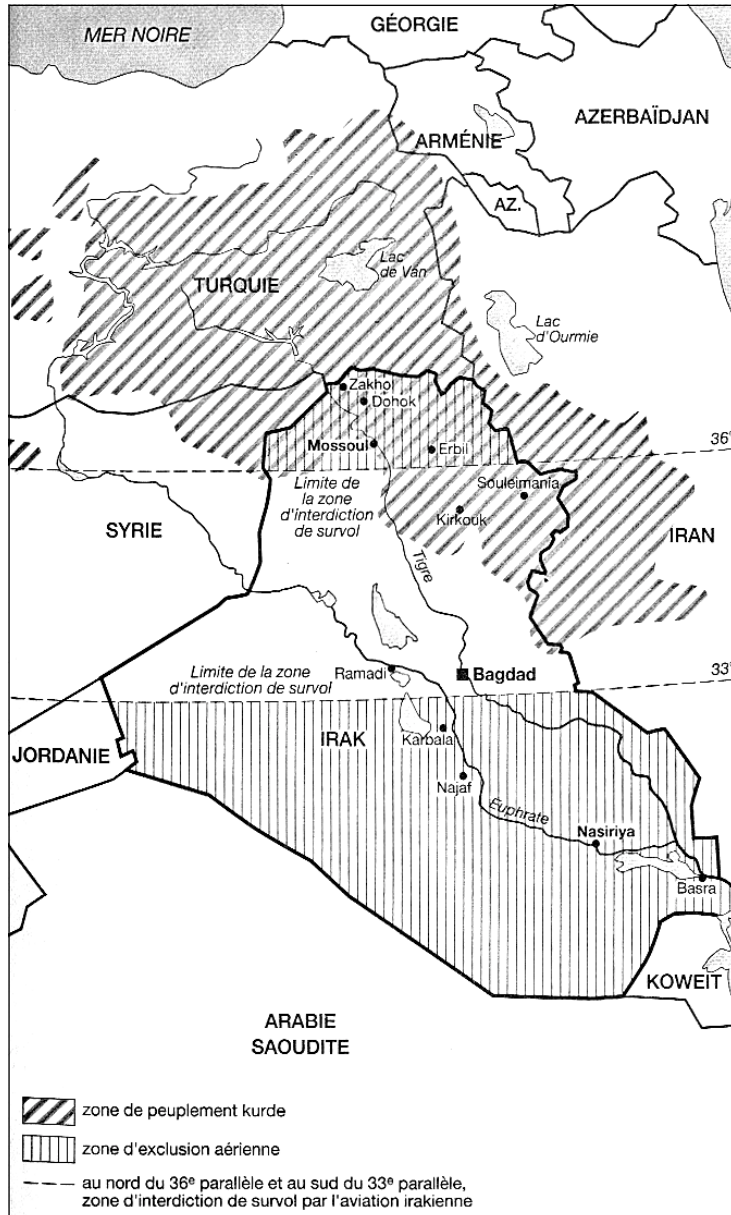
بعد كل هذه السنوات من المعاناة والألم بكل صورها يجب أن تمثل هذه المحاكمة مرحلة أولى في إعادة بناء المجتمع العراقي داخل دولة قائمة على القانون للعراقيين وتعمل في خدمتهم.



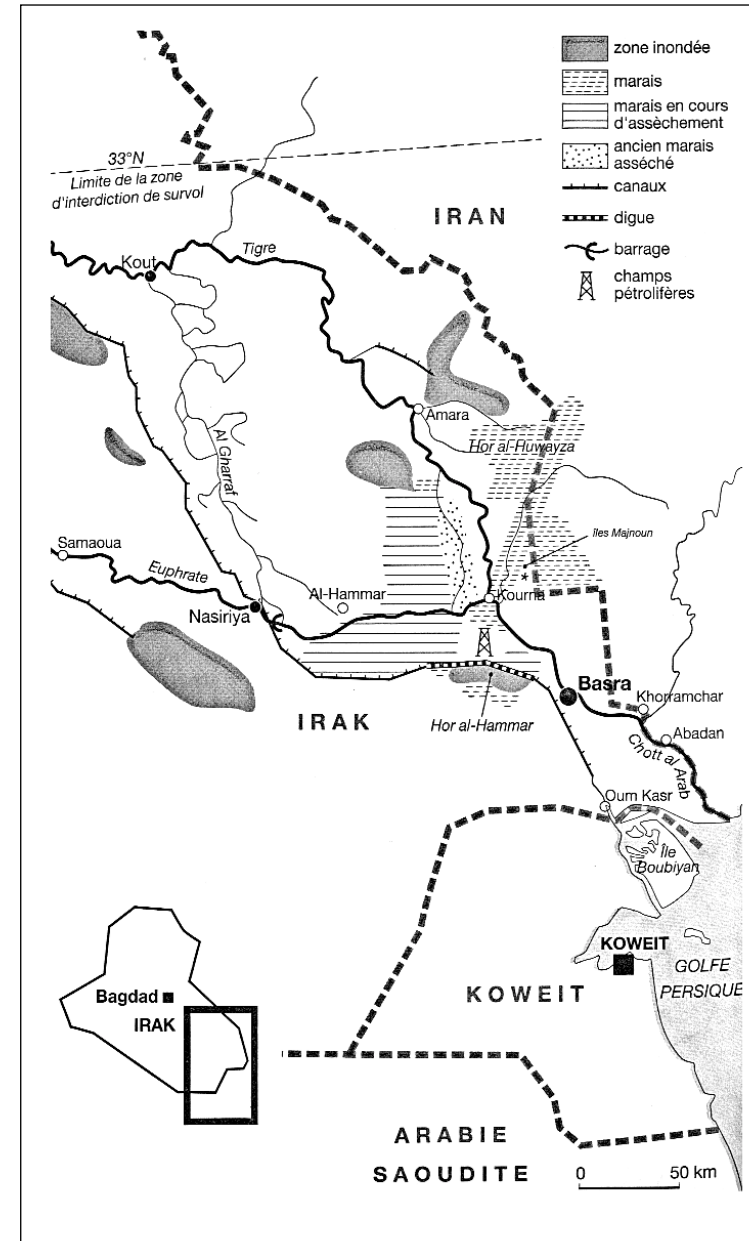
الحدود بين ايران والعراق



المنطقة "المستقلة" في كردستان



المناطق التي يسكنها الكورد



اهوار جنوب العراق

